ذكر[1] ملك الملك الصالح

إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن [عماد الدين][2]
زنكى بن آق سنقر

ولما توفى نور الدين — رحمه الله — اتفق الأمراء على ملك[3] ولده الملك الصالح إسماعيل — وهو صغير السن ولم يبلغ الحلم — فأخرجوه بعد وفاة أبيه مجزوز الذوائب[4] مشقوق الجيب حاسرا[5] حافيا، وهو يبدى الحزن والعويل، فأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدَّسْت[6]، والتخت[7] الباقى من عهد تاج الدولة تُتُش السلجوقى [بالقلعة التى بدمشق][2]

ووقف الناس يبكون ويتلهفون، فلما كُفِّن نور الدين — رحمه الله — ودُفِن قوّضوا الجزع وكفكفوا الدمع، وأحضروا المصحف[8]، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، والأمير شمس الدين محمد بن المقدم، والطواشى

---

(1) يتقابل النص هنا مع نسخة س فى منتصف (ص ٥٧ ا) .

(2) ما بين الحاصرتين عن س .

(3) س : " تملك " .

(4) الأصل : " الشوايب " والتصحيح عن (س) ، والعماد الأصفهانى — وهو الأصل المنقول عنه — انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(5) مكان هذا اللفظ فى س : " مكشوف الرأس " .

(6) الدست معرب دشت الفارسية ومعناها الصحراء ، وللفظ معان كثيرة أخرى منها : صدر البيت ، وهو المقصود هنا فى المتن ، وللالمام بالمعانى الأخرى انظر : (الشهاب الخفاجى : شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، ص ٩٧ — ٩٨) و (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*)

(7) التخت هو سرير الملك أو العرش .

(8) س (ص ٥٧ ب) : " الأصحاب " ، وعند العماد : " الربعة " .

جمال الدين ريحان — وهو من[1] أكبر الخدم — ، والعدل شهاب الدين أبو صالح ابن العجمى أمين[2] الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ؛ وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة وأنهم لا يختلفون ، وأن تقدمة العسكر للأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك [بن][3] المقدم ، وإليه المرجع فى الأمور كلها .

وحلفوا للملك الصالح [إسماعيل][3] ، واستحلفوا له الناس ، وكاتبوا ولاة الأطراف بالحلف له[4] ، وإقامة الخطبة باسمه ، واستتبت الأمور واستقرت له القواعد.

ثم تقدموا بإنشاء كتاب[5] إلى الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — فى التعزية بنور الدين ، وكان المنشىء له عماد الدين الكاتب ، والترجمة بخط الملك الصالح ما صورته : " إسماعيل بن محمود " ؛ وأوله :

" أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظّم أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل ، ندب[6] الشامُ بل الإسلامُ حافظَ ثغوره ، وملاحظَ أموره ، [١٦٨] وعدم الجهادُ مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحى سنته ، وأورثنا بالاستحقاق ملكَه وسريرَه ، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره ، وما ها هنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج — خذلهم الله — ؛ وما كان

---

(١) النص عند العماد — وهو الأصل المنقول عنه — : "وهو أكبر الخدم" ؛ (الروضتين ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(٢) س "أمير" ، وما هنا يتفق ونص العماد .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) س : "للأيمان" .

(٥) علم صلاح الدين بخبر موت نور الدين قبل أن يصله هذا الخطاب من ابنه ، فأرسل فى الحال خطابا بإنشاء القاضى الفاضل يسأل عن صحة الخبر ، ويصدر تعليماته إذا كان صحيحا ، انظر نص هذا الخطاب فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(٦) س : "بدن" وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل[١] والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النوائب ، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب ؛ وأمّله ليومه ولغده[٢] ، ورجاه لنفسه ولولده[٢] ، ومكّنه قوة لعضده ؛ فما فُقد — رحمه الله — إلا صورة ، والأصل[٣] باق ، والله تعالى حافظ لبيته[٤] واقٍ ، وهل غيره — دام سموه — من مؤازر ؟ وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر ؟ وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح ، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنى فى إحياء ذكر الوالد هناك ، بتجديد ذكرنا ، راغبا فى اغتنام ثنائنا وشكرنا "[٥] .

وكان القاضى كمال الدين الشهرزورى قد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم — وهو القيم[٦] بتربية الصالح وأتابكيته — ، وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى صلاح الدين والرجوع إلى ما يشير به ، وقال لهم :

" قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر ، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن يُشاور فى الذى نفعله ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا [ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر][٧] فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا أن صلاح الدين يدخل البلاد ويخرجهم .

---

(١) س : " الطائل " ، والأصل : " الجلل الحادث " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(٢) الأصل : " وغده " و " وولده " ، والتصحيح عن العماد .

(٣) نص العماد : " والمعنى " .

(٤) الأصل : " لبنيه " وس " لنفسه " وما هنا عن العماد (الروضتين ج ، ١ ، ص ٢٢٠) .

(٥) بعد هذا اللفظ فى س : " فى إحياء ذكرنا " .

(٦) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٥٨ ا) ويتفق مع نص ابن الأثير ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

ذكر جواب الرسالة

الواردة إلى صلاح الدين من الملك الصالح

ولما وردت الرسالة المتضمنة التعزية إلى صلاح الدين جاس [لعزاء نور الدين ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث][1] أمر فأقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وضربت السكة باسمه ، وورد منه كتاب إلى الملك الصالح بالمثال الفاضلى أوله :

[١٦٩] " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة[2] " .

وفى آخره :

" فصل : أصدر هذه المكاتبة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصُرح فيه بذكره فى الموقف العظيم ، والجمع الذى لا لغوٌ فيه ولا تأثيم ، وأشبه يومُ الخادم أمسَه فى الخدمة ، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالما بأن الجماعة رحمة .

والله تعالى يخلّد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل الإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، وييسر منال[3] كل أمل صالح وتقريب بعيده ، إن شاء الله تعالى " .

(١) فى الأصل : " جلس لعزائه وأمر فأقيمت ... إلخ " وما هنا صيغة س .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١) سطورا أخرى من هذه الرسالة رأينا من المفيد إثباتها هنا ، وهى : " وأما العدو — خذله الله — فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره ، وسيل لقراره ، إلى أن يزعجه من مجاثمه ، ويستوقفه عن مواقف مغانمه ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه ، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ...إلخ) .

(٣) س : " وينشر مثال "، والأصل : " مآل "، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣١) .

ذكر استيلاء

سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى على البلاد الجزيرية[1]

كنا ذكرنا أن نورالدين — رحمه الله — قبل وفاته كان قد أرسل إلى الموصل والبلاد الشرقية والجزرية وغيرها يستدعى العساكر لأجل الغزاة ، وأن مراده كان قصد الديار المصرية ، وأن الأقدار عاقته عن بلوغ غرضه ، فسار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى فى عساكر الموصل قاصدا خدمة عمه نور الدين ، وعلى مقدمته سعد الدين كُمُشْتِكين ، وهو الذى كان نور الدين جعله نائبا بقلعة الموصل مع سيف الدين — كما تقدم ذكره — ؛ فلما كانوا ببعض الطريق وصلتهم الأخبار بوفاة نور الدين — رحمه الله — فهرب سعد الدين لأنه كان فى المقدمة ، وأخذ سيف الدين كلما له من بَرْك[2] وغيره ، وعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى الخابور فملكه وأقطعه ، ثم سار إلى حرّان فحصرها عدة أيام ، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرّانى ، فامتنع بها ، [وأطال الامتناع][3] ، ثم أطاع [بعد ذلك][3] على أن تكون حرّان له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه ، وأخذ حرّان منه .

ثم سار إلى الرُّها فحصرها وملكها ، وكان بها خادم خصى [أسود][3] لنور الدين ، فسلمها[4] ، وأخذ عوضا عنها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر ،

(١) س : " على الجزيرة " .

(٢) البرك المتاع الخاص من ثياب وقماش . أنظر : (Dozy : *Supp. Dict. Arab*)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٥٩ ا) و يتفق مع نص (ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) وهو الأصل الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٤) الأصل : " قصدها " ، والتصحيح عن ابن الأثير .

فأعطيها ، ثم أخذت منه ، ثم بعث [سيف الدين][1] إلى الرّقة من تسلمها ، وكذلك سَرُوج ، [١٧٠] وكذلك جميع البلاد الجزيرية ، سوى قلعة جَعْبَر ، فإنها كانت منيعة ، وسوى رأس العين ، فإنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين — وهو ابن خال سيف الدين — ، فلم يتعرض لها .

وكان بحلب الأمير شمس الدين على بن الداية — وهو[2] من أكبر الأمراء النورية — فى عساكر حلب ، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به ، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح ليكون بحلب ، فامتنع شمس الدين بن المقدّم وجماعة الأمراء من إرساله ، خوفا أن يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، وإنما قصد [ابن الداية][1] من مجىء الملك الصالح إلى حلب ليمنع به البلاد الجزيرية من ابن عمه سيف الدين بن قطب الدين مودود .

ولما ملك سيف الدين البلاد الجزيرية قال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نور الدين ، وهو الذى أقرّ له الملك بعد أبيه قطب الدين كما تقدم ذكره ، فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض الأمراء — ، فقال له :

” الرأى أن تعبر إلى الشام فليس به مانع “ .

فقال له محمود — المعروف بزلقندار —[3]

” قد ملكت أكثر ما كان لأبيك ، والمصلحة أن تعود “ .

فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

(٢) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٣) : ”وهو أكبر“ .

(٣) س (٥٩ ب) : ”بركفندار“ . وهكذا رسم الاسم فى الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير)

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ما فعل سيف الدين كتب إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزورى والأمراء يقول :

" لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى[1] هى أعظم ممالكه وولاياته[2] ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى [إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل][3] كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذبّ عن بلاده ".

ذكر منازلة الفرنج بانياس وعودهم عنها

[١٧١] ولما علم الفرنج وفاة نور الدين — رحمه الله — اجتمعوا وساروا إلى قلعة بانياس وحصروها ، فجمع الأمير شمس الدين بن المقدّم العساكر عنده بدمشق ، وخرج منها وراسلهم ولاطفهم ، ثم أغلظ لهم فى القول ، وقال :

" إن أنتم صالحتمونا ، وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليه ؛ وإن أبيتم ذلك ، أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل ، وصلاح الدين صاحب مصر ، ونستنجدهم ، ونطلب بلادكم من جهاتها كلها ، فلا تقومون لنا ، وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع " .

فعلموا صدقهم ، وصالحوهم على شئ من المال أخذوه ، وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين ، وتقررت الهدنة بينهم .

(١) س : " الذى " .

(٢) س : " أعظم مملكته " .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن النص فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣١) .

ذكر إنكار

صلاح الدين على الأمراء بدمشق وهدنتهم للفرنج[1]

ولما سمع صلاح الدين — رحمه الله — أمر الهدنة أنكرها واستعظمها ، فكتب إلى الأمراء بدمشق يقبّح عليهم ما فعلوه ، ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم ، وإزعاجهم عن قصد شئ من بلاد الملك الصالح .

وكان مراده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ، ليتملك البلاد ؛ والأمراء [الشاميون][2] إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل .

ذكر وصول

سعد الدين كمشتكين ، واستبداده بتدبير الملك الصالح

كنا ذكرنا هرب الأمير سعد الدين كُمُشْتِكين الخادم النائب بقلعة الموصل لما بلغته وفاة نور الدين ، فوصل إلى حلب ، واجتمع بالأمير شمس الدين [على] بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم أن يسير إلى دمشق ويُحضر الملك الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، فأخرج إليه شمس الدين بن المقدّم عسكرا فنهبوه[3] ، فعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية [عوض] ما أُخذ منه ، ثم جهّزه وسيّره [بعسكر][4] إلى دمشق [ومعه كتب إلى الأمراء][4] ، فدخلها واجتمع [بالأمراء و][4] بخدمة الملك الصالح .

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وإنما مكانه : " قال صاحب الكتاب " .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٣) .

(٣) س (٦٠ ا) : "فنهبه" والأصل "لينهبه" وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٦) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

وذكر عماد الدين الكاتب أن مفارقة سعد الدين لسيف الدين كانت برضى سيف الدين ، وأنه استأذنه فى الوصول إلى الشام ، فأذن له فيه ، ولم يكن إذ ذاك علم سيف الدين بوفاة عمه ، وإنما علم سيف الدين مرضه وكتمه ، [١٧٢] فلما فارق بسعدُ الدين سيفَ الدين ، وسار مرحلتين ، بلغته وفاة عمه نور الدين ، فاعتمد السير مجدا ، ونجا بماله ، وندم سيف الدين على الرضا برحيله وسفره ، وفرح بوفاة عمه نور الدين ، وأظهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات[١] .

ذكر مسير الملك الصالح إلى حلب[٢]

ولما[٣] أشار سعد الدين على الأمراء بوصول الملك الصالح إلى حلب أجابوه إلى ذلك ، وكان شمس الدين بن الداية — كما ذكرنا — بحلب ، وله شيزر إقطاعا من نور الدين ، وعنده أخوه سابق الدين عثمان ، وإقطاعه تل باشر وقلعة جعبر ؛ وبدر الدين حسن ، وإقطاعه عين تاب وعَزاز وغيرهما ؛ وهؤلاء [أولاد الداية][٤] كانوا أكبر أمراء نور الدين ؛ وكان أخوهم مجد الدين أبو بكر رضيع نور الدين ، وربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام ، وكان محكَّما فى أيامه ، وتوفى أيام نور الدين — كما ذكرنا — .

وكان هؤلاء — لقربهم من نور الدين وعلو منزلتهم على غيرهم — لايشكُّون أنهم هم الذين يقومون بتربية الملك الصالح ، ويكون أمره إليهم ، فكاتب

(١) س : " بالشرب والمنكرات " .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد أضيف إلى العنوان فى س عنوان آخر هو : " والقبض على أولاد الداية " ، وسيرد هذا العنوان هنا منفصلا بعد قليل .

(٣) س : " ولما اجتمع سعد الدين بالأمراء الذين بدمشق أشار عليهم بمسير الملك الصالح إلى حلب — إلخ " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

شمس الدين جماعة الأمراء [بدمشق][١] بأن يصل الملك الصالح إلى حلب ، فامتنعوا أولا ، ثم وصل سعد الدين إلى دمشق — كما ذكرنا — ، وأنفذ[٢] شمس الدين أخاه سابق الدين عثمان فى المعنى ، واتفق الحال على توجيه الملك الصالح إلى حلب ، فسار إليها ، ومعه سعد الدين ، والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمى ، وإسماعيل الخازن .

ذكر القبض على أولاد الداية

ولما وصلوا إلى حلب قبض على الأمير شمس الدين وأخوته واعتقلوهم ، وثار أبو الفضل بن الخشاب — مقدم الشيعة[٣] [بحلب] —[٤] ، فقبضوا عليه وضربوا عنقه ، واستبد سعد الدين بالأمور ، وقام بأتابكية الملك الصالح ، وأقام الأمير شمس الدين محمد بن المقدم بدمشق ، وإليه تقدمة العساكر بها ؛ وجمال الدين ريحان بالقلعة ؛ والشِّحَن[٥] من قبله ؛ ومدبر الدولة القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى .

وكان مسير الملك الصالح من دمشق [إلى حلب][٤] لسبع بقين من ذى الحجة [١٧٣] من هذه السنة — أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة — .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) فى الأصل : " وتقل " ، وفى س : " نفد " وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) الأصل : " مقدم الأحداث " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٣) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٦٠ ب) .

(٥) الأصل : " والسجن " وفى س : " والسجن " بدون نقط — والتصحيح عن نص العماد بالروضتين .

ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين مسير الملك الصالح إلى حلب ، واستبداد سعد الدين بتدبير أموره ، وقبضه على أولاد الداية ، عظم ذلك عليه وأنكره ، وجعله من أكبر الحجج على قصد الشام ، وأظهر أنه يريد بذلك تربية الملك الصالح والقيام بأموره ، فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وراسل سعدُ الدين سيفَ الدين وصالحه على ما أخذه من البلاد الجزيرية ، فحينئذ استشعر شمس الدين بن المقدم ومن معه من الأمراء ، وكاتبوا الملك الناصر صلاح الدين واستدعوه ليملكوه البلاد .

ذكر منازلة الفرنج للاسكندرية وعودهم عنها

وفى يوم الأحد لأربع بقين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة وصل أسطول[1] الفرنج بصقلية ، وذلك قبل الظهر من يوم الأحد المذكور ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وذكر[2] أن السبب فى إرسال هذا الأسطول

(١) أسطول — وقد يرسم فى المراجع العربية : اصطول أو صطول ، والجمع أساطيل ؛ كلمة يونانية الأصل " στόλος " وتطلق فى اللغة العربية على السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة ، ويقال للجندى الذى يعمل فى الأسطول : "أسطولى" ، أنظر : (KINDERMANN : *Schiff* im *Arabischen*, P. 1) و (DOZY : *Supp. Dict. Arab.*) و (ابن خلدون : المقدمة : ص ١٣٨) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٨٢) و (الخفاجى : شفاء الغليل ، ص ٣٨ و ١١٩) و (الشيال : معجم السفن العربية) .

(٢) مقابل هذا فى س جملة مضطربة ونصها : "وذكر وقت إرسال هذا الأسطول من صقلية ما كنا ذكرنا . . الخ" .

من صقلية ما كنا ذكرنا من مكاتبة المصريين لصاحب صقلية [١] وغيرهم من الفرنج ليقصدوا الديار المصرية ، فسيّر صاحب صقلية هذا الأسطول ، ولم يعلم أن صلاح الدين قبض على الذين كاتبوه ، ولما وصل هذا الأسطول وكان وصوله بغتة فحمى [٢] أهل الثغر البر عليهم ، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور ففعلوا ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيلهم من الطرايد [٣] ورواجلهم

(١) هذه الحملة ذيل للمؤامرة التى اشترك فيها المصريون والفرنج لإعادة الدولة الفاطمية وكان من رؤوس المتآمرين فيها عمارة اليمنى ، أنظر (الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٤٣ — ٢٥٩) . وكان صاحب صقلية فى هذه السنة هو وليام الثانى (William II) ابن وليام الأول بن روجر الأول (Roger I) وهذا الأخير هو مؤسس مملكة النورمانديين فى صقلية سنة ١١٠٣ م ، والكتب العربية تسمى هذا الحاكم : " غليالم بن غليالم بن رجار متملك صقلية " ، ولم يكن غليالم هذا قد علم بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين ، فأرسل حملته هذه التى منيت بالفشل . وللالمام بأخبار هذه الحملة وتفاصيلها أنظر : (Lane-Poole : *Saladin*, p. 127) و (Camb. Med. Hist. vol. V, pp. 184-207), و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥ — ٥٧) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ — ١٥٦) و (Runciman : *History of the Crusades*, vol. I, p. 403). و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدنية وتطورها ، ص ٢٢١) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) .

(٢) الأصل : " حمى " والتصحيح عن نص العماد فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٣) الطريدة — ويقال الطَّرَّاد أو الطرادة ، أو التطريدة — والجمع : طرايد وطرائد ، قال (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، طبعة الدكتور عطية ، ص ٣٣٩ ،) عند التعريف بها : " هى سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا " ، والنص فى المتن هنا يؤكد هذا المعنى بل ويثبت أن الحمولة العادية للطريدة من الخيل تتفق وما ذكره ابن مماتى ، وقال (صاحب تاج العروس) " الطراد — ككتّان — سفينة صغيرة سريعة السيْر والجرى ، والعامة تقول تطريدة " ، وقال: (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) هى نوع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل فى حمل الخيول والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا ؛ وفى تاريخنا هذا — مفرج الكروب — فى حوادث سنة ٦٦٠ هـ ما يثبت أن الطريدة كانت تستعمل أحيانا لركوب الناس ، فقد ذكر أن بيبرس أرسل فى تلك السنة سفارة إلى ملك التتار بركة خان عن طريق البحر المتوسط والإمبراطورية البيزنطية " وركبهم فى الطرايد ، وأعطاهم زوادة شهور كثيرة " ، وقد استعمل الأوربيون فى العصور الوسطى هذا النوع من السفن ، واشتقوا اسمه عن العربية نسموه فى الأسبانية " Tarida " وفى الإيطالية " Tartana " وفى الفرنسية " Tartane " وفى الإنجليزية " Tartan " . أنظر أيضا (Kindermann : *op. cit.* pp. 56-59) ؛ ومخطوطتنا (معجم السفن العربية) .

من المراكب » وكانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس ، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني[١] فى كل شيني مائة وخمسون راجلا ، وكان عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكان عدة المراكب [الحمالة][٢] برسم حمل الأزواد والرجال أربعين مركبا ،

(١) الشيني أو الشاني أو الشينية أو الشونة — والجمع شواني — السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التى كان يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية ، وقال (الزبيدى : تاج العروس) إنها من أصل مصرى ، وذكر (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) إن الشيني كانت تسير " بمائة وأربعين مجدافا ، وفيها المقاتلة والجدافون " ويبدو أن هذا النوع من السفن كانت تقام فيه الأبراج والقلاع للدفاع عنه كما كانت ترمى منه النار والنفط على العدو . يبدو هـذا واضحا فى وصف الشاعر ابن حمديس الصقلى للشواني ، قال يمدح أبا يحيى الحسن بن على بن يحيى :

أنشأت شواني طايرة ، وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها — فى شم شواهقها — قننا
ترمى ببروج إن ظهرت لعـــدو محرقة بطنا
وبنفط أبيض تحسبه ماء ، وبه تذكى السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا من دائك عداتك ما ضمنا

وبالإضافة إلى المراجع المذكورة فى التحشية على لفظ " أسطول " و " طريدة " أنظر أيضا : (البتانونى : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، طبعة الشيال ، ص ١٠٢ هامش ١) . ولاحظ أن المتن هنا يحدد حمولة الشيني فى العادة بمائة وخمسين جنديا .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (الروضتين) ، والحمالة — والجمع حمالات — هى كما عرفها (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠) و (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول (Vaisseau de Transport) ، وفى (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) ما يدل على أن «الحمالة» كانت تستعمل فى حمل الخيل كذلك ، قال : " وفى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) عمر السلطان فى مصر أربع حمالات كبار برسم شيل الخيول والأثقال ، وتسع الناس الكثيرة ... الخ " ، وجاء فى (خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٩ — ١٤٠) : " ثم إن العمارة تكملت ، وهي خمس قراقير وتسعة عشر غرابا ، وست حمالات برسم الخيول ... الخ " .

وفيها من الرجال المتفرقة وغلمان الخيّالة وصنّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته[١] ما يتمم خمسين ألف راجل .

ولما تكامل الفرنج نازلين على البر مما يلي البحر والمنارة[٢] حملوا على المسلمين حملة أوصلتهم إلى السور[٢] وفُقد من أهل [١٧٤] الإسكندرية فى وقت الحملة ما يناهز سبعمائة نفس[٣] ، وجذفت[٤] مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم المسلمون إليها فخسفوها وغرّقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما أحرق[٥] منها ، واتصل القتال إلى المساء[٦] ، وضرب الفرنج خيامهم بالبر وعدتها ثلاثمائة خيمة ، ولما أصبحوا زاحفوا وضايقوا وحاصروا ، ونصبوا ست[٧] دبابات بكباشها[٨] ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجّب المسلمون من شدة أثرها وعظم حجرها ، وأما الدبابات فانها تشبه الأبراج فى جفاء[٩] أخشابها وارتفاعها واتساعها وكثرة المقاتلة فيها ، وزحفوا [بها][١٠] إلى أن قاربوا السور ولجوّا فى القتال عامة النهار .

---

(١) فى الأصل : " ودبابته " وما هنا عن س (٦١ ب) وهو أصح ، ولشرح اللفظ أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب : ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) للالمام بأخبار المنارة والسور فى العصر الإسلامى أنظر : (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها) .

(٣) س : " رجل " ، وفى (الروضتين) و (السلوك) : " سبعة أنفس " .

(٤) س : " وأحدقت " .

(٥) س : " ما أحرقوا " .

(٦) س : " الميناء " والمتن هو الصحيح .

(٧) س و (الروضتين) : " ثلاث دبابات " .

(٨) الكبش — ويجمع على أكبش وكبوش وكباش — آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان يدفعها الجنود نحو الأسوار لتحطيمها .

(٩) فى الأصل : " حقا " وما هنا عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

(١٠) ما بين الحاصرتين عن س .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — نازلا بعسكره على فاقوس ، فلما وصل[١] إليه الخبر يوم الثلاثاء ثالث نزول العدو على جناح طائر ، استنهض[٢] العسكر إلى الثغرين[٣] : الاسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما واحتياطا ، واستمر القتال ، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أماج [البحر ، وأهاج الدور][٤] وصبر أهل البلدة ، ولم يكن عندهم من العسكر إلا قليل .

ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم ، وتواصلت الأمداد إليهم .

وفى اليوم الثالث[٥] فتح المسلمون باب البلد ، وخرجوا على غفلة ، وركب من كان هناك من الأمراء ؛ وخرجوا من الأبواب وكثر الصياح من كل جانب ؛ وتكاثروا على الفرنج ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عندها القتال ؛ وأنزل الله سبحانه نصره على المسلمين ، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء — وهو رابع يوم نزولهم — وقد فشل الفرنج وفتر قتالهم[٦] ، واحترقت آلات قتالهم ، واستمر القتل فيهم ؛ ودخل المسلمون إلى البلد لقضاء فريضة الصلاة ، وهم على نية المباكرة ؛ والعدو على نية الهرب ، ثم كبسوهم المسلمون بغتة عند قرب اختلاط الظلام ، فهاجموهم [١٧٥] فى خيامهم ، فتسلموها بمافيها وقتلوا من الرجالة مالا يحصى .

---

(١) س : « فوصل » .

(٢) س : « فاستنصر » .

(٣) س : « الثغرين » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ١ ، ص ٢٣٥) وهى زيادة ضرورية لفهم النص .

(٥) س « وفى اليوم الرابع من نزولهم فتح باب البلد ، وخرجوا على غفلة من الفرنج » .

(٦) س « وبقين هناك قبالهم » وهذا مسخ للمعنى يدل على أن كاتب نسخة س كان مجرد ناسخ ، وأنه كان ينسخ دون فهم فى معظم الأحيان .

ولم يسلم من الخيالة إلا من نزع عنه لباسه ورمى نفسه فى البحر ، وأخذ الباقون أخذا باليد ، واقتحم المسلمون البحر على بعض المراكب فخسفوها وأغرقوها ؛ وولت بقية المراكب هاربة ، وصار العدو — لعنه الله — بين قتيل وأسير وغريق ؛ واحتمى ثلاثمائة فارس فى رأس جبل[١] ، وأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا وأخذ المسلمون من الآلات والمتاع والأسلحة ما لا يملك مثله ، وأقلع الأسطول عن الثغر يوم الخميس مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة .

ذكر خروج الكنز[٢] بالصعيد ومقتله[٣]

هذا الكنز هو رجل من مقدمى المصريين ، كان قد انتزح إلى أسوان وأقام بها ، فلم يزل يدبر أمره ، ويجمع السودان عليه ، وأوهمهم أنه يملك البلاد ،

(١) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) : «تل» .

(٢) كنز الدولة هذا هو نفس كنز الدولة حاكم أسوان المذكور سابقا (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ، هامش ١) والذى أرسل إلى صلاح الدين ينبئه بثورة الجنود السودانيين الفاطميين الفارين من الشمال بالصعيد ، مما دفع صلاح الدين إلى إرسال جيوشه لإخضاع هؤلاء الثائرين وفتح بلاد النوبة وشمال السودان ، والكنوز أصلا بطن من القبيلة العربية «ربيعة» ، استقروا حول أسوان وفى بلاد النوبة ، ثم اختلطوا مع النوبيين وتزوجوا منهم ، و « كنز الدولة » لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة فى عهده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبى عبد الله محمد بن على عندما ظفر بالثائر أبى ركوة الفار إلى بلاده وأرسله إلى الحاكم ، وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب كنز الدولة هذا المعاصر لصلاح الدين ، قال (المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٥٠) : « ولم تزل الإمارة معهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة ، حتى كان آخرهم كنز الدولة ، فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سابع صفر سنة ٥٧٠ عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وجمع لحربه ، وقتل أخا أبى الهيجا السمين ، ودعا للأمير داود بن العاضد ، وكان قتله على مدينة طود بعد حروب شديدة » ، وبنو كنز ، أو الكنوز ، هم سلالة هؤلاء العرب بعد اختلاطهم مع النوبيين ، وكانت لهم السيطرة التامة على الصعيد الأعلى فى العصر المملوكى ، ولازالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم فى المنطقة الواقعة بين أسوان وكروسكو» أنظر أيضا : (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة سراى ، ص ٦٠ ب) و (Casanova : *Les Derniers Fatimides*) و (Trimingham : *Islam in the Sudan*, P. 68)

(٣) هذا العنوان غير موجود فى س

ويعيد الدولة المصرية كما كانت ، فاجتمع إليه ممن يرى رأى الاسماعيلية ويهوى[١] عود الأمر الى أهل القصر خلق عظيم وجمع كثير من السودان ، ولما كثر جمعه[٢] قصد قوص وأعمالها ، بجرّد إليه السلطان الملك الناصر — رحمه الله — جمعا كثيرا من العسكر ، وقدّم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، فسار بهم الملك العادل حتى أتى القوم ، وكان الكنز قد فتك بأخ لحسام الدين أبى الهيجاء السمين و بمن[٣] هناك من المنقطعين ، ولما قصده الملك العادل بمن معه من العسكر تداركوا بطود ، وبها أصحاب الكنز ، فاجتمعت عليهم ، فنازلوها ثم ملكوها ، وأبادوا أهلها بالسيف ، ثم صافقوا[٤] الكنز ومن معه ، فكسر وقتل وأبيد أصحابه قتلا وأسرا ، وانطفت جمرة المصريين ولم تقم لهم بعدها قائمة[٥] .

ذكر مسير
الملك الناصر صلاح الدين إلى الشام وتملك دمشق

قد ذكرنا إنكار السلطان الملك الناصر — رحمه الله — ما اعتمده الجماعة مع الملك الصالح من القبض على الأمير شمس الدين على بن الداية وأخوته ،

(١) الأصل : «ويهول» وس (٦٢ ب) : «ويزيدوا» ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) س : «جمعهم» .

(٣) فى الأصل : «ومن» وما هنا صيغة س .

(٤) س : «ضايقوا» .

(٥) أشار ابن أبى طى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) إلى ثورة أخرى قامت فى طود فى نفس الوقت وأخضعها الملك العادل ، قال : «واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذى ، وثار فى بلاد قوص ونهبها ونحوها ، وأخذ أموال الناس ، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله وفض جموعه وقتله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود ، فقتل أكثر عسكره ، وهرب ، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل ، فقتله» .

وتفريطهم فى البلاد ، وبذلهم القطيعة للفرنج من غير أن يبدوا(١) عذرا فى جهادهم ، وقال :

«أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية (٢) لعهد والده ، [١٧٦] ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمعت الكفار فى البلاد » .

ثم كاتب الأمير شمس الدين بن المقدم برسالة منها :

"إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع (٣) شملهم وألف (٣) كلمتهم ، وللبيت (٤) الأتابكى — أعلاه الله — إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما يظهر أثرها عند تكاثر أطماع (٥) العداة ، وبالجملة إنا فى اند والظانون بنا ظن السوء فى واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولمن يبعدنا عنه مراد"(٦).

ثم عزم السلطان على المسارعة إلى تلافى الأمر ، فاعترضه أمران : وصول أسطول صقلية(٧) إلى الاسكندرية ، والثانى نوبة الكنز(٧) المقدم ذكره ، فلما كفى الله شرهما توجه إلى دمشق ، فخرج إلى البركة(٨) فى مستهل صفر من هذه

---

(١) فى الأصل وفى س "يبلو" ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) فى الأصل و س : «دعاية» .

(٣) س : «يجمع و يألف» وماهنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) .

(٤) فى الأصل ، وفى س : «والبيت» وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

(٥) كذا فى الأصل وفى الروضتين ، وفى س : " عند تطامع العداة " .

(٦) الخطاب موجز هنا وفى س ، وله فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤) تتمة نصها : "ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح ، ولمن ألقى السلاح إنك جارح" .

(٧) أنظر ما فات هنا ص ١١ — ١٧ .

(٨) هى بركة الجب أو بركة الحجاج ، وقد عرفها (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : " هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولا بجب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم ... إلخ » وقد حدد (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ١٦) موقعها تحديدا أدق ، قال : « بركة الحاج : قرية موضوعة فى الشمال الشرقى للقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفى غربى الترعة الاسماعيلية بنحو ستة آلاف متر ، وفى جنوب الخانقاه كذلك ، وفى شرقى قرية المرج بنحو ثلاثة آلاف متر ... إلخ » .

السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة — وقد وردت عليه رسل شمس الدين محمد بن المقدم ، وشمس الدين صديق بن جاولى صاحب بصرى ، يستحثونه على سرعة الحركة .

ثم سار ثالث عشر ربيع الأول على صَدْر[1] وأيلة فى سبعمائة فارس، ولما قارب بصرى[2] خرج صاحبها صديق بن جاولى إلى لقائه ، فلما رأى قلة من معه قال للقاضى الفاضل :

"ما أرى معكم عسكرا، وهذا بلد عظيم لا يقصد بهذا العسكر، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد ، فإن كان معكم مال سهل الأمر" .

فقال :

"معنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار" .

فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال :

"هلكتم وأهلكتمونا" .

وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار .

ثم رحل السلطان من بصرى لست بقين من ربيع الأول ، فلقيه ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى ، والأمير سعد الدين بن معين الدين أُنَر يوم السبت لثلاث بقين من الشهر، ونزل يوم الأحد بجسر الخشب وتوافت إليه الأجناد والعساكر الدمشقية ، والوجوه والأكابر .

ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الأول ركب [السلطان][3] وساق إلى [٧١ ا] دمشق ، فاعترضه دون الدخول جماعة من الرجال يريدون بزعمهم دفعه ، فهزمهم عساكره ، ووصل[4] إلى البلد ، ولم يغلق فى وجهه

---

(١) س : « صرخد » وما هنا هو الصحيح ، وللتعريف بالمدينتين انظر : الجزء الأول من مفرج الكروب ، ص ١٣٨

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال هى من أعمال دمشق ، أو هى قصبه كورة حوران .

(٣) ما بين الحاصرتين من س (٦٣ ا) . (٤) س : « ودخل البلد » .

باب ، بل كأن البلد لم يزل[١] له ، فدخل دمشق وخرقها ، ووصل الى دار أبيه المعروفة بدار العقيق ، وامتنع جمال الدين ريحان بالقلعة ، وأمر [السلطان][٢] فنودى فى دمشق بإطابة النفوس وإزالة المكوس ، وأظهر أنه ما جاء[٣] إلا لتربية الملك الصالح ولد نور الدين ، وأن الملك له ، وهو نائبه ومدبر دولته ، وأبقى الخطبة والسكة باسمه ، وراسل جمال الدين متولى القلعة ، واستماله وبذل له كلما يطلبه ، فأجاب جمال الدين إلى تسليم القلعة ، فتسلمها السلطان على عوض أعطاه [إياه][٢] ، وأنزل بالقلعة أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طُغتِكين بن أيوب ، واستتبت[٤] أمر السلطان بدمشق[٥] ، وجاء[٦] إلى خدمته القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، فوفَّاه حقه من الإكرام[٧] ، ونفذت الكتب إلى الديار المصرية بما سناه[٨] الله تعالى له من هذا الفتح .

---

(١) س : « كان له » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٣ ا) .

(٣) الأصل : « إنما جاء » .

(٤) س : « واستتب » .

(٥) ف : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٦) قطعتان من رسالتين بقلم القاضى الفاضل أرسلتا إلى مصر محملان أنباء فتح دمشق ودخولها ، وبهما تفصيلات هامة فانظرها هناك .

(٦) فى الأصل : « وجال » ، وما هنا عن س ، وهو الأصح .

(٧) لم تكن العلاقات طيبة بين القاضى كمال الدين وصلاح الدين منذ كان يتولى الأخير شحنكية دمشق فى عهد نور الدين ، ومع هذا فقد قدم كمال الدين المساعدات الممكنة لصلاح الدين لتمكينه من الاستيلاء على دمشق ، وقد عرف صلاح الدين للقاضى فضله ، فذهب إلى زيارته فى بيته ، روى قصة هذه الزيارة (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٧) قال : "ومشى (أى صلاح الدين) إلى دار كمال الدين ، فانزعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين فجلس وباسطه ، وقال : يا كمال الدين ، لما كنت فى الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات ، — وكان كمال الدين يكرهه ، فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه — فقال له صلاح الدين : ما مشيت إلا لأزيل ما فى خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما فى قلبى لك نكرة ، فطب نفسا ، وقر عينا ، فالأمر أمرك ، والبلد بلدك » أنظر أيضا : (نفس المرجع ، ص ٣٤٠)

(٨) كذا فى الأصل ، وفى س : « هياه » .

ولما سمع المدبرون للملك الصالح(١ إسماعيل بن نور الدين — رحمه الله — ١)
بملك الملك الناصر دمشق سقط فى أيديهم ، وأيقنوا بذهاب البلاد ، فراسلوا
سيف الدين غازى بن [قطب الدين](٢) مودود بن زنكى صاحب الموصل
وأرسلوا إلى السلطان الملك الناصر الأميرَ قطب الدين ينال(٣) بن حسّان
— صاحب مَنْبِج — برسالة فيها غلظ وتعنيف ، وقال للسلطان فيما قاله :
« هذه السيوف التى(٤) ملَّكتك مصر — وأشار إلى سيفه — تردُّك ، وعما تصديت
له تصدّك » ، فحلم عنه السلطان وتغافل ، وذكر أنه إنما وصل لترتيب الأمور
وتربية الملك الصالح ، وإخراج الأمراء أولاد الداية من الاعتقال ، فقال له
قطب الدين :

« أنت تريد الملك لنفسك ، وليس مقصودك غير ذلك ، والمصلحة أنك
ترجع من حيث جئت ، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع » ، فأظهر له السلطان
التبسم ، ولم يقابله إلا باللين والرفق(٥) .

---

(١) ما بين الرقين ساقط من س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٧) ، وهو فى س : «عثمان» ، وصيغة الأصل هى الصحيحة ، وقد ذكر صاحب الروضتين هذا الحادث وهذا الحديث نقلا عن ابن أبى طى .

(٤) س (٦٣ ب) : « إلى مملكتك » والأصل : « الذى ملكتك » ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

(٥) تكاد تجمع المراجع على أن صلاح الدين كظم غيظه عند سماعه حديث ينال القاسى ، وأنه قابله بالرفق واللين ، إلا أن صاحب مرآة الزمان (ص ٣٢٨) يذكر أن صلاح الدين غضب عند سماع هذا الحديث وقال لينال : « والله لولا أنك رسول لضربت عنقك ، والله ماجئت إلى ها هنا شرها ولا طمعا فى الدنيا ، وفى مصر كفاية ، وما جئت إلا لأستنقذ هذا الصبى من يد مثلك وأمثالك ، فأنتم سبب زوال دولته » ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد إلى حلب » .

ذكر استيلاء
الملك الناصر على حماة ومدينة حمص

ثم إن السلطان الملك الناصر [صلاح الدين][(١)] استخلف بدمشق أخاه سيف الإسلام [طُغْتِكين] ، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة — وكانت حمص ، وحماة ، وقلعة بارين ، وسلمية ، وتل خالد ، والرُّها ، إقطاعا للأمير فخر الدين [مسعود][(١)] بن الزعفرانى ، ولم تكن قلعتا حمص وحماة له ، وإنما كان فيهما دُزْ داران[(٢)] من قبل نور الدين وكان المرتب بقلعة حماة عز الدين جُرْديك[(٣)] — مملوك نور الدين — فلم يمكن فخر الدين بن الزعفرانى المقام بمدينتى حمص وحماة ، لسوء سيرته فى الرعية ، ففارقهما ، فلما نزل السلطان [صلاح الدين][(١)] على حمص ، وذلك حادى عشر جمادى الأولى ، تسلم المدينة ، وامتنعت القلعة ، فترك بمدينة حمص من يحفظها ، ومنع مَنْ بالقلعة من التصرف ، وأن لا يصعد[(٤)] إليهم ميرة .

ثم سار إلى حماة ، فملك المدينة مستهل جمادى الآخرة من السنة ، وراسل الأمير عز الدين جُرْديك فى تسليم القلعة إليه ، فامتنع عليه ، فأرسل إليه يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح ، وإنما يريد حفظ البلاد عليه ، فاستحلفه جُرْديك

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٦٤) .

(٢) س : « دزدارا » ، وللتعريف باللفظ أنظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨ ، هامش ١) .

(٣) جرديك ، و يرسم أحيانا «جورديك» كان من مماليك نور الدين ، ولهذا يلقب بالنورى ، وكان واحدا من القواد الذين رافقوا أسد الدين شيركوه فى حملته الأخيرة على مصر ، وكان مشاركا لصلاح الدين عند القبض على شاور . وسترد بقية أخباره فيما يلى .

(٤) س : «وأن تصعد» ، وما هنا هو الصحيح .

على ذلك ، فخلف ، وسيَّره السلطان رسولا إلى حلب ، يدعوهم إلى اجتماع الكلمة فى طاعة الملك الصالح ، وفى إطلاق الأمير شمس الدين على بن الداية وأخوته من السجن ، فسار إليهم جُرْديك إلى حلب ، واستخلف بقلعة حماة أخاه[١] ، ولما وصل جُرْديك إلى حلب قبض عليه سعد الدين كُمُشْتِكين ، فلما علم أخوه بذلك سلَّم القلعة إلى السلطان الملك الناصر — رحمه الله —

ذكر منازلة

السلطان الملك الناصر حلب ورحيله عنها

ثم مضى السلطان إلى حلب ، وحاصرها لثلاث مضين[٢] من جمادى الآخرة ، فقاتله أهلها أشد قتال ، وركب الملك الصالح — وهو صبى عمره اثنتا[٣] عشرة سنة — وجمع أهل البلد ، وقال لهم :

" قد عرفتم إحسان أبى إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا يتيمكم[٤] ، وقد خان[٥] هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه ، يأخذ بلادى ، ولا يراقب الله [والخلق[٦]] " .

وقال من هذا الكلام كثيرا ، وبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس ، واتفقوا على القتال دونه ، والمنع عن بلاده ، وجدُّوا فى القتال ، فكانوا يخرجون يقاتلون عند جبل جَوْشن ، (١٧٩) فلم يقدر السلطان على القرب من البلد .

---

(١) الضمير هنا يعود على «جرديك» ، فالمقصود أخو جرديك .

(٢) س : «بقين» ، وما هنا هو الصحيح ، أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .

(٣) الأصل : «اثنى» .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س (٦٤ ب) : «بيكم» ، وفى الروضتين : «ربيبكم» .

(٥) فى الأصل «جاء» وما هنا عن س والروضتين .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س .

ذكر استنجاد
الحلبيين بالملاحدة وقتلهم ناصح الدين خمار تكين

وأرسل سعد الدين كُمُشْتِكين إلى سنان[١] صاحب الإسماعيلية بمصيات[٢] وقلاعها[٣] . وبذل له أموالا كثيرة ليقتل السلطان ، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين — [صاحب بوقبيس وهو جد مظفر الدين][٤] صاحب صهيون — وكان مناغرا[٥] لهم ، فقال لهم :

" لأى شيء جئتم ، وكيف تجاسرتم على الوصول ؟ "

فجرحوه جراحات مثخنة مات منها — رحمه الله — ، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه [أيضا جراحات][٦]، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان [صلاح الدين][٦] وقد شهر سكينا ، فشمله طغرل أمير جاندار بالسيف فقتله ، وما قُتل الباقون حتى قتلوا عدة [من الأجناد][٦] .

ثم كاتب الحلبيون صاحب طرابلس، وكان فى أسر نور الدين — رحمه الله — وقد كان أسره[٧] على حارم ، و بقى فى الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار ، وفكاك ألف أسير، فتوجه بالفرنج إلى حمص، فلما سمع السلطان بذلك رحل عن حصار حلب ، وذلك مستهل رجب من هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة —

---

(١) التعريف به أنظر: (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ، هامش ٥). وعن هذا الموضوع راجع أيضا :

(B. Lewis: *Saladin and the Assassins, B.S.O.A.S. 1953, XV/2*).

(٢) التعريف بها أنظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ، هامش ٥) .

(٣) س : «وخلانها» .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٦٤ ب) وهى زيادة ضرورية لإيضاح النص ، لأن ناصح الدين كان صاحبا لبوقبيس لا لصيون ، أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٠) .

(٥) س : " وكان منازع " وما هنا هو الصحيح ، أنظر الروضتين .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س .

(٧) الأصل : " كسره " وما هنا عن س .

ذكر مراسلة السلطان للديوان العزيز

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء[١] رسولا إلى الخليفة الإمام المستضيء بنور الله بن المستنجد برسالة فاضلية[٢]، تشتمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة، والقيام بخدمة الدولة العباسية، من جهاد[٣] العدو فى أيام نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بها، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج برا وبحرا، و«مركبا وظهرا[٤]»، وفتح معاقل لهم من جملتها قلعة كانت بثغر أيلة قد بناها العدو فى بحر الهند المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، [وغزا ساحل الحرم][٥]، فسبى منه خلقا، وخرق الكفر فى ذلك الجانب خرقا، ففتحت هذه القلعة، وصارت معقلا لجهاد المسلمين وموئلا للمسافرين[٦]، وفيه:

فصل فى ذكر أهل مصر:

---

(١) فى س، وفى (السلوك، تعليقات الدكتور زيادة نقلا عن " بلوشيه "، ج ١، ص ٦) " أبي البيضاء " وفى (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٩٧): " أبو الضياء " وصحة الإسم كاملا " شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي أبو عبد الله " وذلك نقلا عن: (ابن الدبيثي: تاريخه باختصار الذهبي، نشر الدكتور مصطفى جواد، ج ١، ص ٢٤١) و(الروضتين، ج ١، ص ١٩٣، ١٩٥، ٢٤١) وقد أشرنا فيما سبق (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٠، هامش ٣) إلى الرواية التى تقول بأن هذا الرجل هو أول من قطع الخطبة للعاضد الفاطمى وخطب للمستضيء العباسي فى مصر بأمر صلاح الدين، وتؤكد المراجع التى ترجمت له أنه حظى بعد ذلك عند صلاح الدين " حتى جعله سفيرا بينه و بين الملوك والخلفاء ". أنظر أيضا: (النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٤٣).

(٢) أنظر النص الكامل لهذه الرسالة فى (الروضتين، ج ١، ص ٢٤١ — ٢٤٣).

(٣) النص فى س مضطرب غير مفهوم وهو: " من جهاد الدين هو دايم للعدو فى أيام نور الدين إلخ "، ونص الروضتين (ص ٢٤١): " من جهاد الأفرنج فى حياة نور الدين ".

(٤) هذان اللفظان ساقطان من س.

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٦٥ أ)، وهو متفق مع نص الروضتين.

(٦) جاء فى نسخة س بعد هذا اللفظ ما يأتى: " وفى هذه الرسالة فصولا (كذا) يذكر فيها ما تم له فى مصر وغيرها، تركها خوف الإطالة " ثم حذف بعد ذلك هذه المقتبسات من الرسالة الفاضلية التي =

"ووصلنا البلاد وبها أجناد عندهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل[1] ، كلهم أغتام أعجام ، إن هم إلا كالأنعام (١٨٠) لايعرفون ربا إلا ساكن قصره ، ولاقبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه [وامتثال أمره][2] ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية[3] ، موضوعة عنهم الجزية ، ولهم شوكة وشكة ، [وحمة][2] وحمية ، لهم حواش لقصرهم من بين داع تتلطف فى الضلال مداخله ، وتصيب العقول[4] مخاتله ، ومن كُتّاب تفعل أقلامهم فعل الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر عليها[5] الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات[6] الضمير ، فكيف

= انفردت بذكرها نسخة ك التى اعتمدناها أصلا للنشر ، وقد أورد صاحب الروضتين النص الكامل للرسالة وهى رسالة هامة لأنها تلخص جهود صلاح الدين منذ ولى الوزارة بمصر بعد وفاة عمه إلى هـذه السنة (٥٧٠) ، وهذا الفارق مثل واضح من أمثلة كثيرة على أفضلية نسخة ك على نسخة س ، ولتصحيح هذه المقتبسات سنعارضها على الروضتين . وسننشر هذه الرسالة كاملة فى ملاحق هذا الجزء .

(١) هـذا نص هام لأنه يحـدد عدد الجند من السودانيين فى الجيش المصرى فى أواخر العصر الفاطمى .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) دخل الأرمن فى الجيش الفاطمى وفى وظائف الدولة منذ ولى بدر الجمالى الوزارة للمستنصر ، ثم كثر عددهم وزادت شوكتهم وأصبحوا غالية كبيرة فى مصر ، ولم يقتصر الأمر على استخدام المسلمين منهم بل استخدم الأرمن النصارى بعد ذلك ، وخاصة بعد أن ولى بهرام الأرمنى الوزارة للخليفة الحافظ ، ولهذا النص هنا أهميته ، لأن المعروف أن الدول الإسلامية فى كل العصور لم تكن تستخدم فى جيوشها إلا جنودا مسلمين ، وهذا النص يدل على أن الجيش الفاطمى كان به جنود من الأرمن النصارى .

(٤) النص يختلف هنا قليلا عن الروضتين ، فكان هذا اللفظ هناك "القلوب" .

(٥) الروضتين : "نملها" .

(٦) الروضتين (٢٤٢) : "تمنع ما يكنه الضمير" .

بخطوات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم[١] ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة [جارية][٢] جائزة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر يسمى بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليالى[٣] والنهار ، بعجائب[٤] تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير[٥] لا تحملها الأساطير[٦] ، فشرعنا فى تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن ، فأخرجناهم من القاهرة[٦] ، حتى بقى القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وأخفيت دعوته ، وخفتت ضلالته ، فهنالك تمت لنا إقامة الكلمة والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأعظم الأسود ، وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها[٧] أيسر من إثم إبقائه ، إلا أنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ".

فصل[٦] : " وكان باليمن ما علم من [أمر][٨] ابن مهدى الضال الملحد ، المبتدع المتمرد[٩] ، وله آثار فى الإسلام وثار طالبه النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبا الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل

---

(١) فى الأصل : " المحارم والفرائض " ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) زيادة عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢) .

(٣) الروضتين : " الليل " .

(٤) فى الأصل : " وللأعمال العجائب تدبير " وما هنا عن الروضتين .

(٥) فى الأصل : " تقريب " وما هنا عن الروضتين .

(٦) قبل هذا اللفظ فى الروضتين فقرات طويلة من الرسالة أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٧) فى الأصل : " خبثها " والتصحيح عن الروضتين .

(٨) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .

(٩) فى الأصل : " المترد " والتصحيح عن الروضتين (٢٤٢) .

ما لا تقر عليه نفس، ودان ببدعة صعبة، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا [المعصومة][1] وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها .

فصل : ولنا بالمغرب أثر أغرب، [2] قد ملكنا مما تجاور منه بلادنا بلادا تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا [إليها] عسكرا بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، من مشاهيرها : برقة، قفصة، قسطيلية، توزر؛ كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله، سلام الله عليه " .

(١٨١) ثم ذكر تشتت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء، [2] " وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، وساءت السيرة، وخبثت السريرة " .

فصل : "[2] وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم نجرد العزم لقلعه، وإلا نبتت عروقه، واتسعت على المسلمين[3] خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة [الجموع][1] .

[2] وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويد كل مسلم[4] تحت برده، واستنقذنا أسيرا من المسجد الأقصى، الذي أسرى الله إليه بعبده "

---

(١) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .

(٢) قبل هذا اللفظ في الروضتين فقرات أسقطها ابن واصل اختصارا .

(٣) الروضتين (ص ٢٤٣) : " على أهل الدين " .

(٤) في (الروضتين، ج ١، ص ٢٤٣) : " مؤمن " .

ثم ذكر فيه : "أنه قدم الشام لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون فى ظلمه "(١)

ثم طلب من الخليفة المستضئ بنور الله تقليدا جامعا بمصر، والمغرب ، واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكلما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده ، تقليدا يتضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا " (١)

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر على قلعتى حمص وبعلبك

قد ذكرنا مكاتبة الحلبيين للقومص(٢) صاحب طرابلس ، وقصده حمص ، ولما وصل إليها نازلها ، (٣ وذلك سابع رجب ، وبلغ السلطان ذلك ٣) فرحل عن حلب ، ووصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم واحد ، ثم رحل إلى الرستن ، فلما بلغ الفرنج قربه رحلوا عن حمص ، ووصل إليها السلطان ، وحصرها وضايقها ، فملكها لتسع بقين من شعبان ، ثم سار منها إلى بعلبك ، وبها خادم اسمه يُمْن ، فحصرها السلطان ، فأرسل يُمْن يطلب الأمان

---

(١) هذه الفقرة ليست نصا من الخطاب وإنما هى تلخيص له .

(٢) شرح هذا اللفظ فى (مفرج الكروب ، ج١ ، ص٧٣ ، هامش ١) والقومص المذكور هنا هو " الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية " ويلقب فى بعض المراجع العربية " بالصنجيلى " وهو تحريف عربى للقب الفرنسى : (Le Conte Raymond descendant ... de Saint-Agilles).

(٣) النص فى س (١٦٥) مضطرب وهو : " وذلك لما بلغ السلطان ذلك فرحل " .

له ولمن معه ، فأمنهم السلطان . وتسلم القلعة لأربع مضين من شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة — [١٨٢] وامتدحه عماد الدين الكاتب ، وكان قد اتصل بخدمته وهو نازل على حمص من قصيدة أولها :

بفتوحِ عصرِك يفخر الإسلامُ ، وبنورِ نصرِك تشرق الأيامُ
وبفتحِ قلعةِ بعلبــك تهذبتْ هذى الممالكُ ، واستقرَّ الشامُ
وبكى الحسودُ دمًا ، وثغرُ الثغرِ — من فرحٍ بنصرِك — للهدى بسَّامُ
فتحٌ تسنَّى فى الصيامِ كأننا — شكراً لما منَحَ الإلهُ — صِيامُ
من ذا يرى فى الصومِ عيدَ سعادةٍ حلَّت لنا ، والفطرُ فيه حرامُ
أسدى صلاحُ الدين والدنيا يدا بنوالها سوقُ الرخاء[1] تقامُ
فتملَّ فتْحكَ ، وافتحِ القدسَ[2] الذى بحصوله لفتوحِك الإتمامُ
دُمْ للعلى حتى يدومَ نظامُها ، واسلمْ ، يعزُّ بنصرِك الإسلامُ

ذكر منازلة
سيف الدين غازى أخاه عماد الدين زنكى بن مودود بسنجار[3]

كان السلطان قد كاتب عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى — صاحب سنجار — وأطمعه فى الملك[4] لأنه كبير البيت ، فمال إلى السلطان وصار من جهته ، ولما ملك السلطان دمشق وحمص وحماة وبعلبك كتب الحلبيون إلى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل — يستنجدونه

(١) كذا فى الأصل وفى س ، وفى الروضتين (ج ١ ، ص ٢٤٧) : "الرجاء" .
(٢) كذا فى الأصل وفى س (٦٥ ب) ، وفى الروضتين : "وانصد الفتح" .
(٣) س : "صاحب سنجار" .
(٤) س : "البلاد" .

عليه، وطلبوا منه أن يعبر الفرات ليقصدوا السلطان، فجمع سيف الدين عساكره، وكاتب أخاه عماد الدين زنكى، وأمره أن ينزل إليه من سنجار بعساكره، ليجتمعا على حرب السلطان الملك الناصر، فامتنع من ذلك، فجهّز أخوه سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بن مودود فى عسكر كبير هو معظم عسكره إلى الشام، وجعل المقدم على العسكر مع أخيه الأمير عز الدين محمود المعروف بزلفنداو[1]، وجعله المدبر للأمر، وسار سيف الدين بنفسه إلى سنجار، وحصرها فى شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة —، وجدّ فى قتالها، فامتنع بها أخوه عماد الدين، وأحسن حفظها والذبَّ عنها، فبينما هو [كذلك][2] إذ أتاه الخبر [١٨٣] بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين — كما سنذكره —، فصالح حينئذ أخاه ورحل عائدا إلى الموصل.

ذكر كسرة المواصلة بقرون حماة

لما تسلم الملك الناصر — رحمه الله — بعلبك عاد إلى حمص، ووصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى بعساكر الموصل إلى حلب، ومعه عز الدين [محمود الملقب][3] بزلفندار[4]، ثم جاءوا إلى حماة فحصروها، وراسلوا السلطان فى الصلح، فقدم السلطان فى خف[5] من أصحابه، فجاءه

(١) س: "بركفندار" وما هنا يتفق والرسم فى (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٥٨) وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا.

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٦٦ أ).

(٣) ما بين الحاصرتين عن س.

(٤) قال (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٥٩): "وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها، مع جبن منه، إلا أنه قد رزق سعادة وقبولا عند سيف الدين".

(٥) س: "فى جماعة" وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين، ج ١، ص ٢٤٨) وهو المرجع الذى ينقل عنه هنا.

الأمير سعد الدين كُمُشْتِكين والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمى وغيرهما ، وتفاوضوا فى معنى الصلح ، فأجابهم السلطان إلى أن يرد عليهم الحصون التى أخذها ، وأن يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصالح متميا[1] إليه ، والخطبة والسكة له ، وأن يرد عليهم كلما أخذ من الخزانة ، فلما رأوه مجيبا لكل ما يلتمس منه وقلة عسكره اشتطوا عليه وطمعوا ، وطلبوا الرحبة وأعمالها ، فقال :

" هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولا سبيل إلى الإضرار به " .

فنفروا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصى قريبا من شيزر ، وجمعوا العساكر وأظهروا عزمهم على المصاف ، فعبَّر السلطان إلى سفح قرون حماة خيامَه ، ووصل إليه جماعة من العسكر المصرى ومعهم عشرة من المقدمين ، منهم أبناء أخيه : الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وعز الدين فرخ شاه بن شاهان شاه بن أيوب ، وغيرهم ؛ ثم كانت الوقعة بين الفريقين تاسع عشر شهر رمضان من السنة ، فلم يثبت عسكر الموصل ، وانهزموا لا يلوى أحد على أحد ، وثبت عز الدين مسعود بعد انهزام أصحابه ، فلما رأى السلطان ثباته قال : " إما أن هذا أشجع الناس ، وإما أنه لا يعرف الحروب ، " وأمر أصحابه بالحملة عليه ، فحملوا فأزالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة عليهم ، وتبعهم السلطان وعسكره ، حتى جاوز معسكرهم[2] ، وغنم كل ما معهم ، وأسر جماعة منهم ، ثم مَنَّ عليهم وأطلقهم ، وعادوا منهزمين إلى حلب ، وتبعهم السلطان بنيــة المحاصرة لحلب والمنازلة لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ابن نور الدين ، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده .

---

(١) س : " مؤتما " .

(٢) س : " بعسكرهم " .

وفى هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك المظفر تقى الدين — رحمه الله — :

[١٨٤] لا تُفْنِ من فَرَقِ الفراقِ الأدْمُعا ، نهى الشهودُ على الغرامِ المدَّعى
قلبٌ أصابته العيونُ ، ولم يزَلْ — من مسِّها — بالهاجساتِ[١] مُرَوَّعا
ومن التَّجبّرِ أننى أبصرتُهُ في ظَعْنِهم ، وسألتُ عنه الأَرْبعا[٢]
أصبحتُ إذ شيعتُهم لثلاثةٍ : صبرى ، وغمضى ، والفؤادَ مُشَيِّعا
أَوَ ما اتقيتُمْ[٣] حين رُعْتُمْ سِرْبهُ فيه[٤] تقىَّ الدينِ ذاك الأَرْوَعا
عُمَرُ بنُ شاهنشاه مَنْ هو عامرٌ[٥] أركانَ مُلْكِ الشامِ حين تضعضعا
خَضَعَ العدوُ وذَلَّ بعد تعزُّزٍ لكم ، وحق عدوكم أن يخضعا
لما عصى الأعداءُ بالعاصى جرى بدمائهم طوعا[٦] سيولا دُفَّعا

ذكر وقوع الصلح

ثم جاءت الرسل من الحلبيين إلى السلطان يطلبون منه الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك ، واستزاد منهم المعرّة وكفر طاب ، وانتظم الصلح ، ووقعت الأيمان ، ورحل عن حلب فى العشر الأول من شوال من السنة .

(١) س (٦٦ ب) : "من مستها مالها حساب مروعا" ، وهذا دليل على أن كاتب هذه النسخة كان ينقل دون وعى أو فهم لما ينقله ، فهو مجرد ناسخ .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى س ؛ وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٩) : "الأضلعا" ، والقصيدة هناك أكثر أبياتا فانظرها .

(٣) س : "لقيتم" .

(٤) س : "فيهم" ، وما هنا يتفق وما فى الروضتين .

(٥) س : "من عامر" . وما هنا يتفق وما فى الروضتين .

(٦) كذا فى الأصل وفى الروضتين ، وفى س : "طولا" .

ووصل إلى حماة فوافته الرسل من جهة الامام المستضئ بنور الله أمير المؤمنين. بالتشريفات السلطانية ، والتقليد بما أراد من الولايات ، وأفاضوا الخلع على السلطان وأقاربه ، وخُصَّ ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان ، رعاية لحق[١] والده أسد الدين — رحمه الله تعالى — :

ذكر استيلاء الملك الناصر على بارين

وكان صاحبها الأمير فخر الدين[٢] مسعود بن على الزعفرانى من عهد نور الدين[٣] ، وكان من أكابر الأمراء النورية ، فلما رأى قوة السلطان نزل منها واتصل بخدمته ، وظن أنه يكرمه ويشاركه فى ملكه ، ولا ينفرد عنه بأمر ، كما كان عند نور الدين ، فلم يرَ منه شيئا من ذلك ، ففارقه[٤] ولم يكن بقى له من إقطاعه النورى غير بارين ، ونائبه بها[٤] ، فلما انتظم الصلح بين السلطان والحلبيين ، وقدم حماة — كما ذكرنا — سار منها إلى بارين وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، فسلمت إليه بالأمان ، فلما ملكها عاد إلى حماة ، وأقطعها لخاله [١٨٥] شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى ، وكان تَمَلُّكُ بارين فى العشر الأخير من شوال من هذه السنة .

---

(١) س : " لحق والده " .

(٢) الأصل : " عز الدين " والتصحيح عن الكامل لابن الأثير والروضتين .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س : " وكانت حماة أيضا له وغيرها ، فأخذت منه ، ولم يكن بقى له إلا بارين " وهو استطراد لا داعى لإثباته هنا فقد ذكر ما يدل على معناه هنا بالمتن بعد ثلاثة أسطر .

(٤) مكان هذه الجملة فى س : " ففارقه ومضى وبقى ببارين نائبا له " .

ذكر استيلاء

ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه على حمص[1]

وفى هذه السنة — أعنى سنة سبعين وخمسمائة — سلم السلطان حمص إلى ابن عمه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى ، وهى كانت إقطاعا لوالده أسد الدين فى أيام نور الدين — كما ذكرنا — فملكها ناصر الدين محمد ، ثم ملكها بعده ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم ملكها بعده ولده الملك المنصور إبراهيم إلى سنة أربع وأربعين وستمائة ، ثم ملكها ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه ، فأخذت منه سنة ست وأربعين وستمائة .

ثم لما ملك التتر الملاعين البلاد الشامية سنة ثمان وخمسين وستمائة أعادوها إلى الملك الأشرف ، ودخل فى طاعتهم ؛ ثم لما كسر الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى صاحب مصر التتر بعين جالوت وملك الشام قرّر الملك الأشرف بها ، فبقيت معه إلى أن توفى الملك الأشرف سنة اثنين وستين وستمائة [فملكها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب مصر][2] .

ثم عاد السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق ، فدخلها فى آخر شوال ، ثم رحل منها إلى مرج الصفر ، فنزل به إلى آخر السنة .

ودخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة والسلطان بمرج الصفر ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان إليها ، بعد أن اشترط عليهم أمورا التزموها ،

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وإنما ربط بين ما قبله وما بعده بلفظ : " قال " .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (٦٧ ب) وهذا استطراد التزمه ابن واصل فى كتابه هذا ، فهو كلما عرض لذكر مدينة من مدن الشام الكبرى — وخاصة تلك المدن التى كانت مقر الإقطاع فى تلك العصور — تتبع الأسرة الحاكمة لها إلى قبيل الوقت الذى يؤلف فيه كتابه . وهذا الاستطراد أخيرا يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وكان الشام مجدبا ، فأذن السلطان للعساكر المصرية فى الرحيل إلى بلادهم ، وإذا استغلوها[1] رجعوا إليه .

ثم رجع السلطان إلى دمشق ، وواظب الجلوس فى دار العدل ، والصيد ، ومدحه كاتبه عماد الدين بقصيدة أولها :

سواكَ لسهمِ[2] العُلى لن[3] يريشا ... فنسألُ ربَّ العُلى أن تَعيشا
من الناسِ بالبِرِّ صِدْتَ الكرا ... مَ ، وبالبأس فى البَرِّ صِدْتَ الوحوشا
وكم سِرْتَ[4] من مصرَ نحو العري ... شِ ، فهدمتَ للمشركين العروشا
سراياك تبعث قُدَّامَها ... — من الرعبِ، نحو الأعادى — جيوشا
[١٨٦] ويوم حماة تركت العدا ... ة ، كما طردتْ[5] بالفلا الريحُ ريشا

ذكر اجتماع

الحلبيين والمواصلة لحرب السلطان الملك الناصر ثانيا

لما انتظم الصلح بين السلطان والحلبيين ، وسمع بذلك سيف الدين غازى ابن مودود — صاحب الموصل — عتب على الحلبيين ، ووبخهم ونسبهم إلى العجلة فى ذلك [وإلى الضعف][6] ، وسلوك غير طريق الحزم ، وحملهم على النقض والنكث ، وأنفذ إليهم من أخذ عليهم المواثيق ، ثم توجه ذلك الرسول إلى دمشق ، ليأخذ لسيف الدين من السلطان عهدا ، ويكشف أيضا

(١) س : " وإذا استغفروهم " . وما هنا يتفق ونص العماد فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢)

(٢) كذا فى الأصل وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢) ؛ وفى س : " سهم " .

(٣) فى الأصل ، وفى س : " أن " وما هنا عن الروضتين .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين ، وفى س : " تقرت " .

(٥) كذا فى الأصل وفى س ، وفى الروضتين : " طيرت " .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (٦٧ ب) .

ما عنده ، فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة اليمين[١] ، فغلط الرسول وأخرج من كمه يمين الحلبيين لسيف الدين ، وناولها له ، فتأملها وأخفى[٢] سره ، واطلع على ما اتفقوا عليه وردها إليه ، وقال : " لعلها قد تبدلت " ، فعرف الرسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافى الفارط منه ، وقال السلطان : " كيف حلف الحلبيون لسيف الدين ، ومن شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمرا إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم ؟ " ، وتحقق أنهم على نقض العهد .

وشاع الخبر عنهم بالخروج فى الربيع ، فكتب السلطان إلى نائبه بمصر ، وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، يعلمه بذلك ، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد والخروج فى شعبان .

وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين — كما ذكرنا — وعاد[٣] عن سنجار إلى الموصل ، وجمع العساكر وأنفق فيهم الأموال ، واستنجد بصاحب الحصن وصاحب ماردين وغيرهما ، ثم سار إلى نصيبين فى ربيع الأول من هذه السنة ، وأقام بها حتى انسلخ الشتاء ، ثم سار متوجها إلى حلب ، فعبر الفرات من البيرة ، وخيّم على الجانب الغربى ، وراسل الحلبيين ، واستقرت القاعدة أنه يصل إليهم ، وذلك بعد[٣] رسول سعد الدين كمشتكين[٣] إليه ، ومراجعات كثيرة وقعت بينهم عزم على العود منها مرارا ، ثم سار ووصل إلى حلب ، فخرج إليه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين — رحمهما الله — فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمه إليه وبكى[٤] ، ثم أمره بالعودة إلى القلعة ، فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب يخرجون إلى خدمته كل يوم ، وصعد إلى القلعة جريدة ، وأكل فيها ، ونزل .

(١) س : " فلما خلا به أراد أن يخرج له نسخة اليمين " .

(٢) الأصل : " وأخفا " .

(٣) هذا اللفظ ساقط من س .

(٤) الأصل : " وبكا " .

ذكر الوقعة بتل السلطان

ووصلت من مصر العساكر [١٨٧] إلى السلطان الملك الناصر ، فسار بهم متوجها إلى حلب ، فوصل حماة ، ثم رحل منها إلى مرج أبو قبيس ، وجاء الخبر أن الحلبيين والمواصلة فى عشرين ألف فارس سوى سوادهم ، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة ، وأمدادهم متواصلة ، ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف فارس ، فرتّب السلطان عسكره ، وأطلق الحلبيون مَنْ فى الأسر من ملوك الفرنج ، منهم : أرناط[1] برنس صاحب الكرك ، وجوسلين[2] خال الملك ، وقرروا معهم المساعدة لهم ، ورحل سيف الدين بالعساكر إلى تل السلطان .

وبلغ السلطان الملك الناصر الخبر وقد عيّد عيد الفطر ، فعبر العاصى عند شيزر ، ورتّب العسكر ، وأعاد الأثقال إلى حماة ، ثم سار حتى أتى قرون حماة ، فبلغ الحلبيين أنه قد قارب عسكرهم ، فأخرجوا اليَزَك[3] ، ووجهوا من يكشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جِباب[4] التركمان ، وتفرق عسكره لسقى خيله ، ولو أراد الله نصرتهم لقصدوه فى تلك الساعة ، لكن صبروا عليه

(١) هكذا ترسمه المراجع العربية وهو (Le Prince Arnauld Seigneur de Carac) وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام : (Renaud de Chatillon)

(٢) س : " وابن جوسلين بن خال الملك " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

وهو (Goscelin III of Courtenay, titular Count of Edessa) جوسلين الثالث من كورتينى الأمير الأسمى للرها ، وكان سجينا فى حلب فأطلق سراحه كما بالمتن هنا . أنظر أخباره فى (Runcimen : *A History of the Crucades*, Vol. 2 pp. 405-407,-408 etc.)

(٣) اليزك لفظ فارسى معناه : طلائع الجيش . أنظر : (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*)

(٤) كذا فى الأصل وفى الروضتين . وفى (اللسان) : الجباب الركايا تحفر ينصب فيها العنب أى يغرس فيها كما يحفر للفسيلة من النخل .

حتى سق خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتَعَبَّوا للقتال ، وذلك يوم الأربعاء التاسع من شوال من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة —

ثم وصل السلطان إلى تل السلطان العصر ، وقد تعب هو وعسكره وعطشوا، فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس بهم حركة ، فأشار على سيف الدين جماعةٌ من أصحابه بقتالهم على هذا الحال ، فقال زلفندار :

"ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجى هذه الساعة، غدا بكرة نأخذهم كلهم "

فتركوا القتال إلى الغد ، فلما أصبحوا يوم الخميس اصطفوا للقتال ، وكان فى ميمنة(١) سيف الدين مظفُر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجَك — صاحب إربل — ، فكسر ميسرة(٢) السلطان ، ثم حمل السلطان بنفسه فانكسروا بين يديه ، فلم يقف منهم أحد على أحد ، فأسر جماعة من أمرائهم الأكابر ، منهم فخر الدين عبد المسيح ، فمَنَّ عليهم وأطلقهم ، واستولى السلطان على جميع مخيمهم وسرادق(٣) سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاه .

ثم ركض السلطان وراء سيف الدين فلم يدركه ، فعاد وخلع على [بقية](٤) الأمراء المأسورين ، ومَنَّ عليهم ، ونزل فى السرادق [١٨٨] السيفى فتسلمه بخزائنه واصطبلاته ، ومطابخه (٥) ، ففرقها جميعا ، ورأى فى السرادق طيورا من القمارى والبلابل والهزارات(٦) والببغاء فى الأقفاص ، فاستدعى السلطان

---

(١) الأصل : " ميسرة " والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٤١) .

(٢) س : " ميمنة " وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٣) س : " وهرب سيف الدين غازى وابن أخيه عز الدين فرخشاه فاستولى السلطان على سرادقهم " .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٦٩ ا) .

(٥) الأصل : " ومفاتحه " ، وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٥) .

(٦) الأصل : " والقرارات " والتصحيح عن س والعماد .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (٦٩ ا — ب) .

مظفر [الدين][1] الأقرع ، — وهو أحد ندماء سيف الدين —[2] ، فقال له :

" خذ هذه الأقفاص ، واذهب بها إلى سيف الدين ، وسلم عليه عنا ، وقل له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهى أسلم لك عاقبة من الحرب ".[3]

ووصل سيف الدين ومن معه [ركضا][4] إلى حلب ، وترك بها أخاه عز الدين مسعود فى جمع من العسكر وعاد إلى الموصل وهو لا يصدق بالنجاة ؛ [وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال] ،[4] ولم يقتل فى هذا المصاف مع كثرته إلا رجل واحد .

ولما وصل سيف الدين الموصل استشار وزيره جلال الدين ، ومجاهد الدين قايماز ، فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية ، فقال له مجاهد الدين : " أرأيت إن ملكت الموصل عليك أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل ؟ " فقال : " لا " ، فقال : " برج فى الفصيل خير من العُقر ".

وما زال الملوك منهزمين ، ويعاودوا فى الحرب ، واتفق هو والوزير على شد أزره ، وتقوية قلبه [فأقام مكانه ، ووصل إليه أخوه عز الدين بمن اجتمع إليه من العسكر المنهزم ، وتراجعت بقية العساكر إلى الموصل ، والحلبيون إلى بلادهم][4] وغلّط ابن الأثير فى تاريخه ما ذكره عماد الدين فى البرق [الشامى] : وهو أن عسكر سيف الدين فى هذه الوقعة كان عشرين ألف فارس .

وقال : " عسكر الملك الناصر صلاح الدين لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف فارس ".

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٦٩ أ) .

(٢) س : " ومن أخذ بدمام سيف الدين " .

(٣) أضاف ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٥) قوله : " ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات . . واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية " .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٦٩ أ ـ ب) .

قال [ابن الأثير] : " إني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر في المصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية [1] وغير ذلك ، وكان المتولى لذلك والكاتب له أخى مجد الدين أبي السعادات المبارك ، قال : " وإنما قصد عماد الدين فى تاريخه تعظيم صاحبه ، وأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا ، والحق أحق أن يتبع " .

ولما كسر السلطان الملك الناصر المواصلة والحلبيين هنأه عماد الدين بقصيدة منها :

فالحمدُ لله الذي إفضالُه حُلْوُ الجنا ، عالِي السَّنا ، وضَّاحُه
عاد العدوُّ بِظُلْمَةٍ من ظُلْمِهِ في ليلٍ ويلٍ قد خبا مِصباحُهُ
وجنا عليه جهلُهُ بوقوعِهِ في قبضةِ البازى، فهِيضَ [2] جناحُهُ
[١٨٩] حملَ السلاحَ إلى القتالِ، وما درى أنَّ الذى يجْنى عليه سلاحُهُ
أضحى يريد مواصليه صُدودَه، وغدا يُجِيد رثاءَه مُدَّاحُهُ
إنْ أفسدَ الدينَ العداةُ [3] بِخُبْثِهِم، [4] فالناصرُ الملكُ الصلاحُ صَلاَحُهُ
قد كان عزمُك للإلهِ مصمماً فيهم ، فلاحَ كما رأيتَ فَلاَحُهُ
فكأنى بالساحل الأقصى ، وقد ساحتْ بِبَحْرِ [5] دَمِ الفرنجةِ ساحُهُ

---

(١) س (٦٩ ب) : "وجناحين" وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ١٦٢) ، والجاليش أصلا معناها الراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت على مقدمة القلب فى الجيش أو على الطليعة منه . أنظر تعليقات الدكتور زيادة فى (السلوك ، ١ ، ص ٦٢٨ ج و٦٩٢) .

(٢) فى الأصل : "مهيض" ، وما هنا عن الروضتين ، وفى س : "فقص" .

(٣) كذا فى الأصل وفى س ؛ وفى الروضتين : "الغلاة" ؛ وفى (العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨) : "العصاة" .

(٤) الأصل : "بجنبهم" ، والتصحيح عن الخريدة والروضتين .

(٥) الأصل : "بنحر" وما هنا رواية الخريدة ، والقصيدة فى الخريدة كثيرة الأبيات ، فراجعها هناك .

فاعبر إلى القومِ الفراتَ ليشربوا الـ ـموتَ الأُجاجَ ، فقد طما طَمّاحُهُ(١)
لِتفُكَّ من أيديهمُ رَهْنَ الرُّها عجلا ، ويدرِك لَيْلَها إِصْباحُهُ
وابغوا لحرَّانَ الخلاصَ ، فكم بها حرَّانُ قلبٍ نحوكم مُلْتاحُهُ
نجُّوا البلادَ من البلاءِ بِعَدْلكم ، فالظلمُ بادٍ فى الجميع صُراحُهُ
واستفتِحوا ما كان من مُسْتَغلِقٍ منها ، فربُّكمُ(٢) له فتَّاحُهُ
أنتم رجالُ الدهرِ ، بل فرسانُهُ ، ولذى(٣) الحلومِ الطائشاتِ رِجاحُهُ
فُتَّاكُهُ ، نُسّاكُهُ ، ضُرّارُهُ ، نُفّاعُهُ ، مُنّاعُهُ ، مُنّاحُهُ
وأبو المظفرِ يوسفٌ مِطْعامُهُ ، مِطْعانُهُ ، مِقْدامُهُ ، جَحْجاحُهُ
وإذا انتدى فى مَحْفِلٍ نَحَّابُهُ ، وإذا غدا فى جَحْفَلٍ فَوَّاحُهُ

ذكر ما فتح السلطان من البلاد بعد الكسرة

ثم صار السلطان إلى بُزاعة ، فتسلمها لثمان بقين من شوال من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة — ، ثم فتح منبج ، وكان السلطان حنقا على صاحبها قطب الدين بن ينال بن حسان لفظاظته التى قابله بها حين أرسله الحلبيون إليه ، فتسلم منه قلعة منبج بما فيها ، فقُوِّم ما كان فيها بستمائة(٤) ألف دينار

(١) كذا فى الأصل وفى س ؛ وفى الروضتين : « طفاحه » ، و بهذا البيت تنتهى (ص ٦٩ ب) فى نسخة س ، ثم يتبع ذلك سقط كبير فى نحو الثلاثين صفحة ، و بذلك تقف المقابلة بين النسختين ، وسنحاول المقابلة بين الأصل هنا و بين المراجع الأخرى لتقويم النص وتصحيحه .

(٢) الأصل : « فرأبكم » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) فى الأصل : « ولذا » ، وما هنا عن الروضتين والخريدة (ج ١ ، ص ٢٢) .

(٤) كذا فى الأصل ، وعند العماد وابن أبى طى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٧) : « بثلاثمائة ألف دينار » .

من عين ونقد ومصوغ ومنسوج وغلات وغير ذلك ، وسامه السلطان أن يخدمه ويرد عليه ماله، فأبى وأنف وكبرت نفسه ، ومضى إلى سيف الدين — صاحب الموصل — فأقطعه الرّقة ، فبقى فيها إلى أن أخذها السلطان منه فى سنة [١٩٠] ثمان وسبعين وخمسمائة .

ولما فتح السلطان منبج قال عماد الدين الأصفهانى :

نزولُك فى منبجٍ على الظَّفَرِ المُبْهِجِ
ونُجْحُكَ فى المرتجى وفَتحُكَ للمُرْتَجِ[1]
دليلٌ على نُجْحِ[2] ما تُحاولُ أو ترتجِى
أمورُك فيما ترو مُ واضحةُ المَنْهَجِ
وشانيكَ دامى الشؤ ونِ منك ، شقِىٌ شَجِى
ومَنْ كان فى حِصْنِه ومِنْ قَبْلُ لم[3] يَخْرُجِ
يُقالُ له : ليس ذا بعُشِّكَ ، قُمْ فادْرُجِ
فرأيُك يستنزلُ الـ ـنجومَ من الأبْرُجِ
فَعَجِّلْ عبورَ الفرا تِ ، واسرِ، وسِرْ، وأدْلِجِ
وَعُجْ نحو تلك البلا دِ ، وعن غيرها عَرِّجِ
فحرَّانُ والرَّقتا نِ تاليتا مَنْبِجِ
وحلّ عن المسلمـ ـين ليلَهُمُ المُدْلِجِ

(١) الأصل : « فى المرتج » والتصحيح عن الروضتين .
(٢) الأصل : « كلما » والتصحيح عن الروضتين .
(٣) الأصل : « ما » وما هنا عن الروضتين .

ذكر استيلاء الملك الناصر على عزاز

وقفز الملاحدة عليه[١]

ثم سار السلطان إلى أعزاز فحاصرها ثمانية وثلاثين يوما ، وضيّق على من بها ونصب عليها المجانيق[٢] ، وقُتل عليها كثير من عسكره .

ولما كانت ليلة الأحد حادى عشر ذى القعدة قفزت الملاحدة على السلطان ، وكانت للأمير جاولى الأسدى خيمةٌ قريبة من المجانيق ، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات ، ويحرض الرجال على الحروب ، فحضر تلك الليلة والباطنية فى زى الأجناد وقوف بين يديه ، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينة ، فلولا المغفر[٣] الزرد كان تحت القلنسوة لقتله ، فأمسك السلطان يد الباطنى بيديه ، ولم يقدر على منعه من الضرب بالكلية[٤] ، فبقى يضربه فى عنقه ضربا ضعيفا ، وعلى السلطان كزاغُنْد ،[٥] فكانت الضربات تقع فى زيق الكزاغُنْد

(١) يقصد بهم إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين أو الحشيشية ، ولعلهم يقصدون بهذه المحاولة الثأر للدولة الفاطمية التى قضى عليها صلاح الدين . وهذه ثانى مرة يحاولون فيها اغتيال صلاح الدين . انظر ما فات هنا ص ٢٤ ، وعن هذا الموضوع راجع أيضا :

(B. Lewis: *Saladin and the Assassins. B.S.O.A.S. 1953, XV/2*).

(٢) أنظر (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٣) المغفر لفظ عربى : وله فى (اللسان) جملة تعريفات ، قال : المغفر والمغفرة والغِفَارَة زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وقيل هو رفرف البيضة ، وقيل هو حلق يتقنع به المتسلح ، وقيل حلق يجعلها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه ، قيل وربما كان المغفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقيها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع ثم يلبس البيضة فوقها ، فذلك المغفر يرفل على العاتقين ، وربما جعل المغفر من ديباج وخز أسفل البيضة .

(٤) الأصل : « من الكلية » وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٢) .

(٥) الكزاغند — أو القزاغند — (والجمع كزاغنديات وقزغنديات) لفظ فارسى معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية ، وكان يصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد ، ويقابله فى الفرنسية Jacquette وفى الإنجليزية Surcoat . أنظر : (Dozy : *Supp Dcit Arab*)

فتقطعه والزرد [١٩١] يمنعها من الوصول إلى رقبته ، وأدرك السلطانَ مملوكُه سيف الدين بازكوج[1] فأمسك السكين بكفه ، فجرحه الباطنى فلم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطنى وبضع وقطع ، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان [الكردى] فمنعه ، وجرحه الباطنى فى جنبه فمات ، وقُتل الباطنى ، وجاء آخر فعانقه الأمير على بن أبى الفوارس وضمه من تحت إبطيه ، وبقيت يد الباطنى من ورائه لا يتمكن من الضرب ، ونادى [علىٌّ] :

" اقتلونى معه فقد قتلنى وأذهب قوتى " .

فطعنه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه فقتله، وخرج آخر من الخيمة منهزما، فثار عليه أهل سوق العسكر فقطعوه .

وركب السلطان إلى خيمته ، وقد ارتاع لهذه الحادثة ، ودمه سايل على خده ، وطوق كَزاغُنْده مبلول ، واحتجب عن الناس ، واحتاط ، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخَرْكاه[2] تازيرا ، وجلس فى بيت خشب ، واحترس من الجند فمن أنكره أبعده ، ومن عرفه أقره .

ولازم حصار عزاز ثمانية وثلاثين يوما ، وكان كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب بها ، فأذعن من بها ، وتسلم القلعة حادى عشر ذى الحجة .

---

(١) الأصل : « يازكوج » وما هنا عن العماد والقاضى الفاضل (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٨)

(٢) الخركاه — والجمع خركاوات — لفظ فارسى ، شرحه (Dozy : *Supp Dict. Arab.*) بأنه نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من اللبد .

"Cette espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois, réunis en forme de coupole, et sur lesquels on étend des pièces de feutre".

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر لحلب
ووقوع الصلح بينه وبين الحلبيين

ثم رحل السلطان من عَزَاز ، ونزل على حلب فى منتصف ذى الحجة ، وكان سعد الدين كُمُشْتِكين قد خرج إلى حصن حارم، فحيل بينه وبين العود إلى حلب، ثم تضرع فى الدخول إليهم واحتال ، فتم له ما أراد بالسؤال .

ودخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة والسلطان محاصر حلب ، فراسلوه وتذللوا له ولاذوا بعفوه وصلحه ، فأجابهم إلى الصلح ، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها وأخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين — رحمه الله — فرقَّ لها وأكرمها وأطلق لها شيئا كثيرا ، وقال لها : "ماتريدين" ؟ فقالت : "أريد قلعة عزاز" — وكانوا قد علَّموها — فسلمها إليهم ، ثم حلف لهم وحلفوا له ، ودخل فى الصلح المواصلةُ وأهلُ ديار بكر ، وكتب فى نسخة اليمين :

"إنه إذا غدر واحد منهم وخرج عن مقتضى اليمين كان الباقون يدا واحدة عليه".

ذكر بعض المتجددات
لسيف الدين غازى بالموصل

[١٩٢] وفى ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة استوزر سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى جلال الدين[١] الوزير ، فظهرت منه كفاية ومعرفة بأمور الدواوين وفضيلة تامة ، وكان عمره لما ولى الوزارة

---

(١) عرف به (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٤) قال : هو جلال الدين أبو الحسن ابن جمال الدين محمد بن على ، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكى .

خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ، فشفع فيه كمال الدين بن بلسان[1] — وزير صاحب آمد — ، وكان مزوّجا لبنته ، فأطلق ، وسار إليه ، وبقى بآمد مدة يسيرة مريضا ، ثم توجه إلى دنيسر ، وتوفى بها ، سنة أربع وسبعين ، وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها فى موسم الحاج إلى المدينة فدفن عند والده — رحمه الله —

وفى ذى الحجة سنة إحدى وسبعين استناب سيف الدين غازى بقلعة الموصل مجاهدَ الدين قايماز ، ورد إليه جميع الأمور ، وكانت بيده إربل وأعمالها ، على سبيل الأتابكية لزين الدين يوسف بن الأمير زين الدين على كوجك وهو صغير وكان زين الدين على كوجك لما توفى ملك ولدُه مظفر[2] الدين [أبو سعيد] كوكبورى ، ثم جرى ما اقتضى نقل الأمر إلى أخيه زين الدين يوسف ، فلم يزل الأمر لزين الدين يوسف إلى أن توفى ، ورجع ملك إربل لمظفر الدين أخيه — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى —

ذكر منازلة

الملك الناصر مصياف وبلد الباطنية[3]

لما صالح السلطان الحلبيين قصد بلد الباطنية ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه ، وكان رحيله من حلب يوم الجمعة عاشر المحرم سنة اثنين وسبعين وخمسمائة فنازل حصنهم مصياف ، ونصب عليه المجانيق الكبار ، وأوسعهم قتلا وأسرا ،

(١) الأصل : « نيسان » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٠) .

(٢) الأصل : « المظفر » ، وقد صحح الاسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٤) و (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة إربل) .

(٣) سموا الباطنية لأنهم ينسبون لكل ظاهر باطنا ، ويقولون : الظاهر بمنزلة القشور ، والباطن بمنزلة اللب المطلوب . (محمد بن الحسن الديلمى اليمانى : قواعد عقائد آل محمد ، ص ٣٤) . وعن العلاقات بينهم وبين صلاح الدين راجع أيضا :

(B, Lewis: *Saladin and the Assassins. B.S.O.A.O. 1953, XV/3*), & (B, Lewis: *The Sovrces far the History of Syrian Assassins, Speculum. 1952. XXVII/4*).

وساق أبقارهم وخرّب ديارهم ، فشفع فى القوم خالُه شهاب الدين محمود بن تكش — صاحب حماة — وكانوا قد راسلوه فى ذلك — لأنهم جيرانه — ، فرحل عنهم وقد انتقم منهم .

وكان الفرنج قد غاروا على البقاع ، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم ، وكان ببعلبك قد أقطعه السلطان إياها ، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو محاصر مِصْياف [١٩٣] ثم وصل السلطان إلى حماة وقد استكمل الظفر .

اجتماع السلطان

بأخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب

كنا قد ذكرنا مسير الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن ، وفى سنة إحدى وسبعين فارق اليمن بعد أن استناب بها ، وقصد خدمة أخيه السلطان الملك الناصر ، فوصل إلى دمشق فى ذى الحجة ، ثم رحل عنها متوجها إلى السلطان فاجتمع به بمدينة حماة ، فتعانقا فى المخيم فى الميدان ، وسر السلطان بلقياه سرورا شديدا ، وكان عند مفارقته اليمن قد كتب إلى السلطان كتابا ضمنه أبياتا من شعر ابن المنجم[1] المصرى أولها :

الشـوقُ أولعُ بالقلوبِ وأوجَعُ ، فَعـلامَ أدفعُ منـه مالا يُدفَعُ

ومنها :

وحماتُ من وَجْدِ الأحبةِ مفرداً ما ليس يحـمله الأحبةُ أجمـعُ
لا يستقرُّ بِىَ الهوى فى موضعٍ إلا تقاضانى الترحُّلَ مَوضِـعُ

(١) هو نشو الدولة على بن مفرج المنجم . انظر ترجمته فى : (العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٦٨ — ١٦٩) و (السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٦) .

وإلى صلاح الدين أشكو إنّنى ... مِنْ بُعْدِهِ مُضْنى الجوانحِ مُوجَعُ
جَزِعاً لبُعْدِ الدارِ عنه ، ولم أكن ... — لولا هواه — لبعد دارٍ أجْزَعُ
فلأركبنَّ إليه مَتْنَ عزائمى ، ... ويخبُّ بى ركبُ الغرامِ ويُوضِعُ
حتى أشاهدَ منه أسعدَ طالعةٍ ... من أفقِها صبحُ السعادةِ يَطْلُعُ

فكتب إليه السلطان كتابا ضمنه قصيدة لعماد الدين الكاتب منها :

مولاى شمسَ الدولةِ الملك الذى ... شمسُ السيادةِ من سناه تَطْلُعُ
مالى سواك من الحوادثِ ملجأٌ ، ... مالى سواك من النوائبِ مَفْزَعُ
ولأنت فَخْرَ الدين فَخْرى فى العلا ... وملاذُ آمالى وركنى الأمْنَعُ
وبغيرِ قُرْبِك كلما أرجوه من ... دَرْكِ المنى متعذِّرٌ متمنّعُ
النصرُ إن أقبلتَ نحوى مقبلٌ ، ... واليمنُ إن أسرعتَ نحوى مُسْرِعُ

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها سابع عشر صفر ، وملكها لأخيه الملك المعظم [١٩٤] شمس الدولة ، وعزم على العود إلى الديار المصرية .

وفى المحرم من هذه السنة — أعنى سنة اثنين وسبعين وخمسمائة — توفى القاضى كمال الدين الشهرزورى (١) ، وعمره ثمانون سنة ، وكان فى الأيام النورية إليه قضاء القضاة والتحكم فى الدولة ، وكان السلطان الملك الناصر متولى الشحنكية (٢) بدمشق أيام نور الدين ، فكان كمال الدين يعكس مقاصده ،

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى ، انظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ — ٣٧٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، صفحات كثيرة منه) و (السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٥٤) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ص ٣٢٧ و ٣٤٠ — ٣٤١) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٦) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٩ — ٨٠) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣) .

(٢) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧ ، هامش ٥) .

ويكسر أغراضه ، ويعترض عليه فى أموره ، لتوخى كمال الدين الأحكام الشرعية ؛ فلما صار الملك الناصر إلى ما صار إليه من الملك وافتتح دمشق صار كمال الدين أحد قضاة بلاده ؛ ولم يؤاخذه على ما صدر منه فى حقه ، بل أكرمه واحترمه واستشاره وعظمه ، وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزورى قد قصد خدمة السلطان بالديار المصرية فى أول ملكه ، فأقطعه وأحسن إليه ، ثم وصل معه إلى الشام ، واستمر فى صحبته ، فلما اشتد بعمه كمال الدين المرض أراد أن يبقى القضاء فى بيته ، فوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين علما منه أن السلطان يمضى ذلك لأجل قدم هجرته عنده ، ثم توفى والسلطان محاصر حلب وجلس ابن أخيه ضياء الدين فى القضاء .

وكان الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبى عصرون[1] قد هاجر من حلب إلى السلطان ، وأنزله عنده بدمشق ، وهو رئيس أصحاب الإمام الشافعى — رحمة الله عليه — فى وقته ، والمقيم بالفتوى فى زمانه فآثر السلطان أن يفوض القضاء إليه ، وكره عزل ضياء الدين بن الشهرزورى ، فأفضى بسره إلى القاضى الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى[2] يتعصب للشيخ شرف الدين لأنه شيخه ، فاستشعر ضياء الدين — لما بلغه ذلك — من العزل ، وأشير عليه بالاستعفاء ، ففعل ، فأعفى ، وأبقيت عليه الوكالة الشرعية عن السلطان فى بيع الأملاك .

ولما استعفى ضياء الدين من القضاء لم يبق فى منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود ، كان ينوب عن كمال الدين ، فأمره السلطان بالاستمرار ، وكان السلطان مائلا إلى بيت زكى الدين [١٩٥] فأمر الشيخ شرف الدين باستنابة

(١) هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن السرى محمد بن هبة الله بن مطهر بن على بن أبى عصرون ابن أبى السرى ، التميمى ، الحديثى ، ثم الموصلى . انظر ترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ، ص ٢٥٦ — ٢٠٩) و (الصفدى : نكت الهميان ، ص ١٨٥ — ١٨٦) .

(٢) للتعريف به انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، هامش ٢) .

القاضى محيي الدين أبى المعالى محمدبن زكى الدين والأوحد داود ، وكُتب لهما بالقضاء توقيعٌ سلطانى ، فكانا فى حكم المستقلين ، وإن كانا فى الظاهر نائبين عن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون .

ولم يزل شرف الدين متوليا للقضاء من سنة اثنين وسبعين إلى أن عاد السلطان من مصر ، فتكلم النـاس فى ذهاب نور بصره ، وأن من يكون أعمى لا يصلح للقضاء ، وفى المسألة وجهان، واختار شرف الدين وجه الجواز وكأنه الأظهر إذ لا يمتنع أن يعتمد على تعريف عدلين بمن يحضر من الخصوم كما فى المترجمين بالنسبة إلى القاضى الأصم ، فأشار القاضى الفاضل [1] على السلطان أن يفوض القضاء إلى ولده محيي الدين أبى حامد محمد بن شرف الدين ، ويكون هو الحاكم فى الحقيقة ، ويظهر أنه نائب عن أبيه ، بحيث لا يظهر للنـاس صرفه عن القضاء ، ففعل السـلطان ذلك ، واستمر هـذا الأمر إلى سـنة سبع وثمـانين وخمسمائة ، فصرف عن القضاء، واستقل به القاضى محيي الدين بن زكى الدين إلى آخر أيام السلطان الملك الناصر — رحمه الله — .

وفى أواخر صفر من هذه السنة — أعنى سنة أثنتين وسبعين وخمسمائة — تزوج السلطان بعصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين أُنَر التى كانت زوجة نور الدين — رحمه الله تعالى — .

---

(١) ذكر ابن خلكان أن شرف الدين هذا صنف جزءا لطيفا فى جواز قضاء الأعمى ، ثم علق على هذا الحادث بقوله : « ورأيت فى كتاب (الزوائد) تأليف أبى الحسن العمرانى صاحب كتاب (البيان) وجها أنه لا يجوز ، ووقع لى كتاب جميعه بخط السلطان صلاح الدين — رحمه الله تعالى — قد كتبه من دمشق إلى القاضى الفاضل وهو بمصر، وفيه فصول من جملتها حديث الشيخ شرف الدين المذكور ، وماحصل له من العمى ، وأنه يقول إن قضاء الأعمى جائز ، وإن الفقهاء قالوا : إنه غير جائز ، فتجتمع بالشيخ أبى الطاهر بن عوف الإسكندرانى ، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى ، هل يجوز أم لا ؟ وبالجملة فلا شك فى فضله » . وقد ناقش هذه المشكلة (الصفدى : نكت الهميان ، ص ٦٠ — ٦١) .

ذكر مسير

الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية

ثم أزمع السلطان العود إلى الديار المصرية بعد أن قرر بدمشق أخاه الملك المعظم ، فتقدمه الأمراء من أصحابه ، والملوك من أهل بيته ، وخرج من دمشق فى يوم الجمعة لأربع بقين من ربيع الأول ، والتقاه أخوه ونائبه الملك العادل .

ولما استقر السلطان بداره بالقاهرة أمر ببناء السور [1] الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم ، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمى ، وذلك بما فيه من ساحل القاهرة والقامة بالجبل ، من ذلك : ما بين قامة المقسم [2] التى على

---

(١) بنى حول القاهرة ثلاثة أسوار : الأول بناه جوهر عند إنشاء القاهرة وأداره على القصر والجامع والمناخ الذى نزل به هو وجنوده ، وكان هذا السور من اللبن ، وقد أدرك المقريزى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ ، والسور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠ هـ وزاد فيه الزيادات التى أضيفت إلى القاهرة ، وبنى هذا السور من اللبن أما الأبواب فبنيت من الحجارة ، والسور الثالث — وهو المشار اليه هنا فى المتن — ، وبدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ وهو لا يزال وزيرا للعاضد ، وبعد استقلاله بمصر انتدب فى سنة ٥٦٩ هـ بهاء الدين قراقوش الأسدى للاشراف على بنائه بحيث يضم بين جنباته القاهرة والقلعة والفسطاط جميعا . انظر الفصل الذى عقده المقريزى للحديث عن سور القاهرة فى (الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٩) .

(٢) عرف (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٤ : ص ٥٣) المقس — نقلا عن القضاعى — بقوله : « المقس كانت ضيعة تعرف بأم دنين ، وإنما سميت المقس لأن العشّار وهو المكّاس كان فيها يستخرج الأموال ، فقيل له المكس ، ثم قيل المقس » ، وقد حرف اللفظ فيما بعد إلى المقسم كذلك ، وقد علق المرحوم محمد رمزى على هذا بقوله ، « المقس ، والمكس ، والمقسم ، وأم دنين كلها أسماء مترادفة لقرية كانت واقعة على شاطىء النيل وقت أن كان النيل يجرى فى عهد الدولة الفاطمية فى المكان الذى يمر فيه اليوم شارع عماد الدين وميدان محطة مصر وما بعده إلى الشمال بشارع الملكة نازلى ، وكان المقس فى عهد الدولة الفاطمية مقصورا على قرية المقس التى كانت واقعة فى المنطقة التى =

شاطىء النيل وبين البرج بالكوم الأحمر [1] بساحل مصر [١٩٦] عشرة آلاف وخمسمائة ، وما بين القلعة بالمقسم وحائط قلعة الجبل [2] بمسجد سعد الدولة [3] ثمانية [4] آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ودائر القلعة [بالجبل] [5] بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع ، وذلك طول قوسه فى أبراجه وأبدانه ، ومن النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل ، [6] وذلك بتولى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فشرع فى بناء القلعة وقطع الخندق [7] وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه ، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القلعة عليها ، ودخلت فى الجملة ، وحفر فى رأس الجبل

= يقع فيها اليوم جامع أولاد عنان لغاية شارع قنطرة الدكة ، ويدخل فيها مدخل شارع إبراهيم باشا والمبانى التى على جانبيه لغاية الدرب الإبراهيمى . أما قلعة المقس فقد حدد موضعها المرحوم محمد رمزى (المرجع السابق ، ص ٣٩ ، هامش ٤) بقوله : « ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد » .

(١) الكوم الأحمر كان واقعا عند فم الخليج على جانبه الغربى فى نهاية شارع قصر العينى من الجهة الجنوبية .

(٢) الأصل : القلعة بالجبل ، والتصحيح عن (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

(٣) كان مسجد سعد الدولة واقعا بقلعة الجبل بجوار برج المبلات المشرف اليوم على تربة يعقوب شاه المهمندار التى فى الجنوب الشرقى لسور القلعة ، تعليقات المرحوم محمد رمزى فى (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١ ، هامش ١) .

(٤) الأصل : « ثلاثة » والتصحيح عن خطط المقريزى والنجوم الزاهرة ، الأجزاء والصفحات المذكورة سابقا .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤١) .

(٦) هذا النص مصدره الأصيل : العماد الأصفهانى . انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٨)

(٧) ذكر (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ — ١٨٠) أن جوهرا قصد باختطاط القاهرة حيث هى « أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعسكره ... واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة » .

بئرا[1] ينزل فيه بالدرجة المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين ، ولم يتأت هـذا بتمامه إلا بعد موت السلطان ، فإنه توفى وقد بقى من السور مواضع .

وبعد ذلك كمَّله السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل — رحمهما الله —[وأنشأ] العمارات بالقلعة ، وبنى الآدر السلطانية ، وسكنها ، ولم يسكنها أحد قبله من أهل بيته [2] وإنما كان سكناهم بدار الوزارة [3] ، ثم استمرت السكنى للملوك بالقلعة إلى يومنا هذا .

وأمر السلطان الملك الناصر ببناء المدرسة [4] التى عند قبر الإمام الشافعى —

---

(١) هذه البئر لا تزال موجودة فى القلعة وتعرف ببئر يوسف ، وقد وصفها ابن تغرى بردى — نقلا عن ابن عبد الظاهر — (النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٠) بقوله : « وحفر البئر التى بقلعة الجبل أسارى الفرنج ، وكانوا ألوفا ، وهذه البئر من عجائب الأبنية ، تدور البقر من أعلاها وتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء تنزل البقر إلى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل وماؤها عذب ، سمعت من يحكى عن المشايخ أنها لما حفرت جاء ماؤها حلوا ، فأراد قراقوش الزيادة فى مائها فوسعها ، فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها » .

(٢) بدأ صلاح الدين فى إنشاء قلعة الجبل سنة ٥٧٢ ﻫ وكان يقيم بها بعض الأيام ، وسكنها ابنه الملك العزيز عثمان فى أيام أبيه مدة ، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة . وقد تم بناء القلعة فى سنة ٦٠٤ ﻫ فى عهد الملك الكامل محمد الذى انتقل إليها واتخذها دار ملك ، وظلت كذلك إلى عهد الخديو إسماعيل حيث نقلت منها دواوين الحكم إلى دور أخرى فى قلب القاهرة . انظر : (المقريزى : الخطط ، ج٢ ص ٢٣٠ — ٢٣٦) وتعليقات محمد رمزى (النجوم الزاهرة : ج٦ ، ص ٥٤ ، هامش ١) .

(٣) انظر : (المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٤) و (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٦٤ ، هامش ١) .

(٤) المعروف أن هـذه المدرسة بدئ فى بنائها سنة ٥٧٢ ﻫ ولكن الرحالة ابن جبير زار مصر سنة ٥٧٨ ﻫ وشاهد هذه المدرسة وهى لاتزال فى دور البناء والتأسيس ووصفها فى رحلته (ص ٤٨) بأنها " مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله " =

رحمه الله — بتولى الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى (١) وأمر باتخاذ دار فى القصر بيمارستانا (٢) للمرضى ، ووقف عليه وعلى المدرسة وقوفا كثيرة .

ثم رحل السلطان ، وذلك لثمان بقين من شعبان من هذه السنة ، واستصحب ولديه الملك الأفضل نور الدين عليا والملك العزيز عماد الدين عثمان — رحمهما

= وقد سميت هذه المدرسة فيما بعد "بالناصرية" نسبة إلى منشئها الملك الناصر صلاح الدين ، وقد ذكرها (المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص ٢٥١) باسم "المدرسة الناصرية بالقرافة" ، وقال إن صلاح الدين رتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعى وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة ، ورتب لجميع الرواتب الشهرية ، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها . وموضع هذه المدرسة الآن جامع الإمام الشافعى .

(١) هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبد الله الخبوشانى الشافعى المعروف بنجم الدين ، هو أصلا من خبوشان وهى بليدة بناحية نيسابور ، قدم مصر سنة ٥٦٥ هـ وكان يكره الفاطميين ويهاجمهم ، وكان صلاح الدين حسن العقيدة فيه ، وقد مدحه بعض من ترجموا له فقال (ابن خلكان : الوفيات ، ج٣ ، ص٣٧٤) إنه كان فقيها فاضلا كثير الورع . وقال (السبكى طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص١٩٠) هو الفقية الصوفى أحد الأئمة علما ودينا وورعا وزهدا . أما (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص٤١٤) فقد انتقصه وجرحه ، قال : "وكان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابونى وزين الدين بن نجية ، ويكفرونه ويكفرهم ، وكان طائشا متهورا ، نبش قبر ابن الكيزانى ، وأخرج عظامه من عند الشافعى ، وكان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، فلما مات وجد له ألوف دنانير ، وبلغ صلاح الدين فقال : "يا خيبة المسعى" ، وكان يبعث إليه بالصدقات فيأخذها لنفسه ، ولما توجه سيف الإسلام إلى اليمن جاء يعوده ويستقضى حوائجه ، فقال له الخبوشانى : "لى إليك حاجة" قال : وما هى ؟" قال : "تضرب رقبة كل من فى المدينة ومكة ، وتأخذ أموالهم ، وتسبى نساءهم ، وقد أبحت لك ذلك" فقام سيف الإسلام من عنده وهو يسبه ، وقال : "أنظروا إلى هذا الرقيع يبيح دماء جيران الله ودماء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم" . وكانت وفاته فى صفر ، وسكنت الفتن ، واصطلح الناس وكان سيء الخلق قبيح العشرة ، وولى بعده تدريس مدرسة الشافعى شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه" .

(٢) البيمارستان المستشفى ، وهى كلمة فارسية مكونة من لفظين "بيمار" ومعناها مريض ، و "ستان" ومعناها مكان . وقد أنشأ صلاح الدين هذا البيمارستان سنة ٥٧٧ هـ مكان قاعة بالقصر الكبير بناها العزيز بالله الفاطمى فى سنة ٣٨٤ هـ ، وكان القرآن مكتوبا على حيطانها . وذكر محمد رمزى فى تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص١٠١ ، هامش ٣) أن موضع هذا البيمارستان اليوم مجموعة المبانى الواقعة خلف دورة مياه جامع سيدنا الحسين من الجهة البحرية إلى عطفة القزازين ، وكان الدخول إليه من باب قصر الشوك بدرب القزازين بقسم الجمالية" .

الله — فوصل إلى ثغر دمياط[١]، وبها سبي كثير جابه الأسطول، ثم رحل إلى ثغر الإسكندرية[٢] وتردد إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِلَفي[٣] — رحمه الله — في كل جمعة ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت، وإنما استصحب ولديه في هذه السفرة ليسمعهما الحديث النبوي وتعمهما البركة .

ثم عاد السلطان إلى القاهرة، فصام بها بقية شهر رمضان، ووفّر نهاره بهـا على نشر العـدل وإفاضة [١٩٧] الجود، وسماع حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — وإشادة قواعد الشرع المطهر، ومدحه كاتبه عماد الدين بقوله :

فـديتُكَ من ظالمٍ مُنْصِفِ ‏ ‏ ‏ ‏ وناهيكَ من باخلٍ مُسْرِفِ[٤]

(١) انظر: (الدكتور جمال الدين الشيال: مجمل تاريخ دمياط، ص١٨) .

(٢) انظر: (الروضتين، ج١، ص٢٦٩؛ ج٢، ص٢٤) و(الدكتور جمال الدين الشيال الاسكندرية، طبوغرافية المدنية وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ص٢١٨ و٢١٩ و٢٢٢) .

(٣) هو أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحدث المشهور، والسلفي لقب جده نسبة إلى سِلَفَة، وهو لفظ أعجمي معناه ثلاث شفاه، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، وقد تلقى دراسته الأولى بأصبهان، ثم حج وسمع بالحرمين وطوف بالبلاد في طلب الحديث، فزار بغداد ودمشق وصور، وانتهى به المطاف إلى الإسكندرية في سنة ٥١١هـ، وظل مقيما بها إلى أن توفي سنة ٥٧٦، ودفن كما يقول ابن خلكان "في وعلة، وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر"، وقد بنى له العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظافر مدرسة بالاسكندرية، وهي إحدى مدرستين بنيتا في الاسكندرية قبل عصر صلاح الدين . وللحافظ السلفي كتاب قيم عنوانه "معجم السفر" ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالاسكندرية وتوجد منه صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم ٣٩٣٢ . انظر: (ابن خلكان: الوفيات، ج١ ص٨٧ — ٩٠) و(النجوم الزاهرة، ج٦، ص٨٧ و١٢٧) و(السبكي: طبقات الشافعية، ج٤، ص٤٣) و(السيوطي: طبقات الحفاظ، ج٢، ص٣٩) و(السيوطي: حسن المحاضرة ج١، ص١٦٥) و(ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٥) و(الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤) و(ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٠٧) و(المقريزي: اتعاظ الحنفا، نسخة طوب قبوسراي، ص١٤٣ ب) .

(٤) كذا في الأصل وفي (الروضتين، ج١، ص٢٦٩)؛ وفي (العماد: الخريدة، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٥): "مسعف"؛ والمقتبس هناك من هذه القصيدة تسعة وعشرون بيتا، ليس من بينها مما هنا إلا البيتان الأولان .

أيبلغُ دهرىَ قصدى وقد قصدتُ بمصرَ ذُرَى يُوسُفِ ؟
ويُوسُفُ مصرَ — بغيرِ التقى وبذلِ الصنايع — لم يُوصَفِ
فسِرْ وافتح القُدْسَ ، واسْفِكْ به دما متى تُجْرِها تنظِفِ
وأهْدِ إلى الاسبتار البتَّارَ ، وهُدَّ السقوفَ على الأسْقُفِ
وخَلِّصْ من الكفرِ تلك البلا دِيخلصك ربُّكَ[1] فى الموْقِفِ

ووصلت رسل سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل وصاحب ماردين وصاحب الحصن إلى دمشق ، واستحلفوا الملك المعظم شمس الدولة [تور انشاه ابن أيوب] ، ثم قصدوا مصر ، فوقع فى الأسر رسول صاحب حصن كيفا وماردين [2] .

ثم خرج السلطان — رحمه الله — من القاهرة إلى مرج فاقوس — من الأعمال الشرقية لخيم به لإرهاب الفرنج ، ولازم الركوب للصيد والقنص .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) : " الله " .

(٢) جاء فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩) — نقلا عن ابن أبى طى — أن الذى أمر هو رسول صاحب حصن كيفا فقط ، قال : " قال ابن أبى طى : وصل رسول الموصل القاضى عماد الدين ابن كمال الدين الشهرزورى بهدية وقَوَد ، فخرج الموكب للقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه ، وقدم رسول نور الدين قرا أرسلان ، ورسول صاحب ماردين بهدايا ، واجتمعوا فى دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأسر رسول صاحب الحصن ، ولم يزل فى الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان ، فأطلقه وأحسن إليه ".

ذكر عصيان
صاحب شهر زور على سيف الدين غازى ، وعوده إلى الطاعة

وكان بشهرزور شهاب الدين محمد بن بزان فى طاعة سيف الدين غازى بن مودود ابن زنكى وفى خدمته ، وكان مجاهد الدين قايماز بإربل متوليا أمورها ، وقائما بأتا بكية زين الدين يوسف بن زين الدين على — كما ذكرنا — ، فلما فوض إلى مجاهد الدين النيابة عن سيف الدين غازى ، وكان بينه وبين شهاب الدين عداوة ، خاف ابن بزان بأن يناله منه أذى ، فأظهر الامتناع عن النزول إلى الخدمة ، فأرسل إليه الوزير جلال الدين — وزير سيف الدين — كتابا يأمره فيه بمعاودة الطاعة ، ويحذره عاقبة المخالفة ، فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل .

ودخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة والسلطان الملك الناصر نازل بمرج فاقوس ؛ ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها إلى ثالث جمادى الأولى من السنة .

ذكر وقعة الرملة

ثم خرج السلطان الملك الناصر — رحمه الله — من القاهرة على نية الجهاد يوم الجمعة ثالث جمادى [١٩٨] الأولى بعد الصلاة ؛ وخيم ببلبيس خامسه ثم تقدم إلى السدير (١) وخيم بالمبرز (٢) ؛ ثم نودى أن خذوا زادكم عشرة أيام أخرى للاستظهار .

(١) وادٍ بين العباسة والخشبى ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان) ، وقال (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٤) عند كلامه عن " العباسة " : هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية من أرض السدير ، وقال : فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مر على السدير — وهو فم الوادى — ، فأعجب به وبنى فى موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية ، وأنشأ بها جامعا ، وذلك فى سنة ٦٦٦ ﻫ .

(٢) لم أجد فى المراجع التى بين يدى تعريفا بهذا الموضع .

ثم رحل بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء لليلة بقيت من جمادى الأولى، فسبا وغنم ، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم ، وتفرق العسكر فى الأعمال مغيرين [١] ، فلما رأوا أن الإفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا ، وتوسط السلطان البلاد .

ولما كان يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة استقل السلطان بعساكره راحلا ليقصدوا بعض المعاقل ، واعترضه نهر [عليه] [٢] تل الصافية ، فازدحمت على العبور أثقال العسكر ، فما شعروا بالفرنج إلا وقد أتوهم فى أطلابهم [٣] وجموعهم ، وجماعة من سرايا المسلمين متفرقون فى الضياع للإغارة ، وكان مقدم الفرنج البرنس أرناط صاحب الكرك ، وكان أسيرا بحلب من أيام نور الدين ، ثم أطلقه الحلبيون على ماتقدم ذكره ، بجرى على المسلمين خلل ذلك اليوم وانكسروا ، فحكى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

" حكى السلطان — رحمه الله — صورة الكسرة فى ذلك اليوم ، وأن المسلمين كانوا قد تعبّوا تعبية الحرب، فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة أن تغيّر الميمنة إلى جهة الميسرة، والميسرة إلى جهة القلب، ليكون فى حالة [اللقاء] [٤] وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما هم يشتغلون فى التعبية ، إذ هجم الفرنج ، وقدّر الله كسر المسلمين فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم

(١) الأصل : " مفترين " والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٣) جمع طُلب ، وقد عرفها الدكتور زيادة فى حواشيه على (السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤٨ ، هامش ٢) بقوله : " وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (Battaillon) من الجيش " . أنظر أيضا : (Dozy; *Supp. Dict. Arab*).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى الأصل ، وقد أضيف بعد مراجعة : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٤٢) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤) .

حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية ،وضلوا فى الطريق ، وتبددوا ، وأسر منهم جماعة فيهم الفقيه ضياء الدين عيسى ، وكان وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين" .

وأبلى تقى الدين فى ذلك اليوم بلاء حسنا ، وثبت وقاتل ، واستشهد جماعة من أصحابه ، وهلك من الفرنج أضعافهم .

وكان للملك المظفر تقى الدين ولد يقال له شهاب الدين أحمد أول ماطرّ شاربه ، استشهد ذلك اليوم بعد ما قتل فارسا ؛ وقد كان له ولد آخر ، يقال له سعدالدين شاهنشاه ، وهو والد سليمان شاه صاحب اليمن الذى سيأتى ذكره ، فوقع شاهنشاه هذا فى أسر الفرنج ، ذلك أن بعض [مستأمنى الفرنج بدمشق] [1] خدعه ، وقال له : " تجئ إلى الملك ، وهو يعطيك الملك " وزوّر له كتابا ، فسكن إلى صدقه وخرج معه ، فلما انفرد به [١٩٩] شدّ وثاقه وحمله إلى الداوية ، وأخذ به منهم مالا ، ولم يزل فى الأسر إلى أكثر من أربع [2] سنين حتى استفكه السلطان بمال كثير ، وأطلق للداوية كلّ من كان لهم عنده فى الأسر .

قال عماد الدين الكاتب :

" فغلّظ القلب التقوى على ذلك الولد خبرُ هلاك أخيه فى ذلك اليوم " .

وتمت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على السلطان ، فقارب حتى يكاد يصل إليه ، فقُتل الفرنجى بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر ، إلى أن دخل الليل فسلك البرية ، ومضى فى نفر يسير إلى بصرى ، ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة ، وقلّ عليهم القوت والماء

(١) الأصل : " من يأتى منهم إلى دمشق " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣) .

(٢) عند العماد (المرجع السابق) : " سبع سنين " .

وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير ، وفُقد [كثير ممن لم يعرف له خبر][1] .

وفُقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان فى صحبتهم ، فضلّ الطريق عنهم [2] ، وكانوا سائرين إلى وراء ، فأصبحوا بقرب الأعداء . فأكنوا فى مغارة ، وانتظروا من يدلهم على بلاد الإسلام ، فوقعوا بمن يزعم أنه يدلهم ، فدلّ الفرنج عليهم ، وسعى فى أسرهم وعطبهم ، فأسروا ؛ وما خلص الفقيه عيسى إلا بعد سنين[3] بستين ألف دينار وفكاك جماعة من أسارى الفرنج ؛ وبالجملة لم تعظم [4] هذه الوقعة إلا بسبب ما اتفق للمسلمين من دخول الرمل وعدم الماء والدليل .

وكان ماقدره الله سبحانه من أسباب السلامة أن القاضى الفاضل كان يستظهر باستصحاب جماعة من [الكنانية][5] والأدلاء ، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وثقاته [6] ، وبثّ أصحابه فى تلك الرمال حتى أخذوا خبر السلطان وقصده ، وانتفع السلطان بتلك الأدلاء الذين معه ؛ وفرّق الفاضل ما كان معه من الأزواد على المسلمين وعلى المنقطعين ، وجمعهم فى خدمة السلطان .

وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج للغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير

---

(١) الأصل : " وفقد كثير لم يظهر لهم خبر " ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن العماد — وهو الأصل المنقول عنه — (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : " عليهم " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٣) الأصل : " سنتين " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٤) الأصل : " يغطهم " ولا يستقيم بها المعنى ، وما هنا قراءة ترجيحية إذ لم يستطع الناشر تصحيحها على المراجع الأخرى ، فهى من تعليق المؤلف وليست من منقوله .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن العماد (المرجع السابق) .

(٦) عند العماد — وهو الأصل المنقول عنه هنا — (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ : " وأثقاله " .

وكان وصول السلطان — رحمه الله — إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة وكتب إلى أخيه الملك المعظم توران شاه يصف له الوقعة بخط يده وأوله :

ذكرتُكَ والخطيُّ يَخْطُرُ بيننا ... وقد نهلتْ منا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

ويقول فى كتابه :

"لقد أشرفنا على الهلاك غير مـدة ، وما نجانا الله تعالى منه إلا لأمر يريده ، [٢٥٠] وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر" .

وفى هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب يمدح الملك المظفر تقى الدين من قصيدة :

سقى (١) اللهُ العراقَ وساكنيه ، ... وحيَّاه حيا الغَيْثِ الهتونِ
وجيرانا أمنتُ الجورَ منهم ، ... فما فيهم سوى وافٍ أمينِ
صَفُوا، والدهرُ ذو كَدَرٍ ، وقُدْماً ... وفوا بالعهدِ فى الزمنِ الخؤونِ
بنو أيوبَ زانوا الملك منهمْ ... بحليةِ سوددٍ وتُقىً (٢) ودينِ
ملوكٌ أصبحوا خَيْرَ البرايا ، ... لخيرِ رعيةٍ فى خير دينِ (٣)
أسانيدُ السيادةِ عن عُلاهمْ ... معنعنةٌ ، مُصَحَّحَةُ المتونِ
بنو أيوبَ مثلُ قريشَ مجداً ، ... وأنت لها كأَنْزَعِهَا البطينِ
أَخَفْتَ الشِرْكَ حتى الذُعْرُ منهم ... يُرى (٤) -قَبْلَ الولادة- فى الجنينِ

(١) الأصل : "سقا" .

(٢) الأصل : "وتقا" .

(٣) الأصل : "حين" والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤) .

(٤) الأصل : "بدا" وما هنا عن المرجع السابق .

ويومَ الرملةِ المرهوبِ بَأْساً ... تركتَ الشركَ منزعجَ القَطِينِ
وكنتَ لعسكرِ الإسلامِ كهْفا ، ... أوى منه إلى حصنٍ حصينِ
وقد عرف الفرنجُ سُطاك لمَّا ... رأوْا آثارَها عَيْنَ اليقينِ (١)

ذكر مقتل

سعد الدين كُمُشْتِكين وشهاب الدين أبى صالح بن العجمى

كان السبب فى ذلك وقوع المنافسة بين مدبرى الملك الصالح بن نور الدين — رحمه الله — ، وأن العدل شهاب الدين أبا صالح بن العجمى استولى على التدبير، وكانت تقدمة الجيوش لسعد الدين ، وله حصن حارم إقطاعا ، إلا أن رفقاءه حسدوا مرتبته ، فمالوا إلى أبى صالح، وصارت الأمور كلها بيده، فوقع بينهما وحشة ، فقفز جماعة من الباطنية يوم الجمعة على أبى صالح بن العجمى فقتلوه ، واستقل سعد الدين بالأمر ، فتكلم فيه حساده ، وقالوا للملك الصالح :

" ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمى إلا كمشتكين ، فهو الذى حسّن ذلك للإسماعيلية " .

وقالوا له :

" أنت السلطان ، [٢٠١] وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر ؟ "

فما زالوا به حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم ، فكتب إلى نوابه يأمرهم بتسليمها إلى نواب الملك الصالح ،فامتنع الذين بها من التسليم، وتحصنوا فيها ، فسيّر سعد الدين تحت الاستظهار ، ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح ، وأمرهم بذلك ، فامتنعوا ، فعُذِّب سعد الدين ، وأصحابه يرونه ولا يرحمونه ،فمات فى العذاب، وأصرّ أصحابه على العصيان ، وذكر أن سعد الدين علق منكوسا ودُخِّن تحت أنفه حتى مات .

---

(١) فى الروضتين بيت أخير لم يثبته المؤلف هنا وهو :

وأنت ثبت دون الدين تحمى ... حماه أوانَ ولّى كلُّ دينِ

ذكر منازلة الفرنج حماة ورحيلهم عنها

ووصل فى هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة — كُنْدٌ كبير من الفرنج إلى الساحل يقال له "اقلندس"، من أكبر طواغيتهم، فاجتمع إليه خلق من الفرنج، وحشدوا، ونازلوا حماة فى العشرين من جمادى الأولى، وصاحبُها يومئذ شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى خال السلطان، وهو مريض، وكان الأمير سيف الدين على بن [أحمد][1] المشطوب بالقرب من حماة، فدخلها، وقاتل الفرنج، ومنعهم من البلد بعد أن كادوا يهجمونه، وأُخرجوا من الدروب، ونصر الله أهل الإسلام؛ ثم رحلوا عن البلد، وكان مدة حصارهم له أربعة أيام.

ذكر منازلة الفرنج حارم

ثم ساروا إلى حارم، ونازلوا حصنها، وأقاموا على حصرها مدة أربعة أشهر، ولما سمع السلطان — رحمه الله — بنزول الفرنج على حارم، عزم على التوجه إلى البلاد الشامية، ليدفع عنها العدو، واستناب بالديار المصرية أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب.

ذكر مسير السلطان — رحمه الله — إلى الشام

ثم رحل السلطان من البركة[2] بعساكره، ووصل إلى دمشق لست بقين من شوال من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة — وتخلّف

---

(١) ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين، ج ١، ص ٢٧٥).

(٢) راجع ما فات هنا فى هذا الجزء، ص ١٨، هامش ٨

القاضى الفاضل بمصر بنية الحج فى السنة القابلة ، ووصل منه كتاب إلى السلطان يذكر فيه :

" أن العدو – خذله الله – نهض ووصل إلى صَدر ، وقاتل القلعة [٢٠٢] ولم يتم له أمر ، وصرف الله شره ، وكفى أمره ؛ ووصل من الفرنج مستأمن وذكر أنهم يريدون الغارة على فاقوس ، فاستقلوا أنفسهم وعرجوا "

وذكر :

" أنهم مضوا بنيّـةِ تجديد الحشد ، ومعاودة القصد "

وفيـه :

" فصل : وأما نوبة العدو فى الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ، ولزمنا ما نسى من اسمها ، ولزمهم ما بقى من عزمها ، لا دليل أدل على القوة من [١] المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام ، نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحريم المستور ، والمـال العظيم الموفور "

وولد للسلطان ولد بعد سفره ، [هو] الملك الزاهر مجير الدين [أبو سليمان][٢] داوود ، وهو أخو الملك الظاهر غياث الدين غازى لأبيه وأمه ؛ فورد كتاب القاضى [الفاضل][٢] إلى السلطان بتهنئته ، و[به] يقول :

"إنه ولد لسبع بقين من ذى القعدة ، وهذا الولد المبارك هو الموفى لاثنى عشر ولدا ، بل لاثنى عشر نجما متوقدا ، فقد زاد الله فى أنجمه عن أنجم يوسف – عليه السلام – نجما ورآهم المولى يقظة ، ورأى تلك الأنجم حلما ، ورآهم

(١) الأصل : "من القوة على المسير" والتصحيح عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .
(٢) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجودا ، وهو قادر [سبحانه][١] أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا "

وورد منه أيضا كتاب[٢] فى السنة يقول فيه :

" فصل : للمولى أولاد وقد صاروا رجالا ، ويجب أن تستجدّ[٣] للرجال قلاعا كما جعل للسابقين[٤] أعمارا وأعمالا ، وقيل : القلاع أنوف ، من حلّها شمخ بها ما فى الرجال على النساء أمين "

ثم ذكر فى الكتاب أبياتا تتضمن السلام على الملك العزيز عماد الدين عثمان ولد السلطان — وكان توجه إلى الشام صحبة أبيه [وهى] :

مملوكُ مولانا ، ومملوكُ ابنه ، وأخيه ، وابن أخيه ، والجيرانِ
طى الكتاب إليه منه إجابة لسلام مولانا ابنه عثمانِ
واللهُ قد ذكر السلامَ ، وأنه يجزى بأحسنَ منه فى القرآنِ
وغريبةٌ قد جئتُ فيها أولا ، ومن اقتفاها كان بعدى[٥] الثانى
[٢٠٣] فرسولى السلطانُ فى إرسالها ، والناسُ رُسْلُهُمْ إلى السلطانِ

---

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) ذكر فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) أن تاريخ هذا الخطاب منتصف ذى الحجة سنة ٥٧٢ هـ .

(٣) الأصل : " نستجد " والتصحيح عن نفس المرجع .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : " كما جعل السابقون أعمارا وأعمالا " .

(٥) الأصل : " بعد " ، والتصحيح عن نفس المرجع .

[ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها] (١) :

" فصل : أما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى ، شُرع فيه وظهر العمل ، وطلع البنا، وسُلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمقسم (٢) ، والله يعمر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين ، وسورا (٣) بل سوارا يكون به الإسلام محلًّى (٤) اليدين ، مجلًّى (٥) الضدين، والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله ، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله .

" فصل : فى معنى نقل القضاء عن شرف الدين بن أبى عصرون [لما ذهب بصره] (٦) إلى ولده محى الدين : لن يخلو الأمر عن قسمين ، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ، ولا ينسى له هذا التخرج الذى لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام : إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته (٧) ، ويتولى ولده النيابة ، ويشترط عليه (٨) المجازاة لأول زلة ، وترك الإقالة لأقل عثرة ، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) وإضافته ضرورية إذ بدون هذه الجملة يفهم أن الفصول التالية هى من نفس الخطاب السابق ، والذى يفهم من الروضتين أن الخطاب الأول الخاص بأولاد السلطان أرسل فى ذى الحجة سنة ٥٧٣ هـ، وأن الحديث عن السور وغيره فصول من خطاب آخر أرسله الفاضل فى أوائل سنة ٥٧٤ هـ .

(٢) انظر ما فات ص ٥٢ ، هامش ٢

(٣) أنظر ما فات هنا ، ص ٥٢ — ٥٣

(٤) الأصل : " محلا " .

(٥) الأصل : " مجلا " ، والروضتين : " محلا " .

(٦) الزيادة عن : (الروضتين، ج ٢ ، ص ٢) وعن هذا الموضوع أنظر ما فات هنا ص ٤٩ — ٥١

(٧) الأصل : " وبزكيه " ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) فى الروضتين : " عليهما " .

الصالحة ؛ وإما أن يُفوِّض الأمر إلى الإمام قطب الدين ، فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ، ولا يجوز أن يتقدم عليه فى بلد إلا من هو أرفع طبقة فى العلم منه .

[ومنها فى إقامة عذر التأخر عن الجهاد] (١)

فصل : وأما تأسف المولى على أوقات تنقضى عاطلة من الفريضة التى خرج من بيته لأجلها ، وتجدد العوائق التى لا يوصل إلى آخر حبلها ، فالمولى نية رشده ، أو ليس الله بعالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ، لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان المولى [آخذا](٢) فى أسباب الجهاد ، وتنظيف(٣) الطرق إلى المراد ، وهو فى طاعة قد مَنَّ(٤) الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أمل فى نجح موعدها ، والثواب على قدر [٢٠٤] مشقته ، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته ، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام فى أول (٥) الأيام ، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام ، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت " .

[ومنها فى ذكر أولاد السلطان] (٦) :

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢) زيدت للإيضاح .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد أضيفت عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣) .

(٣) الأصل : « وتنطرق » والتصحيح عن نفس المرجع .

(٤) الأصل " يسر " والتصحيح عن نفس المرجع .

(٥) فى الروضتين : " أقل " .

(٦) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، زيدت للايضاح .

" فصل : وقبل الإجابة عن الفصول، فنبشر بما جرت العادة به — لا قطع الله تلك العادة — من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا أولاده السادة — أطاب [(١)] الله الخبر إليهم عن المولى و إلى المولى عنهم ، وعجّل لقاه لهم ولقاهم له ، فإنه من يلقَ منهم [بل] [(٢)] كلٌّ منهم ملكٌ دَسْتُه برجُه، وفارسٌ مَهْدُهُ سَرْجُه ، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها ، وريحان الحياة وزهرتها ، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع ، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لهاجع ، وإن ملكا ملك تصبره [(٣)] عنهم لحازم ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم ؛ أما يشتاق جيدُ المولى أن يتطوّق بدورهم ؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروى بنظرهم ؟ أما يحنّ قلبه إلى قلبه ؟ أما يلتقط هذا الطير الطائر بتقبيلهم ما خرج منهم من حبه ؟ وللمولى أبقاه الله أن يقول :

وما مثل هذا الشوق يحمل بعضه … ولكن قلبي فى الهوى بقلوب "

[وفى أخرى] [(٤)] :

" وكل من الموالى السادة، الأمراء الأولادِ والقادة، [(٥)] كلهم جوهر ، وكلهم المقدم ، وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عوّد الله من صحة وسلامة وكفاية ووقاية ، ولزوم المستقل منهم لمشهد الكتّاب ، ولموقف الآماج ، ومخايل الحفر منهم من تحت ليل الصبي أنور دلالة من ضوء السراج ، والله تعالى يمد فى عمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدُّهم — رحمه الله — فى أهل بيته

---

(١) الأصل : « أطال » والتصحيح عن الروضتين .

(٢) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .

(٣) الأصل : « صبره » ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣) ، ومنها يفهم أن النص التالى قطعة عن رسالة أخرى غير السابقة .

(٥) الأصل : « والقلادة كلها » والتصحيح عن نفس المرجع .

من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرة وتبابعة، وصغيرهم ما فيهم عند العلا صغير، [٢٠٥] وصغار أبناء الكبار كبار، نجومُ الأرض، وذرية بعضها من بعض، والخلف الصالح المحض، وهم فى الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى يوم الحرب ويوم العرض ".

" فصل: فى ذكر وخم دمشق: عرف المملوكُ من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان، والحقير[1] مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد[1] فى قلوب الأولياء الأمر العظيم، وقليل قذاة العين غير قليل، وماذا تقول فى بلد لو صحت الحمية من مائه لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه، فإنه ماء يؤكل وبقية المياه تشرب، ويجد وَخَامَتَهُ من ينصف ولا يتعصب ".

" فصل: وأما المأمور به فى معنى المنكرات الظاهرة وإزالة أسبابها، وغلق أبوابها، وتحصين كل مبتوتة [2] من عصمه، وتطهير كل موسومة بوصمة، فالله يثيب مولانا ثواب من غضب [ليرضيه بغضبه] [3]، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه ".

ودخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة: ففى العشر الأول من ربيع الآخرة منها أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماة، وكان الأمير شهاب الدين محمد بن تكش الحارمى صاحبها قد توفى فى حادى عشر جمادى الآخرة من السنة الماضية، وتوفى ولده تكش بن أخت السلطان قبله بثلاثة أيام، فخرج إليهم مقدم عسكر السلطان بحماة الامير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمار تكين — صاحب أبو قبيس — فأسر مقدميهم، وقتل بقيتهم، وجاء إلى خدمة السلطان وهو

---

(١) الأصل: « وألحقه » و « فوقع »، والتصحيح عن الروضتين.

(٢) الأصل: « مبثوقة »، والتصحيح عن الروضتين.

(٣) الأصل: « له صفة تعصمه »، ولا يستقيم بها المعنى، وما بين الحاصرتين عن الروضتين.

بظاهر حمص — والأسرى معه — فأمر السلطان بضرب أعناقهم وأن يتولى ذلك من بحضرته من أصحابه ، فتقدم إمامه ضياء الدين الطبرى وضرب عنق بعضهم ، وفعل كذلك الشيخ سليمان المغربى[١] ، والأمير ايطغان بن ياروق ؛ ثم استدعى عمادَ الدين الكاتب وأمره أن يضرب عنقَ بعضهم ، فلم يفعل ، وطلب أن يملِّكه السلطانُ صغيرا منهم فعوَّض عنه .

ذكرى عصيان

شمس الدين بن المقدَّم ببعلبك وما [آل][٢] إليه أمره

كان السلطان لما فتح بعلبك سلمها إلى الأمير شمس الدين [٢٠٦] بن المقدَّم ؛ ففى هذه السنة طلبها من السلطان أخوه الملك شمس الدولة توران شاه، لأنها مرباه ومنشؤه ، فإنها كانت بيد والده نجم الدين — على ما ذكرنا — ، فكان الملك المعظم يختار سكناها ويحبها ، فلم يمكن السلطان مخالفته ، فأمر شمس الدين بالنزول عنها و يعطيه عنها عوضا يرتضيه ، فلم يجب إلى ذلك ، وذكَّره العهود التى له ، وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه ، فلم يصغ إليه ، ولجَّ فى أخذها ، فامتنع ابن المقدم بها وعصى ، فرحل السلطان على طريق[٣] الزراعة إلى بعلبك ونازلها محاصرا من غير قتال ، فطال أمرها ، ولم يسمح بها صاحبها ، ودخل فصل الشتاء ، فرحل السلطان عنها إلى دمشق فى العشر الآخر من رجب من هذه السنة ، أعنى : — سنة أربع وسبعين وخمسمائة —

وتمادى الأمر إلى أن رضى شمس الدين بن المقدم ببارين وكفر طاب ، وفى قرى من بلد المعرة ، وسلم السلطان بعلبك إلى أخيه الملك المعظم .

(١) الأصل : " سلمان المعرى " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥) .
(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .
(٣) الأصل : " الطريق " ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

ذكر بناء الفرنج بيت الأحزان

ولما كان السلطان مشتغلا بأمر بعلبك انتهز الفرنج الفرصة ، وبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان ، وهو بيت يعقوب — عليه السلام — ، وبينه وبين دمشق مسافة يوم ، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فقيل للسلطان : «إنه متى أحكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الإسلام» ، فقال : "إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس" .

ولما انقضى أمر بعلبك ، ووصل إلى دمشق ، جعل هذا الحصن من همه ، وعزم على قصد حصاره ، وكان قد وصل من الديوان العزيز رسول ، وهو الخادم فاضل ، وهو من أكبر الخدام ، ففرح به السلطان ، واستصحبه معه إلى الغزاة ، ووقف على الحصن الذى استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبى ، وتخطف من حوله جماعة من الفرنج ، ثم عاد إلى دمشق .

ذكر وقعة الهنفرى[1]

وتواترت الأخبار بأن الفرنج قد تجمعوا فى جمع عظيم ، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرّة ، فقدّم ابن أخيه عز الدين فرخشاه [٢٠٧] بن شاهنشاه ابن أيوب — رحمه الله — على العساكر ، وأمره أن يخرج إلى قتالهم ، وأمره أن لا يستعجل بالقتال ، بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد ، فلم تشعر طلائع عز الدين إلا وقد خالطوهم على غرّه ، فوقعت الوقعة ، فقتل صاحب الناصرة ، وجماعة من مقدميهم ، وطُلب الملك فقتل حصانه ، وجاء الهنفرى — وهو من عظمائهم وشجعانهم — ليحميه ، فوقعت فيه جراحات إحداها نشابة وقعت

---

(١) هو همفرى الثانى صاحب حصن بانياس جنوبى شرقى دمشق
Humphrey II, Lord of Toron, Constable

انظر : (Lane-Poole : *Saladin*, p. 157) ; (RUNCIMAN : *op. cit.* vol 2. p. 419).

فى مارنه بخدعته ، وتعدت إلى فيه ومرت بضربه فقلعته ، وخرجت من تحت فكه ، ووقعت أخرى[1] فى مشط رجله ، فنفذت إلى إخمصه ، وأخرى[1] فى ركبته ، وضرب بِلَتٍّ[2] فى جنبه ، فكسر منه ضلعان ، وقُتلت جماعة من الرجالة والخيالة ، ورجعت الفرنج خائبين ، ليس فيهم إلا مثخن بالجراح ، وكل يوم ترد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته .

ووردت البطاقة فى ذلك اليوم بالبشرى ، وخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جىء بهم ، ورجع منصورا مظفرا ، ومات الهنفرى وذلّ العدو لموته ، ثم سار السلطان إلى حصن بيت الأحزان ، فأزعجهم وذعرهم ، ثم عاد إلى دمشق .

ذكر مسير الملك المعظم
شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى مصر

ثم وجّه السلطان أخاه الملك المعظم شمس الدولة إلى الديار المصرية بمن[3] ضعف من الأجناد لأنها كانت سنة جدب شديد ، فرتب فى بعلبك نائبا عنه ، وودعه السلطان من مرج الصُّفّر ، وذلك فى أواخر ذى القعدة .

ولما ودّعه السلطان أغار على بلاد الفرنج ، وقصد حصن بيت الأحزان ، ورجع بالأسرى والغنائم ، وخيم السلطان بمرج الشعراء ، ثم انتقل إلى بانياس وخيّم بتل القاضى ، وبلغت الخيم حدود بلاد العدو ، وكان يركب كل يوم

---

(١) الأصل : " الأخرى " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ : ص ٦) .

(٢) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، هامش ١) .

(٣) الأصل : " عن " ، والتصحيح عن الروضتين .

بحجة الصيد ، و ينزل على النهر [٢٠٨] و يجرّد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا و بيروت ، حتى يحصدوا غلات العـدو ، وما يبرح مكانه حتى يعـودوا بجمالهم وأحمالهم ، حتى خفّ زرع الفرنج .

ودخلت سنة خمس وسبعين[1] وخمسمائة ، والسلطان مخيم بمنزلته .

ذكر استيلاء الملك المظفر تقى الدين
عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمه الله — على مدينة حماة

وكان برنس[2] أنطاكيـة قد غدر وأغار على شـيزر ، وغدر القومص[3] باطرابلس بجماعة من التركمان بعد الأمان ، واقتضى رأى السلطان أن يرتب عمر ابن شاهنشاه بن أيوب بحماة ، وأقطعـه إياها ، ورتّب فى خدمتـه شمس الدين ابن المقدم وسيف الدين بن أحمد المشطوب ، فكان فى مقابلة صاحب أنطاكية ورتّب ناصر الدين محمد بن شيركوه بحمص فى مقابلة القومص .

وكان ترتب الملك المظفر بحماة فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، فلم تزل بيده إلى أن توفى وهو محاصر ملازكرد فى رمضان فى سنة سبع وثمـانين وخمسمائة ، فرتب السلطان فيها ولده الملك المنصور ناصر الدين أبا المعالى محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فملكها إلى أن توفى بها فى ذى القعدة سنة سبع عشرة وستمائة ، فملكها من بعده الملك الناصر صلاح الدين قِلِج أرسلان بن محمد ، فحاصره الملك الكامل بن الملك العادل سنة ست وعشرين وستمائة ، وأخذها منـه ، وملّكها

(١) الأصل : "وثمانين" وهو خطأ واضح .

(٢) هو (Boémund or Bohemond II).

(٣) عن اللقب انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٣ ، هامش ١) ، وعن اسمه انظر ما فات هنا ص ٢٩ ، هامش ٢

للملك المظفر تقى الدين أبى الفتح محمود بن محمد ، ولم يزل مالكها إلى أن توفى بها سنة اثنين وأربعين وستمائة ، فملكها بعده ولده مولانا ومالك رقنا السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — رحمهم الله تعالى — فقد مضى من مدة ملكه وملك آبائه لها إلى يوم تأليف هذا الكتاب — وهو سنة إحدى وسبعين وستمائة —[1] نحو من سبع وتسعين سنة ، ونحن نسأل الله سبحانه أن يديم ملكهم ، وملك ذريتهم بها إلى يوم الدين .

ذكر كسرة الفرنج بمرج العيون

أجمع رأى السلطان ومن معه من المسلمين على أن يقتحموا على الفرنج بلادهم ويستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ثم يرجعوا ، فرحلوا صوب البقاع ليلة الأحد ثانى [٢٠٩] المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ولما أصبح السلطان جاءه الخبر أن الفرنج قد خرجت فالتقاهم ، فنصر الله المسلمين عليهم ، فأسر فرسانهم وشجعاتهم ، وانهزمت رجالتهم فى أول اللقاء ، فكان فى جملة الأسرى مقدم الداوية[2] . ومقدم الاسبتارية[3] . وصاحب

---

(١) هذا استطراد هام وطبيعى من المؤلف لتتبع أسماء من حكموا حماة — وطنه الأصلى — من بيت تقى الدين عمر إلى أن وصل إلى الملك المنصور الثانى الذى ألف هذا الكتاب باسمه ، وأهم من هذا تحديده للسنة التى بدأ يؤلف فيها الكتاب وهى سنة ٦٧١ هـ . أنظر الجزء الأول من مفرج الكروب (المقدمة ، ص ١٩ ، والمتن ، ص ٩٩ هامش ٤ ، ص ١١٣ هامش ٣ ، ص ١٥٤) .

(٢) أطلقت المراجع العربية والمسلمون المعاصرون هذا الاسم على جماعة فرسان المعبد (Templars) ومؤسس هذه الجمعية هو (Hugh de Payns) ، أسسها سنة ١١١٩ م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ولقد لعب فرسان هذه الطائفة ورصفاؤهم « الاسبتارية » دورا خطيرا طوال عصر الحروب الصليبية ، أما اسم هذا المقدم الذى وقع أسيرا فى هذه الوقعة فهو : Odo of Saint-Amand, Grand Master of the Temple) أنظر : (RUNCIMAN : *op. cit.* vol. 2 p. 420)

(٣) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، هامش ٢) . ولم أعثر على اسم مقدم الاسبتارية الذى أسر فى هذه المعركة .

الطبرية ، وأخوه صاحب جُبيل ، وابن القومصية ، وابن بارزان[١] صاحب الرملة ؛ وصاحب جِينين[٢] ، وقسْطِلان[٣] يافا ، وابن صاحب مَرَقِيّة[٤] ، وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا ، ومن الباروئية[٥] ،وغيرهم من المقـدمين ما يزيد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم ، ونقلوا إلى دمشق ، فبذل ابن بارزان فى نفسه بعد سنة، مائة وخمسين ألف دينار صورية[٦] ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى[٧] من نوبة الرملة عندهم ، فالتزم فكاكه ، واستفكت [٨] القومصية ابنها بخمسة وخمسين ألف دينار صورية ، وأما مقدم الداوية ـــ واسمه أود ـــ فإنه هلك فى السجن، فطلبت جيفته ، فسلمت إليهم،

---

(١) هو : (Baldwin of Ibelin).

(٢) الأصل : « جنين » وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بليدة بين نابلس و بيسان .

(٣) الأصل : « قسطان » ،والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) ،وقسطلان معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، و يقابله فى الفرنسية : (Châtelain).

(٤) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حمص .

(٥) الأصل : « البارندية » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨) .

(٦) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، هامش ٧) . و يضـاف إلى ما هناك أن الأب لويس شيخو ذكر فى (صالح بن يحيي : تاريخ بيروت، ص١٤٩ ، هامش ٢) أن الدينار الصورى ضرب فى صور فى أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوى نحو خمسة عشر فرنكا ذهبيا من النقود الحالية . وقد كان الدينار الصورى أقل قيمة من الدينار المصرى ،وعن دار الضرب فى صور وعن الدينار الصورى وعن أنواع الدنانير المتداولة فى مصر والشام فى العصر الأيوبى راجع : (منصور بن بعرة الذهبي الكاملى : (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية) و (Ehrenkreutz : *Extracts from the technical Manual on the Ayyubid Mint in Cairo. B.S.O.A.S., 1953, XV/3 P. 424—447* ; (Ehrenkreutz : *The Standard of Fineness of gold coins Circulating in Egypt at the time of the Crusades. Journal of the American Oriental Society. vol 74, No. 3 July — Sept. 1954, P. 162 - 166*)

(٧) أنظر ما فات هنا ، ص ٦١

(٨) الأصل : «واستغلت» ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) .

وأُخذ عوضا عنها أسير من المسلمين ، وطال أسر الباقين ، فمنهم من هلك فى الأسر ، ومنهم من خرج بقطيعة .

وكانت عدة العــدو عشرة آلاف مقاتل ، وانهزم ملكهم مجروحا ، وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الموقعة بلاء حسن ، فحكى حسام الدين تميرك بن يونس — وكان مع عز الدين — قال :

" كنا فى أقل من ثلاثين فارسا ، قد تقدمنا العسكر ، فشاهدنا من خيل الفرنج ستمائة فارس ، واقفين على جبل ، و بيننا و بينهم المـاء ، فأشار عز الدين أن نعبر النهر إليهم ، ففعلنا ، ولحقنـا عسكر السلطان ، فهزمناهم " .

ومن غريب الاتفاق أن فى هذا اليوم بعينه ظفر الأسطول المصرى بِبَطْسَة[1] كبيرة ، فاستولى عليها المسلمون ، وعلى أخرى ، وعاد إلى الثغر مستصحبا ألف رأس من السبي .

---

(١) البَطْسَة أو البُطْسة ، و يقال أحيانا بَطْشَة أو بُطْشَة ، وقد تحرف إلى بَسْطَة أو بُسْطة ؛ والجمع بَطَسَات و بُطَس ، و بَطْشَات و بُطَش . ذكر صاحب (محيط المحيط) أنها مأخوذة عن الاسبانية ومعناها السفينة الكبيرة ، و يفهم من نصوص المراجع العربية فى العصور الوسطى أنها كانت تستخدم أصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وقال (على مبارك : الخطط التوفيقيــة ، ج ١٤ ص ٨٢) : " ومن أسماء المراكب أيضا البطسة ، وجمعها بطس ، يقال : جهز الفرنج بطسا متعددة ، وجعلوا على صوارى البطس أبراجا ، ووجدوا بطسة فيها ثلاثمائة من الفرنج ، و بطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة " ، و يفهم من هذه النصوص أيضا أن البطسة كانت تحمل فى العادة ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ مقاتل ، وسيشير ابن واصل فيما يلى هنا إلى بطسة كبيرة عند حديثه عن حصار عكا فى سنة ٥٨٧ هـ بقوله : "وكان السلطان قد أمر بتعبية بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والمقاتلة لتدخل إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها ستمائة وخمسين رجلا . . . إلخ " . وسيصف أيضا بطسة كبيرة أخرى استعملت للقتـال عند محاصرة برج الذبان فى سنة ٥٨٦ هـ . انظر أيضا : (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، ص ٣١ ، هامش ٣) و (KINDERMANN : *Schiff im Arabischen* p.p. 7-9) و (الشيال : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تطبع بعد) .

وفى هذه الوقعة يقول أبو على الحسن بن على الجُوَيْنى[١] يمدح السلطان :

لك ربُّ السماءِ خيرُ معين ، وكفيلٌ لما تُحِبُّ[٢] ضمينِ
فله الحمدُ ، أىُّ نصرٍ عزيز قد حبا نابه ، وفتحٍ مبينِ !
أدركَ الثأرَ حين نازله المغـ ـوأُرجِيف[٣] الكفار ليث العرينِ
الهمامُ الغضنفرُ الملكُ النا صرُ مولى الورى صلاحُ الدينِ
يا مليكًا أضحى الزمانُ يناجيـ ـه بلفظِ المُذَلَّلِ المسكينِ
فارقتْ أهلَها الحصونُ إلى بَأْ سِكَ حتى عوّضتهم بالسجونِ[٤]
وأراهم ربُّ السماءِ بِأَسْيَا فِكَ ما لم يَجُلْ لهم فى ظنونِ
لك قلبٌ عند اللقاءِ مكينٌ ، وله من تُقَاهُ أَلْفُ كَمِينِ
يا مليكًا ما زال يلقى الأعادى ، وهو مستعصمًا بصدقِ اليقينِ[٥]
إنَّ هذا الفتحَ المبينَ شفاءٌ لصدورٍ ، وقرةٌ لعيونِ
هو يومٌ أضحى كيومِ حُنَيْنٍ ، سهّل اللهُ نصرَه فى الحُزونِ

---

(١) هو أبو على الحسن بن على بن إبراهيم ، الملقب فخر الكتاب ، الجوينى الأصل ، والنسبة الى جُوَيْن ناحية من نواحى نيسابور ، كان من ندماء أتابك زنكى ، واتصل بابنه نور الدين محمود ، وسافر إلى مصر فى أيام ابن رزيك وتوطن بها . توفى سنة ٥٨٤ وقيل ٥٨٦ بالقاهرة . أنظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ا ، ص ٣٩٨ — ٣٩٩) .

(٢) النص فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) : "وكفاه بما يحب" .

(٣) الأصل : "خوف" ، وما هنا عن نفس المرجع .

(٤) الأصل : "عرضتهم للسجون" وما هنا صيغة الروضتين .

(٥) صيغة الروضتين :

يامليكا يلقى الحروب بحول الله مستعصما وصدق اليقين .

ذكر الحرب بين عسكر السلطان

الملك الناصر والسلطان عز الدين قِلِج أرسلان الساجوقى صاحب قونية

وسبب هذه الحروب أن نور الدين — رحمه الله — كان قد أخذ حصن رَعْبان[١] من السلطان قِلِج أرسلان بن مسعود بن قِلِج أرسلان بن سليمان قُطُلْمِش ابن أرسلان بيغو[٢] بن سلجوق — صاحب قونية — .

وفى هذه السنة — أعنى سنة خمس وسبعين وخمسمائة — كان الحصن بيد الأمير شمس الدين بن المقدَّم ، وهو فى خدمة السلطان الملك الناصر — كما ذكرنا — ، فطمع قِلِج أرسلان فى تملك الحصن، ليكون الملك الصالح صاحب حلب بينه و بين السلطان ، فأرسل عسكراً لحصره، فيقال إن العسكر الذى أرسله عشرون[٣] ألف فارس ، فتوجه إلى الحصن الملك المظفر تقى الدين — صاحب حماة — فى ألف فارس ، فواقعهم فهزمهم ، وأصلح تلك الولاية وعاد إلى خدمة عمه السلطان ، ولم يزل الملك المظفر[٣] — رحمه الله — يدل بهذه النصرة ، وأنه هزم بألف فارس عشرين[٤] ألفا .

---

(١) هى بلدة بين حلب وسيساط ، قرب الفرات . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) الأصل : « بيغوارارسلان » ، والصحيح ماذكرناه ، أنظر : (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٢١٥ — ٢١٧) . (٣) الأصل : «عشرين» .

(٤) وصف ابن أبى طى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩) هذه الوقعة وشجاعة تقى الدين عمر وفنه الحربى وصفا ممتعا مفيدا ، ولهذا آثرنا نقله هنا لتتم به الصورة . قال : " واتصل بالسلطان أن قلج أرسلان قد طمع فى أخذ رعبان وكيسون ، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه ، ويدعى أن نور الدين بن زنكى اغتصبهما منه ، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بهما ، فاغتاظ السلطان ، وزجر الرسول ، وتوعد صاحبه ، فعاد الرسول وأخبر قلج أرسلان ، فغضب ، وسير عسكرا إلى رعبان فحاصرها وسمع السلطان ، فندب تقى الدين عمر فى ثمانمائة فارس ، فسار فلما قارب رعبان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتى فارس ، وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قلج أرسلان ليلا =

ذكر تخريب حصن بيت الأحزان

لما كسر السلطان الفرنج بمرج عيون عاد إلى بانياس ، وتجهز إلى المضى إلى الحصن وتخريبه ، فسار إليه فى ربيع الأول من هذه السنة ، وأحاط به وبث العساكر فى بلاد الفرنج [٢١١] للغارة ، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات ، فركب السلطان إلى ضياع صفد — وهى للداوية — ، فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كلما احتاج إليه ورجع ، وجمع من الزَّرَجون[1] والأخشاب شيئا كثيرا ليجعل متارس[2] للمجانيق ، فقال له جاولى الأسدى — وهو مقدم الأمراء الأسدية — :

= فرآهم قد سدوا الفضاء ، وهم قارّون آمنون وادعون ، فقال تقى الدين لأصحابه : « هؤلاء على ما ترون من الطمأنينة والأمن والغفلة ، وقد رأيت أن نمهل الساعة فيهم بعد أن نتفرق فى جوانب عسكرهم ونصيح فيهم ، فإنهم لا يثبتون لنا » ، فأجابوه إلى ذلك ، فأنفذ واحدا من أصحابه إلى باقى عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا ، وأن يجعل فى كل طُلْب قطعة من الكوسات والبوقات ، فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم وجدّوا فى السير حتى يلحقوا به ، ففعلوا ما أمرهم ؛ ثم إنه حمل فى عسكر قلج أرسلان ، وصرخ أصحابه فى جوانبه ، وكان عدة عسكر قلج أرسلان ثلاثة آلاف فارس ، فلما سمعوا الضجة وحس الكوسات والبوقات ، وشدة وقع حوافر الخيل ، وجلبة الرجال ، وأصطكاك أجرام الحديد هالهم ذلك ، وظنوا أن قد فوجئوا بعالم عظيم ، فلم يكن لهم إلا أن جالوا فى كواثب خيولهم هربا ، وطلبوا النجاة ، وأخذتهم السيوف ، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها ، وأكثر تقى الدين فيهم القتل والأسر ، وحصل على جميع ما تركوه ، فلما أصبح جمع المأسورين ومَنَّ عليهم بأموالهم وكراعهم وسرحهم إلى بلادهم » .

(١) الزرجون — بفتح الراء أو سكونها — كلمة فارسية ، ومعناها شجر العنب أو قضبان الكرم ، وقد يكون من معانيها أيضا الخمر ، و « زر » بالفارسية معناها الذهب ، و « جون » اللون وذلك لأن الخمر شبه لونها بلون الذهب . والمعنى المقصود هنا هو المعنى الأول أى شجر العنب أو قضبان الكرم . أنظر : (الجواليقى : المعرب ، ص ١٦٥) .

(٢) التُّرْسُ أصلا نوع من السلاح ، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل فى اليد تتلقى بها ضربة السيف ونحوه ، وفى (اللسان) : التترس التستّر بالتُّرْس ، والمترس خشبة توضع خلف الباب .

الرأى أنا نجرّبهم بالزحف أول مرة، فننظر الحال معهم ، فإن حصل الغرض وإلا فنصب المجانيق ما يفوت ” .

فأمر فنودى فى المعسكر بالزحف إليه، والجد فى قتاله، فزحفو إليه، واشتد القتال ، وعظم الأمر ، فصعد إنسان من العامة بقميص خَلِق فى باشورة[١] الحصن ، وقاتل على السور من أعلاه ، ويتبعه غيره من أضرابه ، ولحق بهم الجند ، فملكوا الباشورة ، فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن يحمون نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد، وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية، وألح المسلمون فى قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه، وأدركهم الليل[٢] وباتوا طول الليل يحرسون ، وخافوا أن تفتح الفرنج الأبواب، ويغيروا عليهم على غرة ، وإذا الفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين ، فاطمأنوا المسلمون ، وقالوا : ” ما بقى إلا نقب البرج ” .

فلما أصبحوا فرق السلطان جوانب البرج على الأمراء، فأخذ عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب الجانب القبلى، وأخذ السلطان الجانب الشمالى، وأخذ ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بقربه [نقبا][٣]، وكذلك الملك المظفر تقى الدين، وكل كبير فى الدولة أخذ قسما، وكان البرج محكم البناء، فصعب نقبه، فعمقوا[٤] النقب بعد الجهد ، وأشعلوا النيران فيه ، وانتظروا سقوط السور ، فلم يسقط لعرضه ، فإنه كان عرضه تسعة أذرع بالنجارى .

---

(١) الباشورة — والجمع بواشير — الحائط الظاهرى من الحصن يختفى وراءه الجند عند القتال ، ويقابلها فى الفرنسية (Bastion) . (Dozy : *Supp. Dict. Arab*)

(٢) عند هذا اللفظ ينتهى نقل المؤلف عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٢) ، ثم يبدأ باللفظ التالى النقـل عن العماد الكاتب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) ، وهذا هو منهجه دائما لاينقل أخبار الحادثة الواحدة عن مرجع واحد ، بل يبدأ النقل عن مرجع ما ، فيأخذ عنه سطورا ، ثم ينتقل إلى غيره فينقل سطورا أخرى ، وقد يعود إلى المرجع الأول فيأخذ عنه ، أو قد يتم النقل عن مرجع ثالث وهكذا .

(٣) مابين الحاصرتين عن العماد (المرجع السابق) وهو الأصل الذى ينقل عنه هنا .

(٤) وقف المؤلف فى نقله عن العماد عند هذا اللفظ ، وعاد ثانية للنقل عن نص ابن الأثير .

وذكر العماد الكاتب[١] : أن النقب كان طوله ثلاثين ذراعا [٢] فى عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرضه تسعة أذرع — كما ذكرناه — فأمر السلطان بإطفاء النار بعد يومين ليتم نقبه ، وقال :

" من جاء بقربة ماء فله دينار " .

فجاء الناس بالقرب ، وصبوا الماء على النار حتى أطفأوها ، ثم عاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور ، [٢١٢] وألقوا فيه النار ، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ، ملك المسلمون الحصن ، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين .

وكان الفرنج قد جمعوا وراء السور الواقع حطبا ، فلما وقع دخلت الرياح فردت النار عليهم ، فأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، فلما خمدت النار دخل المسلمون واستولوا عليهم قتلا وأسرا ، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا من الأقوات وغيرها ، وجيء بالأسارى إلى السلطان ، فمن كان مرتدا أو راميا ضربت[٣] عنقه ، وأكثر الأسارى قَتَلَهُ فى الطريق المطوعةُ[٤] وكان عدة الأسرى نحو سبعمائة ، وخلص من أسرى المسلمين أكثر من مائة مسلم ، وسير باقى الأسرى إلى دمشق .

وأقام السلطان فى منزلته حتى هُدم الحصن إلى الأساس ، وطُمَّ جب ماء معين كان حفرته الفرنج فى وسطه ، ورمى فيه القتلى ، وكان عند السلطان — رحمه الله — رسول القومص ، فشاهد البلية فى أهل ملته ، وكان السلطان قد بذل لهم فى هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا ، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا ، وكانت مدة المقام على الحصن أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما .

---

(١) وبهذا اللفظ عاد للنقل عن العماد . (٢) الأصل : « ذراع » .

(٣) الأصل : « ضرب » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

(٤) النص عند العماد — وهو الأصل المنقول عنه هنا :

" وأكثر من أسر قتله فى الطريق الغزاة المطوعة " ، راجع : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١) .

ثم سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور و بيروت فأغار عليها، وأرجف قلوبهم، ثم رجع إلى دمشق، ومرض [جماعة من ذلك الوباء][1] بسبب شدة الحر ونتن جيف القتلى، وطوّل [السلطان][2] المقام عليه لأجل هدمه، فتوفى أكثر من عشرة أمراء.

وهنأ السلطانَ الملكَ الناصرَ — رحمه الله — جماعةٌ من الشعراء بهذا الفتح الجليل، منهم بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن رستم بن الساعاتى[3] الخراسانى بقصيدة أولها:

بجــدّك أعطافُ القَنـا تتعطّفُ وطَرفُ الأعادى دون مجدك يُطرِفُ

---

(١) الأصل: «ومرض لأنه حصل له وباء» ولا يستقيم به المعنى إذ قد يفهم أن الذى مرض هو السلطان، والتصحيح عن العماد (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وهو الأصل الذى ينقل عنه المؤلف هنا.

(٢) ما بين الحاصرتين عن نفس المرجع.

(٣) كان أبوه محمد بن على بن رستم بن هَرْدوز خراسانى الأصل والمنشأ، ثم انتقل إلى دمشق، وكان ماهرا فى صناعة الساعات، وهو الذى عمل الساعات التى كانت عند باب الجامع بدمشق. فأنعم عليه نور الدين محمود بن زنكى الإنعامات الكثيرة، وكان له ولدان: شاعرنا هذا، وأخ له اسمه فخر الدين رضوان اشتغل بالطب ومهر فيه، ثم وزر للملك الفائز ولأخيه الملك المعظم ابنى العادل الأيوبى؛ وقد قضى الشاعر شبابه فى دمشق، ثم رحل بعد الثلاثين من عمره إلى مصر وقضى فيها بقية حياته إلى أن توفى بها سنة ٦٠٤ ودفن بسفح المقطم؛ وله ديوان شعر كبير، نشره أخيرا فى جزئين الأستاذ أنيس المقدسى (مطبوعات الجامعة الأميركية فى بيروت، ١٩٣٨ — ١٩٣٩). وهذه الأبيات لم ترد فى الديوان المطبوع، وإنما وردت فى (الروضتين، ج ٢، ص ١١) وقد نقلها عنه الأستاذ المقدسى وألحقها بالجزء الثانى من الديوان (ص ٤٠٩). ولاستيفاء ترجمة الشاعر أنظر: (ابن خلكان: الوفيات، ج ٣، ص ٧٣ — ٧٤) و (ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٨٣ — ١٨٤) و (مقدمة الأستاذ المقدسى لديوان ابن الساعاتى) و (ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٣).

شهابُ هُدًى فى ظُلْمةِ الشِرْك (١) ثاقبٌ وسيفُ هدًى فى طاعة (٢) الله مُرْهَفُ
وقفتَ على حصنِ المخاضِ وإنَّه لموقِفُ حقٍّ ما (٣) يوازيه مَوْقِفُ

ومنها :

ومارفعت (٤) أعلامُكَ الصُفْرُ (٥) ساعةً إلى أن غدتْ أكبادُها السودُ ترجفُ
[٢١٣] كما من أعاليه صليبٌ وبِيْعَةٌ وسادَ به (٦) دينٌ حنيفٌ ومصحفُ
أتسكن أوطانَ النبيين عصبةٌ تمينُ لدى أيمانِها حين (٧) تحلفُ
نصحتكمُ ، والنُصْحُ فى الدين واجبٌ : ذروا بيتَ يعقوبٍ ، فقد جاء يوسفُ

ثم أوردت البشائر إلى سائر الأمصار بما سناه الله سبحانه من هذا الفتح ، وورد إلى الديوان العزيز النبوى كتاب بالإنشاء الفاضلى منه :

"فصل فى ذكر الحصن : وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع ، وقُطعت له عِظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها ،

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين : « الشك »

(٢) الأصل : « وسيف إذا ماهزك الله مرهف » ، وما هنا صيغة الروضتين . انظر أيضا : (ديوان ابن الساعاتى ، ج ٢ ، ص ٤٠٩) .

(٣) فى الروضتين : « لا » .

(٤) فى الروضتين : « ومارجعت » .

(٥) هذه إشارة لها قيمتها تدل على أن أعلام الدولة والجيش فى عصر صلاح الدين كانت صفراء اللون .

(٦) الأصل : « وشاد » والتصحيح عن الروضتين والديوان .

(٧) فى الروضتين : « وهى تحلف » .

وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر [١] الحجر فى مكانه ، ولا يستقل فى بنيانه ، إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما [٢] بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكلس الذى إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بألا يتعرض لهدمه ".

فصل: "وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنيران به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مهدلة ومسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا ، والشفق قد عمّ الليلة فلم يختص آصالا [٣] ولا أسحارا ، ونفحاتها حميمية وقودها الناس والحجارة ، والبلاء ينادى بلسان مصابها : إياك أعنى واسمعى ياجارة ؛ فولجت النار موالج يضيق بها [٤] الفكر ، ويعجز عنها الإبر ، ونقلت البناء من العين إلى الأثر ، وقال الكفر : إنها لإحدى الكبر ، وخولف المثل "إن السعادة لتلحظ الحجر" ، وأغنى ضوؤها لسان كل إمّعة أن يسأل هذا وهذا : ما الخبر؟ وقذفت بالشرر كالجمالات الصفر ، وزفرت يغيظ تعثر له خدود الجبال الصعر ، وتلحقها بالكثب العفر ، وبات الليل والنهار يتله ، وكلما [٢١٤] أغمده الخمود جعل الوقود يسله ، إلى أن بدا الصباح كأنه منها يمتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الأزار ، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع الأحجار بيده من أسها ، ومحا حروف البنيان من طرسها ، وتبعه الجيش ورفاقه ، وكافة من اشتمل عليه نطاقه ".

---

(١) الأصل : « يستقل » والتصحيح عن نسخة الرسالة الواردة فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢) .

(٢) الأصل : « ما » وما هنا عن نص المرجع .

(٣) الأصل : « أصلا » وما هنا عن نص المرجع .

(٤) فى الروضتين : « منها »

ذكر استيلاء عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب

— رحمه الله — على بعلبك

وفى هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر ببعلبك وأعمالها على ابن أخيه الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن أيوب ، فلم يزل مالكها إلى أن مات فى حياة السلطان ، فأنعم بها بعده على ولده الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه ، فلم يزل مالكها إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل — رحمهم الله — سنة سبع وعشرين وستمائة ، — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى — ، واستمر الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بالديار المصرية ، وأنعم عليه السلطان باسكندرية ، ثم توفى بمصر — على ما سنذكره — .

وفى هذه السنة أغار عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — على صفد ثامن عشر ذى القعدة ، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها ، ورجع سالما غانما .

ذكر وفاة المستضىء بنور الله بن المستنجد

وبعض سيرته

كما قد ذكرنا تقلد الإمام المستضىء بنور الله أبى[1] محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبدالله محمد بن المستظهر بالله . وأنه لما ولى الخلافه استوزر عضد الدين محمد بن عبد[2] الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ،

---

(١) : « بن » ، والتصحيح عن (السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

(٢) الأصل : « عيد » والتصحيح عن (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٢) حيث أورد ترجمة مفصلة لهذا الوزير ، وانظر أيضا : (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢) .

وأنه تقدم عنده قايماز غلام أبيه ، وأقطعه الحلة ، وأقطع أردن وتتامش نسيبي قايماز واسطا ، وطوّق الخليفةُ قايماز بطوق ذهب، وسماه ملك العرب ؛ وسوّره بسوارين من ذهب. وحمل إلى هؤلاء الثلاثة من الأموال مازاد على أمانيهم وآمالهم.

وفى سنة سبع وستين وخمسمائة حصل خلف بين الوزير عضد الدولة وقايماز؛ وسعى كل منهما بصاحبه [٢١٥] وطلب قايماز من الخليفة عزل الوزير، فلم يسعه مخالفته، لقوة تمكنه من الدولة، فعزل الخليفة وزيره، فلم يكتف قايماز بذلك واشتد طمعه ، وأطمع المماليك والعوام فى نهب دار الوزير ، فنهبت ، ومزقت أمواله كل ممزق، وهتك حريمه، فغضب الخليفة المستضئ لذلك ، وأنكر هذا الفعل على قايماز، وشدد عليه فى إعادة ما نهب من دار الوزير ، و بعث الخليفة إلى الوزير نجاحا الخادم رسولا ، ليسكن منه، ووعده بإعادة ما كان له من الإنعام والقرب والمعروف ، ولم تزل الرسالة إليه متواترة بما يقوى قلبه و يبسط أمله .

وأطلع على ذلك قايماز، فغضب وأظهر الخلاف والعصيان ، هو ونسيباه ومن أطاعه، فلم ير الخليفة فى تلك الحال مشاققته، وأرخى له فى زمامه، وأرسل إليه يرضيه بأنه يخرج الوزير من داره إلى الحريم، وأرسل إلى الأمراء الذين مع قايماز(١) فى الباطن بما يغير قلوبهم عن طاعة قايماز، وأحس قايماز بذلك، فركب مع جماعة من لفيفه مظهرا للغدر والمكر، وقصدوا دار الخلافة على قصد المحاربة ، فأمر الخليفة عند ذلك بأن ينادى : " من أراد النهب فعليه بدار قايماز " .

فمضت العامة إلى دار قايماز فانتهبوها، وتفلل عنه أكثر من كان معه، ومضى على وجهه حائرا فى أمره، ينكت الأرض ببنان التحير، و يغيم السماء بأنفاس التحسر .

وكانت هذه الواقعة لثلاث عشرة مضت من ذى القعدة سنة سبعين وخمسمائة ، فاستدعى الوزير عضد الدين عند ذلك إلى دار الخلافة بأستاذ الدار

---

(١) انظر (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ — ٢٥٦) و (ابن الأثير الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٠ — ١٦١) .

صندل المقتفوى ، وعلى يده من الملابس ما يليق به ، وحمل على فرس من خيل الخلافة ، وحضر الدار ، فأكرم غاية الإكرام ، ثم مضى إلى منزله ، واستقر فى ولايته .

ثم بعد أربعين يوما ورد الخبر بوفاة قايماز ، ثم اضطربت بعد ذلك أحوال الوزير عضد الدين ، بسبب ظلم ولده للرعية ، وانحلت منزلته عند الخليفة ، فالتمس من الخليفة أن يفسح له فى الحج، فأذن له ، فتوجه إلى بيت الله الحرام، فوثبت عليه نفر من الباطنية فقتلوه بظاهر قَطُفْتَا [(١)] ، ونسب قتله إلى وضع من ظهير الدين أبى بكر منصور بن العطار صاحب المخزن ، وكان متمكنا من الخليفة .

ولما [٢١٦] قتل الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء تمكن ظهير الدين ابن العطار [(٢)] من الدولة تمكنا عظيما، وفوض إليه الخليفة المستضئ نيابة الوزارة، واستولى على الأمور جميعا .

ولما كانت هـذه السنة — أعنى سنة خمس وسبعين وخمسمائة — عرض للخليفة المستضئ مرض شديد ، فأغلق ظهير الدين بن العطار أبواب الدار التى للخليفة وحمل السلاح ، وأرهج البلد ، وأخذ جماعة بغير جناية فصلبهم تجاه داره بباب النوبى [(٣)] ، وجرت منه أسباب تنفر منها الطباع ، وتمجها الأسماع ،

---

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغداد مجاورة لمقبرة الدير التى فيها قبر الشيخ معروف الكرخى ، بينها و بين دجلة أقل من ميل ، وهى مشرفة على نهر عيسى .

(٢) انظر : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٤) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٢)

(٣) الأصل : « البوق » وقد صححت بعد مراجعة (ابن الساعى : الجامع المختصر ، ج ٩ ، نشر الدكتور مصطفى جواد) .

فعند ذلك أمر الخليفة بالبيعة لولده وولى عهده الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، وذلك يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة مضت من شوال من هذه السنة .

وتوفى الخليفة فى هذا اليوم ؛ وكان — رحمه الله — ديِّنا حسن السيرة جميل الطويّة ، محبا للعدل ، كارها للظلم ، لين الجانب ؛ وذكر بعض جلسائه : أنه كان يوما بحضرته ، فعرضت عليه مطالعة لظهير الدين بن العطار ، وكانت قد لاحت أمارات التغير عليه والالتفات عنه ، فأنشد الخليفة :

وإذا كرهت بأن تجاهل فى الذى ... يأتى فلا تعمل برأى الجاهلِ

وكانت مدة خلافته تسع سنين ويسيرا .

ذكر البيعة بالخلافة

للإمام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد

وفى التاريخ المذكور بويع بالخلافة للإمام الناصر أبى العباس أحمد بن المستضئ ابن المستنجد بن المقتفى ؛ وكان مولده سنة اثنين وخمسين وخمسمائة ، فى أيام جد أبيه المقتفى ، وكان عمره يوم البيعة له ثلاثا وعشرين سنة وشهرا ، وخُطب له ببغداد ، ونثرت الدنانير على المنابر ، ومدحه أمين الدولة أبو الفتح بن عبيد الله سبط [ابن] التعاويذى [(١)] ، وهو من فحول شعراء العراق بقصيدة أولها :

طاف يسعى بها على الجُلَّاسِ ... كقضيبِ الأراكةِ الميَّاسِ

---

(١) هو سبط أبى محمد المبارك بن المبارك بن على بن نصر السراج الجوهرى الزاهد المعروف بابن التعاويذى ، وقد نسب الشاعر إلى جده لأنه كفله صغيرا ونشأ فى حجره ، ولد أبو الفتح سنة ٥١٩ ، وتوفى سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤ هـ ، وكان كاتبا بديوان المقاطعات ببغداد ، وعمى فى آخر عمره سنة ٥٧٩ هـ . ولاستيفاء ترجمته انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ص ٩٠ — ٩٧) و (الصفدى : نكت الهميان ، ص ٢٥٩ — ٢٦٣) و (ديوان سبط ابن التعاويذى ، نشر الأستاذ مرجليوث ، المقدمة) ؛ وعلى هذا الديوان عارضنا القصيدة الواردة بالمتن هنا وصححناها .

بَدْرُ تِمٍّ غازلتُ منْ لحَظْـــهِ ليــلةَ نادمتُـــهُ غزالَ كِناسِ
ذَلّلَتْـــهُ لِيَ المُدامُ ، فأضحى لَيِّنَ العطفِ بعدِ طولِ شِمَاسِ
[٢١٧] لا يَبِتْ ذلك الحبيبُ بما بِتُّ أُعانِي فى حُبِّـــهِ وأُقـــاسِى
قَلِقِي منْ وِشـاحِه ، وبقلبِي ما بِخَلْخالِهِ مِنَ الوَسْـــواسِ
ورأى الغانياتُ شيبِي فأعْرَضْـــن وقلن : الشبابُ خيرُ لِباسِ
كيف لا يَفْضُلُ السوادُ وقد أضْحى شعارا على بنى العبـــاسِ
أُمناءُ اللهِ والكِرامُ، وأهل الجــودِ والعِلمِ [1] والتُقى والباسِ
ولقد زِينتِ الخــلافةُ منهم بإمامِ الهُـدى أبى العبـــاسِ
مَلِكٌ ، جَلَّ قُدْسُـــهُ عن مِثالٍ، وتعالتْ آلاؤه عن قيـــاسِ
يا لها بيعةً أجدّتْ من الإســلامِ بالى رُسُومِه الأدْراسِ [2]
وإلى اللهِ أمرُها ، فله المِنَّـــةُ فيها عليـــه ، لا للناسِ

وتولى أخذ البيعة له ذو الرياستين محمد بن أبى الفضل بن الصاحب أستاذ الدار، ونائب الوزارة ظهير الدين بن العطار ، ثم بعد ثلاثة عشر يوما برز أمر الخليفة بالقبض على ابن العطار ، لما كان صدر عنه فى أيام أبيه من الظلم للرعية والحيف عليهم ، فقبض عليه ، وضرب بالعصى إلى أن مات ، وأخرج تابوته من باب النوبى ، فثار عليه العوام [3] ، وألقوه عن رأس الحمالين ، وكسروا تابوته ، ومزقوا أكفانه ، وربطوا فى إحدى رجليه حبلا ، وسحبوه فى الأسواق ، وقطعوا خنصره وأذنه ، ودفنته أخته ليلا خلسة من الناس .

---

(١) فى (الديوان ، ص ٢٣٧) : « والحلم » .

(٢) الأصل : « الأمراس » وما هنا عن (الديوان ، ص ٢٣٨) .

(٣) راجع : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٣) و(ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٦) .

واستدعى الخليفة الناصر لدين الله فخر الدين بن المطلب ، وطلب منه أن يلى الوزارة ، فامتنع واعتذر ، فطلب منه أن يشير بمن يصلح ، فأشار بأن يستناب فى الوزارة سليمان بن حارس ، فولى نيابة الوزارة ، وخلع عليه ، ولقب بحسام الدين ، فأقام مديدة يسيرة ، ثم عزل .

وولى نيابة الوزارة جلال الدين أبو المظفر محمد بن النجارى ، وكان فقيها فاضلا فى المذهب والخلاف .

وبسط الإمام الناصر لدين[1] الله العدل ، وأمر بالنداء فى الناس به ، وأمر بكسر الملاهى ، وإراقة الخمور ، وإقامة الحدود ، ومنع من التظاهر [٢١٨] بشرب الخمر والمنكرات ، وإزالة المكوس المضروبة على التجار الورادين الى بغداد ، فعمرت البلاد ، وكثرت الأرزاق .

وكان الناصر عظيم الهيبة ، عالى الهمة ، وافر العقل ، حسن السياسة ، متيقظا ، لا يفوته أمر مما يجرى فى بلاده وغيرها من بلاد الإسلام .

وكان له أصحاب أخبار يطالعونه بما يحدث وما يرونه[2] من الأمور فى كل صقع ، فخافه الناس خوفا شديدا ، وهابوه ، وكان الإنسان فى العراق لا يجسر أن يجرى فى بيته وخلوته ما يخاف الإنكار عليه منه ، حتى كان يتوهم من أهل بيته وأخص الناس به أن ينقل خبره الى الخليفة .

وفتح فى أيامه فتوحات كثيرة ، واتسع ملكه جدا ، واستولى على خوزستان والجبل ، وفتح كثيرا من بلاد العجم ، وقامت للدولة العباسية فى أيامه حشمة لم يكن مثلها موجودا إلا فى الزمن القديم قبل استيلاء الملوك على العراق .

---

(١) انظر ترجمته فى : (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٧ — ٣٠٣) و (ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٥) و (ابن الساعى : الجامع المختصر ، مقدمة الناشر الدكتور مصطفى جواد) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ص ٦٣٥ — ٦٣٦) .

(٢) الأصل : « يروه » .

ولما اشتدت دولة الناصر بالله واستتبت أمره بعث رسله الى الآفاق مبشرين بخلافته مهنئين بإنالته .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين قد أرسل ضياء الدين بن الشهرزورى رسولا إلى الإمام المستضئ بنور الله ، فاتفقت وفاة المستضئ ، ومصير الخلافة إلى الناصر لدين الله — وهو ببغداد — فحضر الديوان ، وبايع ، وكاتب السلطان بالخبر ، فبادر إلى الخطبة فى جميع بلاده .

ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى بهلوان بن ايلدكز[١] صاحب العجم ، وألزمه الخطبة بهمذان وأصفهان ، ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلى السلطان الملك الناصر ، فأخذه السلطان معه الى مصر ، وركب البحر منها ، وحج — كما سنذكره إن شاء الله تعالى —

ذكر وفاة

سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل

وفى ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة توفى سيف الدين غازى بن مودود ابن زنكى صاحب الموصل ، وكان مرضه السل ، وطال به ، ثم أدركه فى آخره سرسام[٢] ، وكان عمره لما مات نحو ثلاثين سنة ، وكانت مدة ملكه عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر .

---

(١) الأصل " الدكز " وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بهلوان جهان بن ايلدكز . حكم حوالى سنة ٥٦٨ هـ ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ . انظر : (زامباور : معجم الأنساب العربية ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٩) .

(٢) السرسام حمى دائمة مع صداع وثقل فى الرأس والعين ، وحمرة فيها شديدة ، وكراهية الضوء (الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٩٦) .

ذكر صفته وسيرته

كان حسن الصورة ، تام القامة ، أبيض اللون ، وكان عاقلا عفيفا ، شديد الغيرة ، [٢١٩] لايدخل دوره غير الخدم الصغار ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان يكره سفك الدماء وأخذ الأموال ، وكان بخيلا جبانا ، وكان عنده سكون ووقار ، وقلة التفات إذا ركب وإذا جلس .

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على الموصل

كان لما اشتد المرض بسيف الدين غازى أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه بن غازى ، وكان عمره يومئذ اثنتى عشرة سنة ، فخاف على الدولة من الملك الناصر ، وامتنع [أخوه] [١] عزالدين مسعود من الإذعان لذلك والإجابة إليه ، فأشار مجاهد الدين قايماز وأكابر الدولة بأن يجعل الملك فى عز الدين ، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل ، وأن يعطى ابن سيف الدين بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، ومتولى الأمر مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك ، وعهد بالملك لأخيه عز الدين مسعود ، وأعطى جزيرة ابن عمر وبلادها لولده معز الدين سنجر شاه ، وقلعة [عقر] [٢] الحميدية لولده ناصر الدين كسك [٣] .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) مابين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٥) .

(٣) الأصل : « كبك » والتصحيح عن المرجع السابق .

فلما توفى سيف الدين استقرت القاعدة على ذلك ، وانتظمت الأمور، وقام بتدبير الأمور كلها مجاهد الدين قايماز ، وورد رسوله إلى السلطان الملك الناصر — وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادى — يطلب من السلطان أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سروج والرُّها والرقَّة وحرَّان والخابور ونصيبين فى يده، فلم يجب السلطان إلى ذلك، إذ هى له بتوقيع الخليفة، وإنما جعلها فى يد سيف الدين غازى بالشفاعة، بشرط أن يقوى السلطان بالعساكر.

ولما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله يعلمه بذلك ، وأن هذه البلاد لم يزل ارتفاعها بصدد تقوية ثغور [٢٢٠] الإسلام بالشام ، وسأل أن يفوضها الخليفة إليه ، وكان الكتاب فى ذلك من السلطان إلى الشيخ صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ بانشاء عمادى فيه :

"فصل: قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية، للدار العزيزة النبوية، بما لم يختص به أحد، وامتدت اليد منا فى إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعياء، وخلفناهم[1] للردى، حيث دعوا بلسان الغواية خلفا، ولا خفاء أن مصر، إقليم عظيم وبلد كريم، بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة ، وعانت كل هضيمة ، وعاينت كل عظيمة ، حتى أنقذها الله بنا من عَبيد بنى عُبيد ، وأطلقها بمطلقات[2] أعنتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى الشر إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم والفرنج [من البر والبحر][3] بها مطيفة ، فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل — والعياذ بالله — بها فتق لأعضل رتقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله مدة خمس

---

(١) الأصل : « وخلفناهم » وماهنا — عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧) .

(٢) الأصل : « مطالقات » والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق .

سنين فى بيكارها[1] [منتقما من كفارها][2] متحملا لمشاقها على غلاء أسعارها، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أخذت منه،"

فوصل فى رجب رسل الديوان: صدر الدين شيخ الشيوخ [أبو القاسم عبد الرحمن][2]، وشهاب الدين بشير الخادم بالتفويض والتقليد والتشريف[3]، فتلقاهم السلطان، وترجل لهم، فنزل الرسل وسلموا عليه عن أمير المؤمنين، فقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة، وكان السلطان قد عزم على قصد الديار المصرية، وسلوك طريق أيلة والبرية فحسن للشيخ صدر الدين مصاحبته، ورغبه فى زيارة قبر الشافعى — رحمة الله عليه —، فقال:

"قد عزمت فى هذه السنة على الحج، فأصل معكم إلى القاهرة، بشرط إقامة يومين [٢٢١] ولا أدخلها، وإنما أسكن بالتربة الشافعية، وأسير منها إلى بحر عيذاب، لعلى أدرك صوم رمضان بمكة"[4].

فالتزم له ذلك، وأعاد أصحابه إلى بغداد ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير فى جواب رسالته، ومعه القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى، وكتب السلطان إلى الديوان كتابا، وفيه:

"قد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها، ثم يستخير الله فى الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه".

---

(١) البيكار، وقد تجمع على بياكير، لفظ فارسى معناه الحرب بوجه تام، راجع أيضا: (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق.

(٣) أورد ابن أبى طى (الروضتين، ج ٢، ص ١٩) وصفا تفصيليا للخلع التى أرسلها الخليفة الناصر إلى صلاح الدين، وهو وصف له أهميته ولهذا آثرنا نقله هنا (قارنه بوصف الخلع التى أرسلها الخليفة المستضئ لصلاح الدين فيما سبق هنا)، قال: "وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام الناصر على الملك الناصر، وكانت: ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبيقار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب، ومشدة سوداء مذهبة، وطوق، وتخت، وسرفسار، وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب، وعلم أسود، وعدة خيول وبقج؛ وركب السلطان بالخلعة، وزينت له دمشق، وكان يوما عظيما".

(٤) بهذا اللفظ يتقابل الأصل مرة أخرى مع نسخة س فى أول (ص ١١٤ ا) منها.

ذكر وفاة الملك المعظم

شمس الدين[1] توران شاه بن أيوب

وفى هذه السنة فى المحرم[2] توفى الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أخو السلطان الأكبر — بثغر الإسكندرية[3]، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان أخيه، فحزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر من إنشاد أبيات المراثى، وكان أكثر أبيات الحماسة من حفظه.

ذكر مسير السلطان لحرب قلج أرسلان

صاحب قونية

كان السبب فى ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — كان قد تزوج بابنة السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود السلجوقى، وبقيت عنده مدة ثم أحب مغنية، فتزوجها ومال إليها، وحكمت فى بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان، فبلغ أباها ذلك، فعزم على قصد نور الدين — صاحب الحصن — وأخذ بلاده، واستجار نور الدين بالسلطان، وسأله كف يد قلج أرسلان عنه، فأرسل السلطان إلى قلج أرسلان فى المعنى، فأعاد الجواب:

---

(1) س (١١٤ ا): «شمس الدولة»، وقد ذكر بهذه الكنية فيما يلى بالمتن، وفى: (الروضتين، ج ١، ص ٢٥٩، ج ٢، ص ١٨) و (الحنبلى شفاء القلوب، ص ١٢ ا). واتفق مع المتن (Zambour, op. cit. p. 98).

(2) كذا فى الأصل ووافقه صاحب الروضتين نقلا عن العماد؛ وفى س، و (الحنبلى، شفاء القلوب ص ١٣ ب) أنه توفى فى صفر، والتاريخ الأول أرجح فقد قال به مؤرخ معاصر.

(3) قال ابن أبى طى (الروضتين، ج ٢، ص ١٨) إنه دفن عند موته «بقصر الاسكندرية»، وقال صاحب الروضتين (ج ٢، ص ١٩) «وقبر توارنشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق، نقلته إليه أخته ست الشام بنت أيوب، و بنت القبر عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد ابن شيركوه — وهو ابن عمها — وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاجين وإليه تنسب التربة».

"أنني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون [من بلادى] [1] تجاور بلاده لما تزوج ابنتى، لحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه [2]، فأنا أريد أن يعيد على ما أخذ منى".

وترددت الرسل بينهما، فلم يستقر حال.

فهادن السلطان [صلاح الدين] [1] الفرنج، وسارت عساكره، وكان [٢٢٢] الملك الصالح بن نور الدين بحلب، فتركها ذات اليسار، وسار على [3] تل باشر إلى رعبان، فأتاه بها نور الدين — صاحب الحصن — فأقام عنده، فلما سمع قلج بقربه منه، أرسل إليه أكبر أمير عنده، يقول له:

"إن هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا وكذا، ولابد من قصد بلاده، وتعريفه محل نفسه".

فلما وصل الرسول، واجتمع بالسلطان، وأدى إليه الرسالة، غضب السلطان واستشاط، وقال للرسول:

"قل لصاحبك: والله الذى لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية، وبينى وبينها يومان، ولا أنزل عن فرسى إلا فى البلد، ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه".

فرأى الرسول أمرا [4] شديدا، فقام من عنده، وقد رأى العساكر وما هو فيه من القوة والتجمل، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك، وليس عندهم ما يقاربه، فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به، فأحضره، فقال له:

"أريد أن أقول شيئا من عندى، ليست رسالة من صاحبى، وأحب أن تنصفنى"

فقال: "قل".

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٤ ا).

(٢) الأصل: «تفله» وس: «تقلبه»، وما هنا صيغة (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٧٥) وهو الأصل الذى ينقل عنه المؤلف هنا.

(٣) الأصل: «إلى» والتصحيح عن المرجع السابق.

(٤) س (١١٤ ب): «الأمر».

قال : "يا مولانا ما هو قبيح بمثلك — وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأنا — أن يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة ، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة ، وسرت وخسرت أنت وعسكرك الأموال العظيمة ، لأجل [قحبة][1] مغنية ، ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم؟ وأحسب أحدا ما يواجهك بهذا. أما تعلمون أن الأمر هكذا؟ وأحسب أن قلج أرسلان مات ، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك وتسألك[2] أن تنصفها من زوجها ، فإن فعلت فهو الظن بك، وإن لم تفعل فلا تقوى أمر هذه المغنية ؛ أفيحسن بك أن تردها ؟" .

فقال : "والله إن الحق بيدك ، والأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل عليّ وتمسك بي ، ويقبح علي تركه ، ولكن أنت اجتمع به ، وأصلحوا الحال بينكم على ما [٢٢٣] تحبون ، وأنا أعينك عليه ، وأقبّح فعله عنده" .

ووعد من نفسه بكل جميل .

فاجتمع الرسول بصاحب الحصن ، وتردد القول بينهم ، واستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية منه بعد سنة، وإن كان لا يفعل فينزل السلطان عن نصرته ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد السلطان ، فلما انقضت السنة أخرج نور الدين المغنية عنه ، فتوجهت إلى بغداد [وأقامت بها إلى أن ماتت][3]

ذكر غزو السلطان الملك الناصر بلاد الأرمن

وفي هذه السنة — أعني سنة ست وسبعين وخمسمائة — دخل السلطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون ، لأنه كان استمال قوما من التركمان حتى يرعوا

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل (ابن الأثير) .

(٢) بعد هذا اللفظ في س سقط يسير وبه تنقطع الصلة بين النسختين مرة أخرى .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير، ج ١١ ، ص ١٧٦) .

فى بلاده ، وأمّنهم ، ثم غدر بهم وأسرهم ، فدخل السلطان بلادهم ، وأوغل بها ، فخاف ابن لاون ، وأحرق السلطان قلعة شامخة حصينة تعرف بالمناقير[١] ، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الغلات والآلات ، وتقووا بها ، وتمموا هدمها إلى الأساس ، فخضع ابن لاون وذل ، ودخل تحت طاعة السلطان ، وأطلق ما بيده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيدا مظفرا منصورا ، ووصل إلى حماة فى أواخر جمادى الآخرة .

ومدحه جمال الدين أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب[٢] المقرىء بقصيدة منها :

لقد جمّل اللهُ منك الورى ... بأوفى مليك وفىّ هجانِ
تهشّ إلى نغماتِ السيو ... فِ فى الهامِ ، لانغماتِ القيانِ
أزرت[٣] ابن لاون لأواءه ، ... فأضحى به خبرا عن عيانِ
ودان من الذلّ لا يرعوى ، ... حذارا من الراعفات اللدانِ
فلا قدمٌ عنده للثبا ... تِ ، وليس له بسطاكم يدانِ
وأخلى[٤] إليكم مناقيره ، [٥] ... وغادر للهدمِ تلك المبانى
وأرسل بالأسراءِ العنا ... ةِ يسأل إطلاقه ، فهو[٦] عانى

---

(١) الأصل : «بالمنا يقير» ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مراجع .

(٣) الأصل : «أزمت» ، وما هنا صيغة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦) .

(٤) الأصل : «أخلا» .

(٥) الأصل : «لميتك المنا يقير» ، والتصحيح عن الروضتين .

(٦) الأصل : «وهو» وما هنا عن الروضتين .

[٢٢٤]رتقتَ بِعَـزْمِك والمكرما ... تِ فتوقا من الأرتق[١] الهجان
وَرُعْتَ ابن سلجوقٍ[٢] فى مُلْكِه، ... فقعقع من رعبه بالشِنانِ[٣]

وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — أن دخول السلطان بلاد الأرمن كان لأن رسل قِلِجْ أرسلان بن مسعود — صاحب قونية وملطية — أتوه يلتمسون منه الموافقة ، ويستغيثون من ابن لاون[٤] الأرمنى ، فدخل إلى بلاد الأرمن لنصرة قِلِجْ أرسلان عليه ، [ونزل بقره حصار وأخذ عسكر][٥] حلب فى خدمته ، لأنه كان اشترط ذلك عليهم فى الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق — بين بهسنا وحصن منصور — وعبر منه إلى النهر[٦] الأسود ، [و] طرق[٧] بلاد ابن لاوون ، وأخذ منهم حصنا وأخربه، فبذلوا له أسارى ، والتمسوا منه الصلح ، وعاد عنهم ، ثم راسله قِلِجْ أرسلان فى صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة ، ودخل فى الصلح قِلِجْ أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر ، وكان ذلك على نهر شيخة[٨] ، وهو نهر يرمى إلى الفرات .

ثم سار السلطان إلى دمشق .

---

(١) الأصل : «الارتقا» ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) الأصل : «سلجق» .

(٣) فى الروضتين : « فقعقع من رعبه بالشنان» ، وفى الأصل هنا «بالسنان» ، وفى اللسان : «فى المثل : فلان لا يقعقع له بالشنان أى لا يخدع ولا يروع» .

(٤) هو ليون الثانى صاحب أرمينية (Leo II Roupenian Prince of Armenia) أنظر (Runciman : *op. cit.* vol. 2.p. 430)

(٥) الأصل مضطرب غير مفهوم ونصـه : «وترك معرى من عمل حلب» ، وقد صححت العبارة عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٤٣) وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٦) الأصل : «الحصن الأسود» وقد صحح عن المرجع السابق . وقد عرف (ياقوت : معجم البلدان) نهر الأزرق بأنه نهر بالثغر بين بهسنا وحصن منصور فى طرف بلاد الروم من جهة حلب ؛ ثم قال : ونهر الأسود نهر قريب من الذى قبله فى طرف بلاد مصيصة وطرسوس .

(٧) الأصل : « طرف » وقد عدلت وزيدت الواو ليستقيم بها المعنى .

(٨) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧) نقلا عن ابن شداد ؛ وهو فى الطبعة التى بين يدى من ابن شداد — وهى كثيرة الأخطاء — : « نهر صبخة سنخة » ، ولم أجد لهذا النهر ذكرا عند ياقوت لضبط اسمه .

ذكر مسير[١] السلطان إلى الديار المصرية

ثم عزم السلطان على السفر إلى الديار المصرية ، واستناب بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب بعلبك — ، ورحل إلى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وفى صحبته صدر الدين شيخ الشيوخ — رسول الديوان العزيز — بنية الحج — كما ذكرناه — ، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان من السنة ، فخرج إلى استقباله أخوه ونائبه بمصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب — رحمه الله — ، وفارقه [بعد وصوله إلى مصر][٢] الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ ، وتوجه إلى مكة ، وركب البحر من عَيْذاب ، فوصلها وجاور بها إلى أن جاء الموسم ، فوقف بعرفات وأتم حجه ؛ ثم توجه مع الحج العراقى إلى بغداد .

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة والسلطان — رحمه الله — بالقاهرة مشتغلا [٢٢٥] بالنظر فى مصالح الديار المصرية والمواظبة على سماع الأحاديث النبوية .

ذكر غزو عماد الدين فرخشاه الكرك[٣]

فى هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وخمسمائة[٤] — سار عز الدين فرخ شاه إلى أعمال الكرك فنهبها ، وسبب ذلك : أن البرنس أرناط صاحب

(١) بهذا اللفظ نتقابل مرة أخرى مع نسخة س فى أول (ص ١٧١) .

(٢) ما بين الحاصرتين من س (١٧١) .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى س .

(٤) هذه الفقرة غير موجودة فى س

الكرك — لعنه الله — كان أشد الفرنج عداوة للإسلام، بجمع عسكره وعزم على المسير إلى تيماء، وحدثته نفسه بالمسير إلى مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم — ليستولى عليها وعلى تلك النواحى الشريفة، فلما بلغ ذلك عز الدين — وهو بدمشق — سار بالعساكر الدمشقية إلى بلده فنهبه وخرّبه، وعاد إلى طرف بلاد الإسلام، وأقام هناك ليمنع[١] البرنس — لعنه الله — من المسير، فامتنع بسببه من قصده[١]، فلما طال مقام كل واحد منهما فى مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يتفرق جمعه، ففرّقه، وانقطع طمعه فى الحركة، وعاد عز الدين إلى دمشق، وحمى الله الحرمين الشريفين من غائلة الكفار.

ذكر المتجددات باليمن بعد مفارقة الملك المعظم لها

لما فارق الملك المعظم شمس الدولة توران شاه — رحمه الله — اليمن استناب بزبيد الأمير سيف الدولة[٢] مبارك بن كامل بن منقذ الكنانى، و بعدن عز الدين

(١) مقابل هذه الفقرة فى س: (ليسمع البرنس — لعنه الله — خبره فيمتنع عن المسير، فلما سمع ذلك امتنع بسببه من قصد مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم —).

(٢) س (٧١ ب): «سيف الدين»، وما هنا هو الصحيح، وهو أبو الميمون مبارك بن كامل ابن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى. وذكر (بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج ٢، ص ٣٨) أن توران شاه لما عزم على السفر إلى الشام "استناب فى اليمن نوابا، بجعل أبا الميمون مبارك بن كامل... ابن منقذ على زبيد وأعمالها من التهائم، وجعل عثمان بن الزنجبيلى على عدن وما تاجها، وجعل ياقوت التعزى على تعز وأعمالها، وجعل مظفر الدين قايماز على بجيلة ونواحيها، وتقدم سائرا إلى الشام فى رجب سنة ٥٧١"؛ وذكر هؤلاء النواب مرة أخرى (قمس المرجع والجزء، ص ٦٩) ثم قال: "وتوجه (أى توران شاه) ببقية الأمراء والعساكر إلى مصر وفيهم الأمير أبو الميمون المبارك بن كامل — أخو حطان —، فإن إمرة زبيد كانت لأبي الميمون، فلما عزم شمس الدولة على التقدم إلى مصر استأذنه أبو الميمون فى العزم صحبته، وأن يستنيب على عمله أخاه حطان، فأذن له فى ذلك؛ ولما توفى شمس الدولة بمصر قبض أخوه الملك الناصر صلاح الدين على أبي الميمون المبارك بن كامل، وصادره...، ولما اتصل العلم إلى اليمن بموت شمس الدولة، ولم يأت اليمن متفقد من قبل صلاح الدين، =

عثمان بن الزنجبيلي[١] وكان هوى سيف الدولة الشام ، لأنها وطنه ، فأرسل إلى الملك المعظم ، [يطلب الإذن بالمجيء إليه ، فأذن له ، واستناب أخاه حطان ، وعاد إلى عند الملك المعظم][٢] وهو إذ ذاك بمصر ؛ ولما توفى الملك المعظم — كما ذكرنا — بقى سيف الدولة فى خدمة السلطان بمصر ، فقيل إن سيف الدولة أخذ أموال اليمن وادخرها ، وسمى[٣] به أعداؤه ، فلم يعارضه السلطان .

ولما كانت هذه السنة والسلطان بمصر عمل سيف الدولة دعوة كبيرة دعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية على شاطىء النيل تسمى العدوية[٤] ،

= أظهر النواب غير الطاعة ، وضرب كل منهم لنفسه سكة ، وحرم على أهل بلده المعاملة بغيرها ، ثم إن الملك الناصر صلاح الدين بعث بملوكه خُطلُبا إلى اليمن وكتب إلى كافة الأمراء باليمن أن يجتمعوا على حطان ويخرجوه من زبيد ويتولى ولايته خُطلُبا — إلخ " أنظر أيضا : (ابن حاتم : السمط الغالى الثمن ، ص ٧ ب وما بعدها) ؛ و (والحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٥٣ ب) .

(١) الأصل : "الزنجيلى" ، قال (با مخرمة : تاريخ ثغرعدن ، ج ٢ ، ص ١٣١ — ١٣٢) فى ترجمته له : " أبو عمرو عثمان بن على الزنجبيلى ، نسبة إلى زنجبيلة قرية من قرى دمشق ، ويقال له الزنجارى ، الملقب عز الدين ، كان أميرا كبيرا قدم من مصر مع المعظم توران شاه بن أيوب ، ولما رجع المعظم من اليمن إلى الديار المصرية فى شهر رجب من سنة ٥٧١ استناب فى اليمن نوابا منهم الأمير عثمان المذكور ، استنابه على عدن وما ناحيها ... فلما قدم سيف الإسلام طغتكين بن أيوب من الديار المصرية إلى اليمن فى سنة ٥٧٩ ، وأسر حطان بن منقذ وقبض أمواله ... فلما علم بذلك عثمان المذكور هرب من عدن وركب البحر ، وحمل جميع ما معه وذخائره من ساحل زبيد ، فقبض عليها كلها ، ولم يفلت غير المركب الذى هو فيه ، فلما خرج من عدن سكن دمشق ، وابتنى فيها مدرسته ، وتوفى سنة ٥٨٣ بدمشق ودفن بمدرسته " . ومدرسته بدمشق كانت تعرف باسم "المدرسة الزنجارية" أو "الزنجيلية" خارج باب توما وباب السلامة ، أنشئت سنة ٦٢٦ هـ وبها تربة وجامع بخطبة . انظر : (النعيمى : الدارس فى المدارس ، ج ١ ، ص ٥٢٦ — ٥٢٧) و (رحلة ابن جبير ، ص ١٧٠) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٣) الأصل : "وسعا"

(٤) الذى يذكره العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٥) أن سيف الدولة مبارك بن منقذ « ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد إليها ... فصنع دعوة عظيمة بها » ، وذكر العماد أنه حضرها هو وغيره من الفضلاء والأعيان ، فبينما هم عنده فى أسر حال إذ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة ، واعتقل بالقصر إلخ » .

وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها ، فقيل للسلطان : " إن ابن منقذ يريد الهرب [إلى اليمن][١] ، وأصحابه يتزودون له ، ومتى دخل [٢٢٦] اليمن أخرجه من طاعتك " ، فاعتقله السلطان وحبسه ، فبذل للسلطان ثمانين ألف دينار ، ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة من تجار ، وغرم لأخوى السلطان : الملك العادل ، وتاج الملوك بورى جملة ، فأُطلق وعاد إلى منزلته .

ثم وقع باليمن خلف بين حِطّان بن منقذ — والى زبيد — وعز الدين عثمان ابن الزنجبيلي — والى عدن — لما بلغهما وفاة الملك المعظم ، ورام كل واحد منهما أن يغلب [٢] على ما بيده [٣] ، وجرت بينهما فتن ، واشتد الأمر ، وبلغ ذلك السلطان ، فخاف أن يطمع أهل اليمن فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه ، فأرسل إلى اليمن عسكرا وقدّم عليهم قتلغ أبه [٤] — والى مصر — ومعه عدة من الأمراء ، فاستولى قتلغ أبه على زبيد ، وأزال حِطّان عنها ، ثم توفى قتلغ أبه ، فعاد حِطّان إلى إمارته بزبيد وإقطاعه [٥] ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) فى الأصل : «يغلبك» ، والتصحيح عن س (٧١ ب) .

(٣) كذا بالأصل ، وفى س : «ما بيد الآخر» .

(٤) الأصل : «قبلغ ابه» ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧٨) وهو عند بامخرمة (أنظر ما فات هنا ، ص ١٠٢ ، حاشية ٢) : «خطلبا» ، وهو فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦) : «صارم الدين خطلبا» .

(٥) هذا اللفظ غير موجود فى س .

ذكر استيلاء

سيف الإسلام طغتكين [١] بن أيوب على بلاد اليمن

ثم قرر السلطان مع سيف الإسلام ظهير الدين طُغتكين بن أيوب أخيه أن يمضى إلى بلاد اليمن لتنقطع الفتن بها ، فسار إليها[٢] فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بعد مسير السلطان [فوصل إلى زبيد فملكها ، وأمن حِطّان وطيّب قلبه ، فاستأذنه حِطّان فى المسير][٣] إلى الشام ، فأذن له ، فجمع حِطّان كلما له من سبد ولبد ، وكان قد حصل على أموال عظيمة ، ورحل بها ، فردّه سيف الإسلام إليه ليودعه ، وركب معه ليشيعه ، فلما دخل إليه اعتقله واحتاط على جميع موجوده ، ثم نقله إلى بعض الحصون فحبسه به ثم قتله .

وحكى عماد الدين الكاتب عن السلطان فيما قبض من حِطّان من الأموال ، قال : " كان سبعين غلافا من غلف الزرد مملوءة بالذهب ، وقُوِّم المأخوذ منه بألف ألف دينار " .

ولما سمع عز الدين بن الزنجبيلي بسيف الإسلام تجهز من عدن إلى الشام ، وسار إليه خائفا يترقب ، وسيّر معظم أمواله فى البحر ، فصادفها مراكب فيها

---

(١) فى الأصل : «سيف الدين الإسلام سيف الدين طغتكين» وقد صحح بعد مراجعة س .

(٢) كان الرحالة ابن جبير موجودا فى مكة عند مرور طغتكين بها فى طريقه إلى اليمن ، وقد وصف الأيام التى قضاها طغتكين مع جيشه فى مكة وصفا شائقا . أنظر : (الرحلة ، ص ١٤٥ — ١٤٩) ؛ وقال ابن أبى طى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦) فى أسباب خروج طغتكين لليمن : " كانت نفس سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان تشرئب إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ، ويشتهى أن يصير إليها ، فأمر ابن سعدان الحلبى أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنفاذ سيف الإسلام إلى اليمن ، فعمل القصيدة التى يقول فيها (ويروى أبياتا منها) ، قال : فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام فى المسير إلى اليمن» .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (١٧٢) .

أصحاب سيف الإسلام، فأخذوا كلما لعز الدين ، ولم يبق إلا ما صحبه فى الطريق [ووصل إلى الشام ، وأقام به إلى أن مات][١] وصفت زبيد وعدن وما معهما من الحصون والبلاد لسيف الإسلام ، وقدم عز الدين دمشق ، وكان له معروف وبر [٢٢٧] وصدقات بمكة واليمن ودمشق ، وإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة ، والمدرسة المعروفة به التى هى خارج باب توما[٢] ، [وأقام فى دمشق إلى أن مات — كما ذكرنا —][١] .

ذكر وفاة الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى — رحمهما الله —

وفى هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وخمس مائة — توفى الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين — رحمه الله — وكان مرضه بالقُولَنْج[٣] ، وابتدأ[٤] به المرض تاسع رجب ، وفى الثالث والعشرين منه أغلقت أبواب قلعة[٥] حلب لشدة مرضه ، واستدعى الأمراء واحدا واحدا ، واستحلفوا لابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكى — صاحب الموصل — ، وفى الخامس والعشرين منه توفى — رحمه الله — واشتد حزن أهل حلب عليه .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٢) .

(٢) انظر ما فات ص ١٠٣ ، هامش ١ .

(٣) مرض وصفه (الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٩٨) بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون .

(٤) س : "واشتد" ، وما هنا هو الصحيح فهو يتفق ونص ابن شداد ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٥) هذا اللفظ غير موجود فى س .

ذكر سيرته[1] — رحمه الله —

كان ديِّنا صالحا، مجبولا على الخير، ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر، فقال: «لا أفعل حتى استفتى الفقهاء»، وكان عنده الإمام علاء الدين الكاسانى الحنفى — رئيس أصحاب أبى حنيفة بحلب — وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شربها للتداوى، فقال له: «يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه قد قرَّب أجلى أيؤخره شربُ الخمر؟»، فقال: «لا والله» فقال: «والله، لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرَّمه علىّ»، وكان عمره قريبا من عشرين سنة.

ذكر استيلاء عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى على حلب

لما اشتد المرض بالملك الصالح — رحمه الله — وأيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم والأجناد، واستحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم:

« إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك كان أحسن،[2] ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضا عديم المثل فى العقل والتدبير والخلال والشجاعة التى تفرد بها ».

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س.

(٢) س (٧٢ ب): "أخير"

فقال : " إن هذا لم يغب عنى ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومعى ، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها منه ، فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين [٢٢٨] أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره و بلاده وأمواله " .

فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه وصباه .

فلما توفى أرسل شاذبخت — دُزْدار حلب — إلى عز الدين يدعوه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ونائبه مجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض له فلقى القاصدين عندها ، فأخبروه الخبر ، وسار إلى الفرات ، فأرسل الى عز الدين يعرفه الحال ، ويشير بتعجيل الحركة ، وأقام على الفرات ينتظر ، فسار عز الدين مجدا ، فلما وصل إلى المنزلة التى بها مجاهد الدين [قيماز][1] أقام معه ، وأرسل [إلى حلب][1] يستحضر الأمراء ، فحضروا كلهم عنده ، وجددوا اليمين له ، فسار حينئذ إلى حلب ، ودخلها وملكها .

ولما دخل الفرات كان الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب — ابن أخى السلطان — بمنبج — وكانت إقطاعا له مع حماة[2] وسلمية وغيرها — ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ، ونادوا بشعار عز الدين مسعود لميل[3] الناس كان إلى عود الدولة الأتابكية ، وكان السلطان اذ ذاك بمصر — كما ذكرنا — فأشار الحلبيون على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكى ، فلم يفعل ، وقال : " بيننا يمين ولا نغدر به " ، وأقام بحلب مدة يسيرة .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) فى الأصل : " يميل " ، وقد صححت إلى ما بالمتن ليستقيم المعنى ؛ وفى س : " وخطر الناس عودة الدولة ... الخ " .

ذكر استيلاء

عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى على حلب

وكان وصول عز الدين إلى حلب وتملكه لها فى العشرين من شعبان من هذه السنة ، واستولى على الخزائن والذخائر ، وتزوج أم الملك الصالح ، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من هذه السنة ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لأجل السلطان [صلاح الدين] ، (١) وألحّ عليه الأمراء فى طلب الزيادات [فى إقطاعهم، وفى طلب الأموال] ، (١) وأكثروا إدلالهم عليه بسبب اختيارهم إياه (٢) .

[وكان عنده بخل](١) فضاق عطنه [منهم]، (١) فرحل من حلب إلى الرّقة وخلفه ولده، ومظفر الدين بن زين الدين بها ، ولقيه عماد الدين زنكى بالرّقة على قرار بينهما، واستقر [الأمر بينهما](١) أن يسلم حلب إلى عماد الدين، ويأخذ عز الدين عنها عوضا سنجار .

وذكر ابن الأثير أن عماد الدين أرسل أخاه يلتمس ذلك، وأن عز الدين امتنع عنه ، وأن عماد الدين لجّ فى هذا الأمر ، وقال :

« إن سلمتم إلى حلب(٣)[٢٢٩] وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ".

فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه وكان أكثرهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز ، فاستقر الأمر على ذلك، وحلف كل منهما لصاحبه فى الحادى والعشرين من شوال،

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٧٣ ب) .

(٢) س : "وأكثروا عليه لإدلالهم عليه بسبب إلخ" .

(٣) س : "إن لم تسلموا إلى حلب وإلا ... إلخ" .

وسار من جانب عماد الدين من تسلّم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلّم سنجار ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وتوجه عماد الدين إلى حلب ، وكان صعوده قلعتها فى ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، واستقر بها .

ذكر المتجددات

للسلطان [صلاح الدين][1] بمصر إلى حين سفره إلى الشام

ولما بلغ السلطان وفاة الملك الصالح بن نور الدين تحرك عزمه على التوجه إلى الشام ، وندم على النزوح عنه ، فكتب إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر — صاحب حماة — يأمره بالتأهب والنهوض ، وكاتب سائر نوابه بالشام بذلك ، وكتب إلى الديوان العزيز بانشاء عمادى فيه :

" فصل : وشاع الخبر بغارة أفرنج أنطاكية على حارم ، وأتوا من النهب والسبى بالعظائم ، وشاع أيضا أن عسكر حلب أغاروا على الراوندان وهى [فى] عملنا ؛ ورسلهم عند الفرنج يستنجدونهم؛[2] وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد عنه كاف ، وابن أخينا[3] غائب فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية الحجاز ، فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله ، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء ، وهى دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتنم كون البرية معشبة مخضرة مخصبة فى هذا العام ، والعجب أنا نحامى عن قبر النبى — صلوات الله عليه وسلامه — مشتغلين بهمه ، والمذكور — يعنى صاحب الموصل —

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٧٣ ب) .

(٢) الأصل : "يستنجدوهم" ، والتصحيح عن س (٧٤ ا) ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣) : "ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم" .

(٣) هو ابن أخيه عز الدين فرخشاه .

ينازع فى ولاية هى لنا ، ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال[١] وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ، ويحمل إليهم كرائم الأموال ، هذا مع ما نعد فى الملّة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعدُّ مثلها أولاً لأبى مسلم ، لأنه أقدم ثم خامر[٢] ، ووالى ثم ولى ، ولا آخرا لطغرلبك ، فإنه نصر ونصب ، ثم بحر وحجب ، وقد عُرف ما فضلنا الله به عليهما فى نصر الدولة ، وقطع[٣] من كان ينازع الخلافة رداءها ، ويطهر المنابر[٤] من رجس الأدعياء ، ولم نفعل ما فعلناه [٢٣٠] لأجل الدنيا ؛ غير أن التحدث بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب ؛ ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حدَّه ، ولا يتجاوز حقه ، فإن دخول الأيدى المختلفة عن الأعداء المتفقة شاغل ، ويحتاج فيه إلى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل ، فإن الأعمار تمر مر السحاب ، والفرص تَمِضُ وَمْضَ السراب ، وبقاؤنا[٥] فى هذه الدار القليلة اللبث القصيرة المكث يؤثر أن نغتنمه فى مجاهدة العدو الكافر ، الذى صار به البيت المقدس محلا للأرجاس ، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على اليأس ، وإن كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولا معارة فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوارٍ ،[٦] فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ما وفت بفتح مصر التى رحل[٧] بها أسامى الأدعياء الزاكية[٨] أعوادها ؛ وأعاد إلى عينها بعد بياض عماها من نور الشعار العباسى

(١) فى الأصل : "الآمال" وما هنا عن س ، والروضتين .

(٢) فى الأصل : "خام" ، وما هنا عن س والروضتين .

(٣) كذا فى الأصل وفى الروضتين ؛ وفى س (٧٤ آ) : "وقلع" .

(٤) فى الأصل وفى س : "المغاير" والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣) .

(٥) س : "وقعادنا" .

(٦) الأصل : "بعوارى" .

(٧) كذا فى الأصل وفى الروضتين ؛ وفى س "دخل" .

(٨) كذا فى الأصل وفى س (٧٤ ب) ؛ وفى الروضتين : "الراكبة" .

سوادها ؛ فإن اقتضت الأوامر الشريفة أن يوعز للمذكور بحلب بتقليد ، فالأولى أن يقلّد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ؛ ولمالك الأمر الحكم فى ممالك المماليك " .

وفيه فصل معناه أن حلب من جملة البلاد التى اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضىء بنور الله ، وإنما تركها فى يد ابن نور الدين لأجل أبيه ، والآن فليرجع كل ذى حق إلى حقه ليقتنع برزقه .

ذكر سفر(١) السلطان إلى الإسكندرية وعوده

وسافر السلطان بعد شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وخمسمائة — إلى الاسكندرية على طريق البحيرة ، وخيّم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جددها ، وأمر بالاتمام والاهتمام ، وقال :

« نغتنم(٢) حياة الشيخ أبى طاهر ابن عوف(٣) » .

فحضر عنده ، وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمة الله عليه — ؛ بروايته عن الطرطوشى(٤) فى العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده [٢٣١] السماع .

---

(١) س : " مسير " .

(٢) فى الأصل : " فغتنم " ، وما هنا عن س ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤) .

(٣) فى الأصل ، وفى س : " أبى طاهر السلفى " ، وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤) أنظر أيضا : (الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٨ و ٢٢٢) ، وقد بنيت لابن عوف أول مدرسة بنيت فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، بناها له رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ فى سنة ٥٣٢ هـ ، وأسند إليه التدريس بها ، أنظر : (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة سراى ، ص ١٣٨ ب) .

(٤) الأصل : " الطرطوسى " ، و س : " الطرسوسى " ، والتصحيح عن الروضتين حيث نقل خبر هذه الزيارة — كما ورد هنا تماما — عن العماد الكاتب الذى نص على أنه كان فى صحبة صلاح الدين وولديه أثناء الزيارة ، وأنه شاركه هذا السماع ، وانظر ترجمة الطرطوشى فى : (ابن خلكان : الوفيات ، =

ثم عاد إلى القاهرة فى ذى القعدة، وشرع فى التجهز والاستعداد لسفر الشام، بجمع العساكر، واستكثر من السلاح، فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام السور الداير على مصر والقاهرة.

ذكر مسير السلطان إلى الشام

ثم برز السلطان من القاهرة، وخرج الناس لوداعه، فمن عجيب ما ذكر فى الاتفاق أن السلطان بينما هو فى سرادقه، والعلماء والفضلاء عنده، وكل منهم ينشد بيتا [أو أبياتا][1] فى الوداع، إذ أخرج أحد مؤدبى أولاده رأسه، وأنشد مظهرا بذلك فضليته:

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْـدٍ فما بعدَ العَشِيَّةِ مِن عَرَارِ

فخمد نشاط السلطان، وانقبض انبساطه، وجعل الجماعة ينظرون بعضهم لبعض متعجبين من سوء أدب المؤدب، وكأنه نطق بما هو كائن فى الغيب، فإن السلطان فارق الديار المصرية هذه النوبة، واشتغل بما سنذكره من الفتوحات والغزوات، وتمادى الحال إلى أن قضيت منيته بدمشق، ولم يعد بعد ذلك إلى الديار المصرية، فكان كما قيل: « الفال موكل بالمنطق ».

ثم سار السلطان متوجها إلى الشام لخمس مضين من المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وجعل طريقه على أيلة، وكان قبل سفره قد غدر الفرنج، ونقضوا عهدهم، واستولوا على تجار فى البحر وغيرهم، فقدر الله سبحانه بطسة[2] للمسلمين

=ج ٣، ص ٢٩٣ — ٢٩٥) و(مقدمة كتابه سراج الملوك)، وقد أورد صاحب (الروضتين، ج ٢، ص ٢٤). نص خطاب هام لطيف كتبه القاضى الفاضل إلى صلاح الدين يهنيه فيه بهذا الماع، فانظره هناك.

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٥).

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٧٧، هامش ١

عظيمة من المراكب مقلعة للفرنج من بلد لهم يقال له بوليه ، يحتوى على ألفين[١] وخمسمائة من رجال القوم وأبطالهم وأتباعهم على قصد زيارة القدس ، فألقتهم الريح على ثغر دمياط ، فغرق شطرهم وأسر الباقون ، وكان عدة من أسر ألفا وستمائة وتسعين نفسا[٢] .

ولما وصل السلطان إلى عقبة أيلة فإنه سمع باجتماع الفرنج فى الكرك لقصد قطع الطريق ، فاحترز بحفظ الأطراف، [٣]وانحاز[٤] بحمى ، ثم عقبة شنار[٥] ثم القريتين[٣] ،وأغار على طرف بلاد العدو،ثم تجرد السلطان فى شجعان أصحابه ، وسار على سمت الكرك [٢٣٢] إلى الحسى[٦] ، وأمَّر أخاه تاج الملوك بورى على الناس، وأمره أن يسير بهم يمنة ، ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع .

وكان الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان ، وأن معه خلقا من التجار ، اجتمعوا بالكرك ، للقرب من طريقهم ، لعلهم ينتهزون فرصة من القافلة ، فخرج الملك المنصور عزالدين فرخشاه ابن أخى السلطان من دمشق،واغتنم خلو ديارهم،وأغار على طبرية وعكا ، وفتح دبورية[٧] ، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد ، وهو

---

(١) فى الأصل ، وفى س (١٧٥) : " ألف " ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٧) . وهو تصحيح يقتضيه السياق ؛ أنظر تفصيل الخبر فى السطور القليلة التالية .

(٢) كذا فى الأصل ؛ وس : " ألفا وستمائة نفس " ؛ والروضتين : " زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا " .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة فى س .

(٤) الأصل : " وجاز " وما هنا عن الروضتين .

(٥) الأصل : " سنان " وما هنا عن الروضتين .

(٦) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) . وفى س (٧٥ب) : " الحبا " .

(٧) فى الأصل : " دنورية " وفى س : " دبوريه " بدون نقط ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨) و (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقد عرفها الأخير بأنها بليد قرب طبرية من أعمال الأردن .

شقيف يشرف على بلاد المسلمين ، ففتحه وأسكنه المسلمين ، فبقى عيناً على الفرنج بعد ما كان لهم ، ورجع بالأسرى والغنائم ، ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من النعم ، ووصل إلى السلطان البشرى بذلك وهو فى الطريق ، [ففرح بهذا الفتح][١] — .

ثم وصل السلطان دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين — .

ثم خرج السلطان وأغار على طبرية و بيسان ، والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب ، واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الإسلام ، ثم رجع السلطان مظفرا[٢] .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم عزم السلطان على المسير [الى البلاد الشرقية و][١] إلى حلب ، فبلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم ، فتوجه السلطان [صلاح الدين — رحمه الله —][١] إلى بعلبك وخيّم بالبقاع ، وكان قد واعد[٣] أسطول مصر [أن][١] يتجهز إلى بلاد الساحل ، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت ، فبادره السلطان بعسكره جريدة ، فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول ، وكان قد سبي الأسطول منها[٤] وسلب ، فأغار

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٧٥ ب) .

(٢) أورد صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ — ٢٩) نص رسالة بقلم الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يصف له فيها هذه المعارك والنصر الذى أحرزه .

(٣) الأصل : " وعد " ، وما هنا عن س والروضتين (ج ٢ ، ص ٢٩) .

(٤) صيغة س : " وكان قد سبا الأسطول منها خلق (كذا) كثير ، فرده السلطان إلى مصر ، وأغار ... الخ " .

السلطان على تلك البلاد ورجع ، وأعاد ابن أخيه عز الدين فرخشاه إلى دمشق ورحل [السلطان] إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثم إلى حماة ، واستصحب معه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين صاحبها ، فلما قرب من حلب وصل إلى خدمته مظفر الدين [٢٣٣] كوكبورى بن زين الدين على كوچك ، وكان بيده حرّان ، فأشار على السلطان بعبور الفرات ، (١)وكان سبب قصد مظفر الدين خدمة السلطان استيحاشه من مجاهد الدين قايماز(١) وعز الدين مسعود — صاحب الموصل — ، فالتجأ إلى السلطان وأطمعه فى البلاد .

وكان نزول السلطان على حلب ثامن [عشر](٢) جمادى الأولى من السنة ، وأقام منازلا لها ثلاثة أيام ، ثم رحل يطلب الفرات ، فوصلها وخيّم عليها من غربى البيرة ، ومد الجسر ، وكانت البيرة لشهاب الدين الأرتقى ، فمات وملكها بعده ولده ، وصار فى طاعة عز الدين — صاحب الموصل — فقصدها فى السنة الماضية قطب الدين ايلغازى (٣) بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى(٣) بن أرتق — صاحب ماردين — بعد أن استأذن صاحب الموصل ، وهو ابن عمته ؛ وقصدها وأخذها منه ، فأذن له فى ذلك ، فسار فى عسكره إلى سميساط ، وهى له ، فنزل بها ، وسيّر العسكر إلى البيرة ، لحصرها ، فلم يظفر منها بطائل ، فأرسل صاحبها إلى السلطان — وقد خرج من مصر — يستنجده على ابن عمته(٤) ، وطلب منه أن يكون فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين ، فأجابه الى ذلك ، فأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب منه أن يرحل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته .

---

(١) صيغة س مضطربة التركيب والمعنى ، ونصها : " وكان قصد مظفر الدين بخدمة السلطان صلاح الدين استخداما من مجاهد الدين قايماز . . الخ " .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٧٦ أ) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠) .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة فى س .

(٤) فى الأصل عمه ؛ أنظر النص قبل هذا بسطرين .

واشتغل السلطان بما ذكرناه من الفرنج ، فلما رأى قطب الدين طول مقام عسكره على حصار البيرة ولم يبلغوا منها غرضا ، أمرهم بالرحيل عنها وعاد إلى ماردين ، فسار صاحبها إلى خدمة السلطان ، فكان معه حتى عبر الفرات .

ولما نزل السلطان على البيرة كاتب ملوك الأطراف :

« من جاء مستسلما سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة » .

فجاء رسول نور الدين بن قرا [٢٣٤] أرسلان بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — بالإذعان .

ذكر استيلاء السلطان على البلاد الجزيرية[١]

ثم رحل السلطان من البيرة فنازل الرُّها ، وفيها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى [صاحب حماة أولا][٢] ، فسلمها إلى السلطان ، فأقطعها لمظفر الدين بن زين الدين مضافة إلى حرَّان [ومضى ابن الزعفرانى إلى الموصل فأقام بها][٢] ، ثم وصل السلطان إلى حرَّان فرتبها ، وانفصل منها إلى الرقَّة ، وصاحبها الأمير قطب الدين ينال بن حسان[٣] — صاحب منبج — ، فأذعن للسلطان ، فسلم البلد إليه ، وأصلحها السلطان ، ثم رحل إلى مشهد الرمان ، ثم إلى عربان ، وتسلمها أيضا ، ثم استولى على الخابور ، ففتح رأس عين

(١) أورد صاحب (الروضتين ، ج٢ ، ص ٣١ — ٣٢) خطابا طويلا بقلم القاضى الفاضل أرسله صلاح الدين إلى الديوان العزيز عند عبوره الفرات يعدد فيه انتصاراته المتتالية هناك ، وهو خطاب هام يتضمن تفصيلات كثيرة ، فانظره هناك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٧٦ ب) .

(٣) س : " حاف " بدون نقط .

ودورين وماكسين والشمسانيّة[١] والفُدَيْن[٢] والمجدل والحصين ، ثم قطع نهر الخابور على قنطرة تُنَيْنير[٣] ، ونازل نصيبين ، فامتنعت القلعة عليه أياما ، ثم استسلم من فيها ، فملكها ، وولاها حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، وولى الخابور جمال الدين خوشترين[٤] .

وأقام السلطان بنصيبين ليصلح أمورها ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد قصدوا بلد دمشق ، ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا ، وأرادوا تخريب جامعها ، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى ، يقول لهم : « إذا خربتم جامع داريا جددنا عمارته ، ونخرب كل بيعة لكم فى بلادنا ، ولا نمكن أحداً من عمارتها » ، فتركوه ، ولما وصل الخبر بذلك إلى السلطان ، أشار عليه بعض أصحابه بالعود ، فقال السلطان : « يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ، ثم نعود فنعمرها ، ونقوى على قصد بلادهم » ، ولم يرجع وعزم على منازلة الموصل .

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر الموصل

لما ملك[٥] السلطان نصيبين جمع الأمراء الأكابر واستشارهم : أى البلاد يبدأ بها ، بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة ؟ فاختلفت آراؤهم ، فقال مظفرالدين كوكبورى بن زين الدين على كوچك :

(١) كذا فى الأصل وفى (الروضتين ، ج٢ ، ص٣٢) ، وس : " الشماسة " وهو خطأ ؛ وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، حيث ذكر أنها بليدة بالخابور .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى س : " الفدير " ، والروضتين : " الفدين " ؛ وصيغة الأصل هى الصحيحة ، وقد ضبط اللفظ عن (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفه بأنه قرية على شاطىء الخابور ما بين ماكسين وقرقيسيا .

(٣) الأصل : " القبتين " ، س : " العمس " دون نقط ؛ والروضتين : " التبنير " ؛ وقد صححت وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : " تنينير تصغير تنور ، اسم لبلدتين من نواحى الخابور : تنينير العليا ، وتنينير السفلى ، وهما على نهر الخابور " .

(٤) الأصل : " جوشيرين " ، والتصحيح عن س والروضتين .

(٥) س (١٧٧) : " أصلح " .

« لا ينبغى أن تبدأ بغير الموصـــل ، لأنها فى أيدينا لا مانع لها ، [٢٣٥] فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية » .

ووافقه على ذلك ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان قد بذل للسلطان مالا كثيرا ليقطعه الموصل إذا ملكها ، فأجابه إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأى لهواه ، فسار السلطان إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ونائبه مجاهد الدين [قايماز][١] قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل ، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ماحارت له الأبصار ، وكانت طريق السلطان على أعمال ما بين النهرين ، ثم أعمال البقعة[٢] ، ثم سار[٣] إلى دجلة ، فوردت خيله — فى أشهر متقاربة — نيل مصر والفرات والدجلة ؛ ثم صمم على قصد الموصل ، فلما قرب منها انفرد هو ومظفر الدين بن زين الدين ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ونفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فلما رآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه ، فإنه رأى بلدا عظيما ، ورأى الأسوار قد ملئت بالرجال ، وليس فيها[٤] شرّافة[٥] إلا وعليها رجل مقاتل ، سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين ، فلمـا رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه ، فقال لناصر الدين :

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا فى الأصل ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢) ؛ وس (١٧٧) : " همه " بدون نقط .

(٣) قبل هذا اللفظ فى س : " ثم لد " ، ولعلها : " بلد " ، فقد جاء فى الروضتين نقـلا عن العماد : " ثم سرنا إلى بلد وأشرفنا على دجلة " .

(٤) الأصل : " فيه " وقد صححت ليستقيم بها المعنى .

(٥) فى (اللسان) : " الشَّرَف " كل نشز من الأرض قد أشرف على ما حوله ، و " الشُّرْفَة " ما يوضع على أعالى القصور والمدن ، والجمع شُرَف . فلعل المقصود هنا بالشرافة الأجزاء العليا من السور التى تشرف على خارجه .

"إذا رجعنا إلى العسكر فاحمل مابذلت من المال، فنحن معك على[١] القول".

فقال . ناصر الدين :

" قد رجعتُ عما بذلتُ من المال " .

فقال له ولمظفر الدين :

" غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا [فى قلوب الناس][٢]، ومتى نازلناه[٣] وعدنا عنه ولم نأخذه ينكسر ناموسنا، ويفل حدنا وشوكتنا " .

ثم رجع إلى معسكره [وبات تلك الليلة][٢] وضَحّ البلد ، ودار العسكر حول السور ، وعيَّن لكل مقدم مقاما ، ونزل هو وراء البلد ، ونزل الملك المظفر تقى الدين — صاحب حماة — من شرقيه ، ونزل تاج الملوك بورى بن أيوب عند الباب العمادى[٤]، ونزل نور الدين — صاحب حصن كيفا — بباب الجسر .

وكان نزول السلطان على الموصل [٢٣٦] يوم الخميس حادى عشر رجب من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — ثم نشب القتال بين الفريقين، ولم يمكن عز الدين [صاحب الموصل][٢] ومجاهد الدين أحدا[٥] من الخروج، بل لزموا القتال على الأسوار ، وخرج يوما بعض العامة إلى العسكر ، فنالوا منه .

ثم إن الملك المظفر أشار على عمه السلطان بنصب منجنيق ، فقال :

"مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق[٦]، ومتى نصبناه أخذوه ، ولو خرَّبنا برجا[٧] أو بدنة من يقدر على الدخول إلى هذا البلد وفيه هذا الخلق الكثير ؟"

---

(١) الأصل : "فنحن على هذا القول"، وما هنا صيغة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٢) وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) فى الأصل : "بارينا" ، وفى س (١٧٧ ا) : "فارقناه" ، وما هنا عن ابن الأثير .

(٤) س : "العمادية" .

(٥) هذا اللفظ غير موجود فى س .

(٦) الأصل : "منجنيقا" .

(٧) فى الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٣) : "وبدنة".

فألح عليه ، وقال :

" نجربهم به " .

فنصب منجنيقا[١] ، فنصبوا عليه من[٢] البلد تسعة[٣] منجنيقات ، وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، وأخذ بعض العامة مداسا[٤] فيه مسامير كثيرة ، ورمى به أميرا يقال له : جاولى الأسدى ، مقدَّم الأسدية وكبيرهم ، فأصاب صدره ، فوجد لذلك ألما شديدا ، فأخذ المداس وعاد إلى السلطان ، وقال :

" قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها " .

وألقى المداس ، وحلف أنه لا يعود يقاتل أَنَفَةً ، حيث ضُرب بالمداس .

ذكر رحيل السلطان من الموصل

ثم إن السلطان رحل من قرب البلد ، ونزل متأخراً خوفا من البيات[٥] فإنه كان لا يأمن ذلك[٦] ، فإن[٧] مجاهد الدين أخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل ، فكان أحدهم يخرج من الباب ، وينزل

(١) الأصل : " منجنيقات " ، وما هنا عن س وابن الأثير ، وهو الصحيح .

(٢) الأصل : " بين " والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) س (٧٧ ب) : " سبع " والأصل : " تسع " والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) فى الأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٣) : " لالكة " ، وقد ذكر ابن واصل هنا اللفظ العربى المقابل له ، فقد ذكر (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) أن " لالك " لفظ فارسى معناه الحذاء أو المداس ، والجمع " لوالك " ، واللالكانى الحذاء أو صانع الأحذية .

(٥) س : " الكبسات " .

(٦) بهذا اللفظ تنتهى ص (٧٧ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النسختين .

(٧) يلتقى النص بهذا اللفظ مع نسخة س فى (ص ١١٢ أ) .

إلى دجلة مما يلى عين الكبريت[١] ، و يطفى المشعل و يعود ، فرأى العسكر[٢] ذلك ، فلم يشكوا فى الكبسة ، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخير ، ليتعذر البيات على أهل الموصل .

وكان عز الدين — صاحب الموصل — قد سيّر القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — رسولا إلى الديوان العزيز قبل نزول السلطان [على الموصل][٣] بأيام قلائل ، قال :

" فسرت مسرعا إلى دجلة ، وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ ، — وكان فى صحبة [٢٣٧] السلطان [صلاح الدين][٣] — يأمرونه بالحديث معه [فى الصلح]"[٣] .

وسيّر عز الدين إلى بهلوان بن ايلدكز — صاحب همذان — رسولا يستنجده ، فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان .

ودخل صدر الدين [شيخ الشيوخ][٣] رسول الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، وبشير الخادم بين السلطان وصاحب الموصل ، وتحدثوا فى الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم ، فأجاب السلطان إلى ذلك بشرط أن يسلموا إليه حلب ، فامتنع عز الدين من ذلك ، ثم نزل السلطان عن ذلك إلى تسليم البلاد إليهم ، بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب[٤] عليه ، فامتنع عز الدين ، وقال : " هو أخى ، وله [معى][٥] العهود والمواثيق ، ولا يسعنى نكثها " .

(١) كذا فى الأصل وفى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٢) ؛ وفى س : " عين الأرنب " .

(٢) كذا فى الأصل ؛ وفى س : " فرأى العسكر الناس يخرجون " ، وهذا يتفق مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذى ينقل عنه هنا ابن واصل نقلا حرفيا .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س ، أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ص ٣٢) حيث ينقل هذا الخبر عن ابن شداد نفسه .

(٤) فى الأصل : " سنجار " ، وما هنا عن س ، وهو يتفق وسياق الحديث ، كما أنه يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) حيث ينقل عنه ابن واصل نقلا حرفيا .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

ووصل رسل قرا أرسلان — صاحب أذربيجان — ، ورسل شاه أرمن[١] صاحب أخلاط — فى المعنى[٢]، ولم ينتظم أمر ولاتم صلح .

ثم رأى السلطان أنه لا ينـال من الموصل غرضا ، فرحل قاصدا سنجار ، وقدّم أمامه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر — صاحب حماة — .

ذكر منازلة السلطان سنجار وتملكه لهـا

ولمـا توجه السلطان إلى سنجار وجد فى طريقه عسكرا من الموصل سائرا إليها ، فأحاط بهم ، وأخذ خيلهم وعددهم وردهم إلى الموصل رجّالة ، ووصل إلى سنجار ومعه رسل دار الخلافة ، وكان بسنجار شرف الدين أمير أميران هندوا ابن مودود ابن زنكى[٣] نائبا بها عن أخيه عز الدين ، فواصل السلطان سنجار ، وضايقها ، وألح فى قتالها ، ونصب عليها المنجنيق ، فهدم ثلمة من سور القلعة ، [فأخذها][٤] ووكّل بها من يحفظها .

ودخل شهر رمضان فكفّ السلطان عن القتال ، ثم بلغه أن الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام ، فأرسل إليهم من أوثقهم وحملهم إليه ، وكان فيهم جماعة من المقدمين والأعيان ؛ فلما أصبح شرف الدين [هندوا][٤] أذعن وسلم [القلعة وسـنجار إلى السلطان][٤] ورحل بأهله وماله إلى الموصل ، ودخل السلطان

---

(١) رسمت فى الأصل : " شاهرمن " .

(٢) كذا فى الأصل وفى ابن الأثير ؛ وفى س : " الصلح " .

(٣) صيغة س : " وكان بسنجار أمير أميران بن مودود بن زنكى إلخ " ، واسم هـذا الرجل فى الأصل ، " هندو " وقد صحح بعـد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٣) ، و يلاحظ أن ابن واصل ينقل هنا عن الكامل لابن الأثير ، وعن الروضتين ، مجتمعين ، دون أن يصرح بذلك ، كما يلاحظ أن صاحب الروضتين ينقل كثيرا فى هذا الموضوع عن العماد الكاتب .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٢ ب) .

إلى سنجار و إلى القلعة ، و رتبها وأمر بعمارتها ، وولّاها الأمير سعد الدين مسعود ابن معين [الدين][١] أَنَر .

وذكر ابن الأثير أن جماعة من الأكراد الذين [كانوا][١] بها كاتبوا السلطان وأشاروا عليه بقصد بعض النواحى ، فقصدها ، فسلموا تلك الناحية إليه ، فملك الباشورة[٢] ، فضعف إذ ذاك قلب صاحبها ، فسلمها بالأمان .

ثم رحل السلطان [٢٣٨] إلى نصيبين ، فأقام بها لقوة البرد ، وودع رسل الخليفة [ومضوا][١] ، وشكا أهل نصيبين من حسام الدين أبى الهيجا السمين ، فعزله واستصحبه معه إلى دارا ، و بها الأمير صمصام الدين بهرام الأرتق ، فتلق السلطان أحسن ملتق[٣] فأكرمه ، ثم سار السلطان إلى حرّان ، وأقام بها للاستراحة ، وعاد كل إلى بلده ، وعاد الملك المظفر تق الدين إلى حماة .

ذكر وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه

ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، واستيلاء ولده الملك الأمجد بهرام شاه عليها

وفى جمادى الأولى من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، ووصل خبره بذلك إلى السلطان ، فأمّر ولده الملك الأمجد بهرام شاه على بعلبك وأعمالها ، وأستناب بدمشق مكان عز الدين شمس الدين محمد بن المقدّم .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٢ ب) .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

(٣) بهذا اللفظ تنتهى ص (١١٢ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة بينها و بين الأصل .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان عز الدين فرخشاه — رحمه الله — فاضلا أديبا ، كريما ، كثير العطايا والبذل ، محبا للفضلاء ، متكثرا بهم ، حسن السيرة ، وكان قد احتضن الشيخ الإمام تاج الدين أبا اليمن الكندى[١] — رحمه الله — إمام عصره وفريد وقته فى الأدب ، فاستفاد منه ، واقتبس من علومه ؛ وللشيخ تاج الدين هذا فى عز الدين — رحمه الله — قصيدة أولها :

هل أنت راحِمُ عَبْرَةٍ وتَوَلُّهِ ... ومجيرُ صَبٍّ عند مَأْمَنِه دُهِى ؟

هيهات يرحمُ قاتلٌ مقتولَه ! ... وسِنانُه فى القلبِ غيرُ منهنِه

مَنْ بَلَّ مِن داءِ الغرامِ ؟ فإننى ... مُذْ حَلَّ بى مرضُ الهوى لم أَنْقَه

إنى بُليتُ بحِبِ أَغْيَدَ ساحرٍ ... بلحاظِه ، رَخْصِ البنانِ بزهرِه

أبغى شفاءَ تَدَلُّهى من دَلِّه ، ... ومتى يرقُّ مُدَلَّلٌ لِمُدَلَّهِ ؟!

يا مفردا بالحسنِ إِنَّك مُنْتَهٍ ... فيه ، كما أنا بالصبابةِ منتهى

قد لامَ فيك معاشرٌ ، أفأنتهى ... باللومِ عن حُبِّ الحياةِ ، وأَنْتَهِى؟

أبكى لَدَيْه ، فإن أحسَّ بلوعةٍ ... وتشهقٍ أومى بطَرْفٍ مقهقهِ[٢]

---

(١) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندى . أنظر ترجمته فى : (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١ — ١٧٥) و (أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٦٥ و ٩٥ — ٩٨) و (السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢٤٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٧١) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٤) . و (ديوان ابن الساعاتى ، صفحات كثيرة منه) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥) : " ويشهقه أو ما يطرف مقهقه "

[٢٣٩] أنا من محاسنِهِ وحالى عنده حيرانُ بين تَفَكُّهٍ وتَفَكُّهِ (١)
ضِدَّان قد جُمِعا بلفظٍ واحدٍ لى فى هـواه بمعنيينِ مُوَجَّهِ

ومنها :

أنا عبدُ من شَهِدَ الزمانُ بعجزِهِ عن أن يجىءَ له بندٍ مُشْبِهِ
عبدٌ لعزِ الدين ذى الشرفِ الذى ذَلَّ الملوكُ لعزِّه(٢) ، فَرْخَنْشَهِ
طابتْ موارِدُهُ فَغَصَّ فِنَاؤُهُ وشَدا الحُدَاةُ بذكرِهِ فى المَهْمَهِ
يَفْـدِيكَ كلُّ مُمَلَّكٍ مُتَنَابِهِ أبدا بألسـنةِ الرعاعِ مُمَـدَّهِ
لا يفقهُ النجوى إذا حدَّثْتَـهُ وإذا بدا(٣) بحديثـه لم يُفْقَهِ

قلت : مولد الشيخ تاج الدين الكندى — رحمه الله — سنة عشرين وخمسمائة ، وروى عن أبى منصور الجواليقى وغيره ، وتوفى بدمشق سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ومات وعمره ثلاث وتسعون سنة .

ولم تزل بعلبك بيد الملك الأمجد بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب إلى أن أخذها منه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب — على ما سنذكره إن شاء الله — .

وملك بعلبك بعد الملك الأشرف أخوه الملك الصالح إسماعيل ، ثم ملكها ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، ثم ابنه الملك المعظم

(١) الأصل : " بين تفكهه وتفكهه " والتصحيح عن الروضتين ، وقد عقب على البيت بالشرح الآتى ، قال : " يقال : تفكهت بالشىء أى تمتعت به ، وتفكهت تعجبت ، ويقال أيضا تفكهت تندمت ، فهو فى تفكه أى تمتع بالمحاسن ، وفى تعجب من حاله وتندم عليها " .

(٢) فى الروضتين : " لعز عبد فرخشه " .

(٣) فى الروضتين : " أتى " .

توران شاه، ثم ملكها الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز[١] — صاحب حلب — ، ثم ملكها التتر ، ثم صارت بعده للملك المظفر قطز ، ثم ملكها بعده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، ثم صارت بعده لمولانا الأعظم الملك المنصور سيف الدين قلاوون[٢] رحمة الله على سائر ملوك الإسلام أجمعين وعلى سائر المسلمين .

ذكر نصرة المسلمين على الفرنج ببحر القلزم[٣]

لما صعب على البرنس أرناط — صاحب الكرك — ما توالى عليه من نكاية المسلمين المقيمين بحصن أيلة — وهى فى وسط البحر لا سبيل للفرنج إليها — أفكر فى وجه يتأتى له به فتحها ، فبنى سفنا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثم ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، وأوقف منها مركبين على جزيرة القلعة[٤] ، تمنع أهلها استقاء الماء ، ومضى الباقون فى مراكب إلى عيذاب [٢٤٠] ، فقطعوا طريق التجارة ، وشرعوا فى القتل والأسر والنهب ، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم .

---

(١) أنظر أسماء ملوك بعلبك من الأيوبيين ومدى حكمهم فى : (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، ج ١ ، ص ١٥٢ — ١٥٣) .

(٢) هذا استطراد من نوع الاستطرادات السابقة واللاحقة التى امتاز بها المؤلف فى هذا الكتاب ، والتى دأب على إيرادها كلما عرض لذكر مدينة من مدن الشام ، فهو يتتبع حاكميها إلى عصره ، ونفيد من هذا الاستطراد كذلك أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من تاريخه فى حياة السلطان قلاوون ، وبعد سنة ٦٧٨ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها هذا السلطان الحكم . أنظر أيضا مافات هنا ص ٧٥ ، هامش ١

(٣) هو البحر الأحمر الحالى ، وسمى هكذا نسبة إلى مدينة القلزم التى كانت تقع فى أقصى شمال خليج القلزم ، وقد خربت هذه المدينة فى القرن الخامس الهجرى ، وعلى أنقاضها نشأت مدينة السويس الحالية فى القرن السادس الهجرى ، وسمى الخليج بخليج السويس كذلك .

(٤) يقصد الجزيرة التى عليها قلعة أيلة فقد قال فى صدر هذه الفقرة إن حصن أيلة كان فى وسط البحر (أى فى جزيرة) لا سبيل للفرنج إليها .

ووصل الخبر إلى مصر ، وبها نائب السلطان — وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب — فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ يعمِّر فى بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجى عندها ، فأحرقه وأسر من فيه ، ثم سار إلى عيذاب[1] ، ودل على مراكب الفرنج ، فتبعها ، فوقع بها بعد أيام ، وأوقع بها ، وأطلق المأسورين من التجار ، وردَّ عليهم ما أخذ منهم ، ثم صعد البر ، فوجد هناك عربانا نازلين ، فركب خيلهم ، وسار وراء المنهزمين من الفرنج ، فحصرهم فى شِعْب لا ماء فيه ، فأسرهم جميعهم ، وكان ذلك فى الأشهر الحرم ، فساق منهم أسيرين إلى منى لينحروا بها كما ينحر الهدى ، عقوبة لهم على قصد حرم الله وحرم رسوله ؛ وعاد إلى القاهرة ومعه الأسرى[2] .

---

(١) كانت عيذاب ميناء هامة على بحر القلزم (الأحمر) ينتهى إليها طريق الحج والتجارة الذى يبدأ من قوص على النيل ، وإليها تنتهى تجارات اليمن والحبشة والهند ، وكان الحاج من المغاربة يؤثرون هذا الطريق على غيره ليتفادوا صعوبات الإبحار فى بحر القلزم ، أو أخطار الطريق البرى عبر صحراء سيناء وبلاد العرب ، لأن عيذاب تقابل تقريجدة على الشاطىء العربى ، وتعبر السفينة المسافة بينهما فى ليلة واحدة . وقال (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٦) أن عيذاب تقع مكان « بيرنيس القديمة » ، غير أن محمد رمزى قال فى تعليقاته على (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٩ ، هامش ٢) أن هذا خطأ ، وأن موقعها كان جنوبى رأس أبو فاطمة على خط عرض ٢٢ درجة و ٢٠ دقيقة ، يقابلها من الغرب على النيل قرية أبو سنبل التى بمركز الدر الواقعة شمال بلدة وادى حلفا على بعد ٦٦ كيلو مترا منها . أنظر أيضا : (رحلة ابن جبير) و (رحلة ابن بطوطة) و (خطط المقريزى) .

(٢) وزع الأسرى على المدن الكبرى ليشهروا بها ثم يُقتلوا ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير عند نزوله بالاسكندرية الموكب الذى شهر فيه بعض هؤلاء الأسرى ، ووصف الحادثة وصفا فيه تكملة للعلومات الواردة هنا ، قال فى (الرحلة ، ص ٥٨ — ٦٠) : « ... لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ (ذو الحجة سنة ٥٧٨ هـ) أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد إشفاقا وجزعا ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكِراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ، ودفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النعم (اليمن) فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا ، وانتهوا إلى عيذاب =

وكتب الملك العادل إلى أخيه السلطان يعرفه ذلك ، فورد عليه كتاب السلطان يأمره بضرب رقابهم ، بحيث لا يبقى منهم أحد يخبر عن ذلك البحر وطريقه ، ففعل ذلك وكفى الله الحرمين الشريفين شر عدو الدين ؛ وكتب القاضي الفاضل عن السلطان بالبشارة منه :

" فصل : كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا ، وافتضوا من البحر بكرا ، وعمّروا مراكب بحرية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا فى البلاد ، [واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب][(١)] وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوى[(٢)] أشراطها ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ، وانفطر[(٣)] غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه[(٤)] الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم — صلى الله عليه وسلم —

= فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا من البر قافلة كبيرة تأتى من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة — أعزهما الله — ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الإسلام ، ولا انتهى رومى إلى ذلك الموضع قط ، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه ، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين ، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم إلى مكة والمدينة ، وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما » .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن نص الرسالة الوارد فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧) .

(٢) الأصل : « مطوا » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) فى الروضتين : « وانتظر » .

(٤) الأصل : « بنيانه » ، وما هنا عن الروضتين .

ورجوا أن تشحذ البصائر آية [كآية] (١) هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل ، وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التى هى على فوهة بحر الحجاز [و](١) مداخله ، والأخرى الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم [من](١) سواحله ، وانقسموا(٢) فرقتين ، وسلكوا الطريقين ؛ [٢٤١] فأما الفريق الذى قصد قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها [من](١) ، مورد الماء الذى به قوام الحياة ، ويقابلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين ثجه ، [ويأخذ تجار اليمن ، وأكارم عدن](١) ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح — والعياذ بالله — المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم ".

" وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب ، وفرقها على الفرقتين(٣) وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين فأما السائرة إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطى منع الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء ، فقذفتها قذف شهب السماء مسترقى سمع الظلماء ، [فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل فى شعب وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة](١) " .

" وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت فى الساحل الحجازى إلى غابر(٤) إلى سواحل الحوراء ، [فأخذت تجارا وأخافت رفاقا ، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا](١) ، فهنالك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن النص الوارد فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧) .

(٢) الأصل : «وانقسموا» : والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : «وفرقها فرقتين» وما هنا عن الروضتين .

(٤) فى الروضتين : «رابغ سواحل الحوراء» .

المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها[١] بعد إسلام المراكب ، فسلكوا فى طريق الجبال مهاوى المهالك ، ومعاطن المعاطب؛ وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب فشلوهم شلا ، واقتنصوهم أسرا وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا ، نهارا وليلا ، حتى لم يتركوا منهم مخبرا ، ولم يبقوا لهم أثرا ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون[٢] أسيرا [وسُيِّر هذا الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد[٣]] » .

ومن كتاب آخر :

« فصل : ومن جملة[٤] البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كاسرا كاسبا ، غانما غالبا ، بعد نكايته فى أهل الجزائر ، وإخراب ما وجده[٥] فيها من الأعمال[٦] والعمائر ، وفى جملة ما ظفر به فى طريقه بطسة من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة إلى عكا ، ومعها نجارون ليبنوا[٧] بها شوانى ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون ، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكفى شرها المؤمنون ؛ وللخادم فى المغرب عسكر[٨] قد بلغت أقصى إفريقية فتوحه[٨] ، وعاود به شخص الدين فى تلك البلاد روحه »[٩]

---

(١) بهذا اللفظ يلتق النص مرة أخرى بنسخة س (١٧٨) .

(٢) كذا فى الأصل و(الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧) ؛ وفى س (١٧٨) : «مايتى وسبعون» وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ — ٣٧) مقتطفات من جملة رسائل كتبها الفاضل عن هذه الحادثة تزيدها إيضاحا ، فانظرها هناك .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) كذا فى الأصل ، والروضتين ؛ وفى س : «جماعة» .

(٥) فى الأصل : «وجدوا» ؛ والتصحيح عن الروضتين .

(٦) الأصل وس : «الأعمار» ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) الأصل : «ليبنوا» ، وس «ليبتنوا» ، وما هنا عن الروضتين .

(٨) يقابل هذه الفقرة فى س جملة مضطربة ونصها : «عسكرية بلغت أقصى افريقية وهى مفتوحة

(٩) نص هــذه الفقرة فى الأصل وفى س : «وعاديه فى شخص تلك البلاد روحه» ، وقد صححت بعد مراجعة الروضتين .

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين[١] وخمسمائة — أنعم السلطان بأعمال قلعة الهيثم على نور الدين محمد[٢] بن قرا أرسلان صاحب الحصن[٣] ، وكانت جارية فى عمل [٢٤٢] الموصل ، فلما تسلمها سلمها إليه ؛ وكان نور الدين [محمود بن زنكى] — رحمه الله — حين توجه إلى الموصل فى أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه قطب الدين [مودود] وعد ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم ، ثم سلمها إليه دون أعمالها ، تحلة ليمينه ووفاء بوعده ؛ ولما جاء نور الدين بن قرا أرسلان لمساعدة السلطان [صلاح الدين] فى هذه السنة خصه عاجلا بها ، ثم وهبه قلعته الجديدة ، [وهى قريبة من نصيبين][٤] ووعده بفتح آمد له .

ذكر اتفاق[٥]

صاحب أخلاط وصاحب ماردين وصاحب الموصل

على حرب السلطان — رحمه الله —

وترددت رسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل — إلى شاه أرمن[٦] سكمان ظهير الدين — صاحب أخلاط — يستنجده ويستنصره على السلطان ، فأرسل شاه أرمن[٦] ظهير الدين إلى السلطان عدة رسل فى الشفاعة

---

(١) الأصل : «وسبعون» .

(٢) الأصل «محمود» والتصحيح عن (الروضتين) و (وزامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٤) .

(٣) المقصود «حصن كيفا» .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٨) زيد للايضاح .

(٥) الأصل : «تفاق» وما هنا عن س (١٧٨ ا) وهو الصحيح .

(٦) رسمت فى الأصل : «شاهرمن» .

إليه بالكفّ عن الموصل وما يتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه ، فأرسل إليه مملوكه سيف [الدين][١] بكتمر ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب منه أن يتركها ، وقال له إن رحل عنها وإلا تهدده بقصده ومحاربته ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فسوّف فى الجواب رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد وفارقه[٢] غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة ، وأخبر صاحبه الخبر ، وخوّفه عاقبة الإهمال والتوانى عنه ، فسار ظهير الدين من أخلاط وكان مخيما بظاهرها ، وسار إلى ماردين وصاحبها ابن أخيه وهو قطب الدين إيلغازى[٣] بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن ارتق، وقطب الدين ابن خال عز الدين صاحب الموصل وحموه[٤] ، وحضر مع ظهير الدين دولة شاه — صاحب بدليس وأرزن — ، وسار عز الدين — صاحب الموصل — فى عسكره جريدة من الأثقال ، واجتمعت عساكرهم على حَرْزَم[٥] ، وهى ضيعة من أعمال ماردين .

وكان السلطان قد ملك سنجار ، وعاد منها إلى حران ، وتفرقت عساكره كما ذكرناه ، فلما سمع اجتماعهم[٦] أرسل إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين — صاحب حماة — يستدعيه ، فوصل إليه مسرعا، وأشار عليه بالرحيل إليهم ، وحذره آخرون ، فكان هوى[٧] السلطان فى الموصل ، فرحل إلى رأس عين

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س والروضتين .

(٢) س : « وفارق السلطان » .

(٣) س : « ابن ايلغازى » .

(٤) س (٧٨ ب) : « وحماه » وما بالأصل هو الصحيح ، فهو يقصد أن قطب الدين كان والد زوجة عز الدين صاحب الموصل .

(٥) س : «حزم » وقد ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت ، معجم البلدان) حيث عرفها أنها بلدة فى واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى

(٦) س : « فلما سمع باجتماع العساكر مع صاحب الموصل » .

(٧) الأصل ، « هوا » والتصحيح عن س .

فلما سمعوا برحيله تفرقوا [٢٤٣] فعاد شاه أرمن إلى أخلاط ، واعتذر : "بأنى أجمع العساكر وأعود" ، ورجع عز الدين إلى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين ، وسار السلطان — رحمه الله — فنزل حَرَّزَم ، وهى منزلتهم التى كانوا عليها عدة أيام .

ذكر منازلة السلطان آمد وفتحها

ثم سار السلطان إلى آمد، فنزل عليها يوم الأربعاء لثلاث[1] بقين من ذى الحجة من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة — بعد أن استأذن الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى ذلك ، فأذن له ، وكان صاحبها إذ ذاك محمود بن ايكلدى[2] ، وهو شيخ كبير كان الملك له بها من جهة السلاطين السلجوقية ولم يكن له من الملك إلا مجرد الاسم ، وكان المتغلب على الأمر ومدبر الدولة مؤيد الدين أبا على بن نيسان ، فتوفى وتولى ولده مسعود الأمر ، ومحمود [ابن ايكلدى][3] محكوم عليه فى قبضته ، يطعمه ويسقيه ويظهر أنه غلامه ، وليس له معه حكم أصلا ، فإذا جاء رسول يحضره عنده ، ويسند ما يدبره إلى تدبيره ، ويظهر أن الملك لمحمود وإنما هو نائبه ويتصرف تحت أمره ونهيه ، ونصب السلطان المجانيق على آمد وضايقها .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى س : « لليلتين بقين من ذى الحجة » ، وفى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٨) و (الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٨) : « يوم الأربعاء سابع عشر ذى الحجة » ، وبالرجوع إلى (التوفيقات الالهامية) يتبين أن اليوم السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ كان يوم أربعاء ، ولم يكن يوم ٢٧ أو ٢٨ من هذا الشهر كذلك .

(٢) هو جمال الدين شمس الملوك محمود بن ايكلدى (Ilaldi or Aikaldi) الأينالى ، حكم آمد من سنة ٥٣٦ إلى سنة ٥٧٩ حيث انتقلت إلى ملك صلاح الدين . أنظر : (Zambaur : *Op. Cit.* p.139)

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٧٩)

ودخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو على حصار آمد ، وأساء مسعود ابن أبى على بن نيسان المتغلب عليها السيرة ، ولم يعط الناس من الذخائر شيئا ، ولا فرق فيهم دينارا ولا قوتا ، وقال : " قاتلوا عن نفوسكم " ، فقالوا[1] : " ليس العدو بكافر حتى نقاتل عن نفوسنا " ، فلم يفعل شيئا ، وقاتلهم السلطان وزحف إليها وهى فى غاية الحصانة والمنعة ، وسورها يضرب به المثل ، وابن نيسان على حاله فى الشح ، وتصرفه تصرف من أدبرت عنه السعادة ، فلما رأوا الناس ذلك تهاونوا فى القتال وأجنحوا إلى السلامة .

وكانت أيام بنى نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وتضييقهم [عليهم][2] فى مكاسبهم ، والناس كارهون لهم محبون لانقراض دولتهم ، وأمر السلطان أن يكتب على السهام إلى أهل البلد ويعدهم الخير والإحسان إذا أطاعوه ، ويتهددهم إن قاتلوه ، فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا ، وأحبوا ملكه[3] ، وتركوا [٢٤٤] القتال ، ووصل النقابون إلى السور فنقبوه وعلقوه ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا فى ابن نيسان ، واستطالوا فى الطلب ، فحين صارت الحال إلى ذلك أخرج مسعود بن نيسان نساءه إلى القاضى الفاضل يسأله أن يأخذ له الأمان لأهله وماله ، وأن يؤخر ثلاثة أيام ، حتى ينقل ما له بالبلد من الأموال والذخائر ، فسعى له الفاضل فى ذلك ، فأجابه السلطان إليه ، وتسلم السلطان البلد فى العشر الأول من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وأخرج ابن نيسان خيامه إلى ظاهر البلد ، وكان التقرير أن ابن نيسان يحمل فى ثلاثة أيام ما قدر عليه من المال والأثاث ، وأعانه السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال ، ورام ابن نيسان نقل جميع ماله فى تلك الأيام ، فتعذر عليه

---

(١) س : « فقال له بعض الناس » .

(٢) عن س .

(٣) فى الأصل « ملكته » ، وس : « وأحبوا ملكة السلطان » ؛ والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف أخبار حصار آمد وفتحها مع تغيير طفيف .

لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه ، لحمل البعض على الدواب التى أعانه السلطان بها ، وأسرق البعض ، وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ من الباقى ، ومُنع عما بقى ، وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ، ولو كان ساعده التوفيق لأخرج بعضها فى الحصار ، وحفظ سائر نعمه وأمواله ، وإذا أراد الله تعالى أمرا هيأ أسبابه .

[ولما تسلم السلطان آمد أحضر بين يديه محمود بن ايكلدى الذى كان فى الظاهر صاحب البلد ، فرآه شيخا كبيرا فأكرمه وأحسن إليه وأمر نور الدين بالإحسان إليه[1] وأن يقيم عليه ما يكفيه ، له ولأصحابه ، ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرما حتى مات — رحمه الله —][2]

ذكر تسليم

السلطان آمد لنور الدين صاحب حصن كيفا

ولما تسلم السلطان آمد أنعم [بها][3] على نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — لأنه كان وعده بها ، فأنجز وعده ، وقد كان أبوه عانى[4] أخذ ها مرارا ، فأعجزه ذلك ، وقيل للسلطان قبل تسليمه آمد إلى نور الدين :

" إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار ، فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وأصحابك ، وسلمت إليه البلد فارغا لكان راضيا ، لأنه لا يطمع فى غيره " .

فامتنع من ذلك ، وقال :

" ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع " .

---

(١) بهذا اللفظ تنتهى (ص ٧٩ ب) من نسخة س ، ثم يضطرب ترتيب الصفحات بعد ذلك فى هذه النسخة ونجد النص يتصل بعد ذلك فى (ص ١٤٢ ا) .

(٢) هذه الفقرة كلها زيادة عن س (٧٩ ب و ١٤٢ ا) . ولا وجود لها فى الأصل ولا فى الروضتين أو ابن الأثير .

(٣) عن س . (٤) الأصل وس : « عانا » .

ثم عمل نور الدين بآمد دعوة عظيمة ، ودعا إليها السلطان وأمراءه ، وقدّم له ولأصحابه من(١ التحف والهدايا ١) شيئا كثيرا ، واستحلفه السلطان أنه يظهر العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان(٢) من معاداة أعدائه، ومصافاة أوليائه(٢)، وأنه متى استمده لقتال [٢٤٥] الفرنج سارع إليه وكانت هذه فعلة جميلة من السلطان ، وإن كانت أفعاله وخلاله كلها جميلة ، فلله دره ، ما كان أسمحه وأكرمه ! !

ففي ذلك يقول القاضي السعيد أبو القسم هبة الله ابن جعفر بن سناء الملك(٣) يمدحه من قصيدة :

أرضُ الجزيرةِ لم تظفرْ ممالكُها(٤) ... بمالكٍ فَطِنٍ أو سائسٍ دَرِبِ
ممالكٌ لم يدبرها مُدَبِّرُها ... إلا برأى خَصِىٍّ أو بعقل صبى

(١) هذه الألفاظ غير موجودة فى س .

(٢) نص س : « عدو من عاداه ، ومصافيا لمن صافاه » والأصل يتفق مع نص (الروضتين ج ٢ ، ص ٤١) حيث ينقل عن العماد الكاتب .

(٣) هو القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك ، أكبر شعراء مصر وأشعرهم فى العصر الأيوبى ، ولد فى حدود سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ . كان أبوه يشرف على شئون القاضى الفاضل أثناء تغيبه فى الشام ، وهذا يفسر لنا سر إقبال الفاضل على ابنه هبة الله وتقريبه له . وللشاعر قصائد كثيرة فى مدح القاضل تضمنها ديوانه ونقل بعضها من ترجموا له ، وديوان الشاعر لم ينشر بعد ، وتوجد منه نسختان فى دار الكتب المصرية ، إحداهما مصورة عن نسخة فى مكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، والثانية فى المكتبة التيمورية ، وله ديوان موشحات نشره أخيرا الدكتور جودة الركابى الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة السورية ، وله كذلك مجموعة من الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضى الفاضل تحت عنوان « فصوص الفصول وعقود العقول » وتوجد منه نسخة خطية فى المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٣ ، ولاستيفاء ترجمته وأخباره انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص ١١٢ — ١١٦) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢٦٥ — ٢٧١) و (العماد الاصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، الجزء الأول : ص ٦٤ — ١٠٠ و ١٠٣) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٣٥) و (ابن سناء الملك : دار الطراز ، مقدمة الناشر الدكتور جودة الركابى) و (Gawdat Rikabi : *La Poésie Profane Sous les Ayyûbides* p.p.69-86) . هذا ولابن سناء الملك كتاب مفقود هو « روح الحيوان » اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ .

(٤) الأصل وس : « بمالكها » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث أورد من القصيدة أبياتا أكثر مما أوردها هنا ابن واصل .

حتى أتاها صلاحُ الدين فانصلحتْ بعدالفساد، كما صَحَّت من الوصبِ
واستعمل الجدَّ فيها غير مكترثٍ بالجد، حتى كان الجدُّ كاللعبِ [١]
وقد حواها فأعطى بعضَها هبَّة، فهو الذى يهبُ الدنيا، ولم يُهَبِ
يُعطى الذى أخِذَتْ منه ممالكُه، وقد يَمُنُّ على المسلوبِ بِالسَّلَبِ[١]

ثم كتب السلطان إلى الديوان العزيز بالإنشاء الفاضلى فى معنى فتح آمد يقول فيه :

" فصل : [٢] وهو يتوقع فى جواب هذا الفتح أن يمد بجيش هو الكلام ، ورماح هى الأقلام ، ونصر هو وافد العز [٣] ، ورشد [٤] هو فك العجز [٥] ، وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها ، ولا دعوة قام فيها بعدما تصاغرت دونه همم جيوشها ، ولكن لأن[٦] هذه الجزيرة الصغيرة [منها تنبعث الجزيرة الكبيرة و] [٧] هى دار الفرقة ومدار الشقة ، فلو انتظمت فى السلك لانتظم جميع عسكر الإسلام فى قتال الشرك ، وكان الكفر يلق يديه [٨] وينقلب على عقبيه ، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر برا و بحرا ، ومن بلاد الشام سرا وجهرا ، ومن الجزيرة مدا وجزرا [٩] " .

---

(١) هذا البيت لم يرد فى الروضتين .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤١) ، وفى س (١٤٢ ب) : « وقد »
(٣) كذا فى الأصل ، وفى س ، والروضتين : (الأمر) .
(٤) س : « ورسل » ، والروضتين : « وترشيد » .
(٥) س والروضتين : « الجبر » .
(٦) الأصل وس : « الآن » ، والتصحيح من الروضتين .
(٧) ما بين الحاصرتين عن الروضتين .
(٨) الأصل : " تكف أيديه " ، وس : " وكان كف يديه " ، والتصحيح عن الروضتين .
(٩) س : " وحسرا " .

ثم جاءت رسل ملوك الأطراف إلى السلطان كل منهم يطلب الأمان لصاحبه، وأن يتخذه من جملة أنصاره ، منهم صاحب ماردين وغيره ، فرد السلطان كل رسول منهم بإجابة مطلوبه .

ذكر فتح تل خالد وعين تاب

ثم رحل السلطان من آمد [١] وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها ، فنازل فى طريقه تل خالد وهى من أعمال حلب، فحصرها [٢٤٦] ورماها[٢] بالمنجنيق وطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلمها فى المحرم من السنة .

ثم سار منها إلى عين تاب، وبها ناصر الدين محمد [بن خمارتكين][٣] أخو الشيخ إسماعيل خازن نور الدين — رحمه الله — وحاجبه، وكان قد سلمها إليه نور الدين، فبقيت فى يده إلى هذه السنة ، فلما نازله [صلاح الدين][٤] راسله وطلب منه أن يقر الحصن بيده ، وينزل إلى خدمة السلطان ويكون فى طاعته ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، فنزل إلى خدمته ، فأقر السلطان عين تاب له إقطاعا .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على أسطول الفرنج

وفى العاشر من المحرم من هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة — سار أسطول [المسلمين][٥] من مصر فلقوا بطسة[٦] فيها ثلاثمائة مقاتل

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها أعظم مدن ديار بكر ، وقال هى بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود وعلى نشز ، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال .

(٢) س "ورمى" .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج٢ : ص٤٢) .

(٤) زيادة عن س .

(٥) عن س و (ابن الأثير، ج١١ ، ص١٨٦) .

(٦) أنظر ما فات هنا ص ٧٧ ، هامش ١

من الفرنج بالسلاح التام ، ومعهم أموال وسلاح يسيرون به إلى فرنج الساحل ، فقاتلهم المسلمون ، وصبر الفريقان ، وكان الظفر للمسلمين فأخذوا الفرنج أسرى ، وقتلوا البعض وأبقوا البعض ، وعادوا بهم و بالغنائم إلى مصر .

ذكر وقعة بين المسلمين والفرنج بأطراف الشام

وفى المحرم من هذه السنة سار جماعة كبيرة من الفرنج إلى نواحى الدارون[1] ينهبون و يغيرون ، فخرج إليهم المسلمون على طريق صَدْر وأيلة ، فانتزح الفرنج من بين أيديهم ، ونزلوا بماء يقال له العسيلة ، فسبقوا الفرنج إليه ، وأتاهم المسلمون وهم عطاش ، فأنشأ الله عز وجل سحابة عظيمة ، فمطروا منها حتى رووا ، وكان الزمان قيظا والحر شديدا فى بَرّ مُهْلِك ، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ، ووثقوا بنصر الله سبحانه وتعالى عليهم ، وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم ، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد ، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ، وعادوا منصورين .

ذكر تخريب قلعة عَزاز وكفر لاتا

وكان عماد الدين زنكى بن مودود صاحب حلب قد خرّب فى السنة الماضية قلعة عَزاز فى تاسع جمادى الآخرة خوفا من السلطان ، وخرّب حصن كفرلاتا وأخذها من بكمش[2] ، فإنه كان قد صار مع السلطان ، وقاتل أهل تل باشر فلم يقدر عليها .

(١) كذا فى الأصل ، وفى س (١٤٣ ا) : "الداروم" ، واللفظان صحيحان كما ورد فى (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، بينها و بين البحر مقدار فرسخ ، وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل فى سنة ٥٨٤ هـ .

(٢) الأصل : "تلمش" ، وما هنا عن (الروضتين ، ج٢ ، ص٤٢) .

ذكر استيلاء

السلطان الملك الناصر صلاح الدين على حلب

[٢٤٧] ثم سار السلطان إلى حلب فنازلها ، وذلك لأربع بقين من المحرم من هـذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة — وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسيَّر المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشيّة ، وفى نزوله جُرح أخو السلطان تاج الملوك بورى بن أيوب [فصعب على السلطان ذلك] (١)

واستدعى السلطان العساكر من الأطراف ، فاجتمع إليه خلق كثير ، ولم يجدّ السلطان فى القتال رجاء أن يأخذها بدون ذلك ، لكن الشباب والجهّال (٢) والأصحاب تقدموا وقاتلوا ، والسلطان ينهاهم فلا ينتهون ، ثم رحل السلطان من الميدان الأخضر إلى جبل جوشن ونهى (٣) عن القتال ، وقال :

" نحن هنا نستغل البلاد وما علينا من الحصن (٤) " .

وأظهر أنه يريد أن يبنى المساكن بجبل جوشن ، ويتديّر (٥) ويقيم ، ونفذ رسله [إلى عماد الدين صاحب حلب] (٦) .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٤٢ آ) .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س : " من أحداث حلب " ، وليس بها لفظ : " والأصحاب " .

(٣) الأصل : " ونها " .

(٤) الأصل : " الحسن " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) حيث ينقل عن العماد ؛ أما صيغة س فضطربة المعنى ونصها : " نحن ها هنا نشتغل بالبلاد وما علينا من الضرر شىء " .

(٥) س (١٤٣ ب) : " ويريد أن يقيم " .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س .

وكان مع عماد الدين بحلب عسكر كثير من النورية، وهم مجتهدون فى القتال مجدُّون فيه ، ورأى عماد الدين كثرة الخرج فشحَّ بماله ، وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه شيئا فاعتذر بقلة المال عنده ، فقيل له[١] :

" من يريد يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع نساءه " .

فمال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها ، فأرسل الأمير حسام الدين طمان الياروقى فى سر إلى السلطان على أن يتسلم حلب و يرد على عماد الدين سنجار بلده ، فأجابه السلطان إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج، واشترط عليه إرسال العساكر فى خدمته إلى الغزاة .

ولما تم الأمر بين عماد الدين والسلطان فى السر أعلم عماد الدين الأمراء بذلك ، وأذن لهم فى تدبير أنفسهم ، فأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جورديك و زين الدين بلك ، فبقوا عنده إلى الليل ، واستحلفوه للعسكر وأهل البلد ، فحلف لهم ولعماد الدين ، وذلك فى سابع عشر صفر من السنة .

وخرجت العساكر إلى خدمة السلطان واجتمعوا به فى الميدان الأخضر ، وخرج إليه مقدمو حلب ، فخلع عليهم ، وطيَّب قلوبهم ، وقبَّح أهلُ حلب على عماد الدين بيع حلب بسنجار وهو أبخس الأثمان[٢]

[٢٤٨] مع قدرته على حفظ حلب والامتناع بها، حتى أن بعض عامة حلب أحضر إجانة[٣] وفيها ماء ، وناداه : " أنت لا تصلح للملك [بل][٤] تصلح أن تغسل الثياب " ، وسمعوه المكروه .

---

(١) الأصل : " فقال " ، والتصحيح عن س .

(٢) س : " وهو أخش الأعمال " .

(٣) الإجانة المركن الذى يغسل فيه الثياب . (اللسان) و (ابن سيدة : المخصص ، ج ٩ ، ص ١٦٠) .

(٤) عن س .

[قال صاحب التاريخ][1] : و بلغنى أن العامة كانوا إذ رأوه صاحوا وقالوا : "ياحمار ، يامن باع حلب بسنجار" .

وأقام عماد الدين بقلعة حلب يقضى أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشر[2] صفر[3] .

ذكر وفاة تاج الملوك بورى[4]

ابن أيوب أخى السلطان — رحمه الله تعالى —

وفى يوم الخميس[5] هذا توفى تاج الملوك من الجرح الذى أصابه [على حلب][6] وحزن عليه السلطان [صلاح الدين حزنا عظيما][6] ، وجلس فى العزاء [ثلاثة أيام][6] . وكان مولده سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فكان عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا .

---

(١) عن س .

(٢) الأصل وس : "عشرين" .

(٣) مقابل هذا اللفظ فى هامش س (١٤٤ أ) : "بلغ مقابلة" ، ولعلها إشارة من الناسخ للدلالة على أنه وقف فى مقابلته النسخة على الأصل عند هذا اللفظ .

(٤) كان تاج الملوك بورى أصغر أخوة صلاح الدين جميعا ، وكان يبشر بمستقبل طيب ، فقد كان شجاعا وشاعرا ، وتذكر المراجع أن له ديوان شعر (ولكنه غير موجود) . أنظر أخباره وترجمته فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج١ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٣ ب — ١٤ ب) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ و ٤٤) و (الدكتور الشيال : شاعر من البيت الأيوبى ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ١٣٠ ، ٢٤ يونيو ١٩٤١) . و بورى كلمة تركية معناها الذئب .

(٥) مكان هذا اللفظ فى س : "ثالث وعشرين صفر" .

(٦) عن س .

ذكر سيرته[١]

كان فاضلا أديبا شاعرا ، وله ديوان شعر مشهور ، ومن جملته بيتان فى ذكر صوم رمضان قالهما على سبيل المداعبة[٢] :

رمضانُ، بل مرضان، إلا أنهم أخطوا إذًا فى قولهم وأساؤا
مَرَضانِ[٣] فيه تحالفا ، فنهاره سل ، ولكن ليله استسقاء[٤]

وفى ذلك اليوم الذى توفى فيه تاج الملوك نزل عماد الدين زنكى [من قلعة حلب][٥] إلى خدمة السلطان وعزاه وسيّر معه فى الميدان الأخضر ، وتقررت بينهما القواعد ، وأنزله عنده فى الخيمة ، وقدّم تقدمة سنية وخيلا ، وخلع عليه وعلى جماعة من أصحابه [خلعة من ملابسه][٦] ، وسار عماد الدين من يومه إلى سنجار .

وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين ، غير مكترث بأمر حلب ، ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين لثلاث بقين من صفر ، ثم صعد القلعة فى ذلك اليوم ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة ، وكان تخلف لأخذ ما لعماد الدين من قماش وغيره .

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وإنما مكانه : " قال صاحب الكتاب " .

(٢) الأصل : " الملاعبة " وما هنا عن س .

(٣) الأصل : " مضان " والتصحيح عن (شفاء القلوب ، ص ١٤ ب) .

(٤) نص البيت فى (شفاء القلوب) :

مرضان فيه تحالفا ، فنهاره عطش ، وسائر ليله استسقاء

(٥) عن س .

(٦) عن س (١٤٤ أ) ، وانظر بيان هذه الخلعة والتقدمة التى قدمها صلاح الدين لعماد الدين فى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٥) .

وهنأ الشعراء السلطان الملك الناصر صلاح الدين بملك حلب ، وممن امتدحه وهنأه بذلك القاضى محى الدين بن زكى الدين بأبيات منها :

وفتحُكُم حلبا بالسيف فى صفرٍ ... مبشرا بفتوح القـــدس فى رجبِ

فكان ذلك فالا عجبا ، فإن القـدس فتحت فى رجب ؛ ولكن فى غير هذه السنة [٢٤٩] على ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ومدحه القاضى السعيد بن سناء الملك بقصيدة أولها :

بدولة التركِ عزَّتْ ملةُ[١] العربِ ، ... وبابنِ أيوبَ ذَلَّتْ شيعةُ الصُلُبِ
وفى زمانِ ابنِ أيوب غَدَتْ حلبٌ ... من أرضِ مصرَ، وعادت مصرُ من حَلَبِ
ولابن أيوبَ دانتْ كلُّ مملـكةٍ ... بالصَّفحِ، والصُّلحِ؛ أو بالحربِ والحَرَبِ
مُظَفَّـرُ النصرِ ، مبعوثٌ بهمّتِـهِ ... إلى العزائمِ ، مدلولٌ على الغلبِ
والدهرُ بالقَدَرِ المحتومِ يخدُمُه ، ... والأرضُ بالخلقِ ، والأفلاكُ بالشُّهُبِ
وتجتلى الخـلقَ من راياته هِمَماً ... مبيَضَّةَ النصرِ من مُصْفَرَّةِ العذبِ

ومنهـا :

أتى إليها يقودُ الجيشَ ملتطاً ، ... فالبيضُ كالموجِ ، والبيضاتُ كالحببِ
تبـدو الفوارسُ منها فى سوابغها ... بين النقيضين من ماء ومن لَهَبِ
مستسلمين ، ولولا أنهم حَفَظوا ... عوايدَ الحربِ لاستغنوا عن السَلَبِ
"[٢] جمالهم من مغـازيهم إذا فعلوا "[٢] ... حَمَّالةَ السَّبْيِ لا حَمَّالةَ الحطبِ

---

(١) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣) : " دولة العرب " ، وهـذا هو البيت الوحيد الذى أورده صاحب الروضتين من القصيدة ، ثم أورد أبياتا أخرى غير التى اقتبسها هنا صاحب مفرج الكروب .

(٢) س (١٤٤ ب) : " جمالهم من سمارهم اذا حملوا " .

ومنها :

فطاف منها بركن لا يُقبّلهُ إلا أسنّةُ أطرافِ القَنَا السُلُبِ
بك العواصمُ طابتْ بعد ما خبثتْ بما لكيها ، ولولا أنت لم تَطِبِ
فليت كلّ صباحٍ در شارقُه فذا ليل [١] فتى الفتيان فى حلب
ألهى مديحُك شِعْرى عن تغزُّلِهِ ، فجاء مُقتضباً فى إثْرِ [٢] مقتضبِ
فلم أقل فيه : لا [٣] إن الصبابة بى يوم الرحيل ، ولا إن المليحة بى

ذكر فتح حارم

كان بقلعة حارم مملوك من المماليك النورية يقال له سَرْخَك [٤] ولّاه بها الملك الصالح إسماعيل، فامتنع من تسليمها إلى السلطان، فقال له : «اطلب من الإقطاع ما أردت» ، ووعده الإحسان، فاشتط [٥] فى الطلب، وترددت الرسائل بينهما، وراسل الفرنج ليحتمى بهم، فسمع من بها من الأجناد أنه يراسل الافرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم ، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه ، وأرسلوا [إلى] السلطان يطلبون منه الأمان والإنعام ، فأجابهم [٢٥٠] إلى ماطلبوا ، وحلف لهم ،

(١) س : " فذا اليك "

(٢) س (١٤٥ ا) : " وفى ليل " .

(٣) س : " إلا " .

(٤) الأصل : " مرخاب " ، وفى س : " مرحاب " ، وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٨٧) و (أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٧) و (شفاء القلوب ، ص ٢٨ ب) .

(٥) س : " واشترطت عليه فى الطلب " .

ورحل من حلب إليهم لليلتين بقيتا من صفر ، فوصلها لليلة بقيت منه ، وبات بها ليلتين [بعد تسليمها][(١)]، وقرر قواعدها، وولى فيها إبراهيم بن شروه ، وعاد إلى حلب ، فدخلها ثالث ربيع الأول [وأخذ المملوك النورى المتولى فأطلقه من محبسه ، ولم يستخدمه ، ووفى للأجناد الذين كانوا بها بما وعدهم، وزادهم][(١)]، ثم أعطى العساكر دستورا ، فسار كل منهم إلى بلده ، وأقام بحلب يقرر قواعدها .

وخاف أهل أنطاكية من السلطان ، فأرسل صاحبها جماعة من أسرى المسلمين، وانقاد ، وسارع إلى اللياذ بعفو السلطان وأمانه [فقبله السلطان][(١)] .

وولى السلطان القضاء بحلب لمحى الدين بن زكى الدين[(٢)] ، واستناب فيها زين الدين [أبا البيان][(٣)] نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى ، وكشف السلطان عن حلب المظالم ، وأزال المكوس ، وولى قلعتها سيف الدين يازكوج ، وجعل الملك بحلب لولده الظاهر غياث الدين إيلغازى بن يوسف — رحمهما الله — وكان قد استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشام ، وأقرّ عين تاب على صاحبها، وأعطى تل خالد وتل باشر للأمير بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق ، وأعطى قلعة عزاز للأمير علم الدين سليمان بن جندر[(٤)] .

---

(١) عن س .

(٢) الأصل : "لزكى الدين" ، وما هنا عن س (١٤٥ ا) و (الروضتين، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٣) عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

(٤) الأصل : "حيدر" ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٧) .

ذكر مسير السلطان من حلب إلى دمشق

ثم رحل السلطان من حلب يوم السبت لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة — فخرج إلى الوضيحى[١] مبرزا ، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ، ثم وصل لست بقين من الشهر إلى حماة ، ثم إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، ووصل دمشق ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز إلى جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ، ثم رحل ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوّار ، وتعبأ للقاء الكفار .

ذكر غارة السلطان على الفرنج

ثم سار السلطان حتى أتى القصير ، فبات به وأصبح على المخاض ، وعبر وسار حتى أتى بيسان ، وقد أخلاها أهلها ، فأطلق المسلمون فيها النيران ، ونهبوا ما [كان قد تبقى][٢] فيها ، وكذلك فعل بأبراج[٣] وقلاع وغيرهما ، وصادفت مقدمة العسكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ، ومقدمهم ابن هنفرى ، فقتل منهم وأسر ، وهرب الباقون [٢٥١] فى الجبال .

وفى الحادى عشر من جمادى الآخرة بلغ السلطان اجتماع الفرنج بصفوريّة ، ورحيلهم إلى الفولة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع ذلك تهيأ لقتالهم ، وسرى للقائهم ، فجرى بينه وبينهم قتال ، وقُتل من العدو جماعة وجُرح جماعة ، وهم

---

(١) س : " إلى خان الأوضى " وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) حيث ينقل عن بهاء الدين بن شداد .

(٢) عن س .

(٣) الأصل : " بازاح " والتصحيح عن الروضتين .

ينضم بعضهم إلى بعض يحمى راجلُهم فارِسَهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا عين جالوت ، فنزلوا عليها ، وهم ألف وخمسمائة رمح ، ومثلهم تُرْكُبُلِي (١)

---

(١) الأصل «بركتلى» ، و س : «ركبلى» بدون نقط ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٣ ؛ ج ٢ ، ص ٥٠ و ١٨٩) ؛ والتركبلى «Τουρκόπουλοι» لفظة يونانية معناها أبناء أو سلالة الترك ، وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم تلى فى الأهمية فرقة الفرسان ، وينحدر أفرادها من أب ترك (أو عربى) وأم يونانية ، ويبدو أن البيزنطيين بعد اتصالهم بالأتراك السلاجقة وانهزامهم فى وقعة « ملازكرد » كونوا هذه الفرقة من الفرسان التى تعتمد — تشبها بالأتراك — على الكر والفر والحرب السريعة ؛ هــذا ولم يحاول أحد من مؤرخى العرب القدامى أو المحدثين تتبع تاريخ هذه الفرقة أو بيان أهميتها ، وقد بدا لى وأنا أتتبع النصوص التى تذكر هذا المصطلح أن الصليبين عند ما مروا بأراضى الدولة البيزنطية أثناء حملتهم الأولى اقتبسوا نظام هذه الفرقة وكونوا لأنفسهم فرقا كثيرة تحمل اسم « تركبلى » لعبت دورا كبيرا أثناء نضالهم مع المسلمين ، وأغرب من هذا أنى عثرت على نصوص تفيد أن الجيوش الاسلامية بدورها اقتبست هــذا النظام وكونت فرقا فى جيوشها تحمل اسم « تركبلى » راجع : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى ، ص ٥١) و (العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، طبعة ليدن سنة ١٨٨٨ ، ص ٤٢٥) و (ابن الأثير : الكامل فى مواضع كثيرة منــه) و (Hitti : *An Arab Syrian Gentelman and Warrior in the Period of the Crusades New York, 1929, P. 42*)

هذا وأقدم تعريف للفظ « تركبلى » ذكره (Raymond d'Agiles : *Historia Francorum qui ceperunt Hierusalem. R.H.C. Hist. Occid III*)

وقد ذكر هذا التعريف عند كلامه عن التركوبولى الموجودين فى الدولة البيزنطية أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ببلاد البلقان ، قال : "Turcopoli vel de matre Christiana, patre turco procreantur" .

ومعناها : « التركوبولى هم نتاج أم مسيحية وأب تركى » .

وعرفهم مؤرخ صليبى آخر هو (Albert d'Aix : *Historia Hierosolymitana, R.H.C. Hist. Occid. IV. P. 434*) .

تعريفا مشابها فقال : (Turcopoli, ex Turco patre et graeca matre procreati) ومعناها أن التركوبولى نتاج أب تركى وأم يونانية .

وهذه التعريفات تشرح المصطلح من حيث اشتقاقه اللفظى وتوضح الأصــول الجنسية لجنود هذه الفرقة ؛ وهناك تعريفات أخرى ذكرها مؤرخون صليبيون معاصرون تلقى ضوءا على طبيعة هــذه الفرقة من الناحية الحربية ، منها نص ذكره وليم الصورى (Guillaume de Tyr : *Historia Rerum in Paltibus Transmarinis Gestaruna, R.H.C. Hist. Occid. I P. 925*).

وخمسة عشر ألف راجل ، فنزلوا وخندقوا عليهم [١] ، ونزل [٢] السلطان حولهم ، والجرخ [٣] تعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف ، وهم لا يخرجون

= وذكر وليم الصورى هذا النص عند حديثه عن معركة قرب بلبيس بين عمورى ملك بيت المقدس وأسد الدين شيركوه ، قال (Erant praeterea nobis equites levis armaturae quos turcopolos vocant.) .

وترجمة النص : «وكان يصحبنا جماعة من الفرسان المدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولى» .
وقال نفس المؤلف فى موضع آخر (ص ١٠٩٧) عند حديثه عن حوادث سنة ١١٨٢ فى الشام :
(Triginta sex levis Armaturae milites quos turcoplos appellant, interfecisse.)
وترجمتها : « وقتل فى هذه المعركة ٣٦ فارسا مدرعون بالدروع الخفيفة ويسمون التركوبولى » .
راجع كذلك : (Assises de Jerusalem (R. H. C. Lois). P. 612 — 613) ; (Barker : The Crusades. P. 40)
ومن العجيب أن هذه الفرقة ظلت موجودة فى جيوش الصليبيين والمسلمين إلى وقت متأخر ، فقد أشير إلى التركبلى فى نص الهدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وفرنج عكا فى خامس ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ فقد نص فى هذه الهدنة على أن يقدم بديل عن كل قتيل : « فارس بفارس ، وتركبلى بتركبلى ، وتاجر بتاجر ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح...الخ» راجع نص الهدنة فى : (ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١٤ ، ص ٨٨ آ — ٩٥ آ ، صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٩٧ تاريخ ، عن نسخة فينا) و(المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٩١ ، نشر الدكتور زيادة) ولاحظ أن الدكتور زيادة عند نشر هذه الوثيقة قرأ هذا المصطلح قراءة خاطئة ، بجمله « بركيلى » ، وفسره تفسيرا اجتهاديا ، فقال إنه يعنى رجل البحر المشرف على السفن .

(١) بهذا اللفظ تنتهى (ص ١٤٥ ب) من نسخة س وبذلك تنقطع الصلة مرة أخرى بينها وبين النص الأصلى .

(٢) بهذا اللفظ تبدأ (ص ٨٠ آ) من نسخة س ، وبذلك يتصل النص فى النسختين مرة أخرى .

(٣) فى الأصل وفى س : " الجراح " وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠) : " الجرح " ، والصحيح ما ذكرناه ، والجرخ (Jarkh) مأخوذة عن الفارسية " تشرخ " (Tcharkh) — والجمع جروخ — وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، هكذا تصفه النصوص وهكذا وصفه (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) بأنه (Une arbalete avec laquelle on lançait, soit des flèches, soit le naphte) ، وقد ذكر (مرضى بن على : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٦ — ٨) أربعة أنواع للقوس الرامى الذى يشبه المنجنيق ، وهى : قوس الزيار ، والقوس العقار ، والجرخ ، وقوس الرجل . ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط : " الجرخى " ويقابله بالفرنسية (Arbalétrier) وراجع "الجرخية" . أنظر أيضا (C. Cahen : *Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales. Damas, Tome XII. 1947 — 1948 p. 152.*)

خوفا من المسلمين ، فاقترح السلطان عنهم ليرحلوا ، فيضرب معهم المصاف ، فرحلوا نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ، فرحل الفرنج راجعين على أعقابهم ، فرحل نحوهم وجرى من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل السلطان — رحمه الله — خولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم ، فعاد السلطان وقد نال منهم قتلا وأسرا وخرّب كفر بلا[١] ، و بيسان ، وزرعين وقرى عدة ، ونزل الفوّار ، وأعطى الناس دستورا ، فسار من آثر المسير ، وسار هو إلى دمشق ، فوصلها يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة .

ذكر منازلة السلطان الكرك

ثم سار السلطان إلى الكرك فى رجب من هذه السنة — أعنى سنة تسع وسبعين وخمسمائة — وحاز[٢] فى طريقه قبل الوصول إليها غنائم ، وخيّم على الربة[٣] ثم وصل الكرك فحاصره ورماه بالمجانيق صباحا ومساء ، وتناوب عليه الأمراء حتى خرج شهر رجب وما حصل على مطلوب ، لكنه أكثر النكاية فى العدو بأخذ أموالهم وتخريب ديارهم ، ووصله الخبر أن الفرنج قد اجتمعوا بالواله على قصد المسلمين وتخليص الكرك ، ورأى السلطان أن أمر الكرك يطول ، فعوّل على الرحيل إلى دمشق .

(١) الأصل : "عقربلا" وما هنا عن الروضتين .

(٢) الأصل : "جاز" والتصحيح عن "س" و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥١) .

(٣) الأصل : "والدبة" وما هنا عن الروضتين .

ذكر استنابة السلطان الملك الناصر

لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين بمصر وتمليك أخيه الملك العادل حلب

لما ملك السلطان [صلاح الدين](١) حلب كاتبه أخوه الملك العادل(٢) — وهو ينوب عنه بمصر — يطلبها منه مع أعمالها ، [٢٥٢] ويدع الديار المصرية ، فكتب إليه السلطان يأمره أن يوافيه بالكرك ، فإنه سائر إلى فتحه .

وأشار القاضى الفاضل على السلطان أن يستنيب بالديار المصرية — موضع الملك العادل — الملك المظفر تقى الدين ، فاستصحبه السلطان معه إلى(٣) الكرك ، ووصل الملك العادل إلى السلطان وهو بالكرك ، فجهز [السلطان](٤) الملك المظفر إلى مصر نائبا ، وقوى عضده بصحبة القاضى الفاضل ، وأنعم على الملك المظفر بالأعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها(٥) ، وزاده القايات(٦) وبوش وأبقى عليه بالشام حماة وجميع أعمالها .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٨٠ أ) .

(٢) روى (ابن أبى طى) — وهو مؤرخ حلبى — (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢) تفصيلات هامة عن رغبة العادل فى ولاية حلب وكيف حقق له صلاح الدين هذه الرغبة ، فانظرها هناك .

(٣) الأصل : " على " والتصحيح عن س .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١٨٠) .

(٥) فى الأصل وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : " وحواليها " ولا معنى لها ، والصحيح ما ذكرناه هنا ، والمقصود بالجوالى ضريبة الجزية المفروضة على أهل الذمة .

(٦) فى الأصل : " القايات وقوس " وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣) : " القيبات وبوش " ، والأرجح أن تكون " القايات وبوش " فقد كانتا تعتبران حتى العصر المملوكى من " الأعمال الفيومية " انظر : (ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ١٦٢ و ١٦٥) ، وقد ذكر ابن أبى طى (الروضتين ، ج ٢ : ص ٥٣) أن السلطان أقطع تقى الدين " الاسكندرية ودمياط ، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش ، ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف دمسيس " .

وسار السلطان إلى دمشق وصحبته أخوه الملك العادل، فوصل إلى دمشق لست بقين من شعبان من هذه السنة، وأعطى أخاه الملك العادل حلب ثانى شهر رمضان، فسار إليها، وصعد قلعتها يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان وبها الملك الظاهر غازى، وسيف الدين باركوج (٥) وكان الملك الظاهر — رحمه الله — من أحب الأولاد للسلطان، لما خُصَّ به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك، وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له، فلما دخل عمه الملك العادل إلى حلب خرج هو وسيف الدين باركوج (١) سائرين إلى خدمة السلطان، فدخلا دمشق يوم الاثنين ثامن عشر شوال، فأقام [فى](٢) خدمة والده لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار فى باطنه لا يخفى عن نظر والده.

ذكر قبض

عز الدين — صاحب الموصل — على نائبه مجاهد الدين قايماز

(٣) كان التدبير بالموصل مفوضا إلى مجاهد الدين قايماز (٣)، وكان إليه أمر اربل وبلادها، وفيها زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك بن بكتكين، وهو صغير السن لا حكم له، وتحت حكمه أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى، وهو أيضا صبى، والحكم والنواب لمجاهد الدين قايماز، وبيده أيضا شهرزور وأعمالها، ونوابه فيها، ودقوقا ونائبه فيها، وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها، فأشار عز الدين محمود زلقندار،

(١) كذا فى الأصل، وفى الروضتين: "ياركوج".

(٢) عن "س" ص ٨٠ ب.

(٣) هذه الجملة غير موجودة فى س.

وشرف الدين أحمد بن أبى الخير المعروف والده بصاحب الغراف [١] — وهما من أكابر الأمراء — على عز الدين بالقبض عليه [٢] [٢٥٣] وفعلا فى ذلك خلاف المصلحة ، فإن الأمور كانت به منتظمة ، والبلاد التى ذكرناها كلها فى الطاعة ، فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين ، فأظهر أنه مريض ، وانقطع عن الركوب عدة أيام ، فدخل عليه مجاهد الدين [قيماز] [٣] وحده ، وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء ، فلما دخل قبض عليه ، وركب لوقته إلى القلعة ، واحتوى على الأموال التى لمجاهد الدين [قيماز] [٣] وخزائنه ، وولى زلفندار قلعة الموصل ، وجعل ابن صاحب الغراف [٤] أمير حاجب ، وحكّمهما فى دولته ، ولم يحصل لعز الدين من البلاد التى بيد مجاهد [الدين قيماز] [٣] سوى شهرزور والعقر ، فأما زين الدين يوسف فامتنع بإربل ، وامتنع أيضا معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى — صاحب الجزيرة — وراسلا السلطان بالطاعة له والركوب [٥] فى خدمته [فأجابهما إلى ذلك] [٣] وأرسل الإمام الناصر لدين الله إلى دقوقا فحصرها وأخذها .

---

(١) الأصل : " صاحب العراق " وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الراء .

(٢) فى س (١٨١ ا) : " على قيماز " .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) الأصل : " صاحب العراق " ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٨) وهو المرجع الذى ينقل المؤلف هنا ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٥٤) هذا النص وشدد الراء .

(٥) الأصل : " الكون " والتصحيح عن س .

ذكر ورود رسل الديوان العزيز[١]

إلى السلطان فى الصلح بينه و بين صاحب الموصل

وأرسل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى إلى الإمام الناصر لدين الله يسأل منه إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسـولا وشفيعا إلى السلطان ليسيّره إليه ، ويسيّر شهاب الدين بشير[٢] الخادم، [ففعل ذلك][٣] ، فلما وصلا إلى الموصل أرسل عز الدين معهما القاضى محيي الدين أبا حامد بن القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى ، وسافر[٤] فى صحبتهما القاضى بهاء الدين بن شدّاد، فخرج السلطان إلى لقاء رسل الخليفة ، فأنزل شيخ الشيوخ [٥] بالرباط على المنيبع ، والقاضى محيي الدين فى جوسق بستان الخلخال[٦] [ومعه القاضى بهاء الدين][٧] ، وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان ، فأقاموا أياما يراجعون فى فصل أمر الصلح فلم يتفق، وحصل من القاضى محيي الدين ترفع فى أداء الرسالة، وغلظ[٨] فى الكلام، فألان له السلطان ، وقال :

---

(١) س : " الرسل إلى السلطان " .

(٢) س (٨١ أ) : " ونسير الخادم " دون ذكر الاسم .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) س : " وسير أيضا فى صحبتهما " .

(٥) الأصل : " الشيخ " وما هنا عن س والروضتين .

(٦) هذه الكلمة غير موجودة فى س .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (٨١ أ)

(٨) س : " وغلظ " .

" إنما[١] أقضى حاجته على ما أراد ، ولكن قد سبق منى يمين لأولئك السلاطين ، وأنا استأنيهم[٢] وأردهم إلى اختيارهم لى أوله " — يعنى صاحب إربل وصاحب الجزيرة —

فامتنع محيي الدين ، وقال :

" لا بد من ذكرهما فى النسخة " .

وأراد أن تكون الصداقة لمخدومه [٢٥٤] عز الدين دون سائر [ذوى][٣] الممالك ، وأشار فى كلامه إلى أن لهم[٤] من ينصرهم من جهة البهلوان بن ايلدكز ملك العجم ، فعظ ذلك على السلطان ، وكان ذلك محركا له إلى أن يعود إلى الموصل .

ورجعت الرسل من غير ظفر بطائل ، وكان رجوعهم يوم الخميس سابع ذى الحجة من هذه السنة .

وأقام السلطان بدمشق ، والرسل ترد إليه من الجوانب ، فوصله رسول معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، واستحلفه[٥] لنفسه وانتمى إليه ، ورسل إربل [أيضا] وحلف لهم ؛ ووصل إلى السلطان أخوه الملك العادل سيف الدين صاحب حلب يوم الاثنين رابع[٦] ذى الحجة ، [٧]فأقام عنده[٧] ، وعيّد وعاد إلى حلب .

---

(١) س : " أنا " .

(٢) الأصل : " استعينهم " وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٤) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وهو الأصل المنقول عنه .

(٤) س : " لصاحب الموصل من ينصره " .

(٥) الأصل : " واستخلفه " والتصحيح عن س .

(٦) س : " تاسع " .

(٧) هذان اللفظان ساقطان من س .

ودخلت سنة ثمانين وخمسمائة والسلطان — رحمه الله — بدمشق، وقد انصرم البرد [وطار البَرَد][١] وطاب الزمان ، وأرسل إلى [ملوك] الأطراف يطلب العساكر، فجاءه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر من الديار المصرية [٢] بالعساكر المصرية [٢] وصحبته القاضي الفاضل، وجاءه أخوه الملك العادل من حلب بعسكره، وجاءته العساكر المشرقية ، وجاء نور الدين [بن قرا أرسلان] صاحب الحصن وآمد ، واجتمعت العساكر برأس الماء ، فأشفق السلطان على نور الدين — صاحب الحصن — من اقتحام المشاق ، فأقامه برأس الماء إلى حين العود ، وأمر الملك العادل بالإقامة معه .

ذكر منازلة السلطان الكرك

ثم سار السلطان[٣] إلى الكرك ونازلها ونزل بواديها، وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعني سنة ثمانين وخمسمائة — ، ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب ، فهدمت السور المقابل لها ، ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق ، وهو من الأودية الهائلة ، ولم يكن من الحيلة إلا هدمه وردمه بكل ممكن ، فعُدَّ ذلك من الأمور الصعاب ، فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها [٤] فتمت [٥] دروبا واسعة لا يزحم فيها

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٨١ ب) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٣) تنقطع الصلة عند هذا اللفظ ثانية بين الأصل ونسخة س .

(٤) الأصل : "شيا من برها" ولا معنى لها ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٥) الأصل : "فبقيت" ، والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

الجانى الذاهب ، واجتمع رجال العسكر على نقل ما يرمى فى الخندق ، فهان [٢٥٥] طم الخندق بالدبابات(١) التى قدمت ، ونقب الأسراب وإحكامها ، فوجد الناس إلى الخندق طريقا واسعا مهيعا ، فهم يزدحمون(٢) آمنين من الجراح والناس تحت (٣) القائمة على شفير الخندق لا يستشعرون حذرا ولا يخافون وقع الحجارة والسهام ، وامتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه من السور ونجا بعد ما توالى من الفرنج رمى الحجارة عليه .

ولما رأى الفرنج الذين بالكرك ماقد دهمهم من السلطان ، وخافوا أن يملكه ، كاتبوا ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن ، فسارت الفرنج فى حدهم وحديدهم ، ونزلوا بالواله ، وهى مواضع صعبة ضيقة المسالك ، فسار السلطان حتى نزل البلقاء على قرية يقال لها حسبان ، ثم رحل منها إلى ماء عين ، والفرنج مقيمون بالواله ، فأقام أياما (٤) ينتظر خروجهم من المكان الذين هم به ليتمكن منهم ، فلم يبرحوا منه خوفا على أنفسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ ، وجعل بإزائهم من يعلمه بسيرهم ، فساروا ليلا إلى الكرك ، فلما علم السلطان ذلك علم أنه لا يتمكن منهم حينئذ ولا يبلغ غرضه .

ذكر إحراق نابلس وتخريبها

كان رحيل الفرنج إلى الكرك لأربع بقين من جمادى الآخرة ، فلما قصدوا الكرك عزم السلطان على قصد الساحل لخلوه من العساكر ، فسار إلى نابلس

(١) الأصل : " الطم بالدبابات " والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

(٢) الأصل : " لا يزدحمون " والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الروضتين : " بجب القلعة " .

(٤) الأصل : " أيام " .

ونهب كل ما على طريقه من البلاد ، ولما وصل إلى نابلس أحرقها ونهبها وقتل من فيها وأسر وسبا فأكثر ، ثم سار عنها إلى سَبَسْطِيَة[١] — وبها مسجد زكريا عليه السلام وبها كنيسة — وفيها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ، ورحل إلى جينين[٢] فنهبها وخربها ، وعاد إلى دمشق ؛ ونهب ما على طريقه وخربه ، وبثّ السرايا يمينا وشمالا ينهبون ويخربون .

ومن كتاب لعماد الدين الكاتب يصف فيه صورة حصار الكرك :

" فصل : ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة[٣] ، بل هو وادٍ من الأودية ، واسع الأفنية ، لَسَهُل المشرع ؛ وهُجِم الموضع ، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق ؛ والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق ، فعملنا دبابات قدمناها ، وبنينا[٤] إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب [٢٥٦] باللبن سقّفناها وأحكمناها ؛ فصارت منها إلى طرف الخندق طرق آمنة ، وشرع الناس فى طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة ، وقلوبهم ساكنة ، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، وقد تسنى طمّه ، وتهيأ[٥] ردمه ، وتسارع الناس إليه ، وازدحموا عليه ، ولم يبق صغير ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل ، منتظر لبشرى نُجْح الأمل ، قد تحاشدوا[٦] حتى ازدحموا على تلك القلعة نهارا

(١) الأصل : " سنسطية " ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩١) وقد ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها بلدة من نواحى فلسطين ، بينها و بين البيت المقدس يومان ، و بها قبر زكريا و يحيى عليهما السلام و جماعة من الأنبياء والصديقين ، وهى من أعمال نابلس .

(٢) الأصل : " جلين " والتصحيح عن ابن الأثير .

(٣) الأصل : " العادة " والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

(٤) الأصل : " وتنبا " والتصحيح عن المرجع السابق ذكره .

(٥) الأصل : " وتمس " ، والتصحيح عن الروضتين .

(٦) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين : " تجاسروا " .

كازدحامهم[1] فى المصلى يوم العيد ، وليلا كحضورهم فى جامع دمشق ليلة النصف السعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبنصر الله موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع، والحصن ومن فيه صديع، وقد خرقت الحجارة حجابه وقطعت بهم أسبابه ، وناولته من الأجل كتابه ، وحسرت لثام سوره ، وحلّت نقابه ، فأناف الأبراج مجذوعة ، وثنايا الشرفات مقلوعة ، ورؤوس الأبدان مجزوزة ، وحروف العوامل مهموزة ، وبطون السقوف مبقورة[2] ، وأعضاء الأساقف معقورة ، ووجوه الجُدُر[3] مسلوخة ، وجلود البواشير[4] مبشورة[5] والنصر أشهر من نار على علم ، والحرب أقوم من ساق على قدم» .

ومدح القاضى السعيد بن سناء الملك[6] السلطان بقصيدة يهنيه بها بعد انصرافه عن الكرك وفتح نابلس ، وأولها :

وَصِلُتُكَ واللاجى يعانِدُ بالعَذْلِ ، فكنتَ أبا ذرٍ ، وكان أبا جَهْلِ
له شاهدا زورٍ من النَّهىِ والنّهى عليك، ومن عينيك لى شاهدا عدلِ

ومنها :

ومَنْ عرف الأيامَ مثلى فإنه يعيشُ بلا حبٍّ[7] ، ويحيا بلا خِلِّ
وَمَنْ كان فى هذا الورى مثلَ يوُسُفٍ ومن أين هذا المثل؟ كان بلا مثل

---

(١) الأصل : "لازدحامهم" والتصحيح عن الروضتين .
(٢) الأصل : «مقورة» والتصحيح عن الروضتين .
(٣) الأصل : «الجذور» والتصحيح عن الروضتين .
(٤) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١
(٥) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦) ، «منسوره»
(٦) أنظر ما فات هنا ص ١٣٧ ، هامش ٣
(٧) ديوان ابن سناء الملك (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ٤٩٣١ أدب) : «بلا صبر» .

تخرّ[١] له الأملاكُ ذُلًّا وإنما ... يعزّ إذا خرّت لديه من الذل
أعاديه من غلمانه فى بلادهم ... يصرفهم بين الولاية والعزل
وأنفسهم عارية منه عندهم ... متى ما أراد استرجعتها يدُ القتل
إذا راسل الأعداءَ يوما فإنما[٢] ... كتائبه كالكتب، والخيلُ كالرسل
[٢٥٧] له صارم يشفى به الدينُ صدرَه ... وينجزُ وعدَ النصرِ منه بلا مطل
تَغَيَّبَ[٣] عنا سيفُه[٤] بنجيعة ، ... فما تملا سيفُه حِلْيَةَ[٥] الصَّقْلِ

ومنها :

وما خالفتك الجرد قطُّ ، وإنما ... لتلحق من عادينه وهى فى الشكل
وأرجُلُها لو قطعت كسرت بمن ... عليها لهم، والصِّلُّ يسعى بلا رجل
جنا أهلُ تلك القلعةِ الشرَّ إذ رأوْا ... هواديها كالباسقاتِ من النخْلِ
غدا بَعْلُها الإبرنسُ يلعنُ عرسَه ... بها، وهى لاتنفكُّ من لعنةِ البعْلِ
وقد رَجَمْتها المنجنيقاتُ إذْ زَنَتْ ... هناك بشيخٍ كافرٍ جاهلٍ رَذْلِ[٦]
وصبحتَ أخرى صبَّحتك بأهلها ... ومسَّتك إذ مشيتَ وهى بلا أهلِ
فنابلس لمَّا أَقمتَ بِرَبْعِها ... أقامتْ لهم حقَّ الضيافةِ والنزلِ
أحسوا بِطَلِّ للخريف ، بجاءهم ... ربيعٌ من النيل المسدد بالوَبْل

---

(١) الأصل : «نخر» والتصحيح عن الديوان .
(٢) الأصل : «كأنما» والتصحيح عن الديوان .
(٣) الأصل : «يغيب» ، والتصحيح عن الديوان .
(٤) الأصل : «لونه» ، والتصحيح عن الديوان .
(٥) الأصل : «بجليه» ، والتصحيح عن الديوان .
(٦) نص الشطرة الثانية فى الأصل : «بشيخ لعين كافر جهل نذل» ؛ والتصحيح عن الديوان .

ولم أرَ أرضًا جادها الغيثُ قبلها، وتصبح تشكو بعده غُلَّةَ المَحْلِ
وماشَرَقوا بالماءِ والريق إذ رأوا جيوشَكَ، لكن بالفوارسِ والرَّجْلِ
ولم يبقَ إلا من سبا الجيشُ منهمُ، وإن كان يسبي[1] الجيشَ بالحدق النُّجْلِ
عذارى أسارى كُبِّلَتْ بشعورها، بخرجها في الساقِ[2] والمِعْصَمِ العَبْلِ
وقد شُغِلَتْ عن أدلها بأساورها، وأنت بحمد الله في أَشْغَلِ الشغْلِ
يُكَبِّرُ فيها الله بالجامع الذى جمعت به بين الفريضة والنَّفْلِ
وَصلَّيتَ فيها جُمْعَةً وجماعةً ، يناديك الإسلامُ: ياجامعَ الشَّمْلِ
وعدتَ بفضلِ اللهِ للخلقِ سالمًا، وأىُّ زمانٍ لم تَعُدْ فيه بالفَضْلِ

ولما وصل السلطان إلى دمشق وجد بها رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله — أمير المؤمنين — وهما : الشيخ صدر الدين عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبى سعيد أحمد ، وبشير الخادم ، وكانا قد وصلا إلى دمشق والسلطان محاصر الكرك ، فمرضا بدمشق ، ومات جماعة من أصحابهما ، وكان الشيخ نازلا بالمنيبع [٢٥٨] وكان السلطان يعوده فى كل يوم ؛ وكان قدومهما فى معنى تقرير الصلح بين السلطان وبين عز الدين مسعود — صاحب الموصل — ، فلم يتقرر أمر، فاستأذنوا فى العود إلى بغداد قبل الشتاء ، فأذن لهم فعادوا ، فمات بشير الخادم بالسخنة ، ومات صدر الدين[3] بالرحبة ، وكان صالحا زاهدا ، فدفن بمشهد

---

(٢) الأصل : « مسبي » ؛ والتصحيح عن الديوان .

(١) النص بالديوان : « بالساق » .

(٣) هو عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد أحمد بن محمد النيسابورى ، ولد سنة ٥٠٨ هـ ، وقال صاحب (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٧) فى ترجمته — نقلا عن ابن القادسى — : كان شيخا طائلا فى العلم والدين والسداد ، ثابت الجنان فى الحوادث المزعجة والوقائع الباغتة الملجلجة ، سديد البديهة ، صافى الفكرة ، جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل ، وكان يرسل إلى الأطراف ، ورتب فى مشيخة الشيوخ منذ توفى والده فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى ، وتولى بعده مشيخة الرباط صفى الدين إسماعيل ، أنظر أيضا (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٧) .

البوق[١] ولم يستعمل فى مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى ، وكان مولده سنة ثمان وخمسمائة .

ثم خرج السلطان من دمشق فى شعبان من هذه السنة ، وخيم على سبسع ، وأمر ابن أخيه الملك المظفر أن يرجع بالعسكر إلى مصر ، فسار فى منتصف الشهر ثم رجع السلطان إلى دمشق فصام بها شهر رمضان ، ورجع كل عسكر إلى بلده .

وكانت رسل الخليفة لما قدموا على السلطان أفاضوا عليه الخلع ، فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعا جاءت لهم ، ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين قرا أرسلان — صاحب الحصن — ، وأعطاه دستورا ، فسار إلى بلاده .

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثمانين وخمسمائة — كتب السلطان لزين الدين يوسف بن زين الدين على كوچك منشورا بإربل ومايجرى معها من البلاد والقلاع ، وذلك لما انفرد زين الدين عن صاحب الموصل واعتزى إلى السلطان ، ومن جملة المنشور :

" أن الله لما مكن لنا فى الأرض ، ووفقنا فى إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد فى سبيل الله فنوضح سبيله ، ونقبل على إعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم فى رفع كلمته العليا [فى أرضه] [٢] على استنزال نصره[٣] من سمائه ، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة ، واقتناء [هذه][٢] الفضيلة ،

---

(١) كذا بالأصل ، والذى ذكره ابن القادسى (المرجع السابق) أن صدر الدين توفى فى رجب برحبة مالك بن طوق ، ودفن فى قبة إلى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبى .

(٢) ما بين الحاصرتين عن نص المنشور الوارد فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

(٣) فى الروضتين : «نصر» .

يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه ، فإن تاب [١] ورجع قبلناه ، وإن أصرّ على غوايته أزلنا يده وعزلناه " .

وعيّن له فى المنشور إربل وقلعتها وأعمالها جميع ما قطعه الزاب الكبير : شهرزور [٢] وأعمالها ، معايش [٣] بنى قفجاق ، ومعايش بيت القرابلى ، الدست والزوزارية .

[٢٥٩] ووصلت رسل زين الدين إلى السلطان تخبره أن عسكر الموصل وعسكر قزل — صاحب العجم — نازلوا إربل مع مجاهد الدين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نُصر عليهم وكسرهم ، فكان ذلك مما حرّك السلطان على التوجه إلى الموصل لحصارها .

ذكر مسير السلطان إلى البلاد الشرقية

ثم سار السلطان من دمشق وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار على طريق المغار ويبوس [٤] البقاع وبعلبك ، ثم ساروا إلى حمص ثم إلى حماة ، وأقام القاضى الفاضل بدمشق ، وأقام السلطان بحماة إلى أن خرجت السنة .

---

(١) النص فى الروضتين : «فإن أناب قبلناه» .

(٢) فى الروضتين : «بشهرزور» .

(٣) الأصل : «بنفايس» ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) الأصل : «المعار وسوس البقاع» ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠) .

وفى هذه السنة توفى قطب الدين إيلغازى بن نجم الدين ألبى بن حسام الدين تمُرْتاش بن إيلغازى بن أرْتُق ، وملك بعده ولده حسام الدين [يولُق أرسلان][1] فقام بتدبير أمره نظام الدين ألبقش مملوك والده .

ودخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة والسلطان بحماة، ثم سار منها إلى حلب، فالتقاه أخوه الملك العادل صاحبها ، واجتمعت العساكر بها، ثم سار السلطان منها فى صفر ، وقطع الفرات ، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور ، ثم وصل حرّان — وصاحبها مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجَك — وكان قد التقاه بالبيرة ، وكان يراسل السلطان فى كل وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويقوى طمعه فى ذلك ، حتى أنه بذل له خمسين ألف دينار ، وأن يقوم بكل ما يحتاج إليه من النفقات والغرامات ، فلما وصل السلطان إلى حرّان لم يفِ له بما بذل من المال، فأنكر ذلك وارتاب به، وظن أن ميله إلى أصحاب الموصل، ووشت الأعداء به ، وذكروا أن نيته قد تغيرت ، فحلف للسلطان أنه لم يتغير وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره ، فقبض السلطان عليه ليتبين أمره ، وشاور فيه أصحابه ، فأشار بعضهم بإتلافه ، وبعضهم باستبقائه ، فعفا[2] السلطان عنه على أن يسلم إليه قلعتى الرُّها وحرّان ، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ، ثم رضى عنه بعد ذلك، وأعيدت له القلعتان فى آخر السنة لما حقق براءته .

ثم رحل السلطان من حرّان فى ثانى ربيع الأول من السنة إلى رأس عين ، ووصل فى ذلك اليوم رسول الملك قلج أرسلان بن مسعود — صاحب بلاد الروم — يخبره أن ملوك الشرق [٢٦٠] بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده

(١) الأصل : «حسام الدين يرتق» وقد صحح الاسم بعد مراجعة (زامباور : معجم الأنساب، الترجمة العربية، ص ٣٤٥)؛ وقد كان لقطب الدين ايلغازى المتوفى ولدان صغيران هما : حسام الدين يولق أرسلان ، وناصر الدين أرتق أرسلان ، وقد وليا الحكم الواحد بعد الآخر، ولكنهما كانا تحت سيطرة نظام الدين ألبقش ، الذى اغتاله ناصر الدين أرتق أرسلان فى سنة ٦٠١ هـ .

(٢) الأصل : «فعفى» .

إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصرّ على ذلك ، فرحل السلطان إلى دُنَيْسِر ، فوصلها ثامن ربيع الأول عماد الدين قرا أرسلان ، ومعه عسكر أخيه نور الدين — صاحب آمد والحصن — فالتقاهم السلطان واحترمهما وأكرمهما ، ثم رحل طالبا[1] الموصل فوصل إلى نصيبين ، وجاءه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود ابن زنكى — صاحب الجزيرة — فأكرمه السلطان ، ثم سار من أقرب الطرق من دجلة ، وتنكّب طريق الدولعية ، فنزل على بَلَد آخر ربيع الأول ، ثم توجه إلى الموصل ، وخيّم على الإسماعيليات .

وقدم عليه زين الدين يوسف — صاحب إربل — فأرسل السلطان — وهو على بَلَد قبل نزوله الإسماعيليات — القاضى ضياءَ الدين أبا الفضائل القسم ابن يحيي بن عبد الله بن الشهرزورى إلى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل ، وذكر أن أهلها يخطبون لسلطان العجم ، وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يراسلون الفرنج ، ويغرونهم على قصد بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت لأجل الازدياد فى الملك ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله ، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، وردّهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم ، وقطعهم عن مواصلة العجم ، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم ؛ فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخى صاحب الموصل عز الدين ولى عهد أبيه لم يرعَ فيه ذمة أخيه ، وأبعده عما يستحقه بالإرث ، وقطع رحمه وأخافه ، ولو تمكن منه لأهلكه ، ولولا خوفه منه لما أفضى [إلى][2] هذا المقام ،

---

(١) الأصل : «طالب» .

(٢) ينقل المؤلف هنا عن العماد مع تغيير طفيف ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ص ٦٢) : «. . لما التجأ إلى هذا الجانب ، ولما اختار الأجانب على الأقارب ، وهذا صاحب إربل جار الموصل أبوه زين الدين على . . . إلخ» .

وما اختار البعيد على القريب ، وصاحب إربل جارهم ، وأبوه زين الدين هو يتهم ، وشيّد أمرهم ، وهو يشكو جوارهم فى حقه وظلمهم له ؛ وذكر أيضا الذى حفظ خوف صاحب الحديثة وصاحب تكريت منهم .

ذكر منازلة السلطان الموصل

وهى المنازلة الثانية

ولما خيّم السلطان بالإسماعيليات شرع فى إقطاع البلاد للجند ، وسيّر الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكّارى ومعه الأمراء من عشيرته إلى بلد الهكّارية ، وأرسل جماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لافتتاح قلاعها ، وأمر بنصب الجسر ، [٢٦١] وعبر مظفر الدين بن زين الدين وغيره من الأمراء ، وخيّموا بالجانب الغربى .

وكان الحر إذ ذاك شديدا ، فأمر السلطان بالكفّ عن القتال إلى أن يطيب الزمان ، وتقدم بتحويل دجلة ، وكان ماؤها قد قلّ ، وذكر من له خبرة ونظر فى علم الهندسة أنه يمكن سدها وسكرها ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوى ، ويعطش أهل الموصل[1] إذا انقطع الماء عنها ، فلا يبقى إلا تسليمها ، وكان أهل الموصل يعبرون إلى الجانب الشرقى فيقاتلون العسكر ثم يعودون .

(١) ذكر العماد (الروضتين، ج ٢ ، ص ٦٢) أن هذا الرأى عرض على أحد المهندسين المعاصرين فأقره ووافق عليه ، أما هذا المهندس فهو «الفقيه العالم فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادى ، وكان مهندس زمانه» ؛ ونقل صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٦٣) فقرة من رسالة بقلم العماد أرسلت إلى الديوان العزيز تشير إلى هذا الموضوع ، ونصها : «وذكر المهندسون من أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها ، وحينئذ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر فى تضييق ولا نزال» .

وبلغ عز الدين صاحب الموصل أن نائبه بالقلعة زلفندار يكاتب السلطان ، فمنعه من الصعود إلى القلعة ، وعاد إلى الاقتداء برأى مجاهد الدين والصدور عن رأيه، وأقام السلطان بالموصل إلى آخر ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة —

ذكر رحيل السلطان عن الموصل

وورد على السلطان الخبر بوفاة شاه أرمن [١] بن سُكْمان صاحب أخلاط فى العشرين من ربيع الآخر، وكان موته فى التاسع منه ، ولم يخلف ولدا ذكرا ولا ذا قرابة .

وورد كتب أهل بدليس وغيرها إلى السلطان يخطبونه لها ، وهم خائفون من العجم أن يملكوها .

وكان المقيم بالملك بعد شاه أرمن [١] مملوكه سيف الدين بِكْتِمُر ، وكان قد ورد على السلطان رسولا من سيده وهو بسنجار ، فلما مات سيده شاه أرمن [١] ، وملك البلاد وأحبه الناس لحسن سيرته ، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن ايلدكز صاحب العجم ، فلما قرب منه خافه ، فسير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم أخلاط إليه واندراجه فى سلكه ، وكاتب السلطان فى ذلك أيضا الوزير بأخلاط ، وهو مجد الدين ابن الموفق بن رشيق ، وأظهر للسلطان المودة والمناصحة وهو على خلاف ذلك ،فطمع السلطان فى ملك أخلاط والاستيلاء عليها ، ورحل من الموصل فى آخر شهر ربيع الآخر، وقدّم فى مقدمته ابن عمه

(١) رسمت فى الأصل : « شاهرمن » ، وهو ناصر الدين سكمان الثانى بن إبراهيم . انظر : (زامباور : معجم الأنساب، ص ٣٤٨) .

ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وأمرهما أن يسيرا الى أخلاط من أقرب الطرق ، وسيرالسلطان إلى سيف الدين الفقيه ضياء الدين عيسى ، والأمير غرس الدين قِلِج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرسل إليها والبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فراسله[٢٦٢] سيف الدين وخوّفه من السلطان، وأشعر بأنه إن قصده سلَّم البلاد إلى السلطان .

وراسل الأمير مجدُ الدين ناصرَ الدين محمد أن يقيم على قرن ، فهو أشد للارهاب ، وإنما فعل ذلك خديعة ، وإنما كان مقصود سيف الدين والوزير دفع كل واحد من السلطان والبهلوان بالآخر ليتم غرضهما ، ولا يمكن كل واحد منهما من البلاد ، ثم أحال الوزير الأمر على البهلوان، وقال لرسول السلطان :

" إن البهلوان جاء ليتملك ، ولو استعجلتم لسهل الأمر " .

واصطلح سيف الدين والبهلوان ، وأقره البهلوان على البلاد ، وجرت مراسلة بين البهلوان والسلطان ، وانفصل الأمر .

وفى رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان — صاحب آمد والحصن — وولى بعده ولده قطب الدين سُكْمان بن محمد، واستمر على طاعة السلطان .

ذكر استيلاء السلطان على ميَّا فارقين

وكانت لصاحب ماردين، فوصلها السلطان فى جمادى الأولى من هذه السنة، وبها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين برتقش ، فحاصره السلطان وقاتله ، ثم رأى أن أمر القتال يطول فراسل أسد الدين ورغّبه فى الموادعة والتسليم .

وكان بالبلد الخاتون ابنة فخر الدين قرا آرسلان أخت نور الدين الدارج، وهى زوجة ابن عمها قطب الدين إيلغازى بن ألبى صاحب ماردين الذى توفى، فأحال أسد الدين الأمر إليها ، فراسلها السلطان ورغبها ، وضمن لها ما تطلبه ، وأن يصاهر إليها ، ولم يزل بها و بأسد الدين إلى أن أجابا ، فقرّر لها السلطان كل ما كان باسمها و باسم خدامها، وطلبت حصن الهتّاخ[1] لتكون هى وأولادها به. فأجيبت ؛ وزوّج السلطان ابنه معز الدين إسحق[2] إحدى بناتها، وتسلم السلطان ميّا فارقين .

وجاء قطب الدين سُكمان بن نور الدين — صاحب آمد — إلى خدمة السلطان، فأكرمه وأعاده الى بلده ومعه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقة، وقتل غيلة فى رمضان من السنة .

ذكر منازلة السلطان الموصل

وهى المنازلة الثالثة

ثم رحل السلطان وولّى بتلك الديار مملوكه حسام الدين سُنْقُر الخلاطى ، فنزل على دجلة بكفر زمار بقرب الموصل فى شعبان من السنة ، وعزم أن يشتى فى ذلك المكان ، فخرج [٢٦٣] إليه من الموصل أتابكيات وفيهن ابنة الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يشفعن إليه فى الكف عن الموصل والرحيل عنها ،

---

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قلعة حصينة فى ديار بكر قرب ميا فارقين .

(٢) هو المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين ، ولد بمصر فى ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فكان أباه زوّجه وهو فى الحادية عشرة من عمره ؛ ذكر صاحب (شفاء القلوب، ص ١٧٣) أنه توفى فى ذى الحجة سنة ٦٢٥ هـ . انظر أيضا : (الروضتين، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

فأنزلهن وأكرمهن ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشار أكثرهم بإجابتهن إلى ما طلبن، فقال له الفقيه ضياء الدين عيسى وعلى بن أحمد المشطوب :

" مثل الموصل لا تترك لامرأة ، فإن عز الدين ما أنفذهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد " .

فوافق ذلك هواه ، وقال لهن : .

" قد قبلت شفاعتكن ، لكن لابد أن نعمل ما تقتضيه المصلحة " .

واعتذر إليهن ، فرجعن خائبات متلومات .

ذكر مرض السلطان ورحيله عن الموصل

ثم دخل شهر رمضان وبدأ بالسلطان مرضٌ أزعجه وأقلقه ، فندم على ردّ النساء الأتابكيات وعدم قبول شفاعتهن ، فسيّر إلى عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — وأذن له فى الدخول بينه وبين عز الدين — صاحب الموصل — فى الصلح ، فدخل رسوله ، وهو وزيره شمس الدين بن عبد الكافى ، وشمس الدين قاضى العسكر من جانب السلطان إلى الموصل .

وكان من قبل قد سبق القول أن السلطان يتسلم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرستاق، وبلد القرابلية وبنى قفجان، فدخل الرسولان إلى الموصل لأجل العهد على هذا الملتزم، ورحل السلطان فى سلخ شهر رمضان وهو فى شدة من المرض ، ووصل إلى حرّان .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

" كان عز الدين — صاحب الموصل — قد سيّر إلى الخليفة يستنجد به ، فلم يصل منه زبدة ، وسيّر إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلتْ من

بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من النجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة، وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده فى ذلك الوقت، فندبونى لهذا الأمر، وبهاء الدين الربيب [1] وفوض إلى أمر النسخة " .

ذكر انتظام الصلح بين المواصلة والسلطان

قال بهاء الدين :

" فسرنا حتى أتينا العسكر — يعنى بحرّان — [٢٦٤] ، والناس كلهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا فى أوائل ذى الحجة، فاحترمنا احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان ذلك أول جلوسه من مرضه ، وحلف يوم عرفة ، وأخذنا منه بين النهرين ، أخذها من سنجر شاه وأعطاها المواصلة ، وحلفته يمينا تامة ، وحلفتُ أخاه الملك العادل، وسرت عنه وهو بحران وقد تماثل، واستمر الصلح، وصلح الأمر " .

وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان ، وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضربت السكة باسمه . وكان المرض لما اشتد بالسلطان وصل إليه أخوه الملك العادل ومعه الأطباء ، وقام يضبط الأمور ، والجلوس فى كل يوم فى النوبتية [2] الذى للسلطان، وإقامة وظيفة السماط .

---

(١) الأصل : « بن الربيب » والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٥٦) . (الروضتين؛ ج ٢ ص ٦٤) .

(٢) النص عند العماد : (الروضتين، ج ٢ ، ص ٦٥) : "والجلوس فى كل يوم فى النوبتية السلطانية ؛ لتولى مصالح الرعية ؛ وإقامة وظيفة السماط ؛ والعمل فى كل يوم بالاحتياط" .

وكان الملك العزيز عماد الدين عثمان حاضرا مع أبيه ، فخلَّف السلطانُ الناسَ لأولاده ، وجعل لكل منهم نصيبا معلوما ، وجعل أخاه الملك العادل وصيًّا على الجميع ، وأكثر السلطان فى مرضه من الصدقات ، وكتب بذلك إلى الشام والديار المصرية ، فلم يبق فى سائر ممالكه من الفقراء والمساكين إلا من وصل إليه نصيب من رفده وبره وصدقته .

وذكر عماد الدين الكاتب قال :

" أمرنى أن أكتب إلى نائبه بدمشق صفى الدين بن القابض بأن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية[1] ، فقال : ما عندى غير دنانير مصرية ، فقال : يتصدق بها مصرية " .

ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام ، فبنيت فى أربعة أو خمسة أيام ، واستحضر من دمشق ولديه الصغيرين : الملك المعظم توران شاه ، وملكشاه[2] ، وأمهما ، فأسكنهما فى تلك الدار مدة مقامه وسماها : " دار العافية " .

ولما تم الصلح بينه وبين المواصلة أهدى لعز الدين هدايا عظيمة ، ولوالدته ، ولزوجته ، ولابنة نور الدين ، وقوَّم ماسيره إليهم بما يوفى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والملبوس والطيب والأشياء المستطرفة .

---

(١) أنظر ما فات دنا ، ص ٧٦ ، هامش ٦

(٢) هما أخوان شقيقان لأم واحدة ، الأول الملك المعظم أبو منصور توranشاه فخر الدين ، ولد بمصر فى ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ ، والثانى الملك الغالب أبو الفتح ملك شاه نصير الدين ، ولد بالشام فى رجب سنة ٥٧٨ هـ ؛ انظر : (الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧) ؛ وقد ترجم (الحنبلى : شفاء القلوب ، ٧٣ ب) للمعظم تورانشاه ، فقال إنه كان كبير البيت الأيوبى ، وقد اشتغل بالعلم وحضر غير مصاف وكان ذا شجاعة وعقل ، ولما استولى التتار على حلب اعتصم بقلعتها ثم سلمها بالأمان ، وأدركه الأجل على قرب ذلك فتوفى فى السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ بحلب عن ثمانين سنة ، ودفن هناك بدهليز داره .

ذكر وفاة الملك القاهر

ناصر الدين محمد [١] بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص

[٢٦٥] وكان ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه فى صحبة السلطان وهو مريض بحرّان ، فلما أشتد مرضه توجه إلى إقطاعه ، وكانت له حمص والرحبة وتدمر وسلمية ، فلما اجتاز بحلب أحضر جماعة من أحداثها ، ووعدهم وأعطاهم مالا ، ولما وصل إلى حمص أرسل جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات السلطان ، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها ، فعوفى السلطان ، وبلغ ناصرَ الدين الخبرُ ، فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى من هذه السنة — أعنى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة — وذلك أنه شرب خمرا وأكثر منه ، فأصبح ميتا .

استيلاء الملك المجاهد

شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى على حمص

فأقطع السلطان ما كان لناصر الدين لولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فلم يزل مالكا لحمص وبلادها إلى أن توفى بها فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت مدة ملكه نحوا من ست وخمسين سنة ، وملك بعده ولده الملك المنصور إبراهيم ، وتوفى بدمشق سنة أربع وأربعين وستمائة ، فملك بعده ولده الملك الأشرف موسى بن إبراهيم ، فأخذت منه فى سنة ست وأربعين وستمائة ، وملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك

---

(١) ترجم له (الحنبلى . شفاء القلوب ، ص ١١) ترجمة مختصرة نقل معظمها عن ابن واصل ، وزاد عليها قوله : «وقيل إن السلطان اغتاله بسم ، وقيل مات بغتة» .

العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى — صاحب حلب — ، فلم يزل مالكا لها إلى أن وطئت التتر البلاد وملكوها سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأعادوا حمص إلى الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور ، ثم لما رجعت البلاد إلى المسلمين أقرّه عليها الملك الظاهر ركن الدين ، ثم توفى الملك الأشرف فى سنة اثنتين وستين وستمائة (١) ، وهو آخر من ملك حمص منهم .

وكتب السلطان إلى الملك المجاهد يعزيه بأبيه :

" قد علمنا المصاب بوالده رحمه الله ، وعظّم أجرنا وأجره فيه ، وإن كان مضى لسبيله فولدنا أسد الدين — أحياه الله — نعم الخلف الصالح ، وإن انتقل والده إلى دار البقاء ، فهو فى مكانه المستقر من المجد والعلاء ، والبلاد والمعاقل باقية عليه ، مسلمة إليه ، مقررة فى يديه ، وما مضى من والده — رحمه الله — [٢٦٦] إلا عينه ، وولدنا قرة العيون ، وبه استقر السكون ، والحمد لله الذى جبر به كسر المصاب ، وألبسنا وإياه ثوب الثواب ، فليشرح ولدنا صدره ، ولا يشغل سره ، ويعرف خواصه وأصحابه وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم " .

وكان المندوب إليه فى هذه الرسالة القاضى نجم الدين أبا البركات عبد الرحمن بن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، وهو الذى تولى الحكم بحماة ، وتوفى بها .

وخلّف ناصر الدين أموالا جزيلة وذخائر كثيرة ، [و] قسّم السلطان الميراث لما قدم حمص ، وكان تحت ناصر الدين ست الشام المعروفة بالحسامية زوجة ناصر الدين ، فصرف إليها ثمنها ، وقسم الباقى بين أسد الدين وأخوته ، على مقتضى الشريعة المطهرة .

---

(١) هذا التاريخ يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٢ هـ .

وذكر عماد الدين :

أن المخلف كانت تنيف قيمته على ألف ألف دينار ، وأن السلطان ما أعاره طرفه ، بل تركه على أهل التركة .

وذكر غير العماد :

أن السلطان أخذ ما جلت قيمته ، وأبقى الباقى ؛ وأن السلطان سأل الملك المجاهد أسد الدين :

" إلى أين بلغتَ من القرآن " ؟

فقال :

" إلى قوله تعالى :

" إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " (١)

فعجب السلطان والحاضرون من فرط ذكائه مع صغر سنه .

ودخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، ففى أولها دخل السلطان إلى الشام ، ووصل إلى حلب فى العشر الأوسط من المحرم .

ذكر وصول

السلطان الملك الناصر — رحمه الله — إلى دمشق

ثم رحل السلطان — رحمه الله — إلى دمشق من حلب ، وصحبته أخوه الملك العادل ، فوصل إلى حماة وبها ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمار تكين — صاحب بوقبيس — نائبا عن الملك المظفر تقى الدين عمر .

(١) السورة ٤ (النساء) : الآية (١٠م) .

ثم رحل إلى حمص فقرر أمورها، ورتَّب بها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، وكتب له منشورا بحمص وتدمر والرحْبة ووادى بنى حصين [والرحبة وزلبيا][(١)]؛ وأمر بإسقاط المكوس [(٢)]، ورتَّب فى ولاية القلعة [(٣)] الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شروة الهكَّارى، ثم نقله إلى حلب، ورتب بحمص مع أسد الدين أميرا من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، ولم يزل معه إلى أن ترعرع الملك المجاهد واستقل بالأمر.

ثم سار السلطان إلى دمشق فدخلها فى ثانى ربيع الأول من هذه السنة — أعنى سنة اثنين وثمانين وخمسمائة —.

[٢٦٧] ذكر قدوم الملك الأفضل

نور الدين علىٍّ ابن السلطان عَلَى أبيه بدمشق

كان الملك الأفضل بالديار المصرية ومعه ابن عمه الملك المظفر تقى الدين نائبا عن السلطان بالبلاد، فوقعت بينهما منافرة بسبب أن الملك المظفر ربما كان ينقم على واحدٍ ما، فيثقل عليه الملك الأفضل ويمنعه من إيقاع مكروه به، فكتب إلى السلطان يشكو منه، وكان فى نفس السلطان نقل الملك العزيز إلى مصر وتفويض ملكها إليه، فكتب إلى ولده الملك الأفضل يتشوَّقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمهم وأصحابه، فخرج بهم متوجها إلى الشام، فوصل

(١) الأصل: «ورانيا»، وما بين الحاصرتين عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين، ج ٢، ص ٦٩).

(٢) المؤلف يختصر هنا عن العماد، والنص عنده (المرجع السابق): «وكتب منشورا آخر بإسقاط المكوس بالرحبة وفيه: (وهذا دأب السلطان فى جميع البلاد، اقتصر منها على الرسوم التى يبيحها الشرع، وهى: الخراج والأجور والزرع)».

(٣) المقصود قلعة حمص.

دمشق يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، وخرج السلطان لاستقباله، وأنزله فى القلعة فى دار رضوان، وكتب إلى الملك المظفر أنه قد استقل أمره وزال عذره[1] ، ففرح بذلك ، وخفى عنه أنه كان فى ذمة ولد السلطان وعصمته .

ذكر استيلاء الملك الظاهر
غياث الدين ابن السلطان الملك الناصر على حلب
وهو الاستيلاء الثانى

لما قدم السلطان دمشق كان بها من أولاده الملك الظاهر ، وكان قد تزوج ابنة عمه الملك العادل — رحمه الله — وليست هى بأم الملك العزيز محمد ، وإنما هى أخرى توفيت عنده ، ثم تزوج أختها أمَّ الملك العزيز ، فزار عمَّه الملك العادل ، فقال له :

" قد نزلتُ عن حلب لك ، وأنا أقنع من أخى بإقطاع أين كان ، وألزم الخدمة ، ولا أفارق السلطان ، فاطلبها من أبيك " .

ثم جاء الملك العادل إلى السلطان وقال :

" هذه حلب مع رغبتى فيها أرى أن أحد أولادك بها أحق ، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أنى أوثره بها " .

فوقع الاتفاق بينه وبين السلطان على ذلك .

---

(1) الأصل : «عدوه» ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٩) .

والتمس الملك العادل من السلطان بلادا أو نواحى بمصر ، فأجيب اليها ، وأقطعه البلاد الشرقية بمصر ، وتقرر أنه يسير إلى مصر نائبا عنه بها ، ويكون الملك العزيز عماد الدين عثمان السلطان بها ، ويكون الملك العادل أتابكه ومربيه والكافل له والمقيم [٢٦٨] بتدبير أموره كلها ، وكان الملك العادل شديد الحب له ، وكان الملك العزيز هو الذى سأل أباه أن يكون الملك العادل معه .

فحكى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

" قال الملك العادل : لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت لخدمة الملك العزيز والملك الناصر وجلست بينهما ، وقلت للملك العزيز : اعلم يامولاى أن السلطان قد أمرنى أن أسير فى خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا فما يخلو ممن يقول عنى ما لا يجوز ، ويخوفك منى ، فإن كان لك عزم تسمع فقل لى حتى لا آجى معك ، فقال لا أسمع ، وكيف يكون ذلك ؟ ثم التفت ، وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فىّ أقوال المفسدين ، وأنا فمالى إلا أنت ، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدرى من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير " .

ثم إن السلطان سيّر ولده الملك الظاهر إلى حلب ، وفى خدمته : حسام الدين بشارة شحنة ، و [شجاع الدين][1] عيسى بن بلاشق [2] واليا ، فوصل الملك الظاهر إلى العين المباركة يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة من هذه السنة — أعنى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة — وخرج الناس إلى لقائه يوم السبت تاسع جمادى الآخرة ، وصعد إلى القلعة ضحوة ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، وعدل فى الناس ، وأفاض عليهم وابل فضله ، واستمر مالكا لها إلى أن توفى بها سنة ثلاث عشرة وستمائة ؛ وكان ملكه لها نحوا من إحدى وثلاثين سنة .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧١) .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : «بلاشو» .

وملك بعده ولده الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر [الى أن توفى][1] فى سنة أربع وثلاثين وستمائة .

فملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف ابن أيوب ولم يزل مالكا إلى أن ملك التتر الملاعين حلب فى سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ثم صار الملك بها بعدهم للملك المظفر قطز ، ثم للملك الظاهر ركن الدين .

فكانت مدة [٢٦٩] مُلْك الملك الظاهر بن صلاح الدين وأولاده لها خمسا وسبعين سنة وشهورا .

ذكر قدوم الملك المظفر

تقى الدين عمر إلى خدمة عمه السلطان بدمشق

ولما بلغ الملك المظفر ما استقرت القاعدة عليه من توجه الملك العزيز والملك العادل إلى الديار المصرية شقَّ ذلك عليه وغضب، وعبر بأصحابه إلى الجيزة مظهرا أنه يمضى إلى بلاد المغرب ويستولى عليها ، لأن مملوكه قراقوش [2] كان قد مضى الى المغرب واستولى على نواحى منها — كما تقدم ذكره — وكاتب مولاه الملك المظفر يرغبه فى تلك البلاد ، ويقول إن البلاد سايبة .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق .

(٢) انظر (مفرج الكروب ، ج ١ ، ٢٣٦ ، هامش ٤)

فلما تجدد للملك المظفر ما تجدد عزم على قصد تلك البلاد وأخذها بسيفه ، ومالت إليه عساكر مصر لبذله وشجاعته ، فعبر بعسكره إلى الجيزة ، وقدّم مملوكه بوزأبَة[1] فى المقدمة .

ولما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يأمره بالقدوم عليه ، فلم يسعه مخالفة عمه ، وقبّح عليه جماعة من الأكابر المشاققة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده

---

(١) الأصل : "موربا" وعند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠) "بوزبا" : وما هنا عن (ابن الأثير ١١ ، ص١٩٧) ؛ هذا ورواية العماد أكثر تفصيلا فى هذا الموضوع الهام ، فآثرنا نقلها هنا لتتم الفائدة ، قال : " فعبر (أى تقى الدين) إلى الجيزة مظهرا أنه يمضى إلى بلاد المغرب ليتملكها ، وكتب يسأل السلطان ألا يمنعه من سلوك مسلكها ، وسمت همته إلى مملكة جديدة ، وأقاليم مديدة ، وبلاد واسعة ، ومدن شاسعة ، وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش ، وسار إلى بلاد برقة فملكها ، وهزته الأمنية للتنافس من بلاد نفوسة فأدركها ، وتجاوز إلى إفريقية وهو يكتب أبدا إلى مالكه الملك المظفر يرغبه فى تلك المملكة ، ويقول : إن البلاد سائبة ؛ فلما تجدد لتقى الدين ما تجدد ، وتمهد لعمه العادل ما تمهد ، عاد له ذكر المغرب ، فعبر بعسكره ، ومالت إليه عساكر مصر لبذله ، وقدم مملوكه بوزبا فى المقدمة ، فلما انتهى إلى السلطان خبر عزمه ، قال : لعمرى إن فتح المغرب مهم ، لكن فتح البيت المقدس أهم ، والفائدة به أتم ، والمصلحة منه أخص وأعم ، وإذا توجه تقى الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر فى اقتناء الرجال ، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل ، وعلم نجاح تقى الدين فى ركوب تلك الجة ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ... ... وكتب القاضى الفاضل إلى تقى الدين : " سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا فى التماس السفر إلى الغرب والدستور إليه ، (يكفى الزمان فما لنا نستعجل) ؛ يا مولانا : ما هذا الواقع الذى وقع ؛ وما هذا الغريم من الهم الذى ما اندفع ؟ بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا البلغة ، واليوم قد وهب الله هذه النعمة ، وقد كان الشمل مجموعا ، والهم مقطوعا ممنوعا ، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت ، والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت ؟ يا مولانا : إلى أين ؟ وما الغاية ؟ وهل نحن فى ضائقة من عيش أو فى قلة من عدد أو فى عدم من بلاد أو فى شكوى من عدم ؟ كيف نختار على الله وقد اختار لنا ؟ وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا ؟ وكيف ننتجع الجدب ونحن فى دار الخصب ؟ وكيف نعدل إلى حرب الإسلام المنهى عنها ونحن فى المدعو إليها من حرب أهل الحرب ؟ معاشر الخدام والجيش وأرباب العقول والآراء : أليس فيكم رجل رشيد ؟

تعقب الرأى وانظر فى أواخره فطالما اتهمت قدما أوائله

لا زال مولانا يمضى الآراء صائبة ، ويلحظها بادية وعاقبة ، ولا خلت منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر ، ولا عدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت فى عداد الليالى فلم تذكر " .

فى الحال ، والله يعلم ما يكون بعد ذلك ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وتوجه إلى دمشق ، وتلقاه السلطان ، وخيم على المصرى فوق قصر أم حكم ، فلما قرب ركب إلى موكبه ورحّب به ، وفرح بوصوله فرحا شديدا ، وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان من السنة .

ودخل دمشق واستمر على ما كان بيده من البلاد وهى : حماة والمعرّة ومَنْبِج وقلعة نجم ، ثم أضاف إليه ميّافا رقين وما حولها من البلاد والمعاقل .

وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله ، وأخبرهم بتأخير عزم المغرب ، فامتثلوا الأمر ، وقدموا سوى زين الدين بوزأبَة (١) ، فإنه مضى إلى المغرب واستولى على مواضع ، ثم قصده صاحب المغرب فأسره ثم أطلقه .

وفى هذه السنة دخل الملك الظاهر على ابنة عمه الملك العادل التى كان عقد عليها ، وذلك فى السادس والعشرين من شهر رمضان ، ودخل الملك الأفضل نور الدين على زوجته ابنة ناصر الدين محمد [٢٧٠] بن شيركوه أخت الملك المجاهد صاحب حمص ، وذلك فى شوال من هذه السنة .

ذكر مسير
الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى الديار المصرية

ولما تقررت القاعدة على ما ذكرنا سار الملك العزيز وعمه الملك العادل إلى مصر ، فدخلا القاهرة فى خامس شهر رمضان .

(١) الأصل : " موربا " ، وعند العماد : " بوزبا " ، وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٩٧) .

وذكر ابن الأثير :

أن السبب فى الذى فعله السلطان فى هذه السنة من نقل الملك العادل عن حلب وتوليتها ولده الملك الظاهر ، ونقل الملك المظفر عن ملك [مصر][1] وتسيير ولده الملك العزيز إليها ، أن السلطان لما مرض وعوفى وسار إلى الشام ، سايره يوما علم الدين سليمان بن جندر ، فجرى حديث مرضه فقال له سليمان :

"بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تمضى ، وأن أمرك يقبل ؟ كأنك تظن أنك كنت تمضى إلى الصيد وترجع فلا يخالفونك ! بالله أما تستحى أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟ ".

فقال :

" وكيف ذلك ؟ " — وهو يضحك —

قال :

" إذا أراد الطائر يعمل عشا لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلّمتَ الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض ؛ هذه حلب بيد أخيك ، وهذه حماة بيد تقى الدين ، وهذه حمص بيد ابن شيركوه ، وأحد ابنيك بمصر مع تقى الدين يخرجه أى وقت شاء ، وهذا ابنك الآخر مع أخيك فى خيمته يفعل به ما أراد " .

فقال له :

" صدقت ، اكتم هذا الأمر " .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى .

ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاها للملك الظاهر ، وأخرج تقى الدين من ملك مصر ، وأعطاها للملك العزيز ، وجعل معه الملك العادل ؛ ثم أعطى الملك العادل البلاد الشرقية ، ونقله عن مصر على ماسنذكره ، وأراد الاحتراز بجهده عن أن تخرج البلاد من يد أولاده ، فلم ينفعه ذلك بعد وفاته لما أراد الله خلافه .

وتوفى فى هذه السنة البهلوان بن ايلدكز ، وملك بعده أخوه قزا أرسلان .

وفى هـذه السنة عصى معين [الدين] بن معين الدين بقلعة الراوندان ، وكان السلطان قد أعطاه [٢٧١] إياها ، فنازله علم الدين سليمان بن جندر فى عسكر حلب ، فتسلموها منه ، ونزل إلى خدمة السلطان .

ذكر انتماء القومص صاحب طرابلس إلى خدمة السلطان[١]

وكان السبب فى ذلك أن الفرنج كان لهم ملك مجذوم ، وكان له أخت [ولم يكن له ولد][٢] ، فأوصى بالملك [لها ، وكان لها ولد صغير ، وأوصى أن يكون لولدها ايضا إذا كبر][٣] ، فلما هلك تزوج القومص بأخت الملك ، وربى ولدها المعهود له بالملك ، وهو طفل صغير ، فمات الصغير ، فانتقل[٤] الملك إلى

---

(١) بهذا العنوان تبدأ ص ٨٢ ا من نسخة س ، وبذلك نعود للمقارنة بين هذه النسخة والأصل .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س ، أما الملك المجذوم فهو بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (Baldwin IV, King of Jerusalem) وأخته هى : سيبلا ملكة بيت المقدس (Sibylla, Queen of Jerusalem) وأما الطفل ابنها فهو بلدوين الخامس (Baldwin V, King of Jerusalem) ، وأما زوج الملكة سيبلا فهو جى لوسنيان ملك بيت المقدس (Guy Lusignan, King of Jerusalem) أنظر : (Runciman: *Op. Cit.* vol. 2: pp. 442—451).

(٣) الأصل : " فأوصى بالملك لابنها " ، وما هنا صيغة س .

(٤) س : " فثبت ".

أمه ، ثم إنها [بعد موت ابنها][١] مدّت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب وتزوجته ، وهجرت القومص ، وفوضت الملك إلى ذلك المقدم ، فطلب من القومص حساب البلاد ، فوقع الخلاف بينهم بسبب ذلك ، فالتجأ القومص إلى ظل السلطان ، فقبله وقواه وشد عضده باطلاق من كان فى الأسر من أصحابه ، فقويت منا صحته للمسلمين ، وباين[٢] أهل ملته ، وبثّ السرايا فى بلادهم فخافوه[٣] وحذروا مكره.

ذكر ما اعتمده الابرنس صاحب الكرك
من الغدر بالمسلمين

كان الابرنس أرناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان وسالمه ، فأمنت الطريق بين مصر والشام ، وتواصلت القفول ، حتى كان يمكّن الذاهب والجائى، ثم إنه لاحت له فرصة فى الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة ، فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الأجناد فأسرهم وحملهم إلى الكرك ، وأخذ خيلهم وعدتهم ، فأرسل إليه السلطان وقبّح فعله فأسامه[٤] إطلاقهم فامتنع ، وأصرّ على عصيانه ، فنذر السلطان دمه ، وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح مهجته .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) س : " وأمنت " وما هنا هو الصحيح .

(٣) س : " نخافوه وصدروا عنه ولم يعودا يلاطفوه بشر " .

(٤) س : " وسأله " .

ذكر مسير السلطان
الملك الناصر من دمشق إلى الجهاد[1]

وأقام السلطان بدمشق بقية سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر، بجاءته من كل فج، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهى السنة الغراء التى طهّر الله فيها الأرض المقدسة من نجاسة الشرك بعد أن مكثت [٢٧٢] مرتهنة فى أيدى الكفار نيفا وتسعين[2] سنة .

ولما وصل السلطان إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل نور الدين بالإقامة هناك فى بعض العساكر ، لتجتمع عنده الأمداد والنجد ، ثم سار السلطان إلى بصرى ، وخيّم على قصر السلامة ، وأقام مرتقبا الحاج خوفا عليهم من غدر عدو الله الابرنس ، ولما وصل الحاج فى صفر ، وخلا سر السلطان من شغلهم سار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك .

ثم وصلت العساكر المصرية ، فتلقاها بالقريتين ، وأمرهم بالانبثاث فى أراضى الكرك والشوْبك ، وأقام على ذلك شهرين ، والملك الأفضل مقيم برأس الماء ، وقد اجتمعت عنده الجحافل والجموع .

وكانت العساكر الحلبية تأخرت بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون ، وكان قد مات وأوصى لابن أخيه لاون .

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى س .

(٢) س : "اثنتين وسبعين" وما فى المتن هو الصحيح .

فكتب السلطان إلى الملك المظفر تقي الدين — وهو بحماة — يأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرته ، فوصل الملك المظفر إلى حلب ، ونزل فى دار العفيف بن زريق ، وانتقل إلى دار طمان ، وخرج فى تاسع صفر من حلب بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب غير مهمل

وقدم مظفر الدين [كوكبرى] بن زين الدين — صاحب حرّان — فى العساكر الشرقية .

ثم قدم عسكر حلب مع بدر الدين دلدرم بن ياروق، [صاحب تل باشر][1] فأنهض الملك الأفضل سريّة إلى بلاد العدو ، والمقدم على عسكر دمشق صارم الدين قايماز النجمى ، فصبّحوا صفوريّة ، فأتاهم الفرنج والتقوهم ، فقتلوا من الافرنج[2] وأسروا[3] ، وهلك[4] مقدم الاسبتار ، وحصل فى الأسر جماعة من فرسانهم ، وأفلت مقدم الداويّة ، وعاد المسلمون سالمين غانمين ، وكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح .

وجاءت هذه البشرى إلى السلطان وهو بعد بنواحى الكرك والشوبك ، فسار إلى عشترا وخيّم بها ، واجتمعت عنده العساكر الإسلامية ، وقد غُصّ بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان فى اثنى عشر ألف مقاتل ، ثم رتب العسكر أطلابا[5] ، وسار يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر من السنة ،

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٨٢ ب) .

(٢) نص س : " فهزم المسلمون الفرنج ، فقتل من الفرنج خلق كثير ، وأسروا الملك " .

(٣) عند هذا اللفظ تنتهى ص ٨٢ ب من نسخة س ، ثم يوجد خرم جديد مقداره صفحة .

(٤) الأصل : " لتلك " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦) .

(٥) انظر ما فات هنا ص ٥٩ ، هامش ٣

فأناخ ليلة السبت على خسفين، وكان قد تقدم إلى ابن أخيه تقى الدين بمصالحة العدو [٢٧٣] الذى فى ناحية بلد حلب ، فصالحهم وتوجه إلى حماة قاصدا خدمة السلطان، ومعه عسكر الموصل، ومقدمهم فخر الدين مسعود بن الزعفرانى، وعسكر ماردين ، فلحقوا السلطان بعشترا ؛ ثم رحل السلطان من خسفين الى الأردن ، فنزل بثغر الأقحوان ، فأقام هناك خمسة أيام ، وقد عيَّن مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاطت عساكره ببحيرة طبرية عند قرية تعرف بالصُّبَيْرة[١] .

ذكر فتح طبرية

ثم رحل من هناك ، ونزل غرب طبرية على سفح[٢] الجبل لتعبية الحرب ، منتظراً أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلتهم ، فنزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، وزحف إلى طبرية ففتحها فى ساعة من نهار ، وامتدت الأيدى إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، وامتنعت عليه القلعة وحدها .

ذكر وقعة حِطِّين

وهذه الوقعة كانت مفتاح الفتوح الإسلامية، وبها تيسَّر فتح بيت المقدس، وكان من حديثها أن الفرنج — لعنهم الله — لما تحققوا باجتماع كلمة المسلمين ،

---

(١) الأصل : " بالصيرة " وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ص ٨١) ، وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق ، بينه و بين طبرية ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : « سطح » ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية .

وجاءهم مالا يعهد لهم مثله اجتمعوا وانتحوا ، وكان القومص قد باينهم — كما ذكرنا — ، فدخل عليه الملك، ورمى نفسه عليه ، فدخل معهم ووافقهم ، فصففوا راياتهم بصفورية ، وحشدوا وجمعوا جموعهم ، وجاءتهم الأمداد من سائر بلادهم الساحلية ، وجمعت عبرتهم خمسين ألفا ، ورفعوا صليب الصلبوت[١] ، وهو قطعة من الخشبة التى يدعون أن المسيح عليه السلام صُلب عليها .

وانتظر السلطان بروزهم للمصاف فلم يبرحوا من صفورية ، فقصد طبريّة — كما ذكرنا — ، وفتحها ، وامتنعت القلعة ، وبها زوجة القومص ، ولما بلغه افتتاح بلده قامت قيامته ، وقال للفرنج :

" لاقعود لنا بعد اليوم ، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها ".

فوافقوه ورحلوا بجموعهم نحو السلطان ليمنعوه من أخذ قلعة طبرية ، ولما بلغ السلطان حركتهم نحوه سر بذلك ، لأنه كان مقصوده لقاهم ، وإطفاء جمرتهم ، إذ علم — رحمه الله — أنه لا يتيسر له أخذ [٢٧٤] البلاد إلا بعد ذلك ، فترك على طبريّة من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، والتقى[٢] العسكران على سطح جبل طبريّة الغربى منها ، وحال الليل بين الفئتين، وباتا على مصاف، شاكين فى السلاح إلى صبيحة[٣] الجمعة ، وهو الرابع والعشرين من ربيع الآخر، فركب العسكران وتصادما ، وذلك بأرض تسمى اللوبيا ، ولم يزل الحرب بينهم إلى أن حجز الظلام ، فبات كل فريق فى سلاحه .

(١) تذكر المراجع أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء الصليبيين عن الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لهذه الجزيرة سنة ١٤٢٦ م ، على أنه بقى بتلك الجزيرة ، ورآه هناك أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٤٨٨ م . أنظر : (ZIADA: *Mamlouk Conquest of Cyprus*, p.102)

(٢) الأصل : " والتقا " .

(٣) الأصل : " صبحة " وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١) .

وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر على هيئتهم ، وقد حاز المسلمون عنهم ماء البحيرة وراءهم ، فلم يبق للفرنج إليه وصول ، فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من الماء ، وأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار ، وصاروا كلما حملوا ليتيسر لهم ورود الماء[1] صُدُّوا ورُدُّوا ، واستولى عليهم الأسر والقتل ، فأووْا إلى جبل حطِّين ليعصمهم[2] من البلاء بعد أن انهزم منهم طائفة ، وتبعهم طائفة من المسلمين ، فلم ينجُ منهم أحد .

وهرب القومص — لعنه الله — فلم ينجه إلا الهزيمة بحشاشة نفسه متوجها نحو صور[3] ، وتبعه جماعة من المسلمين ، ولم يدركوه ، وكفى الله المسلمين كيده .

وأحاط المسلمون بالباقين الذين اجتمعوا[4] بجبل حطِّين ، وهى قرية عندها قبر شعيب النبى عليه السلام ، وضايقوهم ، وأشعلوا حولهم النيران فى حافاء كانت هناك ، فارتفع لهبها ، واجتمع عليهم حر الهاجرة وحر النار وحر العطش وألم الجراح ، وحطوا خيامهم على ظهر التل ، فعاجلهم المسلمون عن ضربها ، واشتد الطعن والضرب ، ودارت عليهم دائرة السوء ، وعلموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا على المسلمين حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين — على كثرتهم — عن مواضعهم ، فثبَّت الله أقدام المؤمنين ونصرهم ، ولم يحمل العدو حملة إلا وقتل منهم وأسر جماعة ، فوهنوا

(١) بهذا اللفظ نعود ثانية للقابلة مع نسخة س وإنما فى (ص ١٠ ا) .

(٢) س : "ليمنعهم" .

(٣) س : "صفورية" .

(٤) س : "احتموا" .

وهنا عظيما ، ولم يمكنهم نصب خيمة إلا خيمة ملكهم لا غير[١] ؛ وملك المسلمون صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت[٢] ، فأيقنوا بعده بالبوار ، واشتجر فيهم القتل والأسر ، وبقى الملك [٢٧٥] على التل فى مائة وخمسين فارسا .

لحكى ابن الأثير عن من حكى له عن الملك الأفضل نور الدين على — رحمه الله — قال :

" كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، قال : فنظرت إليه وقد علته كآبة ، واربدّ لونه ، وأمسك بلحيته ، فتقدم وهو يصيح : " كذب الشيطان " ؛ فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا[٣] فصعدوا على التل ، فلما رأيتُ الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحتُ من فرحى : " هزمناهم ، هزمناهم " ؛ فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولا[٤] ، وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا : " هزمناهم ، [هزمناهم] "[٥] ، فالتفت إلىّ والدى فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة — يعنى خيمة الملك — ؛ فهو يقول لى [ذلك][٦] ، وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان ، فسجد شكرا لله تعالى ، وبكى من [شدة][٦] فرحه " .

(١) س (١٠ ا) : " إلا خيمتين : خيمة ملكهم ، وخيمة أخرى " .

(٢) انظر ص ١٨٩ ، هامش ١

(٣) س (١٠ ب) : " فرجعوا الفرنج " .

(٤) س : " فى النوبة الأولى " .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س ، وكلمة " هزمناهم " فى الأصل وهو (ابن الأثير) مفردة غير مكررة .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ ب) .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حلوا تلك الحملة [الثانية] [١] ازدادوا عطشا ، وكانوا يرجون الخلاص فى تلك الحملات مما هم فيه ، فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقا نزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد [٢] المسلمون إليهم ، وألقوا خيمة الملك ، وأسروهم كلهم .

قال القاضي بهاء الدين بن شداد :

"ولقد حكى لى من أثق به أنه لقى بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة ، وفيه نيف وثلاثون [٣] أسيرا يجرهم وحده لخذلان [٤] وقع عليهم ، وكان من جملة من وقع فى الأسر : الملك كى [٥] ، وابرنس الكرك أرناط [٦] ، و[أخو] [٧] الملك جفرى ، وأوك [٨] صاحب جبيل ، وهنفرى بن هنفرى [٩] ، وابن صاحب اسكندرونة [١٠] ، وصاحب مَرَقيّة [١١] [وأسر من نجا من القتل من الداوية

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٠ ب) .

(٢) الأصل وس : " فصعدوا " والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٢) .

(٣) الأصل و س : " وثلاثين " والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٦٣) .

(٤) الأصل : " بخذلان " والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : " سلى " وس : " لى " ، وقد صححناه بالمتن إلى الرسم الذى اعتادت الكتب العربية المعاصرة أن تكتبه به ، وهو : (Guy of Lusignan, King of Jerusalem)

(٦) هو (Reynald of Châtillon) صاحب الكرك .

(٧) زيد ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) وهى زيادة ضرورية يستقيم بها المعنى ، واسم هذا الأخ عند (Runciman : *Op. Cit.* Vol. 2. p.459) : (Constble Amalrio)

(٨) فى الأصل : " أولى " ، وفى س : " اودك " ، وقد صححت بعد مراجعة (الروضتين ، ج ٢ ص ٧٨) واسم صاحب جبيل : (Hugh II Embriaco, Lord of Jebail)
انظر : (Runciman : *Op. Sit.* Vol. 2; p. 462–463)

(٩) هو : (Humphrey IV Lord of Toron) انظر (المرجع السابق ، ص ٤٥٩ و٤٦٨) .

(١٠) س (١٠ ب) : " اسكندرية " وهو خطأ .

(١١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قلعة بساحل الشام قرب حمص .

ومقدمها ، ومن الاسبتارية معظمها ، ومن البارونية من أخطأه البوار ، فأصابه وساءه الإسار] [(١)]

قال عماد الدين الكاتب :

”فمن شاهد القتلى ذلك اليوم قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل“ .

ومذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطّين ، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدّس روحه ، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة — رضى الله عنهم — برجل مثله ومثل [٢٧٦] نور الدين محمود بن زنكى — رحمة الله عليهما — ، فهما جددا الإسلام بعد دروسه ، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه ، ثم أيّد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين ، [(٢)] وكان أمره أعجب إذ جاء بعد أن استولى التتر على معظم البلاد الإسلامية ، وأيس [(٣)] الناس أن لا انتعاش للملة ، فبدّد شمل التتار ، وحفظ البلاد الإسلامية [٣] ، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية

ولم ينجُ فى الكسرة [(٤)] من ألوف الفرنج إلا آحاد ، وامتلأت الأرض بالأسرى والقتلى ، ثم أمر السلطان فضُرب له دهليز [(٥)] سرادقه ، فنزل وصلى لله تعالى فيه صلاة الشكر على هذه النعمة ، التى درج الملوك قبله على تمنى مثلها وماتوا بحسرتها ،

---

(١) فى س : ”وصاحب اسكندرية ، والبارونية ، هولاى نجوا من القتل فى الوقعة“ وفى الأصل : ”وأسرت الداوية والاسبتارية والبارونية من نجا من القتل“ وهى عبارة مضطربة ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج٢ ، ص٧٨) وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا ملخصا .

(٢) يقصد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

(٣) هذه الجملة ساقطة من س .

(٤) س (١١١) : « الكرة » .

(٥) الدهليز هنا معناها الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب ، وهى خيمة كبيرة ينزل بها السلطان فى الأوقات التى تتخلل المعركة .

وأحضر ملوك الفرنجية ومقدميهم ، وأجلس الملك كى (١) إلى جانبه ، وأجلس البرنس إلى جانب الملك وفى نفسه وفاء نذره بقتله ، جزاء له على غدره ومكره ، فقرعه السلطان وأذكره ذنبه ، وقال له : "كم تحلف وتنكث ؟" فقال الترجمان عنه : " إنه [يقول](٢) قد جرت بذلك عادة الملوك " .

وآنس السلطان الملك(٣) وحادثه ، وأمر له بجُلّاب(٤) مثلوج فشربه ، وكان قد بلغ منه العطش مبلغا عظيما ، ولما روى ناول الابرنس ارناط القدح ، فشربه ، فقال السلطان للملك : " لم آذن لك فى سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أمانا له " ؛ ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، وركب السلطان ، ولم ينزل(٥) إلى أن ضرب السرادق الذى له وركزت أعلامه ، ثم عاد إلى سرادقه .

ذكر مقتل ابرنس أرناط صاحب الكرك

واستحضر السلطان الملوك ، ولم يبق عنده أحد سوى الخدم ، فأقعد الملك وجماعته فى الدهليز ، واستحضر البرنس خاصة ، وواقفه على قوله ، وكان — لعنه الله — لما غدر بالقافلة الموجهة [من](٦) الديار المصرية [إلى الشام](٦) قال : " قولوا لمحمدكم يخلصكم " .

---

(١) الأصل : « جفرى » وس (هنفرى) والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج٢ ، ص٧٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) فى س : « الملك جفرى » هو خطأ .

(٤) ذكر فى (اللسان) و (الجواليق : المعرب ، ص١٠٦) و (الملك المظفر يوسف بن رسول : المعتمد فى الأدوية ، ص٧١) أن الجلاب هو ماء الورد ، فارسى معرب ، وفى (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) أنه الماء ينقع فيه الزبيب (l'eau dans laquelle on a laissé tremper les raisins secs)

(٥) الأصل : " لم يزل " والتصحيح عن س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١١ب) .

فقال له السلطان — رحمه الله — :

" ها أنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم " .

ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل ، فسلَّ النمْجاه[١] [من وسطه][٢] وضرب بها حَلَ كتفه ، وأتم عليه من حضر من الخدم ، وعجَّل الله بروحه إلى النار ، فسحب وأخرج من الخيمة ، [٢٧٧] فلما رآه الملك، وقد أخرج على تلك الصورة لم يشك أنه يثنى به، فخاف وارتاع ، واستحضره السلطان وطيَّب قلبه ، وقال :

" لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فتجاوز حدَّه ، فجرى عليه ما جرى " .

ثم جمع السلطان الأسارى المعروفين إلى الناصح الغيدى[٣] ليحملهم إلى قلعة دمشق ، فتسلمهم أصحاب الناصح ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفى بن القابض فى دمشق بوصولهم ، ويحتاط عليهم ، [ففعل ذلك][٢]

ذكر فتح قلعة طبريَّة

[٤]وبات الناس[٤] ليلة الأحد لأربع بقين من ربيع الآخر على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله تعالى والتكبير حتى طلع الصبح من يوم الأحد، فتوجه السلطان إلى طبرية، وخيم بها، وراسل التومصية صاحبتها، فأجابت إلى التسليم ، وطلبت الأمان لها ولمن معها ، فأمنوا وسلمت الحصن ، [بما فيه][٢] وخرجت

---

(١) النمجاه — بالهاء — خنجر مقوس يشبه السيف القصير، وهو معرب اللفظ الفارسى "نيمچه" ويقال أيضا : "نمجا" و "نمجه" و "نمشا" "نمشه"، انظر: (Dozy : Supp. Dict. Arab)

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١١ ب) .

(٣) س : " الكندى" . والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) .

(٤) مكان هذين اللفظين فى س (١١ ب) : "وبات السلطان رحمه الله ليلة الأحد هو والعسكر".

بما لها إلى طرابلس — بلد زوجها القومص — ، وذكر أن [١] القومص بعد وصوله عرضت له ذات الجنب ، فكانت بها منيته .

وولى السلطان طبرية لصارم الدين قايماز النجمى ، وكانت طبرية فى عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل بلاد الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان إلى بلد حوران ، فصفت هذه كلها بأخذ طبرية للمسلمين .

ذكر مقتل الداوية والاسبتارية

ثم رأى السلطان أن عينَ المصلحة تطهيرُ الأرض من هذين الجنسين النجسين ، فأمر باحضار كل داوى واسبتارى ليمضى فيهم حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه [٢] بأسير منهما خمسين دينارا ، فأتى فى الحال بمائتين [٣] منهم ، فأمر بضرب رقابهم ، وكان بحضرته جماعة من أهل الدين والفقه والتصوف ، فسأل كل واحد منهم أن يقتل واحدا [٤] ، فأذن فى ذلك ، فكل واحد منهم سلَّ سيفه وقصد أن يقتل منهم قتيلا ، والسلطان جالس والناس بين يديه صفوف ، فمن الجماعة من خارت [٥] قوته ، فامتنع وعُذر ، ومنهم من لم يؤثر ضربه ، فضُحك منه ، وناب غيره منابه ، ومنهم من ظهرت نجابته ، وفرت ضربته .

---

(١) النص فى س : " وذكر القومص بعد وصوله إلى طرابلس عرضت عليه " .

(٢) النص فى س (١٢١) مضطرب وهو : " بجعل كل من يأتى منهما خمسين دينار ، فأبى ذلك " .

(٣) س : " ثلاثمائة " ، وفى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) " مائتين " ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩) أكثر إيضاحا فهو يقول : " فتقدم باحضار كل أسير داوى واسبتارى ليمضى فيه حكم السيف ، ورأى البقيا عليه عين الحيف ، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به وأن يضن بعطبه ، بجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحر خمسين ، فأتوه فى الحال بمئين ، فأمر باعطايهم وضرب رقابهم .. الخ " .

(٤) النص فى س مضطرب وهو : " فسأل كل واحد منهم واحدا من الافرنج " .

(٥) الأصل : " تجارت " وس : " جارت " .

ثم سيَّر السلطانُ الملكَ — إلى دمشق ، وأخاه ، وهنفرى ، وصاحب جبيل ، ومقدم [٢٧٨] الداويَّة ، وجميع الأكابر ، وفرَّق بقية السبي بين الناس ، فتصرفوا فيه ، وبيع فى جميع البلاد الإسلامية .

وكتب السلطان إلى نائبه بدمشق الصفيِّ بن القابض أن يضرب عنق كل من يجد من الداويَّة والاسبتارية ، فامتثل أمره ، وما ضرب عنق أحد منهم حتى عرض عليه الإسلام أولا وامتنعوا ، إلا أحاد منهم أسلموا وحسن إسلامهم[١] .

وحكى العماد الكاتب قال :

" ما زلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم البرنس حتى حدثنى الأمير عبد العزيز بن شدَّاد بن تميم بن المعز[٢] بن باديس الصنهاجى أن القاضى الفاضل حدثه : أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حرَّان[٣] بعد المرضة التى مرضها بالشرق ، وخيف عليه منها ، وهو فى عناء من سقمه ، قال : فقيل له : إن الله تعالى أيقظك ولن يعيذك من السوء سواه ، فانذر لله أنك إذا أبللت من هذا المرض أنك تقوم بكل ما افترضه الله عليك ، ولا تقاتل أحدا من المسلمين ، وتكون فى جهاد [أعداء][٤] الله مجتهدا ، وأنك إذا انتصرت على الكفار

---

(١) س (١٢ ا) : " الإجاعة من الأكابر وهم المقدمين فأسلموا " ، والنص فى المتن يتفق مع الأصل المنقول عنه وهو العماد (الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٠) .

(٢) الأصل : " ابن عبد العزيز " والتصحيح عن س ، والعماد (الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٠) وقد أضاف العماد هناك فقرة للتعريف بابن شداد هذا ، قال : " وهو ذو البيت الكبير والحسب الجليل ، وكان جده صاحب إفريقية والقيدوان ، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان " .

(٣) س : " من دمشق إلى حران " وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق مع الأصل المنقول عنه . أنظر المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين عن العادوس (١٢ ب) .

تتقرب إلى الله تعالى بإراقة دم البرنس والقومص بعد الظفر بهما ، فأعطى[١] يده على هذا النذر ؛ فلما أظفره الله بالا برنس وفى[١] بما عاهد عليه ، وأراق دمه ، وأما القومص فإنه هرب فلاقاه حمامه ، وكفى الله تعالى المسلمين شرهما[٢] ".

ولما فتحت طبرية قال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتى يمدح السلطان — رحمه الله — :

جَلَتْ عَزَمَاتُكَ الفَتْحَ المبينا ... فقد قَرَّتْ عيونُ المؤمنينا[٣]
رَدَدْتَ أخيذَةَ الإسلامِ لما ... غدا صَرْفُ القضاءِ بها ضمينا
فهان بها[٤] الصليبُ ، وكان قُدْماً ... يعزُّ على العوالى[٥] أَنْ يهونا
يقاتلُ[٦] كلُّ ذى ملكٍ رياءً ، ... وأنتَ تقاتلُ الأعداءَ دِينا
غدتْ فى وَجْنَةِ الأيامِ خالاً ، ... وفى جيد العُلى عِقْداً ثمينا
فيا لِلهِ كم سَرَّتْ قلوبا ؟ ... ويا لِلهِ كم أبكتْ عيونا ؟
وما طبريَّةٌ إلا هَدِىٌّ[٧] ... تَرَفَّعُ من أَكُفِّ اللامسينا
[٢٧٩] حَصانُ الذيلِ[٨] لم تُقْذَفْ بسوءٍ ، ... فَسَلْ عنها الليالى والسنينا
فَضَضْتَ خِتامها قَسْراً ، ومن ذا ... يَصُدُّ الليثَ أَنْ يَلِجَ العرينا ؟

---

(١) الأصل : " فأعطا " و " وفا " .

(٢) س (١٢ب) : " شرهم " .

(٣) فى (ديوان ابن الساعاتى ، ج٢ ، ص٤٠٦) : " المسلمينا " .

(٤) الديوان : «وهان بك» .

(٥) س : «العواتى» ، وما هنا يتفق ونص الديوان .

(٦) س : «فقاتل» .

(٧) الأصل : «غذاء» ، وما هنا عن الديوان وس ، والهدى العروس .

(٨) الأصل : «الديك» والتصحيح عن الديوان .

لقد أنكحتها الصُّمّ[١] العوالى ، فكان نتاجُها الحربَ الزَّبونا
هَناكَ ندىّ[٢] أَهلِّ الأرضَ طُرًّا سواك ، ومعقلٌ أعيا القرونا[٣]
قَسَتْ حتى رأتْ كفؤاً فلانَتْ ، وغايةُ كُلِّ قاسٍ أَنْ يلينا
قَضَيْتَ فريضةَ الإسلامِ منها ، وصَـــدَّقْتَ الأمانى والظُّنونا
تَهُزُّ[٤] معاطفَ القُدْسِ ابتهاجا ، وتُرْضى عنك مكّةَ والحجونا
فلو أنَّ الجهـادَ يطيقُ نُطْقاً لنـادَتْكَ : ادخلوها آمنينا
جعلتَ صباحَ آهِلِها[٥] ظلاما ، وأبدلتَ الزئيرَ بهـا أنينـا
تخالُ حمـاةُ حَوْزَتِهـا نِسـاءً يخوضون الحديدَ مُقَنَّعينا
لِبيضكَ فى جماجمهم غِنَـاءٌ لذيذٌ[٦] عَــلَّمَ الطَّــيرَ الحنينا
تميــلُ إلى المثقَّفةِ العــوالى فهل أضحتْ[٧] رماحاً[٨] أم[٩] غصونا
يكاد النقعُ يُذْهِلُهـا ، فلولا بروقُ القاضيات[١٠] لمـا هُدينا
فكم حازتْ قدودُ قَنَاكَ منهـا قدوداً كالقَنَـا لَوْناً ولِينـا

(١) فى الديوان : «صم» .
(٢) الأصل : «منال بذ» والتصحيح عن الديوان و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٤) .
(٣) هذا البيت غير موجود فى س .
(٤) س : «فهز» ، وما هنا يتفق وما فى الديوان .
(٥) الأصل و س : « أهليها » وما هنا عن (الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٠٧) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٥) .
(٦) الأصل و س : «لذيذا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٧) فى الديوان والروضتين : «أمست» .
(٨) س (١٢ ا) «رحاما» .
(٩) الأصل : «أو غضونا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(١٠) الأصل و س : «الماضيات» ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

وغيـــد[1] كالجـآذرِ آنساتٍ كغيـــد نداكَ أبكاراً وعونا
ولمـا باكرتْها[2] منك نُعْمى بنـانٍ تفضحُ الغيثَ الهتونا
أعدتَ[3] بهاالليـالى وهى بيضٌ، وقد كانتْ بهـا الأيامُ جونا
فليس بعـادمٍ مرعًى خصيباً أخو سَغَبٍ،[4] ولا ماءً معينا
فلا عَدِمَ الشـآمُ وسـاكنوه ظُبًى تشفى[5] بهـا الداءَ الدفينا
سُهادُ جفونِهـا فى كل قُبحٍ[6] سهـادٌ يمنح الغمضَ الجفونا
فَأَلْمِمْ بالسواحل فهى صُـورٌ إليك ، وألحقِ الهـامَ المتونا
[٢٨٠] فقلبُ القدسِ مسرورٌ ، ولولا سُـطاكَ ، لكان مكتئباً حزينا
أدرتَ على الفرنج — وقد تلاقت جموعُهم عليك — رحًى طحونا
ففى بَيْسان ذاقوا منك بُؤْساً ، وفى صَفَدٍ لقولك[7] مُصَفَّدينا
لقد جاءتهمُ الأحداثُ جمعاً ، كأنَّ صروفَها كانتْ كمينا
وخانهمُ الزمانُ ولا مَلامٌ ، فلستَ بمبغِضٍ زمناً[8] خؤونا
لقـــد جرَّدتَ عزماً ناصريًّا يحدّثُ عن سناه طورُ سينا
فكنتَ كيوسفَ الصـدّيقِ حقًّا له هَوَتِ الكواكبُ ساجدينا
لقد أتعبتَ مَنْ طلبَ المعالى ، وحاولَ أن يسوسَ المسلمينا
وإن تكُ آخراً[9] — وكذاك خَتْمٌ — ، فإنَّ محمداً فى الآخرينـا

(١) الأصل «وغيدا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٢) س : «ولما كرتها» . (٣) س : «أعيدت» .
(٤) الأصل : «سيف» والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٥) الأصل : «ظبا يشفا» والتصحيح عن المرجعين السابقين .
(٦) الأصل وس : «فتح» وما هنا عن المرجعين السابقين .
(٧) كذا فى الأصل ، وفى الديوان والروضتين وس : «أتوك» .
(٨) س : «ذمن» .
(٩) الأصل وس : «آخر» والتصحيح عن المرجعين السابقين .

ذكر فتح عكا

ثم رحل السلطان إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — وخيّم بقربها وراء التل ، ولما طلع الصبح من يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ركب فى عساكره ، ووقف بازاء التل[1] مصمما على الزحف والقتال ، وبينما هو يرتاد موضعا للنزال إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيَّرهم بين الإقامة والظعن ، فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين ، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حالها ، ودخل المسلمون يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى البلد ، واستولوا على ما فيه من الأموال والذخائر ، واستنقذوا[2] من كان بها من أسرى المسلمين ، وكانوا أربعة [آلاف][3] أنفس .

وحضر القاضى الفاضل كنيستها العظمى ، فرتّب فيها المنبر والقبلة ، وأقيمت الجمعة ، وهى أول جمعة أقيمت فى الساحل بعد يوم الكسرة ، وسلّم السلطان البلد إلى ولده الملك الأفضل نور الدين ، وأعطى جميع ما فيه مما كان للداوية[4] من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارى .

---

(١) س (١٣ ب) : «البلد» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من س .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٣ ب) و (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٦٤) .

(٤) س : «للداوية والاسبتارية» وما بالمتن هو الصحيح فهو يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٣) .

ذكر فتح مَجْدَلِيَابَة[1]

[٢٨١] وأقام السلطان مخيما على التل بباب عكا ، وكتب إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بما فتح الله تعالى على يديه ، ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة الديار المصرية فيمن بقي عنده من العساكر في محاصرة ما يليه منها ، فسار إلى حصن مَجْدَلِيَابَة ، فحصره وفتحه وغنم ما فيه ، وورد كتابُه بذلك إلى السلطان ، فكان فتحا عظيما .

ذكر فتح عدة حصون حول عكا

وفى مدة مقام السلطان بعكا فرّق عسكره إلى الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا ، والشقيف ، والفولة ، والطور ، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا ، فملكوها ونهبوا ما فيها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا من ذلك بما سد الفضاء ، وسيَّر السلطانُ ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور ، وسيَّر ابن اخته[2] حسام الدين بن لاجين إلى نابلس .

ذكر فتح نابلس

فأتى حسام الدين سبسطية ، وفيها قبر زكريا — عليه السلام — ، فأخذها من أيدى الكفار ، ووصل إلى نابلس ، فدخلها وحصر قلعتها ، واستنزل من بها

(١) الأصل : « مجدل يافا » وفى س و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٠٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧) : « مجدل يابا » ، وقد رسمت كما بالمتن وضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قرية قرب الرملة بها حصن محكم .

(٢) الأصل : « أخيه » والتصحيح عن س (١٤٤ أ) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٨) .

بالأمان ، وتسلمَّ القلعة ، وأقام أهلُ البلد — وكانوا مسلمين — تحت الذمة ، فأقرّهم على أموالهم وأملاكهم .

وكتب السلطان فى تلك الأيام إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله — أمير المؤمنين — كتابا بالإنشاء العادى ، أوله :

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بعدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يرِثُها عِبَادِى الصَّالِحُونَ(١) ، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبلُ ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهوّن الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى ، فالأولى فى عصر النبي والصحابة ، والأخرى هذه التى عتق بها من ذل الكآبة ، وهو قد أصبح حُرًّا ريّان الكبد الحرّا ، والزمان كهيئته استدار ، والكفر قد رُدّ ما كان عنده من المستعار ، فالحمد لله الذى أعاد الإسلام جديدا ثوبُه ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله .

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر [٢٨٢] الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثمّ رأيت البلادَ على عروشها خاوية(٢) ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية :

فيوم الخميس الأول فتحت طبرية .

(١) الآية ١٠٥ (ك) ، السورة ٢١ (الأنبياء) .

(٢) الأصل : «خالية» والتصحيح عن س (١٤ ب) و العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التى ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه ، أخذ القرى وهى ظالمة .

وفى يوم الخميس الثانى سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت أعلام الإيمان، وهى أم البلاد ، وأخت إرم ذات العماد .

وقد أصدر هـــذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الإقدام ، وأنصار الصليب وكباره[١] وكل من العمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة[٢] الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها .

وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر[٣] ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر .

فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا[٤] .

وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم ، وقطعتهم سيوف نار الجحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقتل الابرنس كافر الكفار، ونشيدة[٥] النار من يده فى الإسلام كما كانت يد الكليم .

---

(١) س : «وكهاره» ، وما بالمتن يتفق ونص العماد .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٣) الأصل و س : «الخطبا والمنابر» وما هنا عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٤) س : «ثلاثين ألف فارس» .

(٥) الأصل : «ونشده» والتصحيح عن العماد ، أما س (١٤ ب) فإن النص فيها : «وصار إلى العذاب المقيم فى النار» .

والمعاقل التى فتحت :

طبريّة ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية، [٢٨٣] ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفولة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة .

الملك المظفر تقى الدين — ظفره الله — مضايق لصور و[١]حصن تبنين[١] ،

والأخ الملك العادل سيف الدين — نصره الله — قد كوتب بالوصول فيمن عنده من العساكر ، وينزل فى طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الأسطول المنصور إلى عكا .

وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه ، ولقد دام عليه ليل الظلام ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه " .

ذكر فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل

قد ذكرنا منازلة[٢] الملك المظفر تقى الدين عمر بتبنين ، ولما ضايقها ولم يمكنه فتحها كتب إلى عمه السلطان يستدعيه ليتولاها بنفسه ، فرحل السلطان من عكا ثامن جمادى الأولى من هذه السنة ، ووصل إليها فى حادى عشره ، فحصرها وضايقها وزحف إليها وهى قلعة منيعة على رأس جبل ، فلما اشتد عليهم الحصر راسلوا السلطان يطلبون منه الأمان[٣] ، واستمهلوه خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأمهلوا[٤]، وبذلوا رهائن من مقدميهم ، وتقربوا بإطلاق الأسارى من المسلمين

(١) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٢) س : «السلطان الملك المظفر» وهذا خطأ .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س (١١٥ أ) : «فأجابهم إلى ذلك على قاعدة بينه و بينهم» .

(٤) س : «فأنزلوا» .

وهم يزيدون على مائة(١) رجل، فكساهم السلطان وسيرهم إلى أهلهم ، ولما أخلى الفرنج البلد سيرهم السلطان إلى مأمنهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فأوصلوهم إلى صور ، وتسلمها السلطان يوم الأحد لاثنتى عشرة [ليلة](٢) بقيت من جمادى الأولى ، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن [ففعلوا ذلك](٢)

ولما فرغ من تبنين سار إلى صيدا ، واجتاز فى طريقه بصرفند ، فأخذها بغير قتال ، ثم سار إلى صيدا ، فلما علم صاحبها مسيره إليها ، سار عنها وتركها فارغة من غير ممانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها إلى السلطان ، وطلعت أعلامه الصفر(٣) على سورها(٤) ، وكان تسلمه لها لتسع بقين من جمادى الأولى .

ثم سار السلطان إلى بيروت ، فوصلها من الغد ، فضايقها وحاصرها ثمانية أيام ، ثم طلبوا الأمان وأمنهم ، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى .

وذكر ابن الأثير :

أن السلطان لما نازلها اغتر أهلها [٢٨٤] بحصانة البلد وقوته ، فمانعوا وقاتلوا ، وزحف المسلمون إليها مرة بعد أخرى ، وبينما الفرنج على السور يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة، وغلبة زائدة ، فأتاهم من خبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهرا وغلبة ، فأرسلوا يسألون ما الخبر،

(١) س : «مائتى» .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (١٥ أ) .

(٣) هذه إشارة قيمة تدل على أن أعلام صلاح الدين كانت صفراء اللون

(٤) بعد هذا اللفظ فى س : «وأعطى لصاحبها جميع ما كان له فيها» .

وإذا ليس له صحة ، وأرادوا تسكين من به ، فلم يمكنهم ذلك لكثرة من اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف راسلوا فى طلب الأمان على أموالهم وأنفسهم ، فأجيبوا [إلى ذلك][1] .

وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم ، فتحدث مع نائب السلطان بدمشق فى تسليم جبيل على شرط إطلاقه ، فعرف السلطان ذلك ، ، فأحضر إليه مقيدا تحت الاستظهار ، والعسكر [2]إذ ذاك على بيروت[2] ، فسلم حصنه ، وأطلق أسرى المسلمين الذين به ، وأطلقه السلطان كما شرط له ، [وتسلمت بيروت بالأمان] [3] فانتظمت هذه البلاد كلها للمسلمين ، وخلص من بها من الأسر .

وذكر عماد الدين الأصفهانى — رحمه الله — :

أنه خلص فى هذه السنة من الأسرى[4] أكثر من عشرين [5] ألف أسير ، ووقع فى الأسر من الكفار مائة ألف أسير .

ذكر خروج المركيس إلى صور

لما انهزم القومص صاحب طرابلس من الوقعة — كما ذكرنا — سار أولا إلى مدينة صور ، وهى من أقوى بلاد الساحل وأشدها حصانة ، فلما ملك

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٥ أ) .

(٢) النص فى س : «وذلك على بيروت» .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١٥ ب) ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٠) : «وتبعها فتح بيروت وتلاها ، فانتظمت هذه البلاد» .

(٤) الأصل : «أسرى الكفر» ولا يستقيم بها المعنى ، فالمقصود أسرى المسلمين ، وقد صحح المتن بعد مراجعة الأصل المنقول عنه وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٥) س : « ثلاثين » وما هنا يتفق ونص العماد .

السلطان تبنين وصيدا و بيروت خاف أن يقصد السلطان صور فيأخذها ، لأنها فارغة ليس فيها من يقاتل ولا يقوى على حفظها ، فسار إلى مدينة طرابلس ، وهلك فيها — كما ذكرنا — ، وكان — كما قيل — : "راح يبغى نجوة من هلاك فهلك" .

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينهم ، داهية خبيثا ، نخرج فى هذه السنة من داخل البحر بمال كثير للزيارة[1] ، ولم يشعر بما جرى على الفرنج ، فأرسى بعكا ، وظن أنها لهم ، فلم ير بها شيئا من عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح[2] ، وضرب الأجراس وغير ذلك ، فأنكر ما رأى من زى أهل البلد ، فوقف ولم يدر ما الخبر ، وكانت الريح قد ركدت ، فأرسل الملك الأفضل نور الدين — وهو صاحب عكا — بعض أصحابه [٢٨٥] فى سفينة يبصر ما هو ومن هو وما يريد ، فأتاه القاصد ، فسأله المركيس عن الأخبار ، فأخبره بكسر الفرنج ، وأخذ عكا وغيرها ، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ، وحكى الأمر على جليته ، فلم يمكنه الحركة لركود الريح ، فأخذ فى المخادعة ، وورد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال ، فأجيب إلى ذلك ، فرده مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه فى المرة الأولى ، وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به ، فبينما هو فى مراجعاته إذ هبت الريح ، فسار نحو صور .

وسير الملك الأفضل الشوانى[3] فى طلبه فلم يدركوه ، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ، لأن السلطان [كان] كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها ، إلا أنهم ليس لهم رأس

---

(١) س : « لزيارة البيت المقدس » .

(٢) الأصل : « الفرنج » والتصحيح عن س و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٥) .

(٣) أنظر ما فات هنا ص ١٣ ، هامش ١

يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم ، وكانوا عازمين على مكاتبة السلطان وطلب الأمان منه ، وتسليم البلد إليه ، فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم ، فردهم عنه ، وقوّى نفوسهم ، وضمن لهم حفظ البلد ، وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره ، فأجابوه إلى ذلك ، وأخذ أيمانهم عليه ، فأقام عندهم ودبر أحوالهم ، وشرع فى تحصين البلد ، وتجديد حفر الخنادق له ، وبنى الأسوار وحصنها .

ذكر فتح عسقلان وبلادها

ولما فرغ السلطان من صيدا سار إلى عسقلان ، وكانت عنده أهم من غيرها ، [١] لأنها على طريق الديار المصرية ، فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل[١] ، فتسلم قبلها فى طريقه الرملة ، وتبنين ، وبيت لحم ، والخليل ، واجتمع بأخيه الملك العادل سيف الدين ومن معه من العساكر المصرية ، ونازل عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخر من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة — .

وكان السلطان قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداويّة إليه من دمشق ، وقال لهما : " إن سلمتما البلاد إلىّ فلكما الأمان " ؛ فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرونهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما ، وردوا عليهما أقبح رد ، وجبهوهما [٢٨٦] بما يسوءهما ، فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ، ونصب المنجنيقات عليها ، وزحف مرة بعد أخرى ، وتقدم النقابون إلى السور ، فنالوا من باشورته[٢] شيئا .

---

(١) هذه الجملة غير موجودة فى س .

(٢) أنظر ما فات هنا ص ٨١ ، هامش ١

هذا وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ، ويشير عليهم، ويعدهم أنه إذا أطلق أضرم البلاد على المسلمين نارا ، واستنجد بالفرنج من البحر ، وأجلب الخيل والرجل عليهم من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها ، وهم لا يجيبون إلى مايقول ، ولايسمعون مايشير به ، ولما رأوا أنهم لايزدادون كل يوم إلا ضعفا ووهنا ، وإذا قتل الرجل لايجدون له عوضا ، ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا ملكهم المأسور فى تسليم البلد على شروط اقترحوها ، فأجابهم السلطان إليها ، وكانوا قتلوا فى الحصار الأمير حسام الدين إبراهيم بن حسين المهرانى ، فخافوا عند مفارقة البلد أن تقتلهم عشيرته ، فاحتاطوا فيما شرطوا لأنفسهم ، فأجيبوا إلى ذلك جميعه ، وسلموا البلد فى سلخ جمادى الآخرة ، وكانت مدة مقام الحصار أربعة عشر يوما ، وسيرهم السلطان ونساءهم وأولادهم إلى البيت المقدس .

ذكر فتح غزة وما معها من الحصون

وما برح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم حصون الداويّة ، وهى : غزة والنطرون ، وبيت جبريل .

وكانت مدة مقام عسقلان بيد الفرنج خمسا وثلاثين سنة فإن الفرنج ملكوها من المصريين لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ووصل إلى السلطان وهو نازل بظاهر عسقلان ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان ، فقرت عينه به .

وكان السلطان قد استدعى من مصر الأساطيل المنصورة .

وقال العماد :

"فجاءت كالفتح بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا ، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها ، والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها ، وضرغام غايتها وهمامها ، فطفق يكسر ويكسب ، ويسل ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له فى جزاير البحر على مذاهبه" .

[٢٧٣] ذكر فتح بيت المقدس

وحين خلا سر السلطان من فتح عسقلان وماحولها، ووصل الأسطول ، سارَ متوجها إلى البيت المقدس وبه البترك المعظم [١] ، وهو عندهم أعظم شأنا من ملكهم ، وبه أيضا بَلْيان [٢] بن بارزان — صاحب الرملة — ، ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك ، وبه أيضا من خاص من فرسانهم من حطين [وغيرها] [٣] وقد جمعوا وحشدوا ، واجتمع أهل عسقلان ونواحيها إليهم [وهم] [٣] يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم البيت المقدس ، إذ هو بيت معبودهم ، ومحل تجسد [٤] ناسوتهم ، — كما زعموا — بلاهوتهم ، وفيه قمامة التى يدعونها القيامة ، ومحل ضلالتهم ، وقبلة جهالتهم ، وفيها زعموا أن المسيح [عليه السلام] [٣] دفن بعد الصلب ، وقام بعد ثلاث [٥]

(١) الأصل : « الأعظم » والتصحيح عن س (١٧ ب) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠٦) وهو المرجع المنقول عنه هنا .

(٢) هو بليان الثانى الإبلنى (Balain II of Ibelin) والاسم فى ابن الأثير : « باليان بن بيرزان »

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) فى س (١٧ ب) : « ذلك » .

من القبر ، وصعد إلى السماء ، فهم يعتقدون أن بذل الأنفس والأموال والأولاد بعض مايجب عليهم فى حفظه والذبّ عنه ، فحصنوه فى تلك الأيام بكل ممكن ، ونصبوا المنجنيق على السور ليمنعوا ممن يريد النزول عليه والدنو منه .

ولما قرب السلطان منه تقدم الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى فى جماعة من أصحابه ، غير محتاط ولا حذر ، فلقيه جماعة من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا[1] ، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه ، فأهم المسلمين فقده ، وفجعوا بقتله .

وسار السلطان فى عساكر المسلمين حتى نزل على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب ، ونزل بالجانب الغربى ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، لقد تحاذر [كذا] أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة ، بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان .

وبقى السلطان خمسة أيام يطوف حول البلد ، لينظر من أين يقاتله ، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو [باب عمود أو كنيسة صهيون][2] ، فانتقل إلى هذه الناحية يوم الجمعة لعشر بقين من رجب ، ونصب عليها المنجنيقات ، وأصبح العدو وقد فرغ من نصبها ، ورمى بها ؛ ونصب العدو على سور البلد منجنيقات ورموا بها ، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، وكل [٢٨٨] منهم يراه فرضا واجبا فى دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى ، بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون.

وكانت خيالة[3] الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون ، فيقتل من الفريقين جماعة ، فمن استشهد من المسلمين على القدس الأمير

---

(١) راجع مانات هنا ص ٣٨ ، هامش ٣

(٢) الأصل و س : « باب عمودا » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) كذا فى الأصل وفى ابن الأثير ، وفى س : « رجالة » .

عز الدين عيسى بن شهاب الدين بن مالك العقيلى ، الذى كان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم ، وأدخلوهم بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق ، فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه ، وزحف الرماة يرمونهم ، والمجانيق توالى الرمى ، ليكشف العدو عن السور ، ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما نقبوه حشوه [بالأخشاب] (١)

ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكم المنجنيقات فى السور ، وتمكن النقابين من النقب ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا يتشاورون فيما يأتون ويذرون (٢) ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان ، وتسليم القدس للسلطان ، فأرسلوا جماعة من كبرائهم فى طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان ، وامتنع السلطان من إجابتهم للأمان وقال :

" لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه [من المسلمين] (٣) سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى ، وجزاء السيئة بمثلها (٤) " .

فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ، ليحضر عند السلطان فى هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك ، وحضر ورغب فى الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك ، فاستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه فلم يرحمه ، فقال له :

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١١٨) ، والنص فى ابن الأثير : « حشوه بما جرت به العادة » ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤) : « والتصقوا بالسور فنقبوه ، وعلقوه وحشوه وأحرقوه » .

(٢) س : « ويدبرون » .

(٣) ما بين الحاصرتين من س .

(٤) س : « وجزاء السيئة سيئة مثلها » وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٧) وهو الأصل المنقول عنه هنا .

" أيها الملك : اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم[٥] إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه ، كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ، ويرغبون فى الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ، ولا تأسرون رجلا ولا امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك كله أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرهما من المواضع الشريفة ، [٢٨٩] ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة[١] آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم ، وقاتلنا قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت عزاء ونظفر كرا ما[٢] " .

فاستشار السلطان أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، وأن لا يخرجوا ويحملوا على مالا ندرى عاقبة الأمر فيه ، وعن أى شىء ينجلى الأمر ، وقالوا :

" نحسب أنهم أسارى بأيدينا ، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم ".
فأجاب السلطان إلى بذل الأمان للفرنج ، واشترط : أن يزن كل رجل عشرة دنانير ، يستوى فيها الغنى والفقير ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوما نجا ، ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

فبذل الملك باليان بن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك .

---

(٥) س : « لا يعلم عددهم » .

(١) س : « ستة » وما هنا يتفق والأصل المنقول عنه وهو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٠٨) . وأنظر أيضا العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥) .

(٢) س : « ونموت أعزاء كراما ولا نموت أذلاء لئاما » ، والنص هنا يتفق ونص ابن الأثير .

وسلمت المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة —

وكان ذلك اليوم مشهودا ، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، ورتب السلطان على كل باب من أبواب البلد أمينا من الأمراء ، ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا الأمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرقت أيدى [سبا][1] ، ولو أديت فيها الأمانة ، لملأت الخزائن ، فإنه كان فيه ستون ألفا ، ما بين فارس وراجل ، سوى ما يتبعهم من النساء والولدان والأطفال ، وأطلق باليان بن بارزان ثمانية عشر ألف [رجل][2] ، ووزن عنهم ثلاثين ألف دينار ، وبقى بعد هذا كله من لم يكن معه مايعطى وأُخذ أسيرا ستة عشر[3] ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى ، وهذا بالضبط اليقين .

ثم إن كل واحد من الأمراء وأصحاب الأطراف ادعى أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالقدس ، فكان يطلقهم ويأخذ منهم القطيعة ، كمظفر الدين بن زين الدين ، ادعى أن جماعة من أهل الرُّها بالقدس ، وعدتهم ألف نفس ؛ وكذا صاحب البيرة ، ادعى أن فيه جماعة من أهل بلده من الأرمن ، وعدتهم خمسمائة نفس .

وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زىّ الجند [٢٩٠] من المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها ، واستوهب جماعة من السلطان عددا من الفرنج ، فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س وابن الأثير .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) ، والنص فى س : « وأطلق باليان بن بارزان ثلاثة الاف رجل ووزن عنهم ستين ألف دينار » .

(٣) س (١١٩) : « ستة الاف » وما هنا يتفق والأصل المنقول عنه وهو ابن الأثير .

وكان فى القدس بعض نساء ملوك الروم وقد ترهبت وأقامت به ، ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شىء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ولمن معها ، فأمنها وسيرها .

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور [كى][1] وهى ابنة الملك أمارى ، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والخول[2] والجوارى ، فاستأذنت السلطان فى الاجتماع بزوجها ، وكان مقيما فى برج نابلس ، موكلابه ، فأذن لها فى ذلك ، فتوجهت إليه وأقامت عنده [3] .

وأتت أيضا امرأة الابرنس أرناط — صاحب الكرك — الذى قتله السلطان بيده يوم حطِّين ، فشفعت فى ولد لها مأسور ، فقال لها السلطان : "إن سلمت الكرك أطلقته" ؛ فسارت إلى الكرك ، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه ، ولم يسلموه ، فلم يطلق ولدها ، لكنه أطلق مالها ومن يتبعها .

وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ، ومعه من أموال البيع — منها الصخرة والأقصى وقمامة — مالا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له السلطان ، فقيل له : "خذ ما معه لتقوى به المسلمين" فقال : "لا أغدر به" ؛ ولم يأخذ منه غير عشرة[4] دنانير ، وسيَّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س ، والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦) .

(٢) س : « الخيول » وما هنا يتفق والنص المنقول عنه وهو العماد (المرجع السابق) .

(٣) فى س (١٩ ب) بعد هذا اللفظ : « الى أن خلصا جميعا » .

(٤) س : « عشرين دينارا » ، وما هنا يتفق ونص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠٨) .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير [١] من ذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلا القبة ليقتلعوا الصليب ، فحين صعدوا نظر المسلمون إليهم والأفرنج لينظروا ماذا يصنعون ، فلما قلعوه وسقط ، صاح الناس كلهم صوتا واحدا ، من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبّروا فرحا ، وأما الفرنج فصاحوا توجعا وتفجعا ، فسمع الناس صيحة كادت الأرض تميد بهم لعظمها وشدتها ، ولم يتأت صلاة الجمعة يوم الفتح ، وضاق الوقت [٢٩١] لأدائها .

وكان المسجد الأقصى — لا سيما[٢] محرابه — مشغولا بالخنازير والخبث ، وما أحدثوه من الأبنية ؛ فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هُرْى[٣] ومستراح ، وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم ، وبنوا فى وجه المحراب جدارا ، وتركوه هُرْياً للغلة ، وقيل اتخذوه مستراحا عنادا للإسلام وبغيا ، فأمر السلطان بإزالة ما أحدثوه من البنيان ، وكشف الجدار الساتر للمحراب ، وتنظيفه وما حوله من الأقذار والنجاسات ، ونصب المنبر لإقامة الخطبة الإسلامية ، ونقض ما أحدثوه بين [٤] السوارى ، وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبوارى ، وتعليق القناديل وإقامة شعار الدين .

---

(١) هو صليب الصلبوت ، وقد وصفه العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨) بقوله : « وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر وكللوه بالدر والجوهر ... الخ » ، أنظر أيضا ما فات هنا ص ١٨٩ هامش ١

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) الهرى ، والجمع «اهراء» و«هرى» البيت الكبير الضخم تخزن فيه الغلال أو طعام السلطان أنظر : (اللسان) و (المقريزى ، إغاثة الأمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ٢٨) .

(٤) الأصل : « ما أحدثوا من السوارى » وس (١٢٠) : « وخفض ما أحدثوا من السوارى » والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٨) .

ذكر أول خطبة

خطب بها ببيت المقدس بعد الفتح

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف ، فَغُصَّ بالزحام ، فإنه من حين[١] تسامع الناس به فى سائر الأطراف ، وكسر العدو ، والقصد إلى فتح بيت المقدس ، توافى الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل[٢] الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الإحصاء ، فلما أُذِّن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو فى غاية السرور والفرح ، إذ جعله الله تعالى فى هذا الفتح ثانيا لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الفاتح الأول وميَّزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام[٣] .

وامتلأت عراص المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح ، وخشعت الأصوات ، ووجلت القلوب ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة فى هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبته وألَّفوا ما يخطبون به ، ومنهم من عرض للسلطان يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدى سره ، فلما حان وقت الخطبة نصَّ على القاضى محيي الدين بن زكى الدين ،

---

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « أعمال » .

(٣) س : « دون سائر ملوك المسلمين » .

وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقى[1] المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة ، هى :

[٢٩٢] " فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لِلّهِ رَبِّ العَالمين " [2] .

" الحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمين ، الرَّحْمٰنِ الرَّحيم ، مالكِ يومِ الدينِ " [3] .

" الحمد لِلّهِ الذى خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنور[4] ثم الذين كفروا بِرَبِّهم يَعْدِلون " [5] .

" وقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ الذى لم يَتَّخِذْ وَلَداً[4] ولم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ولم يَكُنْ له وَلِىٌّ مِن الذُّلِّ وكَبِّرْهُ تَكْبِيرا " [6] .

" الحمدُ لِلّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتَابَ[4] ولم يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ، ماكِثِين فِيه أَبَدا ، ويُنْذِرَ الذين قالوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً ، ما لهم بِهِ مِن عِلْمٍ ولا لِآبائِهم كَبُرَت كلمةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهم إِنْ يَقُولُونَ إلا كَذِبا " [7] .

---

(١) الأصل وس : « فرقا » .

(٢) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ٤٥ (ك) .

(٣) السورة ١ (الفاتحة) : الآية ٢ (ك) .

(٤) بعد هذا اللفظ فى الأصل : « الآية » أى أن الناسخ لم يشأ أن يتم الآية اختصارا ، وقد أتمها صاحب شفاء القلوب (ص ١٣٥) ، وقد آثرنا نحن ايضا إتمامها هنا .

(٥) السورة ٦ (الأنعام) ، الآية ١ (ك) .

(٦) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١١١ (ك) .

(٧) السورة ١٨ (الكهف) ، الآيات ١ — ٥ (ك) هذا ولم يتم صاحب شفاء القلوب هذه الآيات كذلك وإنما وقف عند لفظ « قيما » ثم قال ، الى قوله « كذبا » فأتممنا الآيات ليكمل النص .

” قُلِ الحَمْدُ لِلهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أمَّا يُشْرِكون[1] “ .

” الحَمْدُ للهِ الذى لَهُ ما فِى السَّمَوَاتِ وما فِى الأَرْضِ وله الحَمْدُ فِى الآخِرةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْها و ما يَنْزِلُ مِنَ السماءِ وما يَعْرُجُ فِيها وهو الرحيمُ الغَفُورُ “ [2] .

” الحمدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمواتِ والأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً “ [3] .

الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه .

---

(١) السورة ٢٧ (النمل) ، الآية ٥٩ (ك) .

(٢) السورة ٣٤ (سبأ) ، الآيتان ١ ، ٢ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ١ (ك) . وهذه الآية لم تذكر فى نص الخطبة فى نسخة س .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الإفك ، الذى أسرى بعبده ليلا[1] من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرّج به منه إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق ، السابق إلى الإيمان ؛ وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ؛ وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ؛ وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ؛ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسّره الله على أيديكم [٢٩٣] من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هـذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه ، بعد أن امتد عليها رواقه[2] واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وإنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل تنزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر[3] ، وهو فى الأرض المقـدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ،

---

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصل .

(٢) س : "امتد عليه رقاقه" وهو خطأ ، وما هنا يتفق ونص الخطبة فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٠) . و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٣٥ ب) .

(٣) س : "المنتشر" . وما هنا يتفق والنص فى المرجعين السابقين .

وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالملائكة المقربين، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى، الذى شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته[1]، فقال تعالى: "لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أن يكونَ عَبْداً لِلهِ"[2] وقال: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بْنُ مَرْيَم"[3].

وهو أول القبلتين، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم فى شرفها مبارٍ[4]، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح[5] العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات[6] الخالدية.

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء، فاقدروا — رحمكم الله — هذه النعمة [٢٩٤]

---

(١) هذه الجملة غير موجودة فى س (١٢١) ولا فى (شفاء القلوب)، ولكنها موجودة فى الروضتين.

(٢) السورة ٤ (النساء)، الآية ١٧٢ (م).

(٣) السورة ٥ (المائدة)، الآية ١٧ (م).

(٤) كذا فى الأصل وفى الروضتين، وفى س والشفاء: "ولا يماريكم فى شرفها ممار".

(٥) كذا فى الأصل وفى الروضتين، وفى س والشفاء، "والفتوحات".

(٦) كذا فى الأصل والروضتين؛ وفى س والشفاء (١٣٦): "والهمات".

حقّ قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فلله النعمة[1] عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيناً[2] الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرسل[3] أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء أكثر[4] من التهانى به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونصَّ عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى : ‹‹سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى››[5]

أليس هو البيت الذى عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عز وجل ؟

أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟

أليس هو البيت الذى أمر الله [تعالى] موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم فى التيه عقوبة العصيان ؟

---

(١) كذا فى الأصل والروضتين ، وفى س والشفاء : ‹‹ المنة ›› .

(٢) الأصل : ‹‹وقرت به أعين الأنبياء والمرسلون›› ، وفى س : ‹‹وقره عين الأنبياء المرسلون›› ، وما هنا صيغة (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١١) ، وهى أصح .

(٣) كذا فى المراجع الثلاثة ، وفى الروضتين : ‹‹ النبوة ›› .

(٤) الأصل وس : ‹‹لأكثر›› والتصحيح عن المرجعين الآخرين .

(٥) السورة ١٧ (الإسراء) ، الآية ١ (ك) .

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم[1] على العالمين ، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد من سوف وحتى

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد[2] ، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو[3] الآن يستغفر[4] لكم أملاك السموات ، ويصلى[4] عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع [٢٩٥] الهوى ، ومواقف[5] الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا أنفسكم عباد الله فى رضاه إذ[6] جعلكم من عباده[7] ، وإياكم أن

---

(١) س وحدها : " وقد فضلتم " ، وهو خطأ .

(٢) كذا فى الأصل والروضتين ، وفى س : " والتمجيد " ، وفى الشفاء (٣٦ ب) : " والتمجيد والتحميد " .

(٣) الأصل : " فهذا الان " ، وفى الروضتين والشفاء : " والآن " وما هنا صيغة س .

(٤) الأصل : " تستغفر " و " تصلى "

(٥) كذا فى الأصل ، وفى س والشفاء : " ومراققة " ، وفى الروضتين : " وموافقة " .

(٦) كذا فى الأصل والروضتين ، وفى س والشفاء : " الذى " .

(٧) كذا فى الأصل والشفاء ؛ وفى س : " من عباده الذين اصطفى " ، وفى الروضتين : " من خير عباده " .

يستذلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل إليكم أن هـــذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم فى موضع الجلاد ، والله ما النصر إلا من عند الله ، [إن الله عزيز حكيم][1] .

واحذروا — عباد الله — بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهادَ الجهادَ ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا[2] فى حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية .

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .

واعلموا — رحمكم الله — أن هـذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا إليها هممـــكم وأبرزوها ، وسيروا[3] إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقـد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال تعالى : "إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ"[4]

(١) الأصل : "من عند الله العزيز الحكيم" ، والتصحيح عن المراجع الثلاثة الأخرى .

(٢) كذا فى الأصل والروضتين ، وفى س (١٢٢) والشفاء : "خذوا" .

(٣) الأصل : "وامروا" والتصحيح عن المراجع الثلاثة الأخرى .

(٤) السورة ٨ (الأنفال) ، الآية ٦٥ (م) .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، "إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ"(١) .

ثم أتم الخطبة الأولى وجلس .

ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة :

[٢٩٦] ثم دعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ثم قال :

"اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك الدافع، والذابّ عن حرمك [وحرم رسولك](٢) المانع ، السيد الأجل(٣) الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس، أبي المظفر يوسف [صلاح الدين] بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عمّ بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس، بعد أن ظنت [به] الظنون، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقواصيها ، وملكه صياصى الكفر

---

(١) السورة ٣ (آل عمران) ، الآية ١٦٠ (م) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٢٢ب) ، والشفاء (ص ١٣٧) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س والشفاء " والكهف الأطل " .

ونواصيهم . فلا تبق منهم كتيبة[1] إلا مزقتها ، ولا جماعة[2] إلا فرقتها ، ولا طائفة بعد طائفة[3] إلا ألحقتها بمن سبقها .

اللهم اشكر عن محمد — صلى الله عليه وسلم — سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها .

اللهم ذلل به معاطس[4] الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابثث سرايا جنوده فى سبيل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما أجريت على يده فى الإسلام[5] هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعوته ودعاءه فى قوله : "رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاه ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ [٢٩٧] فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"[6] .

ثم دعا بما جرت به العادة ، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة .

---

(١) بعد هذا اللفظ فى س والشفاء : "بقوتك" .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س والشفاء "بعزتك" .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س فقط : "بقهرك" .

(٤) بعد هذا اللفظ فى س والشفاء : "آناف" .

(٥) هذا هو نص الأصل والروضتين ، وفى س والشفاء : "وكما أجريت على يديه لأمتك هذه الحسنة التى تبقى على الأيام" وهى جملة مضطربة المعنى .

(٦) السورة ٢٧ (النمل) الآية ١٩ . (ك)

ولما قضيت الصلاة نُصب سرير الوعظ [وتقــدم السلطان صلاح الدين إلى زين الدين الواعظ][1] ، فجلس وذكر الفتح ، وفضائل الأرض المقدسة ، والصخرة وما ورد فيها من الأخبار والآثار ، فجلب بعبارته العبرات ، وشار[2] العسل بمعسول الإشارات .

ثم خطب محيي الدين بالبيت المقدس بعد هــذه الخطبة ثلاث خطب كلها من إنشائه .

ذكر نقل المنبر

الذى أنشأه نور الدين — رحمه الله — إلى البيت المقدس

لما فتح السلطان القدس أمر بعمارة المحراب الغربى[3] القديم وترخيمه ، ووضع منبر رسمى ليقام عليــه الفرض ، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن فائق لائق بذلك المكان ، وكان نور الدين محمود — رحمه الله — قد أنشأ منبرا برسم الأقصى قبل فتح القــدس بنيف وعشرين سنة ، لأنه — رحمه الله — كانت أطماعه متعلقة بفتح القدس ، وأمانيه لم تزل تحدث به ، وكان بحلب رجل نجار يقال له "الأخترينى" من ضيعة تعرف بأخترين ، لم يكن له نظير فى صناعته ، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقـــدس ، فقال له : "اجتهد أن تأتى به على أحسن نعت يمكن ، وأحكمه" ، فجمع الصناع ، وبالغ فى إتقانه وصنعته ، وأتمه فى سنتين ، ثم اتفق أن جامع حلب فى الأيام النورية أحرق واحتيج

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٢٣) يتضح بها المعنى ، وراجع أيضا العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٩) .

(٢) الأصل : "وشاب" والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : "الحزاب العمرى" وما هنا عن س .

إلى منبر ، فنصب ذلك المنبر ، وتولى ذلك النجار عمل محراب حلب مشابها للمنبر فى الرسم ، ومن رأى الآن محراب حلب ، شاهد[١] فيه مثال المنبر المقدسى.

فلما منّ[٢] الله سبحانه على السلطان الملك الناصر بفتح بيت المقدس تقدم بحمل المنبر من حلب ، فحمل ونصب بالمسجد الأقصى ، وهو الآن منصوب .

ثم أمر صلاح الدين فعمل بجامع حلب منبر شبه المحراب والمنبر الذى فى القدس ، فكان كما أراد[٣] .

ذكر ما أزاله السلطان [صلاح الدين]
من آثار الشرك بالبيت المقدس

وكان الفرنج قد بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة، وستروها بالأبنية ، وغيّروا أوضاعها ، وملؤوها بالصور ، وندبوا فى ترخيمها أشباه الخنازير ، ونصبوا عليها مذبحا ، وعينوا بها مواضع للرهبان ، ومحط الإنجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة بأعمدة الرخام؛ فأمر السلطان بمحو تلك الآثار كلها، وأزال عن الصخرة تلك الأبنية ، فأبرزها للعيون ، ولم يكن يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة منها ، وكان الفرنج قد قطعوا [٢٩٨] منها قطعا وحملوا منها إلى قسطنطينية[٤]، ونقلوا منها إلى جزيرة صقلية ، وقيل كانوا يبيعونها بوزنها ذهبا ، وقيل إن بعض ملوكهم تقدم بستر الصخرة إشفاقا عليها من القطع ، فتولى إصلاحها والقيام بأمرها الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى ، وأدار عليها شبابيك من حديد .

(١) الأصل : " شاهد مثال فيه مثال " وقد حذفت مثال الأولى ليستقيم المعنى ، وفى س : " شابهه فيه مثال " .

(٢) الأصل : " منا " والتصحيح عن س (٢٣ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٢٣ ب) .

(٤) الأصل : " قسطنطانية " .

وأحضر الملك المظفر تقى الدين — رحمه الله — [إلى][1] قبة الصخرة أحمالا من ماء الورد وتولى بيده كنس ساحاتها وعراصها ، ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أفاض عليها ماء الورد ، ثم طهّر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم بخرها[2] بمجامر الطيب ، وفرق مالا كثيرا على الفقراء .

وجاء الملك الأفضل — رحمه الله — ببسط نفيسه [3] ، ففرشها فيها .

ورتب السلطان فى الجامع الأقصى من يقوم بوظائف الخطبة والإمامة ، ورتب فى قبة الصخرة إماما حسنا ، ووقف عليها[4] دارا وأرضا وبستانا ، وحمل إليها وإلى المحراب والمسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات منصوبة على الكراسى ، ورتب القومة والمؤذنين ، وجدّد بهما شعار الدين .

ثم عين كنيسة صندحنّه[5] مدرسة للفقهاء الشافعية ، ووقف عليها وقوفا جليلة ، وعيّن دار البطرك[6] رباطا للفقراء .

وكان لأمراء[7] الأفرنج ومقدميهم مقابر مجاورة للصخرة وباب الرحمة [و][8] قباب معمورة فأزالها ومحا آثارها .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة الأصل المنقول عنه هنا باختصار وهو العماد الاصفهانى فى البرق الشامى (الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤) .

(٢) الأصل : " بخربها " ، وقد صححت بعد مراجعة المرجع السابق وس .

(٣) هذا اللفظ ساقط من س .

(٤) الأصل : " عليه " والتصحيح عن س والمرجع السابق .

(٥) الأصل ، " صيد حنه " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤) والمقصود كنيسة " القديسة حنا أو سنت آن " وقد ذكر العماد أن موقع هذه الكنيسة كان عند باب أسباط ، أما نسخة س ، فالنص فيها : " ثم بنى مدرسة جليلة للفقهاء الشافعية " دون أن يشير الى الكنيسة .

(٦) حدد العماد (المرجع السابق) موضع هذه الدار فقال : " وهى بقرب كنيسة قمامة " .

(٧) الأصل : " الأمراء " .

(٨) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العماد ، وذلك ليستقيم المعنى .

وأمر بإغلاق كنيسة قمامة ، وحرم على النصارى زيارتها . وشاور أصحابه فيما يعتمده فى أمرها ، فنهم من أشار بهدمها وتعفية آثارها ، وقالوا : « [إذا][1] هدمت القبة ونبشت المقبرة ، وحرثت[2] أرضها وعفت ، انحسمت[2] عن قصدها مواد أطماع الكفار ، ومهما بقيت كانت الزيارة مستمرة » ؛ وقال أكثر الجماعة : « لا فائدة فى هدمها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والمقبرة لا ما نشاهد من البناء ، فلو نسفت أرضها فى السماء لما انقطع عنها قصد أهل دين النصرانية ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — البيت المقدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدمه » ، فأعرض السلطان عن هدمها ؛ ثم تقرر بعد ذلك على من يدخلها منهم قطيعة يؤديها .

قلتُ : ولهم فى هذا المكان ضلالة تقع فى كل سنة فى اليوم الذى يليه يوم فصحهم ، وهو أنه يزعمون أن نورا يتزل من السماء ، ولقد كذبوا [٢٩٩] وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس من بتركهم ، يغرُّ به ضعفاء العقول ويستدرجهم به إلى ضلالتهم وغيهم[3] ، ولقد حضرتُ فى زمن الصبى يوم سبت النور هذه الكنيسة مرارا على سبيل التفرج ، فكنت أجدهم يعكفون على القبة الصغيرة التى فيها القبر ، والنصارى مجتمعون[4] بها يرفعون صلبانهم ويقرأن إنجيلهم ، ويضجون ، والديوان[5] — الذى للسلمين على باب الكنيسة — والموالى يأخذون من كل رجل القطيعة المقررة ، وذلك فى أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل — رحمهما الله — فإذا كان وقت الظهر أو بعده دخل البترك القبة ، وأخرج شمعة

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العماد ، وذلك ليستقيم المعنى .

(٢) الأصل : " وحرث " و " انحسم " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٥)

(٣) الأصل : " وغيرهم " والتصحيح عن س (٢٤ ب) .

(٤) س : " محيطون " .

(٥) لاحظ أن المؤلف يستعمل هنا لفظ " الديوان " بمعنى الموظف .

موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذى اشتعل بالنور المنزّل [من السماء][1]، فيأتيه النصارى بشمعهم فيقدونه من تلك الشمعة ، فيمتلىء المكان بالشمع الموقدة ، ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار مالا مزيد عليه ، جهلا وضلالة ، وظنا فاسدا أنه نور أنزل عليهم ، وإنما هو نار محرقة افتعلها عدو الله البترك على سبيل المخرقة والإيهام، وهؤلاء القوم دون سائر الطوائف أكثر أمورهم مبنية على ذلك[2] .

ولقد[3] حدثنى القاضى فخر القضاة ابن بُصاقة — رحمه الله — ونحن بالكرك ، وهو من أهل الفضل والمعرفة والتقدم فى الدول ، قال :

«كنت صبيا صغير السن ، وقد حضر البترك الذى كان [مقيما][1] بقمامة عند والدى ، فسمعت والدى يقول له : إن السلطان قد عزم على كشف قضية هذا النور الذى تدعون أنه ينزل عليكم [من السماء][1] ، فقال له البترك : إن النور كان ينزل فى قديم الزمان ثم انقطع ، فنحن اليوم نفعله لإقامة الناموس وحفظا لحرمة دين النصرانية ، وليس من المصلحة أن تتعرضوا لهذا ، وكشف سره ، فإنه يُفَوِّتُ[4] عليكم أموالا جزيلة ، وليس لكم فى بطلان ذلك منفعة» .

قلت[5] : وكان الواجب على ولاة الأمر أن لا يلتفتوا إلى مايحصل من هذا السحت ، وأن يهتكوا ستر هؤلاء القوم فيما يدلسون به على الأمم ، وأن يرفعوا القناع عن هذا التدليس الموقع[6] فى عمايات الضلال الداعية إلى أنواع الكفر والجهالات .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) هذا استطراد من المؤلف له قيمته وأهميته .

(٣) قبل هذا اللفظ فى س (٢٤ ب) : "قال جمال الدين صاحب هذا التاريخ" .

(٤) س : "يروح" .

(٥) مكان هذا اللفظ فى س : "قال القاضى جمال الدين بن واصل المؤلف" .

(٦) هذا اللفظ ساقط من س .

ولما اُفتتح القدس [٣٠٠] مدح السلطانَ — رحمه الله — الشريفُ النسّابة محمد بن أسعد[١] بن على بن معمر الحسينى المعروف بالجوّانى المصرى نقيب الأشراف بالديار المصرية بقصيدة منها :

أَتُرى مناماً ما بعينى أُبْصِرُ ؟ القدسُ يُفتح والفرنجةُ تُكْسَرُ ! !
وقمامةٌ قُمّتْ من الرِجْسِ الذى بزوالِهِ وزوالها يتطهَّرُ
ومليكُهُمْ فى القَيْدِ مصفودٌ ، ولم يُرَ قبلَ ذاك لهُمْ مليكٌ يُؤسَرُ[٢]
قد جاء نصرُ اللهِ والفتحُ الذى وُعِدَ الرسولُ ، فسبِّحوا واستغفروا
فُتِحَ الشامُ وطُهِّرَ القدسُ الذى هو فى القيامةِ للأنامِ المحشرُ
من كان هذا فَتْحُهُ لمحمدٍ ماذا يُقالُ له ، وماذا يُذْكَرُ ؟
يا يوسفُ الصديقُ أنت لِفَتحِها فاروقُها عمرُ الإمامُ الأَطْهَرُ
ولأنتَ عثمانُ الشريعةِ بَعْدَهُ ، ولأنتَ فى نصرِ النبوةِ حَيْدَرُ

---

(١) الأصل : " اسماعيل " ، وهو شرف الدين أبو على محمد بن أسعد بن على بن معمر الجوّانى ، صاحب كتاب " النقط بعجم ما أشكل من الخطط " ولم يظهر للآن ما يثبت وجود هذا الكتاب ، غير أن المؤلفين المتأخرين نقلوا عنه كثيرا ، وخاصة المقريزى فى خططه حيث يقول عنه إنه " نبه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت " ، وقد ولد الشريف سنة ٥٢٥ هـ وتوفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٣١—١١٩٢) وقال (العماد الاصفهانى : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١١٧) إنه كان نقيب مصر فى الأيام المصرية (يقصد الفاطمية) ، والآن فهو ملازم مشتغل بالتصنيف فى علم النسب ، وهو فيه أوحد ، وله فيه تصانيف كثيرة " . أنظر أيضا : (المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٦ — ٧) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، ج ٦ ، ص ١١٩ ، ٢١٨) و (عنان : مصر الإسلامية ، ص ٣٩ ، ٥٥ ، ٨٩) و (الصفدى : فوات الوفيات ، طبعة استانبول ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) و (لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٧٤) و (ابن الأثير : اللباب فى الأنساب) .

(٢) س (١٢٥) : " يرى من قبل ذلك مليك موسر " وهو نص مضطرب .

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد الساعاتى[١] .

أَعيًّا[٢] وقد عاينتم الآيةَ العظمى؟ ... لأيةِ حالٍ تدخر النثرَ والنَّظْما
وقدساغ[٣] فتحُ القدسِ فى كل منطقٍ، ... وشاعَ إلى أن[٤] أسمع الأَسلَ الصُّما
فليتَ فتى الخطَّابِ شاهَـدَ فتحَها ... فيشهدَ أنَّ السيفَ[٥] من يوسفَ أَصْمى
حَبَا مَكَّةَ الحُسْنَى وَثَنَّى بيثربٍ، ... وأسمع[٦] ذيَّاك الضَّريحَ وما ضَمَّا
وما كان إلا الداءَ أَعْيا دواؤه، ... وغيرُ الحسامِ العضبِ لايُحسنُ[٧] الحسما
وأصبح ثغرُ الدينِ[٨] جذلانَ باسماً ... وألسنةُ الأغمادِ توسعهُ لَثْما
سَلوا الساحلَ المخشىَّ عن سطواته، ... فما كان إلا ساحلاً صادقَ[٩] اليَمَّا

وقال القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك[١٠] يمدح السلطان الملك الناصر ويهنئه بالفتوح، ويذكر وقعة حطين، وقتل البرنس، من قصيدة أولها:

لستُ أدرى بأىِّ فتحٍ تُهَنَّا ؟ ... يا مُنِيلَ الإسلامِ ما قد تَمَنَّا

---

(١) أنظر ما فات هنا ٨٣، هامش ٣

(٢) الأصل: "أأعيا" والتصحيح عن (ابن الساعاتى: الديوان، ج ٢، ص ٣٨٥) و(الروضتين، ج ٢، ص ١٠٦) .

(٣) الأصل: "شاع"، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) الأصل: "وقد شاع حتى أسمع" وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٥) كذا فى الأصل والروضتين، وفى الديوان: "السهم" .

(٦) فى الديوان والروضتين: "وأطرب"

(٧) فى الديوان: "لا يعرف" .

(٨) فى الديوان: "وأصبح ذاك الثغر" .

(٩) الأصل: "صادق" وما هنا عن المرجعين السابقين .

(١٠) أنظر ما فات هنا ص ١٢٧، هامش ٣ .

[٣٠١] أَنُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكْتَ(١) شَاماً؟ أم نُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكْتَ عَدْنَا؟
قد ملكتَ الجنانَ قصراً فقصرا، إذ فتحتَ(٢) الشآمَ حِصْناً فحِصْنا

ومنها:

قمتَ فى ظُلْمَةِ الكريهةِ كالبدرِ سناءً، والبدرُ يطلعُ وَهْنَا
لم تَقِفْ قطُّ فى(٣) المعاركِ إلا كنت يا يوسفُ كيوسفَ حُسْنَا
تجتنى النصرَ من ظُبَاكَ(٤) كأنَّ العضبَ قد صحفوه(٥) أَوْ صار غُصْنَا
قصدوا نحوك الأعادى فَرَدَّ اللهُ ما أَمَّلُوهُ عَنْكَ وعَنَّا
حملوا كالجبالِ عِظْماً، ولكن جعلتها حملاتُ خَيْلِكَ عِهْنَا
جمعوا كَيْدَهُمْ وجاءوك أَرْكَاناً، فمن هَدَّ فارِساً هَدَّ رُكْنَا
لم تُلَاقِ الجيوشَ منهم ولكنك لاقيتهمْ جبالاً(٦) وَمُدْنَا
كلُّ من يجعلُ الحديدَ له ثوباً وتاجاً(٧) وطَيْلَسَاناً وَرِدْنَا
خانهم ذلك السلاحُ، فلا الرمحُ تثنى ولا المهندُ ظنا
وتولَّتْ تلك الخيولُ ولم يثنى عليها بأنها ليس تثنى

(١) س: "ملكت"، وما هنا هو الصحيح ويتفق والنص فى (شفاء القلوب، ص ٤١ أ).
(٢) س: "وفتحت" والنص هنا يتفق وشفاء القلوب، ولم يورد صاحب الشفاء من هذه القصيدة غير الأبيات الثلاثة الأولى.
(٣) هذا اللفظ ساقط من س.
(٤) س: "طباعك"
(٥) س: "صفحوه".
(٦) س: "جبالا منك ومدنا".
(٧) هذا اللفظ ساقط من س.

واستحالت شقاشقُ الكفرِ ضغنا حين عادت الشجاعةُ جبنا

وتصيدتهم بحلقةِ صيدٍ يجمع الليثَ والغزالَ الأغنّا

وجرتْ منهم الدماءُ بحارًا ، فجرتْ فوقها الجزائرُ سُفْنا

صنعتَ فيهمْ وليمةَ عُرْسٍ رقّصَ المشرفيُّ فيها وغنّى

وحوى الأسرُ كلَّ مَلْكٍ يظن الدهرَ يفنى ومُلْكُهُ ليس يَفْنَى

والمليكُ العظيمُ فيهم أسيرٌ يتثنى في أدهم يتثنى

يحسبُ النومَ يقظةً، ويظن الشخصَ طودًا، ويبصرُ الشمسَ دجنا

كم تمنّى اللقاءَ حتى رآه ، فتمنى لو أنه ما تمنّا

ظن ظناً ، وكنت أصدقَ في الله يقيناً ، وكان أكذبَ ظنّا

[٣٠٢] رقَّ من رحمةٍ له القيدُ والغل عليه ، فكلما أنّ أنّا

واللعينُ الابرنسُ أصبحَ مذبوحاً بيمين لم يعدمِ الدين يمنا

أنت ذكيته فوفيتَ نذرًا كنت قدمته بجوزيتَ حُسْنَا

وتهادتْ عرائسُ المُدْنِ نحلاً ، وثمارُ الآمال منهن تُجْنَا

لا يخصّ الشامَ مِنكَ التهاني ، كلُّ صقعٍ وكل قُطْرٍ يُهَنَّى

قد ملكتَ البلادَ شرقاً وغرباً ، وحويتَ الآفاقَ سهلاً وحزنا

وتفرّدتَ بالذي هو أسمى ، وتوحّدتَ بالذى هو أسنى

واغتدى الوصفُ في عُلاكَ حسيرا أىُّ لَفظٍ يُقالُ أو أىُّ معنى ؟

ورأينا الالهَ قال أطيعوه سمعنا لربنا وأطعنا

وقال الملك المظفر تقى الدين أبو الفتح عمر بن شاهنشاه بن أيوب — قدس الله روحه — يهنىء عمه السلطان الملك الناصر — رحمه الله — بفتح القدس بقصيدة مطلعها يقول فيها :

دَعْ مُهجةَ المشتاقِ مع أهوائها بالأنمى ما أنت من نصحائها

ومنها :

جاءتك أرضُ القدسِ تطلب ناكحاً ... يا كفؤها ، ما العذرُ من عذرائها

زُفَّتْ إليك عروسُ خِدْرٍ تُجتَلى ... ما بين أعْبُدِها وبين إمائها

إيهٍ صلاحَ الدين ، خُذْها(١) غادةً ... بكراً ، ملوكُ الأرضِ من رقبائها

كم طالبٍ لجمالها قــد ردَّهُ ... عن نَيْلِها أنْ ليس من أكْفَائها

وكان الملك المظفر — رحمه الله — فاضلا متأدبا حسن الشعر ، وكان أخوه عز الدين فرخشاه كذلك .

ومن جملة شعر الملك المظفر — رحمه الله :

يعـاتبني قـومٌ يعِزُّ علـيهمُ ... مسيرى ، ما هذا السُّرى فى السباسبِ

فقلتُ لهم : كُفُّوا ، فما وكَفَتْ لكم ... جفونٌ (٢) ولا ذُقْتُمْ فِراقَ الحبايبِ

ومن شعره :

إنى لأكتُمُ لوْعَتى وأُظِنُّـهُ ... يوم التفرُّقِ بالمدامعِ فَاضِحى

[٣٠٣] لا تجمحوا فى هجرِكُمْ ، فلربما ... خُشِىَ العِثارُ على الحصانِ الجامحِ

ومن شعره :

أأحبابَنا إنَّ الوشاةَ إليـكم ... سَعَتْ ، لا سعت أقدامُ من كان واشيا

يرومون بَتَّ الحبل بينى وبينكم ... فـلا بلغوا ممـا أرادوا الأمانيا

---

(١) س : " ايه صلاح الدين عادت " .

(٢) س : " فـا وكفت جفونى " .

ومن شعره :

كلَّ يومٍ يسمى إلى المُلْك قومٌ ... فى ازدياد وعُمْرُهُمْ فى انتقاص
شِرْكُ هـذه الأمانى ، فيا ... لله كَمْ واقـعٍ بغيرِ خَلاَصِ[1]

ومن شعره :

إنْ كنتَ واحدَ ذا الجمالِ ... فإننى فى الحزن واحـدُهُ
كلٌّ يبـوحُ بحبِّـه ، ... وأنا كتومُ الحبِّ جَاحـدُهُ

ومن شعره يخاطب عمه الملك السلطان الناصر صلاح الدين — رحمه الله تعالى —

أَصَلاَحَ دينِ الله أمرُكَ طاعةٌ ، ... فَمُرُ الزمانَ بما تشاءُ فيفعلا
فكأنما الدنيا ببهجةِ حسنِها ... تجـلا على إذا رأيتُكَ مقبلا

قلت : كان السلطان — رحمه الله — يحب الملك المظفر تقى الدين أكثر من محبته لسائر أهله لما كان خص الملك تقى الدين [به] من الشهامة والنجابة والإقدام العظيم ، الذى لم يكن لأحد مثله من بنى أيوب ، ولفرط طاعته لعمه صلاح الدين وانقياده إليه ، ولأنه كان ألصقهم به قرابة ، لأن والده الملكَ المظفر ركن الدين شاهنشاه — رحمه الله — كان أخا الملك الناصر لأمه وأبيه ؛ والملك العادل ، وتاج الملوك ، وسيف الإسلام ، كانوا أخوته لأبيه فقط .

وقيل ركن الدين شاهنشاه قتل شهيدا على باب دمشق لما حاصرها الفرنج ، ولم يدرك الدولة الأيوبية ، وقد ذكرنا ذلك .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين وإلى ساير ملوك الأطراف يبشرهم بهذا الفتح العظيم ، فمن جملته كتاب فاضلى إلى الديوان العزيز :

---

(١) هنا تنتهى ص ٢٦ ب من نسخة س ، ثم تضطرب الصفحات مرة أخرى وتنقطع الصلة بين النص فيها والنص فى الأصل المعتمد للنشر وهو نسخة (ك) .

" تقلص ظل الكفر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا "

ومنه [٣٠٤] فصل فى وصف نقب السور :

" فأخلى السور من الستارة(١) ، والحربُ من النظّارة ، وأمكن النقّاب أن يُسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدّم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوَله ، وحلّ عُقَده بضربة الإحراق الدالّ على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترقّ لمقتله ، وتبرّأ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخرابُ عليها موثقا فلن تبرح الأرض" .

فصل :

"واستقرت على الأعلا أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامُهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها - وإن كانت صخرة - كما يشفى الماء غللهم ، وملك الإسلامُ خطةً كان عهدُه بها دمنة سكان ، نخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جِنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم .

وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة فيه يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات(٢) للنجوم يتفطرن ، والكواكب منها للطرب ينتثرن ، ورُفعت إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طريقُها مسدودة ، وطُهّرت قبورُ الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٠) : «السيارة»

(٢) الأصل : «السماء» ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

وأقيمت الخمسُ و كان التثليث يقعدها ، وجهرت الألسنة[١] بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين فى وطنه الأشرف من المنبر ، فرحَّبَ به ترحيبَ مَنْ بَرَّ بمن بَرّ[٢] ، وخفق علَماه فى حفافيه[٣] ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه .

وكان الخادمُ لايسعى سعيه إلا لهذه [المنقبة][٤] العظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هى العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنا من الدنيا ، وكانت الألسنة ربما صلقته فانضج قلوبها بالاحتقار[٥] ، وكانت الخواطر ربما غَلَتْ عليه مراجلُها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطر[٦] ، ومن رام صفقة رائجة جاسر[٧] ، ومن سما لأَنْ تُجلى غَمَرةٌ غامر ".

ومنه فصل فى وصف يوم حِطّين :

" وكان [٣٠٥] اليوم مشهودا ، والملائكة شهودا ، وكان الصليب[٨] صارخا وكان الإسلام مولودا ، وأُسر الملكُ و بيده أوثق وثائقه ، وآكَّد وصلته بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهـل الجبروت ، مادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يحرّضهم ، يبسط لهم باعه ، وكان مد اليدين فى هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنه تهافت على ناره فراشهم ، وتجتمع فى ظل ظلامه خشاشهم ،

(١) الأصل : « الأنس » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١).

(٢) صيغة الروضتين : « ترحيب من برّ » فقط .

(٣) الأصل : « علاؤه فى حقاقيته » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن الروضتين .

(٥) النص فى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) : « بالاكتفاء والاقتصار » .

(٦) الأصل : « نخاطر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٧) الأصل : « كان رابح أو خاسر » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٨) النص فى الروضتين : « وكان الضلال » .

ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشدَّ عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا لا تحفر الخيل خندقه[١] ، و[٢] بعد الكسرة مرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغا ، البيضاء صنعا ، الخافقة هى وقلوب أعدائها ، العالية هى وعزائم أوليائها ".

وكتب السلطان إلى أخيه سيف الدين ظهير الدين طُغْتِكين بن أيوب صاحب اليمن يبشره بالفتح بإنشاء عمادى ، من جملتـــه :

"وهو فتح بيت المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه ، وطال فى أسره سجنه ، واستحكم وهنه ، وقوى مكره وضعف ركنه ، وزاد حسنه وزال حزنه ، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه ، وواصله خوفه وفارقه أمنه ، واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد الذى تعالى عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهى[٣] متنه ، ودرج الملوك المتقدمون على تمنى استنقاذه ، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه ، وكان فى الغيب الإلهى أن يعاد إلى معاذه ،[٤] وطيب أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ، وجُليت الصخرة المقدسة جَلْوة العروس ، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح ، وليل فطرها[٥] بالتراويح ".

---

(١) كذا فى الأصل ، والنص فى الروضتين : « سورا تحفر حوافر الخيل خندقه » .

(٢) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١) بين لفظى : « خندقه » و « وبعد » فقرة أسقطها المؤلف ولم ينقلها هنا ، وهى : " ولم يفلت منهم معروف إلا القمص ، وكان لعنه الله جليا يوم الظفر بالقتال ، ومليا يوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، وكان لعدتهم فذالك (كذا) ، وانتقل من ملك الموت الى مالك " .

(٣) الأصل : « وأفرد التثليث فكاد يهى متنه » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٩)

(٤) النص فى الروضتين : « أن معاده فى الآخرة إلى معاذه » .

(٥) الأصل : « وليلها » ، والتصحيح عن الروضتين .

ذكر منازلة السلطان – رحمه الله – صور

ولم يزل السلطان مقيما بالقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة – أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة – يرتب إخوته ، وينظر فى مصالحه ، ويفرق الأموال .

فحكى عماد الدين الأصفهانى ، قال :

"سمعت الملك [٣٠٦] العادل يقول – وقد جرى ذكر إفراط السلطان فى العطاء – : أنا توليت استيفاء قطيعة القدس ، فأنفذت إليه ليلةً سبعين ألف دينار ، فجاءنى رسوله بكرةً وقال : يريد اليوم ما يخرجه فى الإنفاق ، فإن الذى سيّرت إلينا بالأمس قد نفدت ، فنفذت إليه ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال ، فأنفقها " .

ثم وردت على السلطان كتب الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب – وهو نائب السلطان بصيدا وبيروت – يحرضه على حصار صور ، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان متوجها إلى عكا ، وقد سبقه إليها ولده الملك الأفضل نور الدين ، وابن أخيه الملك المظفر تقى الدين ؛ وودع السلطانُ الملكَ العزيزَ عماد الدين عثمان ، وردَّه إلى الديار المصرية ، وكان آخر عهده به .

وترك الملكُ العزيزُ خزانةَ سلاحه بالقدس كُلَّها ، وكانت كثيرة جدا ، وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا خيلهم وعدتهم فتوفر بذلك عدد البلد .

وتوجه معَ السلطان أخوه الملك العادل ، فوصلا إلى عكا مستهل شهر رمضان من السنة ، فأصلح السلطان من شأنها ، ثم رحل منها ونزل على صور يوم الجمعة

تاسع شهر رمضان ، وخيّم بازاء السور ، بعيـــدا منه على النهر ؛ وصور مدينة حصينة ، متوسطة[1] فى البحر ، وكان المركيس — لعنه الله — قد حفر لهـا خندقا من البحر إلى البحر، وبنى السور والبواشير وأحكم أمرها واستظهر بالعُدَد والعَدَد ، واغتنم اشتغال السلطان بفتح البيت المقدس ، فأقام السلطان على تلك الحـال بالمنزلة ثلاثة عشر يوما ، حتى تلاحقت به العسا كر ، وجاءته العدد والآلات ، ورتب المنجنيقات .

ثم حوّل السلطانُ مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منـــه ، ثم أخذ فى محاصرة البلد ، ووكّل كُلّ واحد من الملوك بجانب يكفيه إياه، منهم: الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك المظفر ؛ فحاصروهم وضايقوهم .

ووصل فى تلك الأيام الملك الظاهر غازى — صاحب حلب — بعسكره، فاستظهر السلطان أبوه به ، واستدعى الأصطول[2] المصرى — وكان بعكا — فجاء منه عشرة شوانى[3] ، وكان للفرنج فى البحر مراكب وشوانى، وفيها رماة الجَرْخ[4]

---

(١) الأصل : " معظمها " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩) .

(٢) كذا بالأصل ، راجع ما فات هنا ص ١١ ، هامش ١

(٣) الأصل : " عشره أذراع شوانى " ، واشرح " شوانى " راجع ما فات هنا ص ١٣ ، هامش ١

(٤) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ، هذا وقد عقد (الحسن بن عبد الله : آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص ١٦٠) فصلا فى صفة القسى والنشاب ، أضاف فيه معلومات قيمة عن الشعوب التى تؤثر استعمال الجرخ ، وعن المفاضلة بين الجرخ والقوس العقار، وأين يستعمل كل منهما ، لأن قوس الجرخ يصنع من القرن ، والعقار يصنع من الخشب ، قال : "والمغاربة والفرنج يعانون قسى الجرخ ، وهى أكثر قتها من داخل السور وفى مراكب البحر ، والقسى الجروخ القرن تصلح للقلاع ، والعقاقير جميعها خشب ، ما تصلح إلا فى البحر ، لأن هواء البحر يضر بالقرن ويفسده ، والعقاقير الخشب ما تتغير فيه ، وقليل أن تخطئ سهام الجروخ إذا كان الرامى بها عارفا حاذقا" .

والزنبورك[1] يرمون من دنا من البحر، فلما وصل الأسطول الاسلامى استطال عليها وأبعدها، [٣٠٧] فأحاط بهم المسلمون، وقاتلوهم برا و بحرا، فبينما هم فى استظهار وظفر إذ ملك الفرنج خمسة من شوانى المسلمين، وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربى، ومتوليه بدران الفارسى، فألقى جماعة أنفسهم فى البحر، فمن ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء ميناء صور إلى

(١) الزنبورك: والجمع زنبوركات — قد يعنى نوعا من القسى التى ترمى عنها السهام، وقد تعنى نوعا من السهام ذاتها؛ فمن النصوص التى تؤيد المعنى الأول ما ورد فى: (ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٤) عند حديثه عن فتح صهيون سنة ٥٨٤، إذ يقول: "ودام رشق السهام من قسى اليد، والجرخ، والزنبورك، والزيار"، فهذه جميعا أنواع معروفة من القسى، وذكر الزنبورك بينها دليل على أنه واحد منها؛ وجاء أيضا فى: (العماد: الفتح القسى، ص ١٦٨): "وتوتير الجروخ والزنبوركات، وتطيير الناوكات" فالتوتير لا يكون إلا للقوس، والتطيير لا يكون إلا للسهم، فالناوك — تبعا لهذا — نوع من السهام؛ وجاء أيضا فى: (الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١٤٦): "الروم أهل صنائع وحرف وحكم، وفيهم صبر وخدمة، ولهم حيل فى السياسات ووضع آلات حربية، وحظهم فى الفروسية قليل، ولهم ضرب بالسيف، ورمى بالجرخ والزنبورك...الخ"؛ وفى (الروضتين، ج ٢، ص ١١٩) "مراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات".

ولكن (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) يورد نصا آخر نقلا عن تاريخ بطارقة الاسكندرية يؤيد المعنى الثانى، أى أن الزنبورك يعنى نوعا من السهام، وقال:

" Suivant l'histoire des patriarches d'Alexandrie, Le Zenbouek était une flèche, de l'épaisseur du pouce, de la longueur d'une coudée, qui avait quatre faces; la pointe de la flèche était en fer, et des plumes en rendaient le vol plus sûr. Partout où ce trait tombait, il transperçait; il traversait quelquefois du même coup deux hommes placés l'un derrière l'autre, perçant à la fois la cuirasse et l'habillement du soldat; il allait ensuite se planter en terre; il pénétrait même dans la pierre des murailles. "

وترجمة هذا النص:

"الزنبورك سهم فى سمك الابهام وفى طول الذراع، وله أربع أوجه، وطرفه من الحديد؛ وهو مريش ليكون فى انطلاقه أكثر ثباتا، وحيثما سقط فإنه مؤكد الإصابة؛ وقد اخترق الزنبورك أحيانا — فى رمية واحدة — جسمى رجلين اثنين وقف أحدهما خلف الآخر؛ واخترق فى نفس الوقت درع الجندى وملابسه، ثم نفذ بعد ذلك واستقر فى الأرض؛ وقد يصيب كذلك أحجار الأسوار".

=

السحر، ثم غلبهم النوم ، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم، فودن المسلمون بذلك ووجموا ، وتقدم السلطان إلى المراكب الباقيـة أن تسير إلى بيروت ، وخاف عليها لقلتها أن يستولى عليها العـــدو ، فنجا منها شيني رئيس جبيل ، والباقون نظروا إلى الفرنج ورائهم فألقوا أنفسهم فى المـاء ، وخرجوا إلى [البر] على وجودهم ، فأخذ السلطان الشوانى فنقضها ، وعاد إلى مقابلة صور فى البر ، فكان ذلك الشوانى بجدوى لضيق المجال (كذا) .

ذكر الوقعة على باب صور

ولما وقعت واقعة الأسطول طمعت الفرنج وخرجوا منها يوما بعـد العصر مستعدين للقتال ، فالتقاهم المسلمون ، فكانت الدائرة على الفرنج ، وأسر مقدم كبير لهم، وظُن أنه المركيس ، فسلمه السلطان إلى ولده الملك الظاهر ليحفظه، فضرب عنقه ، ثم دخل الليل وأصبحوا ، وتبين أن المركيس بعدُ فى الحياة .

ذكر رحيل السلطان من صور

ولما طال الحصار على صور ضجر كثير من أمراء المسلمين ، لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيـل لئلا تفنى الرجال وتقل الأموال ، وكان الشتاء قد دخل واشتد البرد ،وكان رأى السلطان وجماعة من أتقياء أمرائه ، كالفقيه ضياء الدين عيسى ، وحسام الدين طمان ،وعزالدين

= ويقول دوزى بعد هذا — نقلا عن كاترمير — أن اللفظ قد يعنى " الزنبور الصغير " ، سمى كذلك للشبه بين الصوت الذى تحدثه تلك الحشرة الصغيرة " الزنبور " وبين الصوت الذى يحدثه وتر القوس عند انطلاق السهم ؛ ثم يردف دوزى بعد هذا قوله إن هذا اللفظ أصبح — منذ اكتشاف الأسلحة الحديدية — يطلق على نوع من المدفع الصغير الذى يحمل على ظهر الجمل : انظر كذلك :

(C. Cahen : *Un Traité d'armurerie composé pour Saladin*. P. 153 — 154).

جورديك النورى إلى الثبات إلى الفتح ، لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال و إنفاق الأموال ، وقال السلطان :

" إن السور قد تهدم ، وقاربت الأمور النجاز، فاصبروا ولا تعجلوا تفاجوا"

فأظهروا الموافقة وفى أنفسهم ما فيها ، ولم يصدقوا القتال ، وتعالوا بكثرة الجراح ، وقلة العلوفات ، فلم يسع السلطان إلا الرحيل فأمر بنقل الأثقال ، فحمل بعضها إلى صيدا و بيروت، وأحرق الباقى لئلا يناله العدو ،[٣٠٨] فرحل فى آخر شوال من السنة ، وهو الموافق أول كانون الأول .

وسار الملك المظفر إلى دمشق على طريق هونين ، واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين .

ذكر وصول السلطان إلى عكا ومقامه بها

ورحل السلطان إلى عكا [فوصلها] فى ثلاث مراحل ، لأنه سلك طريق الناقورة ، وهى طريق ضيقة ، مطلة على البحر لا يعبر منها إلا جَمَلٌ بعد جمل ، فعبرت الأثقال فى أسبوع ، وعيَّن يوم رحيله من صور أمراءَ يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل ، وخيم السلطان عند التل ؛ وسار الملك العادل إلى مصر ، والملك الظاهر إلى حلب ، و بدر الدين دلدرم الياروقى إلى بلاده .

ذكر الكبسة على حصن الكوكب

كان السلطان لما سار إلى عسقلان قد جعل على قلعة كوكب من يحصرها ، ويحفظ البحر والطريق للمجتازين ، لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه ، وقدَّم على الجماعة الأمير سيف الدين محمود أخا جاولى الأسدى ، وسيَّر طائفة أخرى من العسكر إلى قلعة صَفَد فحصروها ، وهى مطلة على مدينة طبرية ، وكانت كوكب للاسبتارية ، وصَفَد للداوية ، وقدَّم على المنازلين بصفد مسعود الصلتى .

وكان سيف الدين محمود شهما شجاعا يرجع إلى دين وعبادة ، فأقام على كوكب إلى آخر شوال، وكان أصحابه يحرسون نُوَباً مرتبة ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم فى الحراسة ، وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر ، وكانت ليلة باردة ذات رعد و برق وريح ومطر ، فلم يشعروا إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ، ووضعوا السلاح فيهم ، فاستشهد سيف الدين وأصحابه ، وأخذ الفرنج ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره ، وعادوا إلى قلعتهم ، فتقووا فى ذلك قوة عظيمة ، وأتى الخبر بذلك إلى السلطان عند رحيله من صور ، فعظم ذلك عليه ، مضافا إلى ما ناله من أخذ الشوانى وما فيها ، ورحيله من صور .

ثم رتَّب على حصار كوكب الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى جماعة من الأجناد .

ذكر فتح هونين

[٣٠٩] كان السلطان لما فتح تبنين امتنعت عليه هونين ، وهى من أحصن القلاع وأمنعها ، فلم ير التعريج عليها ، ولا الاشتغال بمحاصرتها ، بل سيَّر إليها جماعة من الأمراء والعسكر ، فحصروها ، ومنعوا من حمل الميرة إليها ، فلما كان السلطان على محاصرة صور أرسل من بها يطلب الأمان فأمَّنهم ، فسلموا هونين إلى السلطان ، ونزلوا منها ، فأمَّنهم .

وأقام السلطان بظاهر عكا ، ينظر فى أمورها ، ودخلها وسكن قلعتها ، وسكن ولده الملك الأفضل ببرج الداويّة ، وولى عكا عز الدين جُرديك ، ووقف دار الاسبتار نصفين : نصفا على الفقهاء ، ونصفا على الصوفية ، ووقف دار الأسقف بيمارستان ، ووقف على ذلك وقوفا جليلة ، وفوَّض جميع ذلك إلى قاضيها كمال الدين بن الشيخ أبى النجيب .

ذكر قدوم رسل الملك والملوك إلى السلطان بالتهنئة

وورد على السلطان رسل الروم وخراسان والعراق ، وكلهم يهنئ السلطان بما خصه الله تعالى به من فتح بيت المقدس ، الذى درج على حسن تمنيه الملوك ، وتقاصرت عنه أيديهم وهممهم ، ومن جملة الرسل : رسول صاحب العجم ، وهو أتابك مظفر الدين قرا أرسلان بن عثمان بن إيلدكز ، وهو الذى ملك بعد أخيه البهلوان ، وكان فى الظاهر إليه الأتابكية ، واسم السلطنة للسلطان طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وهو آخر من دعى له بالسلطنة ببلاد العجم من السلجوقية .

ذكر ورود رسول الديوان العزيز إلى السلطان بالعتب

كان السلطان لما كسر الفرنج بحطين قد ندب للرسالة إلى الديوان العزيز فى معنى البشارة شابا بغداديا من الأجناد كان قد هاجر إلى الأبواب السلطانية مسترفدا ، وكان ببغداد خاملا كثير الإدبار ، مشمرا فى دروب بغداد ، فتوجه إلى الشام هاربا من الفقر والفاقة وكان يعرف بالرشيد البوشنجى .

فلما سيره السلطان فى الرسالة إلى بغداد قامت القيامة بمراسلته ، وأنكر ذلك على السلطان غاية الإنكار ، وحقروا الرسول وما وقروه ، ونظروه بالعين التى يعرفونه بها ، وحبوه بحباء قليل يليق به ، فتمسح المذكور [٣١٠] فى الكلام ، وصدرت منه أمور قبيحة لا تليق ، فأنهى إلى المقام النبوى شيئا من مقالاته الردية ، وجهالاته ، فاشتد العتب بسبب ذلك .

وانضاف إليه أن قوما من أعداء السلطان تطرقوا إلى القول والقدح، وراموا إبعاد السلطان ، و إيغال قلب الخليفة عليه ، فقالوا : إنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضافا للاسم الأشرف الذى هو الإمام الناصر ، وأن مقصوده قلب الدولة والاستبدال بها ، كما فعل بالمصريين فإنه يُدِلُّ بماله من القوة والعساكر وكثرة الممالك ، وقالوا من ذلك ما كثروأحنق الديوان .

وأفضى ذلك إلى أن أرسلوا إلى السلطان تاجَ الدين الأصفهانى — أخا عماد الدين الكاتب — ، وقالوا : إن أخاه مطلع على الأسرار ، وهو منتظم فى سلك الأولياء ، فعوّلوا عليه فى هذه الرسالة ، وردوا معه جواب البشارة ، وقد كتب له تذكرة بموجبات مقاصد العتب والمخاطبة فيها ، وخشنوا فى القول وأغاظوا ، وكان ابن البوشنجى قد عاد شاكيا من الديوان ، ومخبرا بأن أخا العماد واصل بكتب عتب وغضب ولفظ ممض .

ولما قرب تاج الدين من العسكر السلطانى ، وكان بعد نازلا على صور ، تقدم السلطان إلى الملوك والأمراء بتلقيه ، فتلقاه الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك المظفر ، والأمراء على مراتبهم ، ثم ركب السلطان بنفسه وتلقاه ، وبالغ فى إكرامه واحترامه ، وآنسه ، وأراه مواضع الحصار ، ومصارع الفرنج ، ثم نزل وأنزله بالقرب منه ، ثم حضر عنده داخل المجلس له ولأخيه عماد الدين قارئ الرسالة ، وأحضروا التذكرة فقرأها عماد الدين على السلطان ، وكان فيها غلظة وألفاظ مؤلمة ، فقال السلطان :

” إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الألفاظ ، والأسجاع الغلاظ ، وقد أمكن إيداع هذه المعانى فى أرق من هذه الكلمات ، ومعاذ الله أن يحبط عملى فى خدمة الديوان ، وأما ما نسب الأعداء إلىّ فما عرف عنى إلا الاعتراف بالعارفة “ .

ثم ذكر أياديه السابقة فى الفتوحات الإسلامية و إقامة الدعوة العباسية [٣١١] بمصر واليمن و إزالة الأدعياء ، و إبادة الأعداء ، وفتح البيت المقدس .

” وأما النعت الذى أنكر علىّ ، فهذا من عهد الإمام المستضئ بنور الله أمير المؤمنين ، والآن فكل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمى الذى أتشرف [به] وأُعرف ، وما غرضى إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين ، وقطع دابر الكفار “ .

ثم ودّع السلطانُ تاجَ الدين ، وأودعه من المشافهة كلما فى النفس ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ، ومضى ما مضى ، وكان جماعة من الملوك والأمراء قد وبخوا السلطان لما قيل فى حقه ، وأرادوا أن يغضبوه ، كالملك العادل ومظفر الدين بن زين الدين ، فما غضب بل احتمل ، وتلقى ذلك بصدر رحب .

ذكر الفتنة بعرفة بين أصحاب الخليفة والسلطان

ومقتل شمس الدين المقدم

لما فتح السلطان البيت المقدس طلب الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك — المعروف بابن المقدم — إذنا من السلطان فى أن يحج ، ويحرم من القدس ، ويجمع فى سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل إبراهيم عليه السلام وما بالشام من مشاهد الأنبياء وبين زيارة قبر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، فأذن له فى ذلك .

وكان قد اجتمع فى تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من العراق والموصل وبلاد الجزيرة وخلاط وبلاد الروم وغيرها ، ليجمعوا بين زيارة القدس أول فتوحه وبين مكة ، فجعل شمس الدين بن المقدم أميرا عليهم ، وساروا حتى وصلوا عرفات سالمين ووقفوا ، فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا فأمر بضرب كوساته التى هى أمارة الرحيل ، فضربها أصحابه ،

فأرسل إليه أمير الحاج العراق ، وهو محي الدين طاشتكين ينهاه عن الإفاضة من عرفة قبله ، و يأمره بكف أصحابه عن ضرب الكوسات ، فأرسل إليه : " أنه ليس لى معك تعلق ، أنت أمير الحج العراقى ، وأنا أمير الحج الشامى ، وكل منا يفعل مايراه ويختاره " ، وسار ولم يقف ولم يسمع قوله .

فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ، ركب فى أصحابه وأجناده ، ومعهم من غوغاء الحاج العراق و بطاطيهم[1] العالم الكثير ، وقصدوا الحاج الشامى مهوّلين عليهم ، فلما قربوا منهم خرج الأمر [٣١٢] عن الضبط ، وعجزوا عن تلافيه ، فهجم طغاة العراق على حجاج الشام ، وقتلوا منهم جماعة ، ونهبت أموالهم ، وسُبيت[2] جماعة من نسائهم إلا أنهن رُددن عليهم .

وجُرح شمس الدين عدة جراحات ، وكان يكف أصحابه عن القتال ، ولو أذن لهم لا نتصف وزاد ، ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم ، فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خيمته ليمرضه ، وأنزله عنده ، ليستدرك الفائت فى حقه ، وساروا تلك الليلة من عرفة ، فلما كان من الغد توفى شمس الدين بمنًى ، ودفن بمقبرة المعلى .

ورزق الشهادة بعد الجهاد وفتوح بيت المقدس — رحمه الله — .

وارتاع طاشتكين بما اجترمه ، وكيف لم يراقب الله فى الحرم الشريف ، وكيف اعتدى على حجاج بيت الله تعالى وسفك دماءهم بغير حق ، فكتب محضرا

---

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنص عنده (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢١٢) : "من غوغاء الحاج العراق و بطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير" ، و يفهم منه أن لفظ "بطاطى" مرادف لغوغاء وطماعة ؛ وقد جاء فى (القاموس) : "البطيط : العجب ، ورأس الخف بلا ساق ، والداهية" وفى (اللسان) : "البُطُط : الأعاجيب ، والأجواع ، والحمق ؛ والبطيط : رأس الخف ، عراقية".

(٢) الأصل : "وسبا" ، والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

على ما اقترحه ، وألزم أعيان الحجاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ما عَيَّنه ، فكتبوا خطوطهم مكرهين ، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل ونهاه فأبى .

فلما انتهت تلك الحالة إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أنكرها أشد الانكار ونسبها إلى طيش طاشتكين ، فانحط قدره عنده بسبب ذلك ، ثم نكبه بعد سنتين ، وحبسه وأطال سجنه ، ثم عفا عنه بعد مدة ، وولّاه [حرب][1] بلاد خوزستان وخراجها ، وولى إمارة الحج غيره .

ولما بلغ السلطان استشهاد شمس الدين حزن عليه واحتسبه ، وأقرّ ولده الأمير عز الدين مقامه ، وأقرّ عليه إقطاعه .

وأقام السلطان بعكا الى آخر السنة .

ذكر منازلة السلطان حصن كوكب

ولما دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة خرج السلطان من عكا ، ونازل كوكب فى العشر الأوسط من المحرم ، وحاصرها وصابرها أياما ، ولم يتمكن من فتحها لمنعتها وحصانتها ، ورآها تحتاج إلى طول مدة ومصابرة ، فوكل بها صارم الدين قايماز النجمى ، ووكل بصَفَد طغرل الجاندار ، كل واحد منهما فى خمسمائة فارس ، ووجه إلى الكَرَك والشوْبك سعد الدين كمشبه[2] الأسدى ، وكانت هذه الحصون [٣١٣] الأربعة فى غاية الحصانة .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٣) ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل "كشيا" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٤) .

ووصل السلطانَ — وهو بكوكب — رسولُ صاحب آمد قطبُ الدين سكمان ابن نور الدين محمد بن قزل أرسلان الأرتقى ، وكان خائفا من السلطان أن يسترجع آمد ، لأنها من جملة مواهبه — كما سبق — واستوثق بالوصلة بإحدى بنات الملك العادل ، وكان قد وكَّل أخاه السلطان فى ذلك لما سار إلى مصر ، فلما قدم رسولُه تمت الوصلةُ بينهما .

ووصل أيضا اختيار الدين حسن بن غفراس — مدبر دولة الملك قلج أرسلان صاحب الروم — وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والموشى ، وفى يده زنود وخواتيم مرصعة بزينة ثقيلة الجواهر ويواقيت ثمينة ولآلئ نفيسة ، وفى يده عمود من ذهب ، وعدته مجوهرة ، وكان السلطان اذا رآه تبسم تعجبا من قلة عقله ، ويقول : "بهذا سافر لينظر الناس ذهبه وجوهره" .

وكان جماعة من أهل الحزم قد أشاروا على السلطان بتخريب عكا وتعفية آثارها حتى يؤمن عود الكفر إليها ، ويبنى قلعة القيمون ، وكان هذا عين المصلحة ، فكاد يجيب إلى ذلك ، فقيل له : "هذه مدينة كبيرة ، وعماراتها كثيرة ، والمصلحة تبقيتها ، وأن تعمر وتحصن"[٣] ؛ فولى عمارتها وتدبير أمورها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو الذى تولى إدارة السور على مصر والقاهرة ، فاستدعاه من مصر ، وأمره أن يستنيب[١] فى تلك العمارة ، فقدم عليه وهو بكوكب ، ففوض إليه عمارة عكا ، فشرع فى تجديد سورها وتعلية أبراجها ، وكان لما قدم من مصر قدم معه أساتيذ العمل[٢] وأبقاره وآلاته ودوابه .

---

(١) الأصل : "يستنيب" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٥) وهو المنقول عنه هنا .

(٢) الأصل : "أسارى للعمل" ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : "وتحت" ، والتصحيح عن المرجع لسابق .

ذكر مقدم السلطان إلى دمشق

ولما رتّب السلطان الأمور على كركب رحل إلى دمشق مستهل ربيع الأول من هذه السنة — أعنى سنة أربع وثمانين وخمسمائة — وكان طريقه شرقى بحيرة طبرية ، وتجنّب عقبة فِيْق لاستصعاب رقيها . ولما قارب دمشق تلقاه الناس وفرحوا بقدومه ، لأنهم كانو متعطشين إلى رؤيته ، فإنه كانت غيبته عنها هذه الدفعة سنة وشهرين وخمسة أيام ، كسر فيها الكفر ونصر فيها الإسلام ، وفتح بيت المقدس ، وكان دخوله دمشق سادس ربيع الأول .

[٣١٤] ولما استقر بها قراره أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد ، وابتدأ بالجلوس فى دار العدل ، وبحضرته الفقهاء والعلماء وأهل الدين .

وكان قد ولى بدمشق بدر الدين مودودا المعروف بالشحنة — وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه — ثم فوّض إليه ولاية الديوان ، وكان مع الصفى بن القابض ، وكان الصفى قد بنى للسلطان دارا بالقلعة مطلة على الشرفين ، وأنفق عليها أموالا جليلة ، وبالغ فى حسنها ، وظن أنها تقع من السلطان بموقع ، فلما رآها السلطان ما أعارها طرفه ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوب الصفى التى أوجبت عزله عن الديوان ، وقال :

" ما يصنع بالدار مَنْ يتوقع الموت ؟ وما خلق العبد إلا للعبادة والسعى فى تحصيل السعادة الأبدية ، وما جئنا إلى دمشق بنية الإقامة " — رحمه الله وقدس روحه — وكذا فلتكن الملوك .

ولم يكن سعيه إلا فى الجهاد وتحصيل مجد ، ولم يكن يرغب [فيما كان يرغب] غيره من الملوك من الملذات الخسيسة ، لذات البطن والفرج ، ولم يكن من رأيه التوزع والسكون وإضاعة الحزم ، بل الحذر والتشمير والحزم والعزم الصادق فيما يحصل به المجد فى الدنيا ، والحمد فى الأخرى

ذكر رحيل السلطان من دمشق إلى الغزاة

ولما عزم السلطان على الخروج للغزاة بدأ بزيارة القاضى الفاضل، وكان بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى فى بستانه ، فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله ، وكان لا يأتى أمراً إلا من بابه ، وأقام عنده إلى الظهر ثم ودعه ورحل ، وكانت مدة مقامه بدمشق خمسة أيام ، فسلك على عين الجر والدلهمية والبقاع ، وأتى بعلبك، وخيّم بمرج عدّوسه ، ثم رحل على سمت اللبوة .

ثم أتى الدرّاعة ، ووصله الخبر بوصول عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار فى جموعه وجنوده ، ونزوله على بحيرة قدس من عمل حمص، فسار إليه ، واجتمعا ، ونزل السلطان وعماد الدين بالبحيرة ، وعمل عماد الدين على البحيرة للسلطان دعوة، وعمل له السلطان دعوة، واجتمعا فى الركوب والجلوس، وتأكد بينهما التصافى والمودة .

وأرسل السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر — صاحب حماة — ، وولده الملك الظاهر [٣١٥] — صاحب حلب — فأمرهما بأن يجتمعا وينزلا بتيزين[١] قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب ، ففعلا .

وأقام السلطان بالبحيرة إلى آخر ربيع الأول ، ثم رحل فى أول ربيع الآخر ، وخيّم على تل قبالة حصن الأكراد ، وشنّ الغارة على نواحى الحصن ، وصافيتا ، والعزيمة ، وتلك الحصون ، وفتح حصن يحمور ، ولم تزل الإغارات والغنائم وهم فى تلك المنزلة إلى آخر ربيع الآخر .

---

(١) تيزين ، عرفها (ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٢٢) فقال إنها من مضافات أنطاكية من الحصون ، وهى مدينة صغيرة قديمة كان لها سور قد تهدم ، ولم تزل فى أيدى المسلمين إلى أن استولت الفرنج على أنطاكية ، ثم استعادها المسلمون منهم ، وقصبتها الآن "أرتاح" .

ووصل إلى السلطان وهو فى تلك المنزلة قاضى جبلة منصور بن نبيل، وجماعة معه ، فأشار على السلطان بقصد جبلة ، وتكفل له بفتحها ، وفتح اللاذقية ، وتلك الحصون الشمالية والمعاقل ، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية ، وعوّل عليه فيها ، وقال للسلطان :

" إن الاشتغال بطرابلس مع حصانتها ومنعتها يذهب الزمان، والمسلمون بجبلة راغبون فى التسليم ، منتظرون للسلطان أن يخلصهم من الفرنج " .

فأصغى إلى قوله .

ذكر فتح أنطرطوس

ثم سار السلطان من منزلته تلك ذلك اليوم — يوم الجمعة رابع جمادى الأولى — على تعبية لقاء العدو ؛ ورتّب الأطلاب ، وسارت الميمنة ومقدمها عماد الدين زنكى ، والقلب فى الوسط ، والميسرة فى الآخرة ، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين ، والثقل فى وسط العسكر، حتى أتى المنزل ، فبات تلك الليلة فى بلد العدو ، ثم رحل صبيحة السبت ونزل على العزيمة ، فلم يعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد، فوصل إلى انطرطوس ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان عزمه الاجتياز إلى جبلة ، فاستهان بأمرها ، فسير من ردّ الميمنة ، وأمرها بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغنم العسكر جميع ما فيها ، وخرج الناس ومعهم الأسرى والأموال ، وترك الغلمان نصب الخيم ، واشتغلوا بالكسب ، ووفى بقوله — رحمه الله — فإنه كان قد عرض عليه الغدا ، فقال : " نتغدى بانطرطوس إن شاء الله " .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

" فعاد إلى خيمته فرحا مسرورا ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام، وحضر الناس ،وأكلوا على عاداتهم، ورتّب على البرجين الباقيين الحصار، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال [٣١٦] يحاصره حتى أخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان باخراب سور البلد ، وقسّمه على الأمراء .

وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيا بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيّالة فيه ، وخندقُه فيه المـاء ،وفيه چروخ(١) كثيرة تجرح الناس على بعد، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أيسر منه ، واشتد فى خراب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة ، وهى بيعة عظيمة يحجونها من سائر البلاد ، وأمر بوضع النار فى البلد ، وأحرق جميعه ، والأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأقام يخرّب البلد إلى رابع عشر جمادى الأول .

ثم سار يريد جَبَلَة ، فالتقاه ولده الملك الظاهر فى أثناء الطريق ، ومعه العسكر التى كانت بتيزين(٢)، ونزل السلطان على مرقية، وقد أخلاها سكانها ، فخيّم بها ، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسلك، وهناك حصن للاسبتار يقال له المرقب ، مأهول معمور ، ولا طريق إلا تحته .

وكان ملك صقلية لمـا بلغه ما تم على الفرنج بالشام جهّز أسطولا يشتمل على ستين قطعة ، وقدم عليها رجلا يقال له المرغريط ، فوصل وما ضرّ ولا نفع ، فإن فرنج الساحل لم يرفعوا به رأسا ، وضجروا منه ، فإنه كان فى عشرة آلاف رجل ، ويحتاجون إلى ميرة وكلف كثيرة ، فصار إلى مدينة صور ، ثم رجع إلى طرابلس ، وتردد أشهرا فى البحر ، فلما سمع بعبور عسكر المسلمين على الساحل

---

(١) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ ، هامش ٣

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

إلى جبلة جاء بالشوانى، ووضعها على موازاة الطريق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاتى(١) إلى هناك وتصفيفها، وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها، فما زال الأمر كذلك، والرماة ترمى ، والمسلمون سالكون المضيق إلى أن عبرت الأثقال والأحمال، وخلص المسلمون من تلك المشقة، ووصلوا إلى مدينة يقال لها بلنياس ، وقد انجلى عنها أهلها، فخيّم السلطان عليها ، ثم أصبح على الرحيل، فاعترضه نهر عميق ما فيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر، وعليه قنطرة واحدة ، فتنكبها السلطان بالجحفل ، ومضى يمينا إلى الجبل ، وأبعد حتى عبر فوق رأس العين ، وأحاطت العساكر بالنهر من جانبيه ، (٣١٧) وتزاحمت الأثقال على القنطرة ، فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها ، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال إلى بلده ، وهى بليدة من غربى النهر على شاطىء البحر ، وقد أخلاها أهلها .

ذكر فتح جَبَلَة

وأصبح السلطان يوم الجمعة لا ثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى نازلا على جبلة ، وكان قاضيها قد سبق إليها ، واتفق مع من فيها من المسلمين على التسليم ، فما وصل المسلمون إليها إلا وقد رفعت على سورها الأعلام السلطانية،

(١) الجَفْتَا — والجمع جفاتى وجفتيات — عرفها دوزى بالكلمة الفرنسية : (palissade) أى السياج الساتر ، ويبدو أنها كانت نوعا من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو ، أو الذى يستتر وراءه الجنود الرماة أثناء القتال ، وفى المراجع المعاصرة نصوص قد تلقى الضوء على معنى هذا اللفظ ؛ فقد جاء فى (العماد : الفتح القسى ، ص ٥٨) : "فحوّل السلطان إلى قربها له خيمة صغيرة ، وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة ، وصفّ الجفاتى ، فصدف أتيّها الآتى ... الخ" وقال فى ص ٦٠ : "وكان من إحكام العزم ، وإتمام الحزم ، تكميل الآلات وتتميمها ، وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها ، وتقريب الجفاتى والجنويات وتصفيفها" ؛ وقال فى ص ٦١ : "ونظمت الستائر من القضيب ، وصفّت من سور صور بالمكان القريب ، وكمن من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتى قدامها الرماة" .

وتحصّن الفرنج بحصنها ؛ فما زال بهم قاضى جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم منها بشرط أن يأخذ منهم رهنا إلى أن يردوا من أنطاكية رهائن جبلة من المسلمين ، فأخذمنهم جماعة من رؤوسهم ومقدميهم ، فبقوا عنده حتى أعاد الابرنس صاحب أنطاكية الرهائن التى عنده، فحينئذ أطلقوا .

وكان تسلم جبلة يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ، وأقام السلطان عليها إلى الثالث والعشرين منه .

ذكر فتح بكسرائيل

وفى الجبل على سمت طريق حماة حصن حصين يعرف ببكسرائيل ، وكان أهل الحصن استعادوه من الفرنج منذ سنين ، فسلموه إلى السلطان ، ونزلوا مقدمو الجبل إلى خدمته سامعين مطيعين .

ثم سلم السلطان جبلة إلى الأمير سابق الدين [عثمان] بن الداية — صاحب شَيْزَر — ، واحترم قاضى جبلة ، وأحسن إليه وحبس عليه أملاكا ، وصرّفه فى أملاك آبائه ، وحكّمه فى القضاء وفوّضه إليه .

ذكر فتح اللاذقية

ثم رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء لسبع بقين من جمادى الأولى ، فبات بالقرب منها وصبّحها يوم الخميس ، وقد امتنع الفرنج بقلاعها، وهى ثلاث متلاصقات على طول البلد ، فاشتد القتال ، وعظم الزحف إلى آخر النهار ، فتسلم السلطان البلد دون القلاع ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة، فإنه كان بلد التجار، وفرّق بين الناس الليلُ ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا ، وأخذ النقوب من شمال

القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين[1] ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع، واشتد الزحف عليه ، حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور ، وتواصل القتال [٣١٨] حتى صاروا يحاذفون بالحجارة، فحينئذ استغاثوا بالأمان، فاستدعوا بقاضي جبلة ، فدخل إليهم ، وقرّر لهم قاعدة الأيمان ، فأجيبوا إليه ، وعادوا الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب .

ولما كان صبيحة السبت دخل إليهم قاضي جبلة، واستقر الحال معهم على أن يطلقوا بنفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورُفع العلم السلطاني على السور في يوم السبت ؛ فأقام السلطان عليها يوم الأحد سابع عشر من جمادى الأولى .

ومن جملة كتاب كتبه السلطان إلى أخيه سيف الدين طغتكين بن أيوب — صاحب اليمن — :

" وهذه اللاذقية مدينة واسعة ، وخطة جامعة، معاقلها لا ترام ، وأعلاقها لا تستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالا وضياعا وأزينها، وما في البحر مثل ميناها، ولا للمراكب[2] الواردة إليها مثل مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس فعادت بالإسلام دار نعيم " .

وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية ، طلبا[3] لامتناعها ، فلما فتحت وقف السلطان على شاطىء البحر بعساكره ، فطلب مقدم تلك الشواني

(١) النص في (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٦) : « عشرين ذراعا » .

(٢) الأصل : " المراكب " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٣) النص عند العماد (المرجع السابق) : " طمعا في امتناعها " .

أمانا ليصعد ويجتمع به ، فصعد وخدم السلطان ، وعفّر وجهه على الأرض بين يديه ، وقال له :

"أنت سلطان عظيم قد شاع فى الأرض عدلُك ، واشتهر فضلُك وإحسانُك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكت قيادها ، ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا لك عبيدا وأطاعوك ، وإلا جاءك من وراء البحر فى عدد الموج أفواجا فوجا بعد فوج ، وسار إليك ملوك النصرانية من سائر الممالك ، وأمر هؤلاء القوم أهون عليك من غيرهم ، فاعطف عليهم واصفح".

فقال له السلطان :

" قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، وافترضه علينا ، فنحن قائمون فى طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد ، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله تعالى " .

فصلّب الفرنجى على وجهه وعاد إلى مركبه .

ذكر فتح صهيون

ورحل السلطان من اللاذقية (٣١٩) قاصدا صهيون بعد أن سلمها إلى ابن أخيه الملك الظفر تقى الدين ، فنزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليها المناجيق ، وهى قلعة حصينة منيعة شاهقة فى الهواء ، وهى فى طرف جبل ، وخنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد طوله ستون ذراعا ، وهو نقر فى حجر ، ولها ثلاثة أسوار : سوران دون ربَضها ، وسورٌ دون القلة[1] مع سور القلة .

(١) النص عند ابن شداد — وهو المرجع الذى ينقل عنه هنا — "دون القلعة وسور القلعة" ، انظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٩) .

وأنزل السلطان ولده الملك الظاهر على المكان الضيق من الوادى ، فنصب منجنيقا مقابل قرنه من السور ، وكان صائب الحجر ، ولم يزل يضرب بها حتى هدم من السور قطعة عظيمة ، وكان معه جماعة من الرجالة الحلبيين ، وهم فى الشجاعة بالمنزلة المشهورة ، ودام رمى النُشّاب[(١)] والجرخ[(٢)] والزنبورك[(٣)] والزّيار[(٤)] ، فخرج أكثر أهل الحصن وهم يظهرون التجلد .

ولما كان بكرة الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف ، وركب وتقدم ، وتواتر ضرب المنجنيقات ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، فتعلق المسلمون بقرنه من ذلك الجبل ، وقد أغفل الفرنج إحكامها ، فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول ، فقاتلوهم عليه حتى ملكوه ، وملكو بقية أسوار الربض وهجموا .

---

(١) النشاب النبل أو السهام ، واحدته نُشّابة ، والناشبة والنَشّابَة قوم يرمون بالنشاب (اللسان) ، وقد ذكر (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٦٠) أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر ، قال : "وأما النشاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة ، وطوله وقصره على حسب مقادير الرامى ، والمريش المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ، والمثلث المريش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، لكن فيه بطء ، وريش الذنب لا خير فيه ، فإن اضطر إليه فليخلط مع غيره ... الخ" .

(٢) راجع ما فات هنا ص ١٥٠ ، هامش ٣ ؛ ص ٢٤٣ ، هامش ٤

(٣) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٤) الزيار — والجمع زيارات — نوع من القسى الرامية للسهام ، يذكر غالبا مع أنواع القسى الأخرى مثل الجرخ والعقّار ، ولكنه أكبرها وأضخمها ، وقد وصفها (مرضى بن على : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٦) وصفا واضحا دقيقا ، قال : " قسى الزيار ، وهى أشدها رميا ، وأعظمها جرما ، وأنكاها سهما ، ويحتاج إيتارها إلى عدة من الرجال ، وتركيب هيولاها من أصناف من الأخشاب ، وتُنصب على الأبراج وماشا كلها ، ولا يكاد أحد يقف لها " ، أنظر أيضا : (*Dozy : Supp. Dict. Arab*) و (C. Cahen : *Un Traité d' Armurerie . . . etc.* P, 151 — 152) و (العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٦٤) .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد :

” فلقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام ، فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة ، وانضم من كان فى الربض إلى القلعه بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ، ونهب الباقى ، ثم استدار المسلمون حول أسوار القلعة ، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا وطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ، على أن يسلموا بأموالهم وأنفسهم ، وقرر عليهم قطيعة القدس ، فسلمت القلعة .

ثم سلّم السلطان صهيون بجميع أموالها وسائر ما حوته من ذخائر وأموال إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين — صاحب بوقبيس — فأحكم البلد وحصّنه وحفظه .

وكان ناصر الدين له همة عالية ، ومعروف [٣٢٠] كثير وسياسة تامة ، وصدقات كثيرة دارة ، وأوقف وقوفا جليلة ، ولم يزل مشكور السيرة ، مرضى الطريقة ، مقصدا وملاذاً لمن قصده من أهل الفضل والدين إلى أن توفى وهو مالك صهيون ، وتولى بعده ولده مظفر الدين عثمان ، ثم توفى مظفر الدين عثمان ابن منكورس بن خمارتكين ، فملكها بعده ولده سيف الدين محمد ، فلم يزل مالكا لها إلى أن توفى سنة إحدى وسبعين وستمائة(١) ، وولّى بها السلطانُ الملكُ الظاهر ركن الدين نوابه ، فكان مدة ملك آل خمارتكين لها نحو سبع وثمانين سنة .

وكان مظفر الدين عثمان سالكا طريقة والده فى العدل والإحسان ، والصدقة وحسن السيرة ، وكان جده ناصح الدين خمارتكين — رحمه الله — أميرا جليل القدر ، واستشهد بيد الباطنية ، وهو فى خدمة السلطان ، وقد ذكرنا ذلك .

(١) هذا النص يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٧١ هـ .

ذكر فتح عدة حصون

ثم تسلم يوم السبت ثالث جمادى الآخرة قلعة العيد ، ويوم الأحد رابع الشهر قلعة الجماهريين ، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلاطنس ، وندب إلى كل حصن من تسلمه ، وكانت هذه الحصون متعلقة بصهيون .

ذكر فتح الشَّغْر وبكاس

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس ، وهى قلعة حصينة على جانب النهر العاصى المعروف بالارنليط . ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان نزول السلطان على جانب العاصى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة ،وصعد السلطان إلى القلعة وأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها أشد قتال بالمنجنيقات والزحف ، ثم تسلمها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يجاز إليها بجسر ، وهى فى غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليهـا المنجنيقات من الجوانب الأربع ، فطلبوا الأمان ، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ،وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لأجل استئذان من بأنطاكية ، ثم سلمت ، وصعد العلم السلطانى على سورها يوم الجمعة سادس عشر الشهر ، ثم عاد السلطان إلى مخيمه .

ذكر فتح سرمانية

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة [٣٢١] بقيت من جمادى الآخرة سيّر السلطانُ ولدَه الملكَ الظاهرَ — صاحب حلب — إلى قلعة تسمى سرمانية ،فقاتلها قتالا شديدا،وضايقها مضايقة عظيمة،ثم تسلمها يوم الجمعة لسبع بقين من الشهر، بعد قطيعة قررّها وقبضها ، ولما أخرجهم منها هدمها وسواها إلى الأرض .

ومن عجيب الاتفاق أن هـــذه ست قلاع ومدن فتحت فى ست جمع ، وهى علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسـعادة السلطان ، حيث يسّر الفتوح فى اليوم الذى تضاعف فيه الحسنات ، ولم يتفق مثل هذا فى تاريخ ؛ وهى : جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشغر ، وسرمانية .

ثم أنعم السلطان بالشغر وبكاس على الأمير غرس الدين قلج ، وكان هذا قلج قد تسلم كفردبين — وهو معقل حصن الأرمن — ، وكان هذا أميرا جليل القدر، وخلّف أولادا أكابر ثلاثة ، وهم : شمس الدين ، وسيف الدين ، وعماد الدين ؛ وكان شمس الدين أكبرهم ، وله ميل إلى الفضيلة ، وكذلك أخوه .

ثم أخذ منهم الملك الظاهر بعد موت السلطان الحصون ، وأقطعهم أخبازا كثيرة بحلب ، ثم فارق سيف الدين وأخوه عماد الدين حلب ، وذلك بعد وفاة الملك الظاهر ووفاة أخيهما شمس الدين ، وخدما الملك الكامل بن الملك العادل ، ثم تقلبت بهما الأحوال ، فقُتل عماد الدين بالشرق ، وأما سيف الدين فخدم الملك الناصر داوود بن الملك المعظم عيسى ، فأقطعه عجلون ، ثم سلمها بعد ذلك سيف الدين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، وتوفى سيف الدين بدمشق ، وكانت له مشاركة فى علوم وفضيلة وثاقب رأى عند ملوك بنى أيوب .

ذكر فتح حصن برزية

ثم سار السلطان جريدة إلى حصن برزية ، وهو فى غاية المنعة والقوة على سن جبل شاهق يضرب به المثل فى جميع بلاد الفرنج والمسلمين ، تحيط به أودية من سائر جوانبه ، وذَرَعَ علو القلعة فكان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جرد عزمه على حصاره بعد رؤيته ، فاستدعى الثقل ، ونزل تحت جبل الحصن ، ولما كان بكرة يوم الأحد لخمس بقين من جمادى الآخرة صعد السلطان جريدة مع

المقاتلة [٣٢٢] والمنجنيقات[1] وآلات الحصار إلى الجبل ، وأحدق بالقلعة من سائر جوانبها ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلا ونهارا .

ولما كان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من جمادى الآخرة رتّب السلطان العسكر ثلاثة أقسام، ورتّب كل قسم يقاتل شطرا [من النهار ، ثم يستريح و يتسلم القتال الشطر الأخر][2] بحيث لا يفتر القتال أصلا .

وكانت النوبة الأولى لعماد الدين زنكى — صاحب سنجار — فقاتل قتالا شديد حتى استوفى نوبته وكلّ أصحابه .

ثم تسلم النوبةَ الثانيةَ السلطانُ بنفسه وخواصه ، وكان الزمان حرا شديدا ، فاشتد الكرب على الناس ، والسلطان فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وابن أخيه الملك المظفر كذلك ، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا ، فلما رآهم السلطان قد عادوا تقدم اليهم و بيده جُماق[3] فردَّهم ، وصاح فى القسم الثالث وهم ينتظرون نوبتهم، فوثبوا ملبين ، وساعدوا إخوانهم و زحفوا ، فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به .

وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا ، فقاموا حينئذ ، وتناصرت أنصار الله ، واشتد الأمر ، و بلغت القلوب الحناجر، فاشتد تعب الفرنج ونصبهم ، وظهر عجزهم وضعفهم عن حمل السلاح ، وخالطوهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم ، وكانت طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن ، فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك المكان ، فصعدوا إلى الحصن من تلك الجهة ، فلم يمنعهم مانع ، والتقوا مع المسلمين الداخلين والتقوا مع الفرنج ، فملكوا الحصن

(١) راجع (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، هامش ٢) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا ، وهو ابن شداد ، راجع أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣١) ، وهى إضافة ضرورية يستقيم بها المعنى .

(٣) جماق أو جوماق نوع من السلاح يشبه الدبوس ، عرفه (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) بأنه "Une arme semblable à une massue" أى أنه نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس .

عنوة وقهرا ، ودخل الفرنج القلة التى للحصن ، وأحاط بها المسلمون ، وأرادوا نقبها ، وكان الفرنج قد رفعوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة ، وأرجلهم فى القيود والخشب [المثقوب](١) ، فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى الحصن والقلعة كبروا فى سطح القلة ، فظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى سطح القلة ، فألقوا بأيديهم إلى الأسر ، وملكها المسلمون عنوة ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا وسبوا ، وأمست خالية لا ديّار بها ، وألقى المسلمون النار فى بيوتهم فاحترقت ، وولى السلطان حصن برزية للأمير عز الدين إبراهيم بن الأمير شمس الدين بن المقدِّم — وهو صاحب حصن أفامية — و بين الحصنين بحيرة تحجز بينهما .

وكانت زوجة البرنس [٢٢٣] صاحب أنطاكية تهادى السلطان وتناصحه ، وتطالعه على أسرار الفرنج ، وكان السلطان يكرمها لذلك ، ويهدى إليها أنفس الهدايا ، وكانت أختها صاحبة برزية فسبيت يوم الفتح ، فما زال السلطان يطلبها حتى أحضروها ، وأحضروا زوجها ، وابنة له ، وجماعة من أصحابها ، وصهرها ، فأنعم عليهم السلطان بما لهم ، وسيرهم إلى أنطاكية إكراما لامرأة البرنس ، فشكرته على ذلك ، ودامت مودتها له .

ذكر فتح دَرْبَسَاك(٢)

ثم سار السلطان حتى أتى إلى جسر الحديد ، وأقام عليه ثلاثة أيام ، ثم سار إلى دَرْبَسَاك (٢) فنازلها يوم الجمعة ثامن رجب من هذه السنة ، وهى قلعة منيعة من معاقل الداوية ، قريبة من أنطاكية ، ونصب عليها المنجنيقات ، وتابع الرمى بالحجارة ، فهدمت من سورها شيئا يسيرا ، فلم يبال من فيها بذلك ،

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢) ، وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هنا .

(٢) الأصل : "ديربساك" ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٢)

فزحف إليها بعساكره ، وكشف الرجال عن سورها ، وتقدم النقابون فنقبوا برجا وعلقوه، فسقط واتسع المكان لمن يريد أن يدخل من المقاتلة ، واستمروا يومهم ذلك على الزحف من الغد ، وحمى الفرنج موضع النقب بالرجال المقاتلة، ووقف فى الثغرة رجال يحمونها عن من يصعد فيها .

قال القاضى بهاء الدين :

" ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيرُه مقامَه ، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين " واشتد الأمر فطلبوا الأمان ، فأومنوا على أن يخرجوا بثياب أبدانهم ، ويدعوا كل ما فى الحصن من خيل وعدة وأثاث وقماش وذهب وفضة ، واستمهلوا ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية ، فأمهلوا حتى أخرجوا ، وتسلم الحصن يوم الجمعة لثمان بقين من رجب .

ذكر فتح بَغْرَاس

ثم سار السلطان عن دَرْبَساك إلى قلعة بَغْرَاس بعد أن اختلف أصحابه فى حصرها، فنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه ، فقال: "هو حصن، وقلعته منيعة بالقرب من أنطاكية ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر يزكا فى مقابلتها ، وحينئذ يفشل المقاتلون على بَغْرَاص ويتعذر الوصول إليها ، فاستخار السلطان الله تعالى ، وسار إليها ، [٣٢٤] وجعل أكثر العسكر فى مقابلة أنطاكية يزكا يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين خوفا إن غفلوا لقربهم منها (كذا)

وبقى السلطان فى بعض أصحابه يقاتل القلعة ، ونصب عليها المنجنيقات ، فلم تؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها ، فغلب على الظن تعذر فتحها ، وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم، فبينما الناس على هذه الحال وإذا بباب القلعة قد فتح، وخرج منها إنسان يطلب الأمان ليحضر، فأذن له فى الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن فى الحصن حتى يسلموه بما فيه على قاعدة دربساك فأجيبوا إلى ذلك .

وعاد الرسول ، وأخذوا الأعلام السلطانية ، فرفعت على الأسوار ، ونزل من فيها ، وتسلم السلطان القلعة بما فيها من الرجال والسلاح والأموال ، وأمر السلطان بتخريب الحصن فخُرِّب ، وكان فى ذلك مضرة عظيمة على المسلمين ، فإن ابن ليون — صاحب الأرمن — أخرج إليه من ولايته بعد ذلك ، فجدّد عمارته ، وأتقنه ، وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون به على البلاد ، ووقع الضرر بسببه .

وكان فتح بَغْرَاس فى ثانى شعبان .

قال عماد الدين الكاتب :

"وهذان الحصنان دَرْبَسَاك و بَغْرَاس كانا لأنطاكية جناحين ، ولطاغية الكفر سلاحين ، فتم للسلطان فتحُ هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقفانات[1] كثيرة حتى خاص ذلك الإقليم ، وتم[2] الفتح العظيم ، وعادت الكنائسُ مساجد ، والبيعُ معابدَ ، والصوامعُ جوامعَ ، والمذابحُ لعَبَدَةِ الصلبان[3] مصارع ".

ذكر الهدنة مع الأبرنس صاحب أنطاكية

ولما فتح السلطان بَغْرَاس عاد إلى مخيمه الأكبر وأثقاله ، وراسله الابرنس فى طلب الصلح ، فصالحه لشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين — صاحب سنجار — فى طلب الدستور ، واشترط على الابرنس إطلاق جميع أسارى المسلمين

(١) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٣) : "شقفان" ، ولعلها جمع "شقيف" ، وقد قال (ياقوت : معجم البلدان) عند كلامه عن شقيف أرنون : الشقيف كالكهف .

(٢) بهذا اللفظ يتقابل النص هنا مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما فى ص ١٨٣ ؟ .

(٣) الأصل : "السلطان" والتصحيح عن س .

الذين عندهم [وكانوا ألف أسير فأطلقوا][1] ، وكانت مدة الصلح ثمانية أشهر ، أولها [أول] تشرين الأول ، وآخرها آخر أيار ، وودع السلطان عماد الدين — صاحب سنجار — والعساكر [٣٢٥] الشرقية .

ثم سار السلطان إلى حلب ، وقد خرج كل من بها لتلقيه ، مستبشرين بإقباله ونصره ، وصعد إلى قلعتها ، وأقام بها أياما ، ووجد ولده الملك الظاهر قد سار في أهلها أحسن سيرة [ففرح بذلك][1]

ثم سار السلطان إلى معرة النعمان ، وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي ، بدير النقيرة ، وزار قبر عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه —

ثم سار إلى حماة ، فصعد مع صاحبها ابن أخيه الملك المظفر إلى قلعتها ، ومع السلطان أميرُ المدينة النبوية — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — وهو السيد الشريف عز الدين أبو فليتة القاسم بن مهنا ؛ وكان مصاحبا للسلطان في جميع فتوحاته ، وكان السلطان لا يفارقه ، [وكان له فيه اعتقاد عظيم ، لأجل جده ويمن طلعته][2] ، ووجد السلطان ابن أخيه الملك المظفر قد عمَّر قلعة حماة وحصَّنها ، وعمَّر خنادقها ، وكانت ذات تل مسطح ، فأصبحت من القلاع العظام المشهورة ، فسر السلطان لما رأى من حصانتها ، وقام الملك المظفر بوظائف خدمة عمه .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) هذه الجملة واردة بهامش الأصل ، ولا توجد في س .

ذكر قدوم السلطان – رحمه الله – إلى دمشق[١]

ثم رحل السلطان من حماة قاصدا دمشق ، فلم يقم بحمص ، وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ، ووصل إلى دمشق قبل دخول شهر رمضان ، فأقام بها إلى أن دخل شهر رمضان ، فأشير عليه أن يريح عسكره ، فقال رحمه الله : " إن القدر غير مأمون ، والعمر لا يعلم كم بقي منه ، وللفرص أوقات تنتهز ، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ، ولا بد من المبادرة إلى أخذها ، لا سيما صَفَد وكوكب ، فإنهما للداويّة والاسبتارية فى وسط البلاد ، فنخرج ونشتو[٢] عندهما لنفتحهما " .

ذكر فتح الكَرَك والشَّوْبَك

قد ذكرنا أن الأمير سعد الدين كمشبا[٣] الأسدى رتبه السلطان على منازلة الكرك ، فلازم حصاره هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب مقيما بتبنين فى جملة من العسكر ، قد أقامه السلطان هناك عند توجهه إلى البلاد الشمالية ، فراسل الفرنجُ [٣٢٦] الذين بالكرك الملكَ العادل يبذلون تسليم القلعة إليه ، ويطلبون الأمان ، وترددت بينهم فى ذلك رسائل ، وآخر الأمر أنه أجابهم ، وأرسل إلى صهره سعد الدين كمشبا فى المعنى ، فتسلم القلعة ،

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى نسخة س .

(٢) س : " نشتى " .

(٣) رسم هذا الاسم عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٤) : " كشبه " .

وتسلم أيضا ما يقار بها من الحصون ، كالشوبك وهرمز والوعر[١] وسلع ؛ وفرغ القلب من تلك الناحية وأمن من فى ذلك الصقع ، كأهل القدس وغيرهم ، فإنهم كانوا وجلين من مجاورتهم ، مشفقين من شرهم .

وكان هذا الفتح فى أثناء شهر رمضان من هـذه السنة — سنة أربع وثمانين وخمسمائة — ووردت البشرى بذلك إلى السلطان .

ذكر فتح صَفَد[٢]

ثم سار السلطان من دمشق منتصف شهر رمضان إلى قلعة صفد ، فحصرها ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام الرمى إليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام ، وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم الفناء ، لأن عسكر السلطان كان محاصرا لهم قبل ذلك ، فلما رأوا قوة القتال ، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك لقلة الأقوات ، طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها منهم ، وخرجوا إلى صور وكفى الله المسلمين شرها ، فإنها كانت فى وسط البلاد الإسلامية ؛ وكان فتح صفد رابع عشر شهر شوال .

ذكر فتح كوكب

ولما كان السلطان على منازلة صَفَد قال الفرنج الذين بصور :

" إن فتح المسلمون[٣] قلعة صفد لم يبق كوكب ، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد " .

---

(١) الأصل : " والوعيرة " وس : " والوعرة " ، وما هنا عن العماد (المرجع السابق)

(٢) س : " ذكر فتح صفد وكوكب " ، وسيرد هنا بعد سطور فتح كوكب تحت عنوان خاص بهذا الموضوع .

(٣) س : " السلطان " .

فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا فى الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكمنين ، فاتفق أن رجلا من المسلمين الذين كانوا يحاصرون كوكب خرج متصيدا ، فلقى رجلا من تلك النجدة ، فاستغربه بتلك الأرض ، فضربه ليعلمه بحاله وما الذى أقدمه إلى هناك ، فأقرّ بالحال ودلّه على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى صارم الدين قايماز النجمى وهو مقدم ذلك العسكر ، فأعلمه بصورة الحال والفرنجى معه ، فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى قد اختفى فيه الرجال ، فكبسهم وأخذهم ، وتتبعهم فى الشعاب [٣٢٧] والكهوف ، فلم ينفلت منهم أحد ، وكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتارية ، فحملوا إلى السلطان وهو على صفد ، فأحضرهما ليقتلهما ، وكان عادته قتل من ظفر به من هذين البيتين : الداويّة ، والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم[١] ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما :

" ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح ".

وكان — رحمه الله — كثير العفو ، يؤثر فيه الاستعطاف والاعتذار ، فلما سمع كلامه[٢] لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا .

ولما فرغ السلطان من صفد سار إلى كوكب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرّد العسكر ، وأحدق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب العدو ، وبنى له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه ، والنشاب يتجاوزه ، ولا يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة ، والوحول بحيث تمنع [الماشى والراكب][٣] إلا بمشقة عظيمة ، وعانى [السلطان][٣]

---

(١) الأصل : " وعداوتهم " ، والتصحيح عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩) .

(٢) الأصل : " كلامهما " والتصحيح عن س (٧٩ ب) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

شدايد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وجُرح وقُتل خلق كثير .

ولم يزل — رحمه الله — راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها، وكان المقام قد طال عليها ، وفى آخر الأمر زحف إليها دفعات متناوبة فى يوم واحد، فوصل المسلمون إلى باشورة[١] القلعة ، ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن يد واحدة والجروخ[٢] ، فلم يقدر واحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة ، فسقطت ، وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الفرنج ذلك طلبوا الأمان ، فأمنهم ، وتسلم الحصن منتصف ذى القعدة ، فسيَّرهم إلى صور ، فاجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس وغيرهما يستغيثون ويستنجدون ، والأمداد فى كل وقت تأتيهم ، وكان ذلك بتفريط السلطان فى إطلاق كل من يحضره ، حتى عضَّ بنانه أسفا وندما حين جرى على المسلمين ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم ولى السلطان كوكب لصارم الدين قايماز النجمى ، ونزل السلطان إلى المخيَّم بالغور ؛ فرحم الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين وشكر سعيه ، فما كان أشد ذبه وقيامه بنصرة الدين .

ولقد حكى عنه القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

"حضرت مع السلطان حصار صفد ليلة ، وقد [٣٢٨] عيَّن مواضع خمسة مناجيق ، حتى نصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليه يخبرونه ، ويعرفهم كيف يصنعون ، حتى أظلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات ،

(١) انظر ما فات هنا ص ٨١ هامش ١

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١٥٠ هامش ٣ ؛ ص ٢٤٢ ، هامش ٤

ولم يبق إلا تركيب خنازيرها[1] فيها ، فرويت له الخبر المشهور فى الصحاح ، وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله عليه السلام :

" عينان لا تمسهما النار : عين [باتت][2] تحرس فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ".

[فلقد رأيته وقد سر سرورا عظيما][3].

وكتب السلطان إلى الديوان العزيز كتابا بالإنشاء العمادى مبشرا بفتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب ، يقول فيه :

" وقد خلص [لنا][4] جميع مملكة القدس وحدُّها فى سَمْتِ مصر من[5] العريش ، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشَّوْبَك ، ويشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور ، وفتح أيضا جميع أعمال أنطاكية ومعاقلها التى للفرنج والأرمن ، وحدُّه[6] من أقصى أعمال جبلة واللاذقية إلى بلد ابن لاون ، وبقيت أنطاكية بمفردها ، والقصير من حصونها ، ولم يبق من البلاد التى لم تفتح أعمالها ولم تخل عما كانت عليه سوى طرابلس ، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل ، فقد سحبت عليها المهلة الذيل ، ومعاقلها باقية ، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية ، والخادم الآن على التوجه إليها ، وعزم النزول عليها ، وأنه قد رتب الجانب القبلى والبلد المقدسى ، وشحن الثغور من حد

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد ؛ ولعلها « جنازيرها » وقد قال دوزى إن جنزير مأخوذة من « زنجير » الفارسية ، ومعناها السلسلة .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) زيادة موضحة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) ، وفى س : "وقد خلصنا" .

(٥) الأصل : "من سمت مصر إلى العريش" والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧) .

(٦) الأصل : « وهذه » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٧) .

جبيل إلى عسقلان، بالرجال والآلات والعُدَد، والمَدَد المتواصل المدد، ورتّب فيها ولده الأفضل عليّا[1] لحمايتها، وحفظ ولايتها، وقلّد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها، لتهذيب أحوالها وتقويمها».

ولما نزل السلطان إلى الغَوْر ودّعه القاضى الفاضل، وتوجّه إلى مصر، ثم تحوّل السلطان إلى صحراء بيسان، وأقام بها إلى مستهل ذى الحجة.

ذكر ظهور جماعة من الشيعة بمصر

وثار فى هذه السنة فى القاهرة إثنا[2] عشر رجلا من الشيعة ليلا، ونادوا: «يآل على. يآل على»، وسلكوا الدروب ينادون، ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم، ويخرجون معهم، فيعيدون دولة أهل القصر، ويخرجون من هو محبوس منهم، ويملكونه البلد، فلم يلتفت أحد [٣٢٩] من الناس إليهم، ولا أعارهم سمعه، فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين.

وكوتب السلطان بذلك وهو على محاصرة صفد، وكان على بابه جماعة من وفود المصريين[3] فأهمه هذا الأمر وأزعجه، وتبرم بمن على بابه منهم، وقال: "إلى متى نتحمل منهم هذا؟"، وهمّ بطردهم من بابه وردعهم، ودخل عليه القاضى الفاضل فأخبره بذلك، فقال:

"يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد وأنه لم يكن لهم من يمدهم؟ فطب بذلك نفسا[4]، وتحقق زيادة منزلتك عند الله تعالى".

---

(١) الأصل: «عليا»، والتصحيح عن المرجع السابق. (٢) الأصل: "اثنى".

(٣) الذى ذكره العماد (الروضتين، ج ٢، ص ١٣٨) أن الوفد الذى كان بباب السلطان كان يتكون من جماعة من أولاد الوزراء المصريين والأمراء المقدمين.

(٤) بعد هذا اللفظ فى س (٨٥ ب): "وقر عينا" والنص هنا يتفق ونص العماد.

فقال له السلطان :

" [كان الملوك قبلى][1] تخافهم الرعية وتهرب منهم ، وتتوقع سطوتهم ، ورعيتنا[2] قد تكاثروا علينا وأضجرونا وملونا ، وإذا ركبنا ونزلنا تعاورونا بالقصص "[3] .

فقال له القاضى الفاضل :

" أنت أولى الناس بشكر هـذه النعمة ، كان بمصر بالأمس صاحب القصر وأشياعه ، وخدمه وأتباعه ، وأمراؤه وخواصـه ، وما منهم أحد إلا ويرتع الخلق فى رياض إنعامه ؛ وكان بالشام والبلاد الشرقية فى كل بلد والٍ وصاحب ، له على أهله نعم ؛ وفى كل قطر ملك يلوذ أهل ذلك القطر به ، وقد أصبحت اليوم سلطان الجميع ، وقد ردّ الله سبحانه آمال الكل إليك ، وجمع المتفرقين على بابك ، فلا يجدون لهم — بعد الله — إلا جودك وكرمك " .

فأغرورقت عينا السلطان بالدموع ، وشكر الله على إحسانه إليـه ، وآلى على نفسه ألا يرد قاصدا ، ولا يخيب وافدا ، فمثل هـذا فليكن السلطان ، ومثل القاضى الفاضل فليكن الوزير المشير — رحمهما الله وقدّس أرواحهما —

---

(1) ما بين الحاصرتين زيادة عن العماد (المرجع السابق) ، وهى زيادة يقتضيها المعنى والسياق ، والنص فى س : " فقال له صلاح الدين : إن السلطان تخافه الرعية وتهرب منه ... الخ " .

(2) بعد هذا اللفظ فى الأصل : " الذى لنا " وفى س : " بحنا قد تكاثروا " ، والنص هنا مختصر عن العماد .

(3) الأصل : " تعاودنا " ، و س : " يعاودونا " ، وما هنا عن العماد .

ذكر وصول السلطان إلى القدس

وتوجهه بعد ذلك إلى عكا ثم إلى دمشق(١)

ثم رحل السلطان من البلاد الغورية مستهل ذى الحجة من هذه السنة —أعنى سنة أربع وثمانين وخمسمائة — وصحبته أخوه الملك العادل سيف الدين ، فوصل إلى القدس يوم الجمعة ثامن الشهر ، وهو يوم التروية ، وصلى الجمعة فى قبة الصخرة ، وعيّد بها يوم الأحد الأضحى ، ثم سار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر فى أحوالها ؛ وسيّر أخاه الملك العادل إلى الديار المصرية لمعاضدة ولده الملك العزيز [٣٣٠] ومساعدته ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان — وكان وهبها له — .

ثم توجه السلطان إلى عكا ، فما مرّ على بلد إلا قوّى عُدَدَه ، وكثّر عَدَدَه ، ووصل إليها ، وأقام بها إلى أن خرجت السنة .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين —رحمه الله— مقيم بعكا ينظر فى أمورها ومصالحها ، وقد تقدم إلى بهاء الدين قراقوش بإتمام العمارة(٢) ، وولى حسام الدين بشارة الولاية [بها] ، وأقام السلطان بعكا معظم المحرم، ثم سار يريد دمشق، فدخلها فى مستهل صفر من السنة .

وفى ثانى عشر صفر وصل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة رسولا من الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين يأمر بالخطبة لوليده وولى عهده عدة(٣) الدنيا والدين

(١) هذا العنوان غير موجود فى س .

(٢) س : " عمارتها " .

(٣) الأصل : " عمدة " والتصحيح عن س والروضتين .

أبي نصر محمد ، وهو الذى ولى بعده ، ولقب الظاهر بأمر الله ؛ فأمر السلطان بإقامة الخطبة له ، وسير معه رسوله ضياء الدين أبا[1] القسم بن محيي الدين بن الشهرزورى ، وسيرت معه هدايا وتحف ، وأسارى من الفرنج بعددهم وتاج ملكهم الأسير ، والصليب الذى كان فوق الصخرة ، وشئ كثير من الملبوس والطيب .

وسار الرسولان إلى بغـــداد ، ودخلت الأسارى من الفرنج على هيئتها يوم فراغها[2] ، راكبـة حصنها ، فى طوارقها[3] وأدراعها و بيارقها ، وقد نكست

---

(١) الأصل : "أبي" ، وفى س : "ضياء الدين القسم بن يحيي الشهرزورى" . وفى (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ و ١١٤) : "ضياء الدين القاسم أبو الفاضل بن يحيي بن عبد الله الشهرزورى" .

(٢) كذا فى الأصل ، وفى س : "مراعها" بدون نقط ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٩) : "فراغها" ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الطارقة — وتجمع على طوارق أو طارقيات — ، اختلف فى أصلها ، ويرى (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) أنها لا ترجع إلى أصل عربى ، بل هى مأخوذة عن الكلمة اللاتينية "targa" ومنها أخذت الكلمة الإيطالية (tarja) والفرنسية (targe) ، والأصل اللاتينى لها جميعا (tergum) ، ويؤيد دوزى رأيه هذا القائل بأن اللفظة ترجع إلى أصل أوروبى بشواهد كثيرة منقولة عن المراجع العربية المعاصرة للحروب الصليبية ، ومعظم هذه الشواهد يورد لفظ "الطوارق" عند وصفه للصليبين الأوربيين وأسلحتهم ، فقد جاء فى : (العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٦٤) عند وصفه للقتال مع الفرنج قوله : "وهم (أى الفرنج) لمواضعهم ملازمون ... و بالخنادق من البوائق محتمون ، و بالطوارق من الطوارق معتصمون ..." ، و يقول فى ص ٢٤٧ : "فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم" ، وقال فى ص ٢٦٢ : "وتدرع (أى العدو) بأسواره وخنادقه ، وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه ، فلا يخرج منه إلى معاركه" ، وقال فى ص ٢٦٣ : "إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ... الخ" .

أما عن معنى اللفظ فالرأى مختلف ، ولكننا بدراسة هذه النصوص نستطيع أن نقول إن هذا المصطلح كان يطلق على نوعين من السلاح :

الأول : نوع من الترس يحمله الجندى لحماية نفسه أثناء القتال ، أو هو كما عرفه دوزى : "ترس كبير مستطيل يغطى معظم الجزء الأسفل من الجسم Un grand bouclier oblong qui couvrait presque toute la partie inférieure du corps

أعلامها وبنودها ؛ فدفن الصليب[1] تحت عتبة باب النوبى الشريف يتبين منه الشئ القليل ، وكان من نحاس قد طلى بذهب ، فديس بالأرجل ، وبصق الناس عليه .

= ويؤيد هذا المعنى قول العماد فيما سلف : « ووقفوا بقنطار ياتهم وطوارقهم » ، وقول (بهاء الدين ابن شداد : السيرة اليوسفيه ؛ ونقله عنه ابن واصل فيما يلى هنا : « ما وجدت مع واحد منهم (من الفرنج) طارقة ولا رمحا إلا النادر » ؛ وكان فى القاهرة حارة تسمى « حارة الطوارق » أو « حارة صبيان الطوارق » ، قال (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٤) « وهم من جملة طوائف العسكر ، كانوا معدين لحمل الطوارق » . وبهذا المعنى أيضا استعمل اللفظ فى الغرب الإسلامى ، ففى كتاب الحلل مثلا فقرة لابن اليسع يقول فيها أحد الموحدين : « فصنعنا دارة مربعة فى البسط ، جعلنا فيها من جهاتها الأربع صفا من الرجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحرب صفا ثانيا » .

والمعنى الثانى : آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كتراس يختفى الجنودُ الرماح والصخور خلفها ، فهى كما وصفها دوزى :

"Un mantelet, une sorte de machine composée de plusieure madriers, derrière laquelle on se mettait à couvert des traits et des pierres."

ويؤيد هذا المعنى الثانى قول العماد السالف الذكر : « وهم بالخنادق من الرواق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون » وقوله : « وتدرع بأسواره وخنادقه ، وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه » وقوله : « إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الطوارق إلى الطرق » ، فلفظ الطوارق فى هذه النصوص يستعمل دائما مقرونا بلفظ الستائر أو الخنادق ، فكأنه كان يؤدى عملها ، وليس أوضح فى هذا المجال من قول (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢) عند وصفه لنوع من الدبابة أو البرج : « ... فتندفع وتجرى على سهولة العجل التى ركبت عليها ، ويصعد الرجال فى أعلاه ، وقد أديرت حوله الستائر والطوارق » .

وقد وصف مرضى بن على الطوارق فى كتابه (تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢) الذى ألفه لصلاح الدين وصفا دقيقا يقطع الشك باليقين ، قال عند ذكره لأنواع التراس : « ومنها الطوارق ، وهى التى يستعملها الفرنج والروم ، ويتباها (؟) فى حسن إذهابها ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ ، وتصويرها وإتقانها ، وهى مستطالة ، وتكوينها إلى أن تستر الفارس والراجل ، تبدىء مدورة ، ثم تجمع أولا أولا إلى أن ينتهى آخرها إلى نقطة محدودة كرؤوس المعاول » . راجع كذلك :

(Cahen : Un Traité d'Armurerie .. etc. P 155-156) .

و(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩) .

(١) المقصود به : « صليب الصلبوت » المشهور ، راجع ما فات هنا ، ص ١٨٣ ، هامش ١ ؛ ص ٢٠٩ هامش ٣

قالت[١] : إن عدة[٢] الدين أبا نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله كان الأكبر من ولد الإمام الناصر ، وكان شهما قوى النفس شجاعا مقداما له همة عالية ونفس أبية ، وكان أبوه يخافه ويستشعر منه لما يرى من شهامته وقوة نفسه ، وكان أيضا أبو نصر محمد مخالفا لأبيه فى المذهب ، لأن أباه كان شيعيا ، وكان أبو نصر سنيا يبغض الروافض ، ويميل إلى الحنابلة ، وكان أبوه يكرهه أيضا لهذا الأمر ، لكنه لم يجد بدا من توليته العهد بعده إذ لم يكن له فى ذلك الوقت من يصلح للأمر من بعده من ولده غيره .

ثم إن الناصر لدين الله من بعد ذلك [٣٣١] نشأ له ولد أصغر من أبى نصر محمد ، وهو أبو الحسن على ، فكان منقادا لأبيه جدا ، موافقا له فى مذهب التشيع ، فمال إليه الناصر لدين الله ميلا عظيما ، وأعرض عن أبى نصر محمد ، وقويت النفرة بينهما ، وأدى ذلك إلى خلع الناصر ولده أبا نصر من ولاية العهد ، وأمر بإسقاط اسمه من السكة والخطبة ، وكتب بذلك إلى سائر الآفاق ، وقيد أبا نصر وحبسه .

ثم بعد ذلك توفى أبو الحسن على بن الناصر ، فحزن عليه أبوه الناصر حزنا عظيما ، وتقدم إلى الشعراء بمرثيته ، [٣]وأظهر الملوك فى سائر الأطراف شعار الحزن عليه ، وجلسوا له فى العزاء[٣] ، ورثته — كما سنذكره إن شاء الله تعالى — الشعراء ، ولم يبق للخليفة غير أبى نصر ، فدعته الضرورة إلى إعادة أبى نصر[٤] إلى ولاية عهده ،

---

(١) مكان هذا اللفظ فى س (٨٦ ب) : "قال صاحب التاريخ قاضى قضاة حماة المحروسة ابن واصل".

(٢) الأصل "عمدة" والتصحيح عن س والروضتين. (٣) هذه الجملة غير موجودة فى س .

(٤) انفرد ابن واصل هنا بما ذكره من أن الخليفة الناصر كان شيعيا ، وأنه عزل ابنه أبا نصر محمدا عن ولاية العهد لأنه كان سنيا يختلف مع أبيه فى المذهب ، والذى ذكرته المراجع الأخرى أن أبا نصر محمدا هو الذى استقال من ولاية العهد فأقاله والده . راجع فى هذا : (ابن عربى : محاضرة الأبرار ، ج ١ ، ص ٤٨) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٠) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، حوادث سنة ٦٠١) و (ابن الساعى : الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد ص ١٤٤) و (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩) .

وكاتب بذلك الملوك ، نخطبوا له بولاية العهد ثانيا سنة ثمانى عشرة وستمائة ، لكنه لم يرض عنه ، ولم يزل محبوسا مقيدا ، والخطبة والسكة باسمه إلى أن توفى الناصر ، وولى الخلافة بعده ، لكنه لم يبق فى الخلافة إلا أشهرا ومات .

ذكر منازلة السلطان شقيف أرنون[١]

ثم خرج السلطان من دمشق يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من هذه السنة بعد صلاة الجمعة ، فنزل بمرج فلوس ، ونزل من الغد وهو يوم السبت بمرج برغوث ، وأقام به والعساكر تتابع إلى حادى عشره ، ورحل إلى بانياس ، ومنها إلى مرج عيون ، فخيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون ، بحيث يركب كل [يوم] فيشارفه ثم يعود ، والعساكر تتواصل ، وتأتى من كل ناحية ، فأقام أياما يشرف كل يوم على الشقيف ، فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط[٢] — صاحب صيدا — بنفسه إلى السلطان ، وكان صاحب دهاء [ومكر][٣] ، وكان من كبار الفرنج وعقلائهم ، عارفا بالعربية[٤] ، وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والأحاديث ، فحضر عند السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به ، وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج ، وإقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وقال :

" إنى أخاف من المركيس أن يعرف ما بينى وبينك ، فينال أولادى وأهلى منه أذى ، فإنهم عنده ، وأريد أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم من [٣٣٢] عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ، ونسلم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك" .

---

(١) عرفه ابن شداد بأنه موضع حصين قريب من بانياس .

(٢) هو Reynold Garnier, Lord of Sidon and Beaufort أنظر عن سياسته لفقد هذه المدينة .
(Runciman: *Op. Cit. Vol.* 2, pp. 469-470)

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ٨٧ ا) .

(٤) هذا شاهد له أهميته ، لأنه يدل على أن بعض أمراء الصليبيين فى الشام بدأوا يتعلمون اللغة العربية ويتأثرون بالثقافة الإسلامية .

فظن السلطان صدقه ، وإنما كان ذلك مكرا ودفعا للوقت ، فأجابه إلى ما سأل ، واستقر بينهما الأمر أن يسلم الشقيف فى جمادى الآخرة .

وأقام السلطان بمرج عيون ينتظر الميعاد ، وهو قلق يفكر لقرب انقضاء الهدنة بينه وبين بيرنس[1] بمند — صاحب أنطاكية — ، فتقدم إلى الملك المظفر تقى الدين أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتى من بلاد الشرق ، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضا منزعج[2] الخاطر لما بلغه من اجتماع الفرنج فى مدينة صور ، وما يتصل بهم من الأمداد من البحر .

وكان السلطان لما فتح عسقلان والبيت المقدس قد أطلق ملك الفرنج ، فاصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما ، واجتمعوا فى خلق لا يحصون ، وخرجوا من صور إلى ظاهرها قاصدين استنقاذ البلاد التى أخذت ، فكان هذا وما أشبهه يزعج السلطان ، وكان يخاف أن يترك الشقيف وراء ظهره ، ويتقدم إلى صور وفيها الجموع المتواترة فتنقطع عنه الميرة ، فأقام منتظرا انتهاء المدة التى ضربها له أرناط ، وأخذ أرناط — صاحب الشقيف — فى شراء الأقوات من سوق العسكر ، والسلاح وغير ذلك مما يحصن به الحصن ، وهو شقيفه ، والسلطان يحسن به الظن ، و إذا قيل له ما هو فيه من المكر وأن قصده المطاول إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدى صفحته ، ويظهر مخالفته ، و [هو] لا يقبل فيه .

وأقام يتردد إلى خدمة السلطان فى كل وقت . قال القاضى بهاء الدين : " وكان يناظرنا فى دينه ، ونناظره فى بطلانه ، وكان حسن المحاورة ، متأدبا فى كلامه ، ولما كثر عند السلطان القول فيه رأى السلطان أن يصعد إلى ظهر الجبل ليقرب من المكان ، ويمنع من دخول نجدة وميرة ، وأظهر أن سبب ذلك حمو الزمان والفرار من وخم المرج ، فنزل أرناط وسأل أن يمهل تمام سنة ،

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى س : " الابرنس " .

(٢) الأصل : " منزع " والتصحيح من س .

فماطله السلطان [وما](١) آنسه ، وقال : "نفكر فى ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم"، ثم وكل به من حيث [٣٣٣] لم يشعر إلى أن كان من أمره ما سنذكره" [إن شاء الله تعالى](٢) .

وفى أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك بالأمان ، وقد ذكرناه عند تسليم الكرك .

ذكر وقعة اليَزَك مع الفرنج(٣)

قد ذكرنا اجتماع الملك والمركيس بصور واتفاقهما ، وتواتر أمداد الفرنج إليهم ، وحشدهم وخروجهم إلى ظاهر صور ، وكان الملك قبل ذلك لما أُطلق — وكان إطلاقه والسلطان منازل حصن الأكراد — قد اشترط عليه ألا يشهر عليه سيفا أبدا ، ويكون مملوكه وطليقه ، فنكث — لعنه الله — ، وجمع الجموع وأتى صور نخيم على بابها ، وطلب الدخول إليها ، فمنعه المركيس ، وجرت بينهما مراجعات كثيرة ، وقال له المركيس :

" إننى نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لى فى تسليمها إليك" .

ثم استقرت القاعدة بينهما على الاتفاق على حرب المسلمين ، وعسكروا ظاهر صور كما ذكرنا .

ولما كان يوم الاثنين ثلاث عشرة (٤) ليلة بقيت من جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهى الأرض التى السلطان عليها ، فركب السلطان بنفسه نحو اليزك فى شجعان أصحابه ، سوى من جعله على الشقيف ، فوصل وقد انفصلت

---

(١) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد . (٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى س (٤) هذا اللفظ ساقط من س .

الوقعة ، وكان صورتها : أن الفرنج عبر منها جماعةٌ الجسرَ ، فنهض إليهم يزك الإسلام ، وكانوا فى عدة وقوة ، فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا فى النهر جماعة[1] فغرقوا .

ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك واحد للسلطان يعرف بأيبك الأخرس[2] ، وكان شجاعا فارسا مقداما ، فتقنطر به فرسه ، فالجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فنى نشابه ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وأسر من الفرنج سبعة من فرسانهم المشهورة ، ثم عاد الفرنج إلى مكانهم خائبين .

ذكر واقعة الغزاة المطوعة

ولما وصل السلطان إلى اليزك وقد فاتته الوقعة أمر فضربت له خيمة صغيرة[3] وأقام ينتظر عود الفرنج لينتقم منهم ، ويأخذ بثأر من قتل[4] من المسلمين ، فلما كان يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ركب السلطان ليشرف على [٣٣٤] القوم على عادته ، فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة المطوعة والسوقة ، وحرص على ردهم ، فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع عليهم من الفرنج خلق كثير وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث يعلمون أنه ليس وراءهم كمين ، فحمل الفرنج عليهم حملة واحدة ، وقاتلوهم ، وكان السلطان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ،

(١) النص فى س (ص ٧٩ ب) : " ورموا فى النهر جماعة أنفسهم فغرقوا " ، وما هنا يتفق ونص ابن شداد ، وهو الأصل الذى ينقل عنه هنا .

(٢) عند (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٨١) : " الأخرش " انظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٣) س : " خيمته الصغيرة " .

(٤) س : " من بقى " ، وما هنا هو الصحيح .

فإنه لم يخرج للقتال ، وإنما قصد كشف حال العدو فقط ، ولما بانت له الوقعة وظهر غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم . فوجدوا الأمر قد فرط ، وقد تكاثرت الفرنج حتى خافت منهم السرية التى بعثها السلطان ، وظفر العدو بالرجالة ظفرا عظيما، وأسروا جماعة كثيرة ، وقتلوا نحو مائة وثمانين نفرا ، وقتل من الفرنج أيضا عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة، وقتل منهم مقدم الألمانية وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد فى ذلك اليوم من المسلمين الأمير غازى ابن سعد الدين بن النصار[1]، وكان شابا حسنا شجاعا ، فاحتسبه أبوه فى سبيل الله ولم تقطر من عينه دمعة عليه .

ذكر توجه السلطان إلى عكا وعوده إلى معسكره بمرج عيون[2]

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين فى هذه الوقعة النادرة التى لم يصابوا بمثلها قبل ذلك جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ، ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم . وكان الفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريبا من الجسر ، وبين صور وبين الجسر مقدار فرسخ أو أكثر ، فلما صمم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فحينئذ توجه السلطان جريدة إلى عكا ليلحظ ما بنى من سورها ، ويحث على الباقى ، فمضى إلى تبنين ، ثم إلى عكا ، فرتب أحوالها ، وعاد إلى المعسكر بمرج عيون ، منتظرا مهلة صاحب الشقيف .

(١) كذا فى الأصل ، وفى س : " النصار" بدون نقط ، وفى (ابن شداد : السيرة اليوسفية ص ٨٢) : " ابن البصار" ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) — نقلا عن ابن شداد — : " ابن البيطار" .

(٢) نص العنوان فى س (ص ١٨٠) : "ذكر خروج السلطان وعوده إلى معسكره بمرج عيون".

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغ السلطان أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين[1] ويصلون إلى جبل تبنين، وفى قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر كمينا لهم، وبلغه أنه [٣٣٥] يخرج وراءهم[2] أيضا خيل تحفظهم، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا فى نفر يسير عابرين[3] على تلك الرجالة، فإن تبعهم خيل العدو ينهزموا إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو، وحتى إن تحركوا يكونوا فى نصرة أصحابهم، وقصد واخيمهم.

وركب السلطان فى عساكره إلى الجهة التى عينها لهزيمة عسكر تبنين، حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طُلْب عشرين فارسا، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم، حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وجرى بينهم وبين [هذه] الفرقة اليسيرة قتال شديد والترمت السرية[4] القتال، وأنفت من الانهزام، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان فى أواخر الأمر وقد هجم الليل، فبعث بعوثا كثيرة، فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة، ومن

(١) الأصل: "مشردين"، والتصحيح عن س، والأصل المنقول عنه هنا وهو (ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ١٢).

(٢) الأصل: «لهم» والتصحيح عن: (الروضتين، ج ٧، ص ١٤١).

(٣) الأصل: "غابرين"، والتصحيح عن س وابن شداد والروضتين.

(٤) س: "الرجال".

المسلمين ستة : اثنان من الترك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل [١] ، وكان مقدم عشيرته ، وسبب قتله أن فرسه تقنطر به ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضا ، وأسر هو وثلاثة من أهله ، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم لئلا يستنقذوا ، وجُرح [٢] من الطائفتين ومن خيولهم كثير .

ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكا من مماليك السلطان يقال له "أيبك" أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما ، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء، فتفقده أصحابه، فلم يجدوه ، فعرّفوا السلطان فقده ، فأنفذ من يكشف خاله ، فوجده بين القتلى ، فحملوه إلى [المخيم] [٣] وداووه ، وعافاه الله تعالى ، وعاد السلطان إلى المخيم عاشر جمادى الآخرة فرحا مسرورا .

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتهم لها

قد ذكرنا حشد الفرنج واجتماعهم بصور ، وتواصل الأمداد إليهم من البحر ، وكان الرهبان والقسوس من حين ملك المسلمون [٤] بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن [٢٣٦] وأخذهم بطرك القدس، ودخل بهم بلاد الافرنج يطوفونها بهم جميعا [٤] ، ويستنجدون أهلها ، ويحثونهم على استرجاع القدس ، وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه [بعصا] [٣] وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ، وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله .

---

(١) كذا في الأصل و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١) وفي س وابن شداد : "رامل" .

(٢) بهذا اللفظ تنتهي ص ٨٩ ب من نسخة س ثم تضطرب الصفحات ، وتبدأ ص ٧٠ أ من هذه النسخة بالكلمة التالية وهي : "وجرح" . (٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٤) النص في س : "بيت المقدس دخلوا بلاد الفرنج يطوفون بها جميعا" .

فعظم ذلك على الفرنج ، فحشدوا وحشروا [١] ، حتى النساء خرجن للمقاتلة ، ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضه ، أو يعطيهم مالا على قدر حاله ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يقع عليه الإحصاء ، ولما عظمت جموعهم وتكاملوا صمموا على قصد عكا ومحاصرتها ، وساروا إليها نحو النواقير ، وبعضهم نزل باسكندرونة [٢] وجرى بينهم و بين رجالة المسلمين مناوشة ، وقتل من المسلمين نفر يسير ، وأقاموا هناك .

ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب ، فوصل قاصد يخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بَصَّه [٣] ووصل أوائلهم إلى الزيب [٤] ، فعظم ذلك عليه ، وكتب إلى سائر الأطراف بالمسير إليه ، وعزم على قصد الفرنج .

ذكر القبض على صاحب الشقيف وفتح الشقيف

وقد ذكرنا خداع أرناط — صاحب الشقيف — ومكره ومدافعته ، وأن السلطان وكل به من حيث لم يشعر ، وقد ذكرنا تحول السلطان بعسكره إلى قرب الحصن ، ولما قربت مدة الهدنة ، وبقي منها يومان تضرع [أرناط] [٥]

(١) س : " فحشدوا وجمعوا وجندوا " .

(٢) س : " باسكندرية " ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) الأصل وس : " عين قصه " والتصحيح عن : (الروضتين ، ج٢ ، ص ١٤٢) و (Dussaud : *Topographie Historique de la Syrie.* p.17) .

(٤) الأصل : " الزيت " ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا ، وقد ذكر (Dussaud : *Op. Cit.*) أنها قرية على الشاطىء بين عكا وصور .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (٧٠ ب) .

وأبدى ضرورة وملَقاً ، فقيل له لا بد وأن تسلم ولا تحوج إلى المقابحة ؛ فطلب قسيسا ذكره ليحمله رسالة إلى أهل الشقيف ليسلموه فأحضروه عنده ، فساره بما لم يعلموه ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف ، فأظهروا العصيان ، وقالوا : "يبقى مكانه" ، فحينئذ تحقق غدره ، وبطل الرجاء منه فقُيِّد وحُبِس ، ثم استحضر فى سادس رجب وتُهدد وتُوعد (١) ، فلم يفد ذلك ، فسيَّره السلطان إلى دمشق بعد رحيله إلى عكا ، وحبس بها .

ورتَّب السلطان عدة من الأمراء على محاصرة الشقيف صيفا وشتاء [٣٣٧] فتسلموه بعد سنة بحكم السلم ، وأطلق صاحبه وعفا عنه .

ذكر رحيل السلطان إلى عكا ومنازلة الفرنج المنازلين لها

ثم رحل السلطان إلى عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب على طريق طبرية إذ لم يكن طريق يسع العساكر إلا هو ، وسيَّر جماعة على طريق تبنين يتشرفون العدوَّ ويواصلون بأخباره .

ولما كان غد يوم الرحيل — وهو يوم الثلاثاء — سيَّر صاحبَ الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة ، واشتد حنقه عليه ، بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئا .

وسار (٢) السلطان جريدة (٣) من المنية (٣) حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ؛ فإنه كان واعدهم إليه ، وتقدم إلى

(١) الأصل : "وتهدد وتوقد" وفى س : "وشدد عليه بالقول وتوعد" وقد صححت العبارة بعد مراجعة العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٢) بهذا اللفظ تنتهى (ص ٧٠ ب) من نسخة س ثم يضطرب ترتيب الصفحات ، وتلتق بالنص مرة أخرى فى (ص ١١٥ أ) من نفس النسخة وتبدأ بلفظ "السلطان" .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من س .

الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يتزل حتى شارف العدو من الخروبة وأنفذ بعض العسكر ، فدخل عكا على غرة من العدو وتقوية لمن فيها ؛ ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير .

وذكر عماد الدين الكاتب : أن العدو لما قصدوا عكا كان من رأيه مسايرتهم فى الطريق ليمنعهم من النزول ، لأنهم إذا نزلوا صعب إزالتهم وأتعب قتالهم ، فخالفه أمراؤه فى ذلك ، وقالوا : "بل نمضى على أسهل[1] الطرق" ، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة ، وجب يوسف ، والمنية .

ووصل الثقل عصر يوم الثلاثاء رابع عشر رجب كفركنا[2] والسلطان نازل بها ، ونزل يوم الأربعاء[2] منتصف رجب على جبل الخروبة ، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر يحيطونها ، وضرب الملك خيمة على تل المصلبة[3] ، ورابطت مراكبهم بشاطىء البحر ، ثم عبأ السلطان أطلابه ، وسار من الخروبة إلى تل كيسان فى أوائل مرج عكا ، فنزل عليه ، وأمر الناس أن ينزلوا على التعبئة وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقابل تل العياضية ، واختلط العسكر الإسلامى بالعدو ، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب ، وصار السلطان محاصراً للفرنج ، والفرنج محاصرين لعكا ، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، وترتب اليَزَك الدائم ، وحُصر العدو فى خيامه [٣٣٨] بحيث لا يخرج منهم أحد إلا ويجرح أو يقتل ، وكانت عدة خيالتهم ألفين[4] ورجالتهم ثلاثين ألفا .

---

(١) الأصل : "أسفل" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج٢ ، ص١٤٣) .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد : «على تل المصليين قريبا من باب البلد» ، انظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٤) كذا فى الأصل ، وهو يتفق وما فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) وفى س : "أربعة آلاف" .

قال القاضي بهاء الدين :

"مارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر متصل غير منقطع ، وجرى بينهم وبين اليَزَك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهانتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته[1] ، وعساكر المسلمين وملوكهم وأمراؤهم تتواصل من الأمصار ، ووصل من حماة الملك المظفر تقي[2] الدين عمر ، ووصل من الشرق مظفر الدين بن زين الدين على كوجك ، وتوفى فى تلك الأيام حسام الدين سنقر الخلاطى وكان شجاعا دينا".

ذكر الوقعة الأولى التى تيسّر للمسلمين بها دخول البلد

ولما استفحل أمر العدو وحصروا البلد من جميع جهاتها بحيث تعذر على المسلمين دخول البلد والخروج منه ضاق صدر السلطان بذلك ، وسمت همته إلى فتح الطريق إلى عكا ، لتستمر السابلة ، وترد إليها الميرة والنجدة ، فباكر الفرنج القتال مستهل شعبان من هذه السنة ، فلم ينل منهم ما يريد ، وبات الناس على تعبئة .

فلما كان الغد باكرهم القتال ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، فقاتلهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبرا تاما حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل الملك المظفر حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزالهم عن مواقفهم، يركب بعضهم بعضا، لايلوى أخ على أخيه، فالتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم ، واحتموا بهم ، وأخلوا جانب البحر الشمالى[3] ، شمال عكا ،

(١) الأصل : "وقتهم" ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٨٨) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢) .

(٢) الأصل : "زين الدين" وما أثبتناه هو الصحيح .

(٣) هذا اللفظ غير موجود فى س .

ولم يكن لهم هناك خيام، لكن عسكرهم كان قد امتد جريدة شمال عكا إلى البحر، ولما انكسر العدو فى ذلك الجانب تبعهم المسلمون ، وهجموا خلفهم إلى أول خيامهم ، ووقف اليَزَك الإسلامى مانعا أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل ، وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقامة الملك إلى باب بهاء الدين قراقوش الذى جدّده ، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقى ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة ، واليزك بين الطريق وبين العدو .

ودخل السلطان ذلك[1] اليوم إلى عكا ، ورقى إلى السور [٢٣٩] ونظر إلى عسكر العدو ، وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة ، ولم يعودوا للقتال ، وأصبحوا يوم الأحد ثالث شعبان فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن ورائه ، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد .

ذكر الوقعة الثانية

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان خرج الفرنج من مخيمهم بفارسهم وراجلهم، والراجل حولهم كالسور يتلو بعضهم بعض ، حتى قاربوا خيام اليَزَك ، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية ، فركبوا بأجمعهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فعاد العدو ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم، فالسالم جريح والعاطب طريح، حتى لحقوا بخيامهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها .

---

(١) تنتهى بهذا اللفظ (ص ١١٥ ب) من نسخة س ، ثم تنقطع الصلة مرة أخرى بين النص هنا وبين س .

فلما كان الحادى عشر من شعبان رأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصابيين مشرف على العدو وعكا ؛ وتوفى فى هذه المنزلة حسام الدين طمان ، وكان من شجعان المسلمين ، ودفن فى سطح التل .

ذكر وقعة العرب

ثم بلغ السلطان أن جمعا من الفرنج يخرجون للاحتطاب والاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فكمن لهم جماعة من العرب فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوسا عدة بين يديه ، وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

وفى عشية هذا اليوم وقع بين الفرنج وبين أهل البلد حرب عظيم ، قُتل فيها جمع عظيم من الطائفتين ، وطال الأمر بين الفئتين ، فلم يخلُ يوم من جرح وقتل وسبي ونهب ، وأنس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدّثون ، وربما غنّى[1] بعضهم لبعض ، ثم يعاودون القتال بعد ساعة ، وكانوا ربما خرّجوا صبيانهم وقاتلوا صبيان المسلمين ، وأصرعوهم وصارعوهم[2] ، وأسر بعضهم بعضا .

ذكر الوقعة العظمى بمرج عكا

ولما كان يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان من هذه السنة خرج الفرنج بفارسهم وراجلهم ، وتحركوا حركة لم يتحركوا قبل ذلك مثلها ، واصطفوا ميمنة [٣٤٠] وميسرة ، وفى القلب الملك ، وبين يديه الإنجيل محمول مستور

(١) الأصل : "غنا" .

(٢) راجع قصة الصراع والمقاتلة بين الصبية من المسلمين والفرنج أثناء القتال حول عكا عند ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣) .

بثوب أطلس مغطى ، وأربعة أنفس يمسكون أطرافه ، وهم يسيرون بين يدى الملك ، وامتدت الميمنة مقابلة ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها ، والميسرة فى مقابلة الميمنة ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وميسرتهم إلى البحر ، ونادى الجاووش [١] : " ياللإسلام وعساكرا لموحدين " ، فركب الناس وباعوا أنفسهم بالجنة ، وامتدت الميمنة إلى البحر ، كل قوم يركبون و يصطفون بين يدى خيمهم ، والميسرة إلى النهر كذلك .

وكان السلطان فى القلب ، وفى الميمنة ولده الملك الأفضل نور الدين ، ثم ولده الملك الظافر خضر — وهو المعروف بالمشمر — ، ثم عسكر الموصل ، ومقدمهم ظهير الدين بن البلنكرى [٢] ، ثم عسكر ديار بكر ومقدمهم قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن وآمد ، ثم حسام الدين لاچين بن أخت السلطان [صاحب] [٣] نابلس ، ثم صارم الدين قايماز النجمى ، وجموع عظيمة متصلون بطرف الميمنة ، وكان فى طرفها الملك المظفر تقى الدين بعسكره ، وهو [٤] مطل على البحر .

---

(١) يفهم من النص هنا أن الجاووش جندى كانت مهمته النداء واستنفار الجند للقتال ، ومثل هـذا ما جاء فى (العماد : الفتح القسى ، ص ٢٤٢) : " وضايقوا البلد أشد مضايقة ، .... فأمر الجاووش حتى نادى .. الخ " ، هذا فى العصر الأيوبى ، أما فى العصر المملوكى فقد كان النظام يقضى بأن يسير أربعة من جنود الحلقة الشجعان أمام السلطان فى مواكبه للنداء وتنبيه المارة ، والجاويش أيضا جندى من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها ، والجاووش أو الجاويش أو الشاويش لفظ تركى ، وجمعه جاويشية . انظر : (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*) و (المقريزى : السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٨٧٠ ، هامش ٢)

(٢) كذا فى الأصل ، وهو فى (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٤٤) : " البكنكرى "

(٣) الأصل : " السلطان بالسر " وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٩٣) .

(٤) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٩٠) من نسخة س ، وبهذا نعود للمقارنة بين النسختين .

وأما الميسرة فكان مما يلى القاب الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب[1] — ملك الأكراد ومقدمهم — والأمير مجلى ، وجماعة من المهرانية والهكَّارية ، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين ابن زين الدين بعسكره ، وأواخر الميسرة كبار الأسدية ، مثل : سيف الدين يازكوج[2] ورسلان بغا .

وفى مقدمة القلب الفقيه ضياء الدين عيسى وجمعه .

والسلطان يطوف بنفسه على الأطلاب ، ويحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم فيما عند الله من الأجر والثواب الجزيل لمن جاهد فى سبيل الله وقام بنصرة دينه .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى مضت أربع ساعات من النهار ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات[3] كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم قليلا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر أمدّه بأطلاب [٣٤١] عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر .

ولما رأى الذين فى مقابلة القلب [ضعف القلب][4] ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة رجل واحد بفارسهم

---

(١) س : " سيف الدين بن على المشطوب " وما هنا هو الصحيح فهو يتفق وما فى (ابن شداد ، ص ٩٣) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤) .

(٢) الأصل وس : " يا كوج " والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .

(٣) كذا فى الأصل وفى السيرة اليوسفية لابن شداد والروضتين ، وفى س : " مناوشات " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

وراجلهم ، وجاءت الحملة على الديار بكرية ، وكان بهم غرة عن الحروب[١] ، فانهزموا هزيمة قبيحة ، وسرى الأمر حتى انهزم معظم الميمنة .

واتبع العدو المنهزمين[٢] إلى العياضية ، فإنهم استداروا حول التل ، وصعد العدو إلى خيم السلطان ، وجالوا حولها جولة ، ثم رأوا انقطاع أصحابهم عنهم ، فانحدروا عن التل ، وأما الميسرة [فقد] ثبتت إذ لم تصادفها الحملة .

وطاف السلطان على الأطلاب ينهضهم و يعدهم الوعود الجميلة ، و يحثهم على الجهاد ، و ينادى بالإسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف و يخرق الصفوف ، وأوى إلى تحت التل الذى عليه الخيام ، وأما المنهزمون فإنه بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر طبرية ومنهم من تم إلى دمشق .

قال عماد الدين الكاتب :

" كنت فى جماعة من أهل الفضل ، ونحن على بغال بغير أهبة[٣] قتال ، فرأينا العسكر موليا ، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا ، فوصلنا إلى طبريه فيمن وصل ، ووجدنا ساكنها قد أجفل ، فسقنا إلى جسر الصنبرة ، ونزلنا على شرقيه ، وكل منا ذاهل عن شبعه و ريّه ، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فَيْق [وهو غير مفيق][٤] ، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق " .

وأما المتبعون للمنهزمين فإنهم تبعوهم إلى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان

---

(١) الأصل : " عزة فى حراب الافرنج " ، والتصحيح عن الأصل المنقول عنه وهو (ابن شداد ، ص ٩٤) . أنظر أيضا (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٢) الأصل : " المنهزمون " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١٨ ؛ هامش ٣)

(٤) مابين الحاصرتين زيادة عن المرجع المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٦)

والخَرْبَنْدية (١) والساسة(٢) منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، وقُتل منهم جماعة ، فإن أهل السوق كان أكثرهم يحمل السلاح .

وكان السلطان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعود على الحملة على العدو ، فلما رأى الفرنج الذين كانوا صعدوا إلى خيم السلطان منحدرين من التل أراد لقاءهم فأمر[٣٤٢]أصحابه بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، وأسرعوا يطلبون أصحابهم ، فصاح السلطان فى الناس ، فحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة ، واشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس(٣) وراءهم ، حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم ، فلما رآهم أصحابهم منهزمين والمسلمون وراءهم فى عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قُتل ، وأنه (٤ إنما نجا هذا النفر فقط ٤) ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا فى الهرب والهزيمة ، ثم تحركت الميسرة من المسلمين على العدو .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتناخت (٥) الرجال ، وتراجع النـاس من كل جانب ، وكثر القتل والجرح فى الفرنج إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو ، فهجم المسلمون عليهم فى الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا قد أعدوها خشية من هـــذا الأمر مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس (٦) ، والخوف والعرق قد أجمهم ، فتراجع الناس (٦) عنهم بعد صلاة العصر يخوضون فى القتلى ودمائهم فرحين مسرورين .

---

(١) خربندج أو خربنده — والجمع خربنديه — لفظ فارسى معناه الحمّار أو المكارى .

(٢) الأصل وس : " الساسية " والتصحيح عن العماد .

(٣) الأصل : " وتكاثروا الناس " والتصحيح عن س والروضتين .

(٤) هذه الجملة غير موجودة فى س ، ولكنها موجودة فى الأصل المنقول عنه هنا وهو (ابن شداد ص ٩٥) .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى س (ص ٩٠ ب) : " تناخا " ، وفى ابن شداد : " وتجمعت " .

(٦) س : " المسلمون " .

وعاد السلطان وجلس أصحابه فى خدمته يتذاكرون مَنْ فُقِد منهم ، فكان مقدار من فُقد منهم من الغلمان المجهولين[1] مائة وخمسين .

واستشهد فى ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه ضياء الدين عيسى .

قال القاضى بهاء الدين :

" ولقد رأيت الفقيه عيسى وهو جالس يضحك والناس يعزونه ، وهو ينكر عليهم ، وهو يقول : هذا يوم الهنا لا يوم العزا " .

واستشهد فى ذلك اليوم الأمير مجلى بن مروان ، والحاجب خليل الهكّارى .

وأما قتلى العدو فحزرنا قتلاهم سبعة آلاف نفس .

قال القاضى :

" ولقد رأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا[2] فيه ، فحزرتهم بدون[3] سبعة آلاف " .

وكانت الهزيمة لما وقعت على المسلمين أولا ، ورأى الغلمان خلو الخيام ، وظنوا أن الكسرة تتم ، وأن العدو لابد أن يستأصل الخيم ، ووضع الغلمان أيديهم ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة ، فلما عاد السلطان إلى المخيم ، ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع فى الكتب والرسل فى رد المنهزمين ، وتتبع من شذّ[4] من العسكر ، وتتابعت الرسل فى هذا [٣٤٣] المعنى حتى بلغت عقبة فيق وردوهم

(١) الأصل : " غير المجهولين " والتصحيح عن ابن شداد .

(٢) الأصل : " ليكتفوا " والتصحيح عن (ابن شداد ، ص٩٦) و(والروضتين ، ج٢ ، ص١٤٥) .

(٣) س : " فوق " وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

(٤) س : " سلم " وما هنا يتفق ونص ابن شداد .

وأخبروهم بالكسرة للمسلمين(١) ، فعادوا ، وأمر بجمع الأقمشة [من أكف الغلمان ، وجمع الأقمشة](٢) فى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالى ، وهو جالس وأصحابه حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا وحلف عليه يُسلَّم إليه .

وشذت من عساكر الإسلام خلق كثير بسبب الهزيمة ، فإنه مارجع منهم إلا رجل معروف خاف على نفسه ، والباقون ذهبوا فى حال سبيلهم .

وأخذ السلطان فى جمع الأموال المنهوبة ، وأعادها إلى أصحابها ، وأقام المنادية فى المعسكر ، وقرن النداء بالوعيد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه ، واجتمع من الأقمشة فى خيمته شىء كثير حتى أن الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر ، فردّ كل شىء على مستحقه ، فلم يُعدم إلا القليل .

قال عماد الدين الكاتب :

" العجب أن الذين ثبتوا منا فى الوقعة لم يبلغوا ألفا ، فردوا مائة ألف ، وكان الواحد يقول : قتلت من الفرنج ثلاثين وأربعين " .

ولما عاد السلطان إلى مضاربه أمر بمواراة الشهداء ، وكان من جملتهم : الشيخ جمال الدين أبو على الحسين بن الشيخ أبى محمد عبدالله بن الحسين بن رواحة ابن إبراهيم بن عبدالله بن رواحة بن عبيد بن محمد بن عبدالله بن رواحة الأنصارى الخزرجى الحموى(٣) ، وهذه النسبة نقلتها من نسخة بخط الشيخ جمال الدين هذا ،

---

(١) النص فى س : " وأخبروهم بأن المسلمين كسروا الفرنج كسرة عظيمة " .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س وابن شداد .

(٣) هذه أطول ترجمة عثرت عليها لابن رواحة ، إذ لم يترجم له إلا (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٠ ، ص ٤٦ وما يليها) ، ولا عجب فى هذا فابن رواحة مواطن للمؤلف . أنظر أيضا ما نقله أبو شامة فى : (الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٧) عن البرق الشامى للعماد عند ترجمته لهذا الشاعر ؛ و (العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٤٧ و (C. CAHEN : *Une Chronique Syrienne du VI (XII) Siécle.* Le Bustan Al-Jam'i. ; p. 47)

وكان رجلا عالما فاضلا شاعرا زاهدا، سافر من حماة بلده إلى الديار المصرية، ومدح العاضد والصالح رزّيك، وأحسنا إليه إحسانا كثيرا، وسافر فى البحر فأسره الفرنج ثم منّ الله تعالى بإطلاقه، وحج إلى بيت الله تعالى، وزار قبر النبي — صلى الله عليه وسلم — وامتدحه بقصيدة أولها :

دَعْ العِيس فى طَىِّ الفَلَا تبلغُ المَدَى ، فقد أُلْهِمَتْ أنّ المسيرَ إلى هُدى
لقد غَنِيَتْ بالقَصْدِ عن جاذِبِ السُّرى[1] كما شُغِلَتْ بالشَوْقِ عن سائقِ الحدا
سَرَتْ فرأتْ طِيبَ المعرَّسِ فى السُّرى، وعدت ظما التأويب فى الخمس موردا
أُعِدُّ لها فى قَبْضِهَا بأناملى يَداً ، كلما ألقتْ إلى يَثْرِبِ يدا
[٣٤٤] ولم أرَ فى الأيامِ يوماً مباركاً علىَّ ، كيومٍ زُرْتُ فيه محمدا
وأنّ رسولَ اللهِ أكرمُ شافعٍ لوفدٍ ، وأولى أن يُزار ويُقصدا

وهى طويلة جدا . وناداه — صلى الله عليه وسلم — يودعه بهذين البيتين :

ياخاتمَ الرُسْلِ سَلِ اللهَ لى خاتمةً محمودةَ العاقبه
ولا تَرُدَّنَّ[2] يدى — بعد ما مددتُها مستشفعاً — خائبه

فذكر أنه نام فرأى النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول له : " قُبلتَ يابن رواحة"، فقبل الله شفاعة رسوله فيه، وقبضه شهيدا إليه بمرج عكا، وشارك[3]

---

(١) الأصل : " البرى " وما هنا عن س (ص ٩١ ب) .

(٢) الأصل : " ولا يردان " والتصحيح عن س .

(٣) الأصل : " وسار إلى " والتصحيح عن س .

جده عبد الله بن رواحة الأنصارى — رضى الله عنه — فى فضيلتيه[١] اللتين هما: مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، والشهادة ؛ مات ذاك شهيدا بمؤته فى غزو الروم ، ومات هذا شهيدا بالمرج .

وذكر عماد الدين الكاتب بأنه كان قد أنعم السلطان عليه بمزرعة فى حاب[٢] ، قال :

"وكتبتُ توقيعَه، وأراد اللهُ تعويقَه ،وحملتُ توقيعَه تلك الليلة إلى السلطان ليعلمَّ فيه فما علَّم ، وراجعته فى معناه فسكت وماتكلَّم ، وكان ساعةَ الوَقْعة راكبا معنا ، ثم قال: "وقوفنا يطول" ، ومضى إلى خيمته فتودع ،فلما علم باندفاعنا[٢] ساق وراءنا ، فقُطع عمره قبل أن يَقْطَعَ الوادى ، وكان قال لنا لما أصبح : رأيت كأن رجلا يحلق رأسى فى المنام ، فقلنا له : هذا من أضغاث الأحلام فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام . — رحمه الله — " .

ومن الشهداء: إسماعيل الصوفى الأرموى المكبِّس ،وشيخٌ من الطشت دارية[٣] ، وغلام فى الخزانة أمين ، وآخرون صودفوا فدفنوا عند التل .

وانتعش الفرنج — لعنهم الله — بعد هذه الوقعة ،وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عُدِم منهم ؛ وكان السلطان قد نقل جيف القتلى إلى النهر لما اشتد نتنها ، ليشرب الفرنج من صديدها .

---

(١) الأصل : " قصيدتيه " وقد صححت إلى ما بالمتن ليتسق المعنى، هذا والجملة فى الأصل وس مضطربة و يبدو أنه قد سقط منها ألفاظ عند النسخ . و يوضحها ما ورد فى المراجع الأخرى ، فقد جاء فى (ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ، ص١٥) : " وما ورث الشهادة من بعيد فإن جده عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قتله الروم يوم مؤته، وهذا قتله الفرنج يوم عكا" ولكن العماد أنكر فى (البرق الشامى) نسبه إلى ابن رواحة الصحابى ، قال : " وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابى ، ذاك لم يعقب ، و إنما فى أجداده من اسمه رواحة " . (الروضتين ، ج٢ ، ص١٤٧). وانظر أخبار عبد الله بن رواحه الأنصارى الصحابى فى : (ابن هشام : السيرة ، نشرة السقا وآخرين ، ج٤ ، ص١٣ و١٥ و١٦ و١٧ و٢١ .. إلخ) و (المقريزى : إمتاع الأسماع ، نشر محمود شاكر ، ج١ ، ص٣٤٦ و٣٤٨ و٣٥٠) .

(٢) هذا اللفظ غير موجود فى س (١٩٢أ) .

(٣) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، هامش ٤) .

ذكر انتقال السلطان والعسكر إلى الخروبة(١)

ولما انقضى أمر الوقعة وسكنت ثائرتها أمر السلطان بالانتقال إلى الخروبة ، فانتقل فى رابع(٢) شهر رمضان من السنة ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، ووجد بذلك الفرج ، فشرعوا فى حفر الخندق على معسكرهم [٣٤٥] حوالى عكا(٣) من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصار ، وعمّقوا الخندق عليهم ، وأداروا حولهم سورا مستورا(٤) بالستائر(٥) ، ورتبوا عليه الرجال ، وتركوا له أبوابا يظهرون منها إذا أرادوا الخروج ، فانقطعت طريق المسلمين إلى عكا بالكلية .

---

(١) س : "ذكر انتقال العسكر السلطانى" .

(٢) س : «سابع» ، وما بالمتن يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٧) و (ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٦) .

(٣) الأصل : «معسكرهم» والتصحيح عن س والروضتين .

(٤) الأصل : "مسورا" .

(٥) الستائر جمع ستارة ؛ وهى من أهم معدات الحرب عند المسلمين فى العصور الوسطى ، كانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط ، وكانت تستعمل بوجه خاص لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب ، وكذلك لحماية السفن من قذائف النفط ، قال : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٧) : "وليس فى حرب البحر شىء أصعب من النفط ؛ بسبب الزفت والقير الذى يطلى به المركب ؛ فيحتاط لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون" ؛ وكان هناك نوع آخر من الستائر يعلق بعيدا عن الأسوار ليضعف قذائف المجانيق والجروخ والزيارات فتقل قوتها ولا تؤثر فى جدران القلاع والحصون ؛ وقد وصف هـــذا النوع (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٤) وصفا رائعا ، قال : "وأما ما يدفع به آلات الحصار فالمنجنيق أشدها ، فمن أراد التوقى منه فليخرج من أعلى السور أخشابا طوالا يظهرها كالجناح المطل ، ويدلى منها البسط والأكسية والشباك من الحبال الغلاظ واللبود ما أمكن ، ولتكن مرخاة بعيدة من السور ، فيجىء الحجر وقد ضعف فعله وبطلت قوته ، وكذلك النشاب والجرخ والزيار ، لا يجاوز تلك الستائر" . أنظر أيضا : (مرضى بن على : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨ — ١٩) .

وما كان انتقال السلطان من منزلته صوابا ، فإنه لو أقام لما تمكن العدو ، لكن كان أمر الله قدرا مقدورا ، وكان السبب فى تأخر السلطان أنه استحضر الأمراء وأرباب المشورة(١) .

قال القاضى بهاء الدين ابن شداد — رحمه الله — :

« كنتُ من جماتهم ، فقال السلطان : « بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله : اعلموا أن هـذا عدو الله وعدونا قد نزل فى بلدنا ، ووطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليهم إن شاء الله تعـالى ، وقد بقى [العدو](٢) فى هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءها نجـدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو وإن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزته، فليخبرنا كل منكم ماعنده فى ذلك" .

وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين الثانى من الشهور الشمسية، وهو آخر شعبان، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمرا على خلاف مايحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليهـا ، ويصل الملك العادل ، ويشاركنا فى الرأى [والعمل](٣) ونستعيد من شذَّ من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا فى مقابلة العدو" .

(١) الأصل : «الأمراء المشهورة وغيرهم» ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة، ص٩٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن ابن شداد .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد وس .

وكان السلطان قد انحرف مزاجه لحمله على قلبه ومعاناة التعب لحمل السلاح، والفكر فى تلك الأيام ، فوقع له ما قالوه ، ورآه مصلحة ، فأقام بالخروبة يصلح مزاجه ، ويجمع العسكر إلى عاشر رمضان .

[٣٤٦] وفى يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ المسلمون بعكا مركبا للفرنج كان مقلعا إلى صور ، محتويا على ثلاثين رجلا ، وامرأة واحدة ، ورزمة[١] من الحرير ، فقوى نشاط أهل البلد ، فصاروا يخرجون ويقاتلون ويغنمون .

وفى منتصف شوال قدم من مصر الملك العادل سيف الدين بعساكره .

ذكر وصول الأسطول[٢]

وقدم من مصر خمسون قطعة من الأسطول ، مقدمها حسام الدين لؤلؤ ، وذلك منتصف ذى العقدة ، فجاءت إلى مراكب الفرنج بغتة [فخرقتها][٣] وسحقتها ، وبددت شملها ، وظفر المسلمون ببطشتين كبيرتين من بطش العدو بما فيها من الرجال والأموال والغلال[٤] ، ونقل السلطان إلى البلد فى المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم ، واستظهر البلد برجال الأسطول وكانوا عشرة آلاف ، وتطرقت رجالة المسلمين إلى العدو ، وأذاقوهم القتل والأسر والسرقة[٥] ، حتى أن رجالة المسلمين ربما كانوا يختفون فى الحشيش فى أجراف[٦] الأنهار فإذا صادفوا فارسا وَرَدَ الماء فاجأوه بالقتل والأسر .

---

(١) الرزمة : الربطة أو الحزمة أو البالة ؛ وبالفرنسية (ballot) أنظر : (Dozy: *Supp. Dict. Arab.*)

(٢) أكمل كاتب نسخة س هذا العنوان بقوله : « ومكاتبة السلطان صلاح الدين إلى الأطراف فى الاستنفار للجهاد » غير أن كاتب الأصل فصل جزئى العنوان ، وأورد الجزء الثانى وحده بعد قليل .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س . (٤) بعد هذا اللفظ فى س : «وكان شىء كثير» .

(٥) كذا فى الأصل ، وفى س ، « وأذاقوهم شرا من القتل والأسر ... إلخ » وعند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٨) : «ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ويلا» .

(٦) الأصل : «أجواف» ، والتصحيح عن العماد (المرجع السابق) .

ذكر مكاتبة السلطان إلى الأطراف فى الاستنفار للجهاد

وواصل السلطان كتبه إلى جميع الأقطار يستدعى الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه ، وسرّح عدنان النجّاب إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتِكين ابن أيوب — صاحب اليمن — يشرح له ما جرى من الحوادث ويطلب منه الإعانة بالمال .

وكاتب مظفر الدين قرا أرسلان — صاحب العجم — يحتج عليه بما افترضه الله تعالى من القيام بنصرة الإسلام ، وكان اسم السلطنة بالعجم لابن أخى مظفر الدين هذا لأمه ، وهو السلطان ركن الدين طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وهو آخر السلاطين السلجوقية ، فورد على السلطان كتابه يتظلم إليه من عمه قرا أرسلان ، ويطلب من السلطان إعانته عليه ، فاعتذر إليه السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد مع الكفار ، وأرسل رسولا — فى السفارة بينه وبين عمه — جمال الدين أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه ، وكتب إلى زين الدين[٣٤٧] بن نور الدين — صاحب إربل — ، وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور يأمرهما بالتوفر[١] على خدمته .

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :

” وقد مضت ثلاثة أشهر [شُهر][٢] بها التثليث وحلّ التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روّعت [و][٢] الروعات التى وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ، ورامح

---

(١) الأصل : «بالوفود» والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن نص الرسالة الواردة فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

وتارس[1] ونابل ، فما أثر ذلك فى نقصهم ولا أرث إلا نار حرصهم، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير و يأتى عليه التدمير، و إنما هو كلٌّ من وراء البحر، وجميع من فى ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهَّزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها ، وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، وثار ثائرها ،[2] وسار سائرها[2] ، وطار طائرها ، ونقضت خزائنها ، وانفضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخائرها[3] ، ونثلت كنائن كنائسها ، واستخرجت دفائن نفائسها ، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها ، وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للمصاب المصيب ، ونادوا فى نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم[4] الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وُهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر سفَّر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره، فجاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد » .

وورد على السلطان من عز الدين مسعود بن مودود — صاحب الموصل — أحمالٌ من النفط الأبيض، ومن التراس والرماح، ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده.

قال : وكتب إليه السلطان :

« ووصل السلاح ، وتم الإسلام من قروح الكفر الاقتراح ؛ فإن الحرب المتطاولة [٣٤٨] المدد أتت على جميع العدد ، ومن العجب أن العدة تفنى وما تفنى العداة ؛ وتنمو على الحصاد كأنها النبات ؛ فالبحر يمدهم ؛ والكفر إلى الردى يردهم » .

---

(١) هذا اللفظ غير موجود فى س ولا فى نص الروضتين .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من س .

(٣) الأصل : «أجايرها» ، وما هنا عن الروضتين .

(٤) الأصل : «أثادهم» وما هنا عن الروضتين .

ذكر من وصل فى هذه المدة من مَدَدِ العدو[1]

ووصل فى البحر[2] امرأة جليلة المقدار ؛ وفى صحبتها[3] خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم ، وهى متكفلة بجميع ما يحتاجون إليه من المؤونة ، فهم يركبون لركوبها ، ويحملون بحملها .

وذكر العماد الكاتب :

أن فى يوم الوقعة قاتل مع الفرنج جماعة من النسوة ؛ وأنهن لم يعرفن حتى سُلبن ونُزع عنهن لَأْمَةُ[4] الحرب؛ وأنه سُبي منهن عدة ، واشترين، وأنه حضر المصاف جماعة من العجائز يحرضن على القتال ويحثثن عليه ، ووصل فى مركب ثلاثمائة افرنجية مستحسنات، اجتمعن من الجزائر[5] وسبلن أنفسهن لله بزعمهن، والترمن أن لا يمنعن من أراد وطأهن من مقاتلة الفرنج ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما إذا مَكَّنَّ من اجتمع فيه غربة وعزبة » .

---

(١) لم يرد هذا العنوان فى س (٩٤ أ) ، وإنما جاء مكانه : «قال صاحب التاريخ» .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س : «من مدد العدو» .

(٣) الأصل : «وفى جملتها» ، والتصحيح عن س ، والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) : «وفى حملتها» .

(٤) اللأمة (والجمع : لَأْم ولُؤَم) الدرع ، أو السلاح بوجه عام ، والمعنى الثانى هو المقصود هنا ، فقد جاء فى (اللسان) : يقال : استلأم الرجل إذا لبس ما عنده من عدة رُمْح وبيضة ومغفر وسيف ونَبْل " ، وفى : (ابن هذيل الأندلسى : حلية الفرسان وشعار الشجعان ؛ نشر محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٣٨) " فإذا لبس الفارس الدرع تقول استلأم أى لبس اللأمة " .

(٥) الأصل : « الجرائر» ، والتصحيح عن : (العماد : الفتح القدسى ، ص ١٦٩) ، و س .

وتواصلت الأمداد من البحر إليهم يتلو بعضها بعضا ؛ وكان كلما نقص من العدو عدد جاء من داخل البحر أمثاله[١] .

وفى هذه السنة توفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى — رحمه الله — وذلك فى تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة ؛ والأمير عز الدين موسك بن جكر[٢] وهو ابن خال السلطان .

وورد على السلطان من مصر كتاب فاضلى يبشر فيه بمولد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان ؛ وهو الذى ملك بعد أبيه — على ما سنذكره إن شاء الله تعالى — وأول الكتاب :

« المملوك يقبّل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر دام رشاده وإرشاده ؛ وزاد سعده وإسعاده ؛ وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده ؛ واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده ؛ وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده ؛ وينهى أن الله — وله الحمد — رزق الملك العزيز — عز نصره — ولدا مباركا [٣٤٩] عليا ؛ ذكرا سويا ؛ برًّا زكيا ، نقيًّا تقيا ، من ذرية كريمة بعضها من بعض ، ومن بيت شريف كادت ولاته تكون ولاة فى السماء ، ومماليكه تكون ملوكا فى الأرض، وكان مقدمه الميمون فى ليلة الأحد ، وهى من الجمعة أولى العدد، وبه وبآله يعز [الله][٣] أهل الجمعة ويذل أهل الأحد » .

---

(١) بعد هذا اللفظ فى س : « قال القاضى » ويقصد به المؤلف ابن واصل .

(٢) الأصل : « موسكى بن خلو » وفى س : « موسى بن حلوا » ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص الوارد فى (الروضتين ، ج ٢ : ص ١٥٠) .

ذكر مسير القاضى بهاء الدين بن شداد

فى الرسالة إلى الشرق وإلى الديوان العزيز

وورد كتاب الملك الظاهر — صاحب حلب — الى أبيه السلطان يخبره أنه صح أن ملك الألمان قد خرج من جهة القسطنطينية فى عدة عظيمة ، قيل إنهم مائتا ألف ، وقيل: مائتا ألف وستون ألفا ، يريد البلاد الإسلامية ، فاشتد على السلطان ذلك وعظم عليه .

قال القاضى بهاءالدين :

"فاستندبنى السلطانُ بالمضى إلى خليفة الوقت [الإمام الناصر لدين الله][1] وإعلامه بهذه الحادثة ، وأمرنى بالمسير إلى صاحب سنجار ، وإلى صاحب الجزيرة وصاحب الموصل ، وإربل ، واستدعائهم الى الجهاد بأنفسهم ، فسرتُ [2] حادى عشر شهر رمضان ، ويسّر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة اليهم ، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم ، وسيّر صاحبُ الموصل ابنه علاء الدين بمعظم عسكره ، ووعد الديوان بكل جميل ، وعدتُ إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسبقت العساكر ، وأخبرته باجابتهم وتأهبهم للسير ، فَسُرَّ بذلك" .

وذكر عماد الدين :

" أن السلطان كان قد سيّر القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى رسولا إلى بغداد ، وأن القاضى بهاء الدين لما وصل إلى حلب متوجها إلى بغداد

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٢) مكان هذا اللفظ فى س : «من» .

صادف القاضى ضياء الدين قد عاد من الرسالة ، فقال ضياء الدين : "انى قد بلغت المراد ، فما هذا الرسول الرابح ؟" ووصل إلى العسكر السلطانى وهو مغتاظ ، وتغير على السلطان ، و(١ نسب إنفاذ القاضى بهاء الدين إلىّ ، ١) ثم اجتمع بالسلطان وعرفه فراغ الشغل و بلوغ المقصود ، وقرّر معه أمرا ، ثم عاد على النجب إلى بغداد وصادف القاضى بهاء الدين بن شداد(٢) فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له : "جواب ما أتيت به مع ضياء الدين ، "(٣) نسيّره(٤) ونندبه فيما نتخيّره "(٤) .

ودخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة :

والسلطان نازل [٣٥٠] بالخروبة على حصار الفرنج المحاصرين لعكا ، مرابطا لجهادهم ، وعنده أخوه الملك العادل ، وولده الملك الأفضل ، وابن أخيه الملك المظفر تقى الدين — صاحب حماة — وكانت العساكر الغربية قد انصرفت إلى بلادها لهجوم الشتاء ، وتوالى الأنواء والأنداء .

ذكر وقعة الرمل(٥)

واتفق أن السلطان ركب يوما فى صفر من هذه السنة للصيد بالبزاة ، فطاب له القنص فأبعد ، وكانت اليزكية على الرمل فى ساحل البحر ، فخرج الفرنج وقت العصر فى عدد لا يحصى ، وتسامع المسلمون بهم فرجعوا إليهم وطردوهم إلى خيامهم ، وقاتلوهم قتالا شديدا حتى فنى نشاب المسلمين ، وشاع نداؤهم

(١) النص فى س : « بسبب إنفاذ القاضى بهاء الدين إلى بغداد » .

(٢) الأصل : «بهاء الدين فعند ذلك فلم يسفر... إلخ» ، وس : «فصادف بهاء الدين ولم يتم له أمر رسالته» ، والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١) .

(٣) س : «بهاء الدين» وما هنا هو الصحيح .

(٤) س : «فرجع وهو منكسر القلب ووصل القاضى ضياء الدين فى النوبة الثانية إلى بغداد وعاد إلى السلطان بالجواب الشافى» ، وما هنا يتفق ونص العماد .

(٥) هذا العنوان غير موجود فى س ، ومكانه : «قال» .

باستدعائه، فلما علم الفرنج بذلك تجاسروا عليهم، وحملوا على المسلمين حملة منكرة، فردوا بها المسلمين إلى النهر، وثبت جماعة من العادلية فى وجه العدو، واستشهد جماعة من الشجعان، وسبب ذلك أنهم صرعوا جماعة من خيَّالة العدو ونزلوا لأخذ سلبهم، ومرت بهم حملة الفرنج، وأعجلوا عن الركوب، فاستشهدوا، ثم أظلم الليل، وافترق الجمعان.

ومن جملة من فُقد من المسلمين الحاجب أيدغمش المجدى[1]، وكان للسلطان مملوك يقال له "سرا سنقر" عثر به جوادُه، فأخذ بعض الفرنج بشعره، وسلَّ آخرُ سيفا ليضربه به، فوقعت الضربة فى يد الذى قبض شعره، فأطلقه، واشتد سراسنقر يعدو وهم خلفه فلم يدركوه، وكان هذا من غريب الاتفاق.

ثم عاد السلطان من صيده فوجد الأمر قد انفصل.

وفى خامس[2] ربيع الأول من هذه السنة تسلم السلطان شقيف أرنون[3] [بعد أن فنى ما فيه من الزاد][3]، وأطلق صاحبه أرناط، فتوجه إلى صور.

ذكر قدوم العساكر إلى خدمة السلطان[4]

ثم دخل الربيع، وجاءت العساكر والنجد يتلو بعضها بعضا، فوصل الملك المجاهد [٣٥١] أسد الدين شيركوه — صاحب حمص —، وسابق الدين عثمان — صاحب شيزَر —، وعز الدين إبراهم بن المقدم — صاحب بعرين وفامية وكفر طاب —، ووصل معهم جموع من أعيان الأجناد وحشود من التركمان والعرب.

(١) س: «الحميدى» وما هنا يتفق والعماد (الروضتين، ج ٢، ص ١٥٢).

(٢) كذا فى الأصل وس، وفى الروضتين وابن شداد: «وفى يوم الأحد خامس عشر».

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س.

(٤) هذا العنوان غير موجود فى س، وإنما مكانه: «قال».

ذكر مقدم[1] السلطان إلى تل كيسان

ولما كثرت العساكر عند السلطان رحل من الخروبة إلى تل كيسان يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول[2] من هذه السنة ، ورتب الأطلاب ، فكان الملك المظفر فى آخر الميمنة ، والملك العادل فى آخر الميسرة ، والملك الأفضل فى أول ميمنة القلب ، وأخوه الملك الظافر فى أول الميسرة على الجانب .

ثم وصل الملك الظاهر — صاحب حلب — ، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقى — صاحب دارا — ، وغيرهم من الملوك والأمراء .

ثم وصل عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — وذلك لثمان بقين من ربيع الآخر ، فأكرمه السلطان وبالغ فى احترامه ، وقدم له شيئا كثيرا من اللطف والتحف ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله إليه ، وطرحت له طرّاحة مستقلة[3] إلى جانبه ، وضربت خيمته على طرف الميسرة .

ووصل فى سابع جمادى الأولى معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى ابن مودود — صاحب الجزيرة — ، فأنزله إلى جانب عمه عماد الدين .

ووصل بعده بيومين ابن عمه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود — صاحب الموصل — نائبا عن أبيه ، فالتقاه السلطان ، واحترمه ، وأنزله

---

(١) س : «تقدم» .

(٢) س : «ربيع الآخر» ، وما بالمتن هو الصحيح فإنه يتفق والنص عند ابن شداد (ص ١٠٢) والعماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

(٣) الأصل ، وس : «مستقبله» والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٠٤) ، والعماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٣) .

عنده فى الخيمة ، وقدم له تحفا كثيرة ، ثم أمر بضرب خيمة له بين ولديه : الملك الأفضل ، والملك الظاهر .

ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين كوجك — صاحب إربل — فأكرمه السلطان ، وأنزله عند أخيه مظفر الدين فى الميسرة .

ذكر وصول رسول[1] الخليفة الإمام الناصر لدين الله تعالى أمير المؤمنين إلى السلطان

[٣٥٢] وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد التبن ببغداد ، وكان قدومه سادس عشر ربيع الأول [2] من هذه السنة ، ومعه حملان من النفط ، وتوقيع بعشرين ألف دينار تُقرض من بعض التجار على الديوان العزيز ، وخمسة[3] من الزرّاقين[4] المتقنين صناعة الإحراق بالنار ، فاعتدّ السلطان بكلما حضر، وشكر عليه الديوان ، وردّ التوقيع عليه ، وقال :

"كل مامعى من نعمة أمير المؤمنين ، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهاد ، لكانت محمولة إلى الديوان" .

وأركب الرسول مرارا ، وأراه معارك القتال ، حتى يشهد بما شاهد ، وأقام عند السلطان مدة ، ثم استأذن فى العود ، فعاد .

---

(١) الأصل ، «رسل» والتصحيح يقتضيه السياق والمعنى .

(٢) س : « سادس عشرين شعبان » ، وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين، ج ٢ ، ص ١٥٢) .

(٣) س : «وجماعة» ، وما هنا يتفق ونص العماد .

(٤) الزراق — والجمع زراقون — هو الذى يرمى النفط من الزراقة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق بها النفط (Dozy : Supp. Dict. Arab) وجاء فى : (النعمانى : الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٥٤) أن النفط كان يرسل من أنابيب تجعل فى السفن وتعرف فى اليونانية باسم « سيفونية » ، وتسمى عند العرب بالزراقات ، تنبعث منها نار النفط بإرعاد ودخان شديد فتحرق السفن .

ذكر نصب الأبراج على عكا وإحراقها

وكان الفرنج قد شرعوا فى بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ، ونقلوا فى البحر آلاتها وأخشابها الجافية ، وقطع الحديد ، وتعبوا فيها سبعة أشهر ، وفرغوا منها فى ربيع الأول من هـذه السنه فعلت كأنها أطواد ، ونُصبت فى ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، وملئت طبقاتها بالعدد والعدة ، وكل برج منها فى أركانه أربع اسطوانات عاليات غلاظ ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد ، وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر [1] وكانوا يقربونها كل يوم من البلد على حسب ما تيسّر لهم ، وكشفوا من جوانبها سور البلد .

ثم شرعوا فى طم الخندق ، وورد الخبر إلى السلطان بأن العدو قد طمّ بعض الخندق وقد قوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فكتب السلطان إلى سائر الأطراف يأمر بالحث على وصول العساكر ، واشتد خوف المسلمين بسبب الأبراج الخشب فإنها كانت فى غاية العظم ، فإن كل واحد منها كان يحمل من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة فارس [٣٥٣] ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، ولم يبق إلا ملاصقة الأبراج السور ، ووقع الناس من حفظ البلد فى تعب عظيم ، وأعمل السلطان فكره فى إحراق الأبراج وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزرّاقين والنفّاطين ووعدهم بالأموال الجزيلة إن أحرقوها ، فضاقت فى ذلك حيلهم .

ولازم السلطان القتال صباح ومساء وفرّق العساكر فرقتين : فرقة تقاتل ، وفرقة تشغل الذين يجرون الأبراج عن جرها ، ورميت بكل قارورة نفط فلم يؤثر فيها شيء .

---

(١) هذا نص هام يفيد من يدرس أدوات القتال فى تلك العصور ، فقد كانوا ينقعون الجلود فى الخل والخمر مدة لتصبح غير قابلة للاشتعال ، ثم يتخذونها ستائر يسترون بها الأبراج والحصون من القذائف النارية ، راجع ما فات هنا أيضا ص ٣٠٢ ، هامش ٥

وكان شاب من أهل دمشق يقال له على، ابن عريف النحاسين مولعا بجمع آلات الزرّاقين وتحصيل عقاقيرها [فوعد السلطان صلاح الدين بإحراقها ، ففرح بذلك ووعده بكل جميل][1] ، فدخل إلى عكا بعد أن حصل من الأدوية التى يعرفها ما يحتاج إليه ، فطبخ الأدوية من النفط فى قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ورمى إحدى الأبراج ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ربيع الأول ، وهو يوم وصول الملك الظاهر ، فاشتعل البرج من ساعته ، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذوائبها نحو السماء ، فاستغاث المسلمون وضجّوا بالتكبير والتهليل ، ثم رمى الثانى بالقدر الثانية ، والثالث بالثالثة ، فأحرق الثلاثة .

وذكر العماد :

أنه رمى الأبراج أولا بقدور نفط خالية من النار ، حتى عرف أنه سقاها ورواها ، ثم رماها بالقدور المحرقة ، فتسلطت النار على طبقات الأبراج ، وذكر أنه احترق فى البرج الأول سبعون[2] فارسا بعدتهم ، واشتد سرور المسلمين بهذا الفتح .

وحُمل الزرّاق إلى السلطان [فأعطاه شيئا كثيرا][3] ، فلم يقبل عطاه وقال : « هذا عملته لله ، فما أريد من سواه جزاء » . [[3] فأوقف السلطان عليه قرية من خيار قرى دمشق][3] ، وخرج أهل عكا من البلد ، فطفوا النار ، وسدوا الثغر ، وجاءوا إلى مواضع الأبراج فاستخرجوا حديدها ، وما وجدوا من الزرديات والعدد التى سلمت فأخذوها .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٩٧ ا) .

(٢) س : «تسعون» وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤) وبعد هذا اللفظ فى س : «وكذلك فى الثانى والثالث أعظم من ذلك» .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

ذكر وصول الأسطول[1]

[٣٥٤] ووصل الأسطول ، فخرج السلطان إلى لقائه بجميع كتائبه ، وجهزت الفرنج أساطيلهم لمقاتلة أسطول المسلمين ، فطحن أسطولُ المسلمين أسطولَ الفرنج ، وأخذ منهم مركبا برجاله وأخذ العدو من أسطول المسلمين مركبا ، واشتد القتال بين الفريقين فى البحر إلى أن حجز بينهما الليل ، فتفرق الأسطولان وقد قتل من الفرنج مقتلة عظيمة .

وذكر عماد الدين :

أنه حرر ما قتل من الفرنج فى مدة الحرب فكان أكثر من مائة ألف[2] .

ذكر خروج ملك الألمان

لنصرة الفرنج المنازلين لعكا وما آل إليه أمره

وقد ذكرنا وصول الخبر إلى السلطان فى سنة خمس وثمانين بخروج ملك الألمان إلى بلاد الإسلام[3] فيما يزيد على مائتى ألف مقاتل ، وكان الحامل لملك الألمان على هذا الخروج ما بلغه من انكسار الفرنج بحطين قتلا وأسرا ، وأخذ بلادهم وانتزاع البيت المقدس منهم ، الذى فيه قمامتهم ، ومحل ضلالتهم ، فحملته الحميّة لدينه والانتصار لبيت معبوده على أنه جمع وحشد ، وسار فى أمم لا تدخل تحت

(١) هذا العنوان غير موجود فى س ، وإنما مكانه : «قال» .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س : « ما بين فارس وراجل وغيرهم » ثم افتدي السلطان أسطوله بأسطول الفرنج» .

(٣) س : «بلاد الشام» .

الحصر ، فسار مدة شهور حتى وصل قسطنطينية ، وهى يومئذ مع الروم ، فكتب ملك الروم بها إلى السلطان يخبره بأخبارهم ويقول :

« أنا لا أمكنهم من العبور »[١] .

ثم إنه لما لم يقدر على منعهم لم يسعفهم بزاد ، فضاقت عليهم الأقوات وقلت ، ثم عبروا خليج القسطنطينية رقد اشتـــدت ضائقتهم ، وكثرت جموعهم وجوعهم[٢] ، ولما سلكوا[٣] إلى حدود بلاد الإسلام سلكوا فى الأودية والآجام ، نخطفتهم التركمان ، ودخل الشتاء ، فتراكمت عليهم الثلوج ، فاحتاجوا إلى أكل الدواب ، وأحرقوا عددهم لعوز الحطب عندهم ، وعدموا العلف ، وكانوا مع هـــذا جاهلين بالبلاد ؛ لا يقطعون فرسخا إلا فى يومين ، وذهبت بركتهم ؛ وصاروا كل يوم فى نقص من أنفسهم ودوابهم ، ودفنوا من عُدَدِهم ما عجزوا عن نقله ، ثم عرضوا عسكرهم [٣٥٥] بعد أشهر بعد ما نقص مَنْ نقص منهم فكانت ستين ألف مدرع .

ولما قربوا من بلاد الملك قِلِج أرسلان بن مسعود السلجوقى فنهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه بن قِلِج أرسلان ، فوقع بينهم مصاف فكسروه ، واندفع عنهم إلى مدينة قونية ، فساقوا وراءه ، ودخلوها ، وأحرقوا أسواقها[٤] ، فنفذوا إلى قِلِج أرسلان :

” إنا لم نصل لأخذ بلادك ، وإنما نزلنا لثأر البيت المقدس “ .

---

(١) بعد هذا اللفظ فى س (٩٨ أ) : « فطاب قلب السلطان » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود فى س .

(٣) س : «ولما وصلوا» .

(٤) س : « أسوارها » .

ونفذوا إليه هدايا ، وطلبوا الهدنة منه ، فهادنهم ، [فبقوا فى بلاده مدة ، ولم يؤذوا أحدا منها ، وتقوّوا بعد ذلك بما أرادوا من بلاده][1] من العدة والأزواد ، وبعث قِلِج أرسلان وابنه إلى السلطان يعتذران من تمكينهم إياه من العبور ، وأنهم غلبوا على ذلك .

ثم طلب ملك الألمان من قِلِج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم تمنعهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن ، فنفذ معهم خمسة وعشرين أميراً ، وكان ذلك موافقا لغرض قطب الدين ، لأنه كان كارها لجماعة من المقدمين ، فتقدم إليهم بأن يكونوا فى صحبة ملك الألمان ، [فساروا معه][2] فما قدروا على منع اللصوص والسراق ، فغضب عليهم ملك الألمان ، وقيدهم بعد أن أخذ كل ما كان معهم ، ثم منهم من خلص بعد ذلك ، ومنهم من مات فى الأسر .

ووصل ملك الألمان إلى بلاد الأرمن ، ومقدمهم لافون بن اصطفانه بن لاون ، فوصل إلى خدمة ملك الألمان ، ودخل فى طاعته ، وأقام لهم الإقامات والعلوفات ، وهداهم الطريق ، فنزلوا بطرسوس ، وأقاموا بها أياما ليريحوا أنفسهم ، فعنّ لملك الألمان أن يسبح فى النهر ، فسبح فعرض له مرض شديد أدّاه إلى الموت ، وأراح الله المسلمين منه .

وذكر فى سبب هلاكه أنه لما عبرت جموعه[3] النهر ازدحموا والتطم الموج بهم ، واقتحموا ، فطلب الملك موضعا يعبر فيه وحده ، فدخل فى مخاضة قوية الجرية فاختطفه سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو فى آخر رمق ، فهلك عن قرب .

---

(١) الأصل ، « فتقووا بمن بلاده بما أرادوا من العدة الأزواد » وهى جملة مضطربة المعنى وما بين الحاصرتين نص س وهو أصح .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س (٩٨ ب) .

(٣) الأصل : « جموعهم » والتصحيح عن س .

[ووصل إلى السلطان][1] كتاب كاغيلوس الأرمنى — صاحب قلعة الروم — وهو للأرمن بمنزلة الخليفة عندنا ، ونسخة كتابه :

"كتاب الداعى المخلص كاغيلوس : مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع عَلَم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين[2] ، سلطان الإسلام والمسلمين ، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر[3] غصبا ، ثم دخل أرض مقدِّم الروم ، وفتح البلاد ونهبها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه ، وأربعين نفرا من خلصائه[4] ، وأخذ منه[5] خمسين قنطاراً ذهبا ، وخمسين قنطارا من فضة ، وثياب أطلس مبلغا عظيما ، واغتصب المراكب ، وعدَّى بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قلج أرسلان ، وردَّ الرهائن ، وبقى سائرا ثلاثة أيام ، وتركمان الاوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع ، فيداخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركمان وبينهم ، وضايقوه ثلاثة أيام[6] وهو سائر.

ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولدُ قلج أرسلان العساكر وقصده ، وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردَّهم مكسورين ، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالما عظيما من المسلمين ، وأقام بها خمسة أيام ،

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٩٨ ب) ، وبها يتم المعنى .

(٢) الأصل : « الدين والدنيا » ، وما هنا عن س ، وهو أفضل لتتم به السجعة التالية .

(٣) الأصل : : « الهنك » ، وما هنا عن س ، وهو الأصح ، والمقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر

(٤) س : « جلسائه » .

(٥) الأصل : « منهم » وما هنا عن س ، وهو الأصح .

(٦) الأصل ، « ثلاثة وثلاثين يوما » ، والتصحيح عن س (١٩٩ ا) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٥) .

فطلب قلج أرسلان منه الأمان، فأمّنه الملك، واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل .

وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله بشرح حاله ، وأين قصده، وما لقى فى طريقه، وأنه لابد يجتاز بهذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتما ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك فى جواب كتابه ، وكانت الوصية معهم إلى بلاد قلج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب، وعرفوه الأحوال أبى إلا الانحراف، [٣٥٧] ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط نهر ، وأكل خبزا ، ونام ساعة ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام فى الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم فى الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما لافون فكان سائرا يلقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال فدخل فى بعض حصونه ، واحتمى هناك .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه البلاد نصب ولده الذى هو معه عوضه ، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم ، وقال :

" إن أبى كان شيخا كبيرا ، وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك، وعانيت المشاق فى هذه الطريق، فمن أطاعنى[1] وإلا بدأت بقصد دياره " .

---

(١) س ، « فمن لم يطعنى » .

واستعطف لافون ، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ؛ وبالجملة هم فى عدد كثير ، ولقد أعرض عسكره فكان اثنين وأربعين ألفا[1] ، وأما الرجالة فلا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم أجناس متفاوتة ، وخِلَق غريبة[2] ، وهم على قصد عظيم وجد وسياسة هائلة ، حتى أن مَنْ جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة ، ولقد بلغهم[3] عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز الحد فى ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم ، واقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق كثير منهم ، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ[4] على أنفسهم ، حتى إن أى من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزّروه ، وكل ذلك كان حزنا على بيتِ المقدس ، ولقد صحّ عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب فى حال عظيم" هذا آخر كتابه .

ولما هلك عدو الله ملك الألمان قام بالملك بعده ولده ، واجتمعت العساكر على طاعته ، ثم سار بهم إلى أنطاكية ، وقد تمّ المرض أكثرهم ، وصار معظمهم حَمَلَةَ عصى وركّابَ حمير .

ولما وصلوا إلى أنطاكية [٣٥٨] تبرم بهم صاحبها ، وثقلت عليه وطأتهم فحسّن لهم قصد بلاد حلب ، فلم يفعلوا ، وطلبوا من صاحب أنطاكية قلعته لينقلوا إليها ما معهم من المال والخزائن والثقل ، فأخلاها لهم طمعا فى أن يفوز بما ينقلونه

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى س (٩٩ ب) : « اثنين وأربعين ألف فارس » ، وفى (ابن شداد : السيرة ، ص ١٠٩) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٥) : « إثنين وأربعين ألف مجفجف »

(٢) توجد بعد هذا اللفظ فى س الجملة الآتية : « وهذا المعظم بعد ما هلك منهم خلق مثلهم فى طريقهم » ، ولا توجد هذه الجملة فى الأصل المنقول عنه هنا وهو (ابن شداد : السيرة ، ص ١٠٩)

(٣) س : « بلغ ملكهم » .

(٤) الأصل : « البلاد » ، والتصحيح عن ابن شداد و س .

إليها من المال ، وكان الأمر على ما حدس ، فإنهم لما فارقوا أنطاكية لم يعودوا إليها ، وفاز الابرنس — صاحب أنطاكية — بكل ما صار فيها .

وجاءت فرقة من الألمانية إلى بَغْرَاس ، وظنوا أنها بعدُ بأيدى الكفر، ففتح والى القلعة الباب، وأخرج أصحابه، وتسلم ما مع الألمانية من الأموال بصناديقها، وأسر منهم وقتل كثيرا ، وخرج بعد ذلك أهلُ حلب وجندُها إلى طريقهم والتقطوهم ، فكان الواحد يأسر جماعة منهم ، ودانوا فى الأنفس بعد ما كان قد تُهيبوا هيبة عظيمة ، وبيعوا فى الأسواق بالثمن البخس .

وذكر القاضى بهاء الدين بن شداد :

أن ملك الألمان لما توفى وقام ولده مقامه ، مرض مرضا عظيما فى بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا ، وأربعون داويّا ، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ، ومقدمها كند كبير[1] عندهم، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتى رجل قهرا ونهبا ، وكتبوا إلى السلطان يخبرون عنهم بالضعف العظيم ، والمرض الشديد ، وقلة الخيل والعدد والآلات .

ولما اتصل خبرهم بالنواب بالبلاد الشامية سيّروا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقعوا على جمع عظيم منهم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فقتلوا وأسروا زهاء عن خمسمائة نفس[2] .

قال القاضى بهاء الدين :

ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ، ويقول : "هم عدد كثير ، ولكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة، وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة"، قال الحاكى :

---

(١) الأصل : « فقدمها لبذكر » والتصحيح عن س (١٠٠ أ) .

(٢) س : « فارس » » .

"ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدتُ مع أحد منهم طارقة[1] ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم أياما ، وقلت أزوادنا وأحطابنا ، فأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها"

ومات الكُنْد الذى وصل [٣٥٩] إلى أنطاكيه ، وطمع ابن لاون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك ، لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تخلف معه .

ولما تحقق السلطان [صلاح الدين] وصول الألمانيين إلى بلاد الأرمن ، وقربهم من البلاد الشامية ، شاور أمراءه فيما يصنع ، فوقع الاتفاق على تسيير بعض العساكر إلى طريقهم ، وأن يقيم على منازلة العدو ببقية العساكر ، فكان أول من سار الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر [تقى الدين]، وكان إقطاعه منبج ، ثم سار عز الدين بن المقدم — صاحب بعرين[2] وأفامية — ، ثم الملك الأمجد — صاحب بعلبك — ، ثم سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيزر — ، ثم الياروقية من عسكر حلب ، ثم عسكر حماة ، ثم سار الملك الأفضل ولد السلطان لمرض عرض له ، وكذا بدر الدين[3] — شحنة دمشق — ، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لحفظ ما يليه من البلاد ، ثم سار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدبير أمر العدو المجتاز .

ولما سارت هذه العساكر خفّت الميمنة ، فأمر السلطان أخاه الملك العادل ، فانتقل إلى منزلة الملك المظفر فى طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — فى طرف الميسرة ، ووقع فى العسكر مرض شديد ،

---

(١) راجع ما فات هنا ص ٢٧٩ ، هامش ٣

(٢) س : « بغراس » .

(٣) س : « عز الدين » وما هنا يتفق وابن شداد (السيرة اليوسفية ، ص ١١٠) .

فرض مظفر الدين بن زين الدين — صاحب حرّان — ، ثم شفى؛ ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان ، ومرض خلق من الأكابر ، إلا أن المرض كان سليما ، وكان عند العدو مرض عظيم وموتان كثير ، وتقدم السلطان بهدم سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل ، وانتقل أهلها إلى بيروت .

ذكر الوقعة العادلية على عكا

لما علم الفرنج أن عساكر المسلمين قد تفرقت فى أطراف البلاد ، وأن ميمنة العسكر قد خفّت بسبب من سار منها لأجل حماية البلاد من العدو الواصل ، أجمع رأيهم واتفقت كلمتهم على الخروج من معسكرهم بغتة ، والهجوم على طرف الميمنة بجأة ، فخرجوا ، وقصدوا الميمنة ، وفيها مخيم الملك العادل ، فلما نظر الناس لهم صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان ، ونادى مناديه : « ياللإسلام ! » [1] وكان أول [٣٦٠] راكب .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

" لقد رأيته وقد ركب من خيمته ومعه نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم ركوبهم ، وهو كالفاقدة لولدها والثكلى لواحدها ، ثم ضُربت كوساته [2] ، فأجابتها كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب النـاس ، ووصل الفرنج إلى مخيم العادل قبل استتمام ركوب العساكر ، ودخلوا فى وطاقته [3] ، وامتدت أيديهم فى السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، ووصلوا إلى خيمته

---

(١) الأصل : « الإسلام » ، وما هنا عن (ابن شداد : السيرة ، ص ١١٢) ، وفى س : « يال الاسلام »

(٢) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١ ، هامش ٢)

(٣) س : « وطاقه » . والوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية (أوتاق ، أو أوطاق ، أو أوتاغ) ومعناه الخيمة ؛ أو مجموعة الخيام ؛ أو المعسكر ؛ أو الغرفة . أنظر : (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*)

الخاصة ، وأخذوا من الشراب خاناه شيئا ، وركب الملك العادل ، وركب معه من يليه من الميمنة ، كالأمير صارم الدين قايماز النجمى ، والأمير عز الدين جُرْديك النورى ، ووقف بمن معه حتى توغل الفرنج ، وطمعوا فى المخيم ، واشتغلوا بالنهب ، وعاثت أيديهم فى الخيام والأقمشة والفواكه والأطعمة .

فلما علم [الملك العادل][١] اشتغالهم صاح بالناس ، وحمل — رحمه الله — بنفسه ، يقدمه ولده الأكبر شمس الدين مودود ، وهو والد الملك الجواد مظفر الدين يونس ، وحمل لحماته من كان يليه من الميمنة حتى وصل الصياح إلى عسكر الموصل ، فهجموا على العدو ، واشتد القتال ، ووقعت الكسرة على الفرنج ، فولوا على أدبارهم ، منهزمين نحو خيامهم ، وأخذتهم السيوف من كل ناحية ، وصاح صائح السلطان [صلاح الدين][١] :

" يا أبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه ؛ فبادروا إلى إجابته " .

[فحملت][١] حلقته وخاصته ؛ ثم طُلْب عسكر الموصل ، ومقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، [فتقدموا وتقدم بعدهم][١] عسكر مصر ومقدمهم سنقر الحلبى ، وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، وقامت الحرب على ساق ، ولم يك إلا ساعة حتى ردوا [٢] القوم من حد خيام الملك العادل إلى خيامهم ، ولم ينج من القوم إلا النادر ، وأسر من الفرنج يومئذ نفر يسير ، لأن السلطان أمر ألا يُستبقى أحد ، وهذا كله كان فى الميمنة ، وفى بعض القلب .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠١) .

(٢) الأصل : « زوى » والتصحيح عن س ، أنظر أيضا : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١١٢) .

وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر لبُعْد مابين المسافتين ، وكان مبتدأ هذه الوقعة منتصف النهار من يوم الأربعاء لعشر بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — أعنى سنة ست وثمانين وخمسمائة — ، [٣٦١] ولم يفقد من المسلمين سوى عشرة أنفس غير معروفين ، ولما شاهد المسلمون بعكا من الأسوار هذه الوقعة خرجوا من البلد ، وجرى مقتلة عظيمة ، وهجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة ، حتى القدور فيها الطعام ، واختلف فى عدد القتلى [من الفرنج] (١) ، فقيل عشرة آلاف ، وقيل ثمانية آلاف ، ولم ينقصهم أحد فى الحزر عن خمسة (٢) آلاف .

قال القاضى بهاء الدين :

" لقينا إنسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم ، فقلت له : كم عددت ؟ فقال : إلى ههنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا ، وكان قد عدَّ صفيْن ، وهو فى الصف الثالث ، وكانت الصفوف خمسة ، لكن مامضى من الصفوف أكثر عددا من الباقى " .

وذكر عماد الدين الكاتب :

" أنهم كانوا مفروشين فى مدى فرسخ من الأرض ، وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض ، وكل صف يزيد على ألف قتيل " .

وشرع الفرنج فى الخداع والمراسلة ، وسألوا فى الصلح .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٠١ ب) .

(٢) س : « سبعة آلاف » ، وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٨) .

ذكر قوة الفرنج

بوصول الكُنْدهرى إليهم وتحول السلطان إلى الخروبة

لما وقعت هذه الوقعة العظيمة وَهَنَ الفرنجُ وخافوا ، فلو أن السلطان عاودهم القتال فيه مرة بعد أخرى لاستأصلهم وأطفأ جمرتهم لكن لما يختاره الله تعالى تهاون بهم ، واشتغل عن قتالهم ، فوصلت إليهم النجد [من البحر](١) ، وتقووا ، وورد إليهم أضعاف من هلك منهم ، ووصل إليهم كُنْد عظيم — يعرف بالكُنْدهرى — قد فرق الأموال واستخدم الرجال ، وأنفق فى عشرة آلاف راجل ، وأظهر أنه يريد الخروج إلى لقاء عسكر الإسلام ، فتحول السلطان إلى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة ، ونصب الكُنْدهرى على عكا منجنيقات عدة ، فأحرقها المسلمون ، وقُتل من الفرنج سبعون فارسا ، وأسر عدة معروفون ، ثم نَصَبَ منجنيقين آخرين (٢) فأحرقا أول شعبان ، وأَنْكَتْ (٣) فيهم العرب بالسرقة والنهب ، وكذلك مَنْ بعكا من المسلمين .

ذكر مكاتبة ملك الروم بقسطنطينية للسلطان بالمودة

وإقامة الخطبة [له] (٤) ببلده

وكان بين السلطان و بين ملك الروم بقسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان قد وصل منه رسول إلى الباب السلطانى — والسلطان [٣٦٢] إذ ذاك بمرج عيون — فى جواب رسول كان أنفذه السلطان فى تقريره القواعد و إقامة الخطبة فى جامع القسطنطينية ، وهو الجامع القديم الذى بُنِى فى عهد بنى أمية ، فمضى (٥) الرسول

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠٢ ا) . (٢) س : « ثم نصب منجنيقات أخر » .

(٣) الأصل : « وانكب » : والتصحيح عن س . (٤) ما بين الحاصرتين عن س .

(٥) الأصل و س : « فأقام » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠) .

وأقام الخطبة ، ولقى باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان السلطان قد أنفذ معه فى المركب الخطيب والمنبر وجمعا[1] من المؤذنين ، وكان يوم دخولهم إلى القسطنطينية يوما مشهودا عظيما من أيام الإسلام ، وكان ثمّ جمع كثير من المسلمين من التجار ، ورقى الخطيب المنبر وأقام الدعوة الإسلامية العباسية .

ثم عاد رسول السلطان ومعه رسول ملك الروم وبيده كتاب من الملك مختوم بالذهب ، يتضمن إعلام السلطان وتمكينه من إقامة الخطبة ببلده ، واستعطاف السلطان وإظهار مودته ومحبته ، واعتذر إلى السلطان من عبور ملك الألمان ببلاده ، وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى ، وناله من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع .

ذكر ما آل إليه حال ابن ملك الألمان وأصحابه

قد ذكرنا نزول الألمانيين بأنطاكية ، وأنهم طلبوا من صاحبها قلعة أنطاكية ، لينقلوا إليها خزائنهم وذخائرهم ، وأنه أجابهم إلى ذلك طمعا فيها ، ولما كان الخامس والعشرون من رجب من هذه السنة سار ابن ملك الألمان من أنطاكية طالبا عكا فى جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس ، وكان قد سار إليه المركيس — صاحب صور — من معسكر[2] الفرنج لأجل تلقيه ، وكان هو الأصل فى استدعاء أهل الكفر إلى هذه الواقعة ، فلما وصل إليه قوى قلبه وبصّره بالطريق ، وسلك به الساحل ، وكانت عدة من معه لما وصل إلى طرابلس خمسة آلاف بعد ذلك الجمع العظيم الذى خرج معه من بلاده .

ونزل ابن ملك الألمان فى البحر فى بعض أصحابه .

---

(١) الأصل وس : « جمع » والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١١٦) وانظر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠)

(٢) س (١٠٢ ب) : « بعسكر من الفرنج » .

وسار الباقون على الساحل ، فثارت على ابن ملك الألمان ريح فأهلكت من أصحابه ثلاث مراكب ، ووصل ابن ملك الألمان إلى عكا فى جمع قليل فى سادس [٣٦٣] رمضان ، فلم يظهر لهم موقع ، ثم هلك ابن ملك الألمان على عكا فى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وأطفأ الله جمرته وجمرة أصحابه ، وأبادهم بعد أن كان المسلمون قد يئسوا — لكثرتهم — من بلاد الإسلام ، وتيقنوا أنهم لاطاقة لهم به ، ففعل الله تعالى ما لم يكن فى حسابهم .

ذكر الواقعة الكائنة عند وصول ابن ملك الألمان

ولما وصل ابن ملك الألمان رام أن يظهر لمجيئه وقعا ، فركب فى الفرنجية فارسها وراجلها وقربوا من تل العياضية ، وعليه خيم اليزكية ، والنوبة فيها للحلقة السلطانية وعسكر الموصل ، فقابلهم اليزك ، وركب السلطان ، وتقدم إلى تل كيسان ، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن جن الظلام ، وكانت الدائرة على الكفار ، فقتل منهم وجرح خلق كثير، فلم يزل السيف يعمل فيهم وهم هاربون حتى وصلوا إلى مخيمهم ، ولم يقتل من المسلمين ذلك اليوم إلا رجلان ، وجرح جماعة كثيرة .

ذكر دخول الميرة إلى عكا

وكان السلطان قد أعدّ ببيروت بطشة[1] عظيمة ، وأودعها أربعمائة غرارة قمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاج اليه ، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول البلد منعا له من أن يدخل إليها ميرة ، وكانت حاجة أهل البلد قد اشتدت جدا إلى الطعام ، فركب فى تلك البطشة جماعة من المسلمين وتزيّوا

---

(١) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٧٧ ، هامش ١

بزىّ الفرنج ، وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطشة ، وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين إلى البلد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا عليهم واعترضوهم فى الحراقات[1] والشوانى ، وقالوا لهم :

" نراكم قاصدين البلد " واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : " أولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ " فقالوا : " لا ، لم نأخذ البلد بعد " فقالوا : " نحن نزد القلوع إلى العسكر وورانا بطشة أخرى فى هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد " .

وكان وراءهم بطشة أفرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدة إلى العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، واشتدت البطشة الإسلامية فى السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، واشتد الفرح والسرور بذلك ، وكان ذلك فى العشر الآخر من رجب .

ولما كان العشر الأول [٣٦٤] من شعبان كتب الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو والى البلد — ، والحاجب لؤلؤ — وهو مقدم الأسطول — يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر مايكفى البلد إلى ليلة النصف من شعبان ، فكتم السلطان ذلك لئلا يسمع[2] الأمر ، وقد كان كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث

(١) الحراقة (والجمع : حراقات وحراريق) نوع من السفن الحربية التى استعملها المسلمون فى العصور الوسطى ، عرفها صاحب (محيط المحيط) وصاحب (تاج العروس) بأنها سفن بالبصرة فيها مرامى نيران يرمى بها العدو ، وذكرها (ابن مماتى : قوانين الدواوين) فقال أنها أصغر من الشينى ، وأنها تسير بنحو مائة مجذاف . والنصوص المختلفة تفيد أن هذا النوع من السفن الحربية كان يستعمل بكثرة فى مياه البحر الأبيض المتوسط وفى نهر النيل إبان الحروب الصليبية . أنظر : (المقريزى ، ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ و ٣٥٨) و (البتانونى : رحلة الأندلس ، ص ١٤١) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٦٤ ، ص ٨١ — ٨٢) ، وهناك نصوص أخرى تفيد أن هذا اللفظ كان يطلق على نوع من السفن الصغيرة المستعملة للنزهة والنقل فى مياه نهر دجلة فى العصر العباسى . انظر مثلا : (البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر كرد على ، ص ٢٩١) و (هلال الصابى : تاريخ الوزراء ، ص ١٩) وراجع أيضا : (Kindermann ; *Schiff im Arabischen*. p. 22—23) و (الشيال : معجم السفن الحربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(٢) س (١٠٣ ب) : « يشيع » .

بطش مشحونة بالأقوات والميرو ما يكفى البلد إلى آخر الشتاء ، فأقلعت البطش الثلاث من الديار المصرية وطابت لها الريح ، ووصلت إلى عكا ليلة النصف من شعبان ، وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم ، فخرج عليها أسطول العدو يقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس فى تهليل وتكبير وقد كشفوا رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى بسلامتها ، ولم يزل القتال بين أسطول العدو وبين البطش إلى العصر من ذلك اليوم ، ووصلت سالمة ، وكانت ليلة بليال .

ذكر المكاتبة إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتابا منه :

" وقد بُلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت[1] ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار ، وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامتثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على قمامتهم ، لا يطابون مع شدة الإملاق[2] مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش[3] ويقتحمون الردى متدرعين للصبر متثبتين الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن[4] متبرزات ،

(١) س (١٠٤ أ) : « واستحبوا الفوت » وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦١) .

(٢) س : « الوقت » وما هنا يتفق ونص العماد : (المرجع السابق) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س : « على لهب السراج » ، وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

(٤) الأصل : « بلادهم » والتصحيح عن العماد و س .

وسرن إلى الشام فى البحر متجهزات ، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل : [فارس وراجل][1] ورامح ونابل ، والتزمت مؤنتهن ، فصودف مركبها بقرب الاسكندرية ، وأخذت برجالها ، وأراح الله من شر احتفالها .

ومنهن ملكة وصلت مع ذلك الجمع ، ذوات المقانع من الفرنج مقنعات دارعات [2] ، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات[3] ، وقد وُجدت فى الوقعات [٣٦٥] التى جرت عدةٌ منهن فى القتلى ، فما عُرفن حتى سُلبن .

وأن البابا الذى لهم برومية قد حرَّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال : " من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندى محروم لا منكح له ولا مطعم " . فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود ، وقال لهم : " إنى واصل فى الربيع ، جامع على الاستغفار شمل الجميع " ، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول لله أهل وولد .

فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم فى ضلالهم ولجاجتهم فى غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فانهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتقللون ولا يجتمعون ، ويتسللون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة ، ليعلم أن الإسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بارادة الله محسور مدحور " .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن النص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) ، والنص فى س : " خمسمائة فارس ما بين مقاتل ورامح ونابل " .

(٢) يختلف نص العماد ونص س عما هنا قليلا ، فهو عند العماد : « ومنهن ملكة وصلت مع ملك الألمان وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات » ، وفى س : " ومنهن ملكة وصلت مع ذلك إلى عسكر الفرنج فى ذوات المقانع مقنعات دارعات " .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، هامش ٢) .

ذكر ما اتخذه العدو من آلات الحصار

واتخذ العدو دبابة عظيمة يدخل تحتها خلق عظيم، وهى ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد [وهى تسمى كبشا تنطح السور بشدة عظيمة](١) لكثرة من يجرها ، فتهدمه بتكرار نطحها .

واتخذ آلة أخرى ، وهى قبو (٢) وفيه رجال تسحبها ، ورأسها محدد (٣) على شكل السكة التى يحرث بها ، وأما رأس الكبش فمدور ، فهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وتسمى هذه السكة سفودا .

واتخذ أيضا ستائر وسلاليم هائلة كبار .

واتخذ فى البحر بطشة هائلة ، وفيها برج بخرطوم ، فاذا أريد قلبه على السور انقلب بحيل هندسية ويبقى طريقا إلى المكان الذى تنقلب عليه ، ليمشى عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه .

---

(١) النص فى الأصل ناقص مضطرب وهو " من حديد شديدة عظيمة " ، وقد صحح إلى ما بين الحاصرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص١٢٦) وس (١٠٤ ب) ، وانظر أيضا (الروضتين ، ج٢ ، ص ١٦٢) . وهذا شرح واضح لإحدى آلات القتال فى تلك العصور ، وهى " الكبش " .

(٢) بعد هذا اللفظ فى الأصل جملة زائدة يضطرب بها المعنى فحذفناها ، وهى : " وهى كبشا ينطح بها السور " .

(٣) الأصل : " محدود " ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين وس .

ذكر إحراق منجنيقات العدو

ونصب العدو على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور، وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا وخيف على البلد ، فأحرق بعض المسلمين سهمين من سهام الجرخ الكبير حتى صارا كالشعلة من النار، ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو فى اطفائه فلم يقدر على ذلك [٣٦٦] وهبت ريح شديدة ، واشتعل اشتعالا عظيما واتصل لهبه بالآخر فاحترق ، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال فى اطفائهما ، فاشتد بذلك فرح المسلمين .

ذكر إحراق ما حوصر به بُرْج الذُّبَّان

وتحريق الكبش

ولما كان الثانى والعشرين من شعبان من هذه السنة — أعنى سنة ست وثمانين وخمسمائة — قصد العدو محاصرة برج الذبان ، وهو برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا، يحرس منه الميناء، ومتى عبره المركب[1] أمن غائلة العدو، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه، ويمتنع بذلك دخول شئ من البطش إلى عكا ، فتنقطع الميرة عن البلد ، فجهزوا بطشا متعددة ، وجعلوا على صوارى البطش برجا ، وملئ حطبا ونفطا ، وقصدوا أن يسيروا البطش ، فاذا قاربت البرج ولاصقته أحرقوا البرج الذى على الصارى ، وألصقوه بالبرج ليلقوه على

(١) الأصل : "ومن غير المراكب" ، وس "ومن عبر المراكب" والتصحيح عن (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٢٣) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .

سطحه، فيهلك كل من على البرج[1] من المقاتلة ويأخذونه ، وجعلوا فى البطشة وقودا كثيرا حتى يلق فى البرج إذا اشتعلت النار فيه .

وعينوا[2] بطشة ثانية وملؤوها حطبا ووقودا، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطش الإسلامية ، ثم يحرقونها ، فتلهب البطش الإسلامية ، ويهلك ما فيها من الميرِ.

وجعلوا فى بطشة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شئ من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهـوا مسعدا [3] لهم ، فلما حرقوا البطشة التى أرادوا أن يحرقوا بها بطش المسلمين ، والبرج الذى أرادوا أن يحرقوا به مَنْ على البرج ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط ، وقدر الله انعكاس الهوا عليهم، فاشتعلت البطشة التى كان فيها البرج بأسرها، وهلك كل من كان بها من المقاتلة، واحترقت البطشة الأخرى التى أريد بها إحراق بطش المسلمين، ووثب المسلمون فأخذوها إليهم، وأما البطشة الثالثة التى بها القبو فاضطرب[٣٦٧] من بها وخاف، ووقع بينهم اختلاف، فانقلبت بمن فيها وأغرقتهم ، وأذلّ الله الكافرين، وأنزل بهم عقوبته .

ولما كان الثالث من شهر رمضان زحف العدو على البلد فى خلق لا يحصى، فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخاليب أطماعهم فيهم ، وسحبوا آلاتهم التى قدمنا ذكرها حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وحصل منهم فى الخندق جمع عظيم ،

---

(١) النص فى س : " فيهلك كل من على برج الذبان الذى قبالة البلد من المقاتلة " .

(٢) كذا فى الأصل وس ، وفى ابن شداد والروضتين : "وعبوا" .

(٣) الأصل : " مستعدا " ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ١٢٤) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٣) وس (١٠٥ ا) .

فأطلق أهل البلد عليهم الجروخ والمجانيق والنيران ، وفتحوا الأبواب دفعة ، وهجموا على العدو ، وكبسوهم فى الخنادق ، فهربوا ، ووقع السيف فيمن بقى على الخندق .

ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، فاحترق حريقا شديدا ، وارتفع لهبه إلى السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، وسرت نار الكبش إلى السفود ، فاحترق حريقا شنيعا ، وعلّق المسلمون فى الكبش كلاليب الحديد المصنوعة فى الأسل [١] فسحبوها وهو يشتعل حتى حصل عندهم فى البلد ، وألقى عليه الماء حتى برد حديده ، وكان وزن ما فيه من الحديد مائة قنطار بالشامى ، ثم سيّروا رأسه إلى السلطان لينظره .

وفى السادس عشر من شهر رمضان وصل الخبر إلى السلطان بأن الابرنس — صاحب أنطاكية — أغار على بلاد حلب فخرج إليه نواب الملك الظاهر ، فقتلوا من عسكره خمسة وسبعين نفرا ، وأسر خلق كثير ، فاعتصم بموضع يسمى شيح حتى اندفعوا ، وسار إلى بلده .

وفى العشر الأوسط من الشهر ، ألقت الريح بطشتين فيهما رجال ونساء وميرة عظيمة وغنم كثير قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر للمسلمين ببركوس [٢] فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول للبلد ، فكان أخذ هاتين البطشتين جابرا .

---

(١) كذا فى الأصل وفى (الروضتين، ج ٢، ص ١٦٤) ، وفى س و (ابن شداد) : "السلاسل"

(٢) الأصل : " بتركوس " ، وس : " مركوس " بدون نقط ، والتصحيح ما ذكرناه ، والبركوس — والجمع براكيس — نوع من السفن التى كانت تستعمل فى الحروب بين الشرق والغرب فى مياه البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى ، وهى أصغر حجما من البطسة ، جاء فى (ابن شداد : السيرة اليوسفية) : "وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر فى براكيس و بطس إلى العدو ، فأذن لهم =

ذكر رحيل السلطان إلى المنزلة المعروفة بشَفَرَعَم[1]

وسبب ذلك أنه بلغه عزم الفرنج على الخروج مرة ثانية لأخذ ثأرهم ، وكثر المستأمنون[2] عنده ، وتواترت أخبارهم إليه بذلك ، فتأخر إلى هذه المنزلة ، لتكون أفسح للقاء ، فأقام مستعـدا لدخول الشتاء ، وذلك فى تاسع عشر رمضان .

= فى ذلك ، وأعطاهم بركوسا — وهو المركب الصغير — "، وجاء فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) : " خاف جماعة ممن كان فى البلد فأخذوا لهم بركوسا ، وهو مركب صغير " ، وقد ذكره (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) — وإن كان الناشر الدكتور سوريال قد أخطأ فى قراءته وجعله « مركوش » — ، فقال إنه مركب « لطيف يستعمل لنقل الماء لخفته ، ومعه مائة أردب » ، غير أن النصوص الكثيرة التى أوردها العماد الأصفهانى فى الفتح القسى تبين فى وضوح أن البركوس كان يستعمل لركوب الجند والناس عامة » ، ويفهم من هـذه النصوص أيضا أن حمولة البركوس الواحد كانت حوالى خمسة وعشرين رجلا ، قال فى ص ٢٣١ : « أخذ من الفرنج بركوسان ، فيهما نيف وخمسون نفرا . . . . وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة » ، وقال فى ص ٢٣٠ « وذكروا أنهم وفدوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس ، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس » ؛ وقال فى ص ٢٣٨ « كان المستأمنون من الفرنج إلينا تسلوا براكيس يغزون فيها . . . وكنسوا كل ما فى الكنيسة ، من الأعلاق النفيسة . . . وعادوا بها ومهم الى براكيهم » ، وقد جاء فى محيط المحيط « البركوس — والباركوس — ضرب من السفن بين البريق والفرقاطة ، معرب » وهو مأخوذ من الايطالية « Barcoso » ويقابلها بالفرنسـية « Barque » وبالانجـليزية « Bark » انظر أيضا « Kindermann : *Op. Cit. P.5* » و (والشيال : معجم السفن العربية ، مخطوطة لم تنشر بعد) .

(١) الأصل « سفرعم » . وقد ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بأنها قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال .

(٢) الأصل : "وكثر ذلك"، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٤) وص (١٠٦ ا) .

ذكر وفاة زين الدين – صاحب إربل –

ومرض زين الدين يوسف بن زين الدين [٣٦٨] على كوچك فى المعسكر السلطانى ، وكان استأذن فى الرواح إلى بلده ، فلم يؤذن له ، فاستأذن فى الانتقال إلى الناصرة ، فأذن له ، فأقام أياما ، ثم توفى – رحمه الله – فى الثامن والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة ، وحزن عليه الناس حزنا شديدا لشبابه وغربته ، وكان كريما أريحيا ، فاحتاط أخوه مظفر الدين كوكبورى على ما خلّفه ، وقبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم .

ذكر استيلاء مظفر الدين على إربل وبلادها
واستيلاء الملك المظفر على ما كان بيد مظفر الدين

ثم طلب مظفر الدين من السلطان أن يضم إربل وبلادها ، وأن يضاف إليه ولاية شهرزور ، وأنه ينزل عن حرّان والرُّها وسميساط والموزر[١] ، ويخدم بخمسين ألف دينار نقدا ، فأجيب إلى ذلك ، واستمهل إلى حين وصول الملك المظفر بجنده ، ليكون فى منزلته .

ولما كان يوم الأحد ثالث شوال وصل الملك المظفر ، فأضيف إليه ما استرجع من مظفر الدين من الأعمال ، ثم أمر السلطان أن يكتب منشور بإربل وبلادها لمظفر الدين ، وكتاب إلى صاحب الموصل ، منه :

" لا شك فى إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله تعالى ومقر رحمته ، مجاهدا فى سبيله ، شاكرا لنعمته ، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم :

---

(١) توجد بعد هذا اللفظ فى الأصل كلمة : " وحمل " ولا ضرورة لها ؛ والنص عند ابن شداد (الروضتين ، ج٢ ، ص١٦٤) : " والموزر ، ويحمل كل ما فى يده من الأعمال فى الموفر ، ويخدم بخمسين ألف دينار . . الخ " .

« ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ، فما أوجع القلوب بمصابه ، وما أنكى فى النفوس أفول [١] شبابه ، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته و إعلاء درجته ، لكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الآثار [٢] فى إيثاره ، و بلى بدره التم بسراره فى ضمير البلى من أسراره ، وهذه إربل من إنعام البيت الكريم الأتابكى على البيت الزينى منذ سبعين عاما لم يحلوا لعقد إنعامهم بها نظاما ، ولم يزيدوا أحكامه الا إحكاما وإبراما ، وما رأى أن يخرج هذا الموضع منهم ، وأن يصدف به عنهم ، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقدم فى الولاية [٣٦٩] بمقتضى وصية أبيه ، وقد أنهض ليسد مسد أخيه" .

ثم سافر مظفر الدين إلى إربل فتسلمها ، ولما فوّض السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر ما كان بيد مظفر الدين أقام بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له فى المضى إلى تلك الولاية ، وسيَّرنوابه إليها ، وكان بيده أعمال ميَّافارقين ، ومن الشام حماة والمعرَّة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية و بلاطنس و بكرامل .

ذكر استئذان ملوك الأطراف بالرجوع إلى بلادهم لأجل دخول الشتاء

ولما دخل الشتاء وطالت مدة البيكار [٣] ، أبدت العسكر السآمة والضجر من الإقامة ، وجدَّ الملك عمادالدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — فى الاستئذان فى الرحيل ، وتكررت رقاعه إلى السلطان فى ذلك ، فكتب إليه السلطان :

"من ضاع مثلى من يديه فليت شعرى ما استفادا"

(١) الأصل وس : " وما أنكا فى النفوس فلول شبابه " ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥) .

(٢) الأصل : " الإيثار " والتصحيح عن المرجع السابق وس .

(٣) لشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ٩٥ ، هامش ١

فلما قرأ هذا البيت لم يراجع السلطان بعدها بكلمة فى المعنى .

واستطال معز [1] الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى — صاحب الجزيرة — المقام ، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده ، وودّعه من غير سابقة الاستئذان ، فغضب السلطان من ذلك ، ثم خرج الدين ، وسار من ساعته وتبعه أصحابه .

وذكر القاضى بهاء الدين :

أن رقاعه كانت قد ترددت إلى السلطان فى طلب الدستور ، واعتذر إليه السلطان بأن رُسُلَ العدو متكررة فى طلب الصلح ،ولا يجوز أن تنفضّ العساكر حتى تتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب .

ولما ودّع السلطان وانفصل ، كتب إليه :

"إنك أنت قصدت الانتماء إلىّ ابتداء، وراجعتنى فى ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك ، فقبلتك وأويتك ونصرتك ، فبسطت يدك فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مرارا ، فلم تنته ، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمت هذه المديدة ، [٣٧٠] وقلقت هذا القلق ، وتحركت بهذه الحركة ، وانصرفت ، من غير طيب نفس ، وغير فصال حال من العدو ، فانظر لنفسك ، وأبصر من تنتمى إليه غيرى ، واحفظ نفسك ممن يقصدك ، فما بقى إلى جانبك التفات "

وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية، فقرأ الكتاب ولم يلتفت، وسار فلقيه الملك المظفر وهو متوجه إلى السلطان عند عقبة فيق ، فأخبره بأمره ،

(١) الأصل : " معين الدين " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥) ورس ١٠٦ ب) .

وتعتّب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له فى الرواح ، ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان ، فأمره بالرجوع ، وقال له :

”أنت صبي ، ولا تعلم غائلة هذا الأمر“ فقال :

”ما يمكننى الرجوع“ ، فقال :

”[illegible]رجع من غير اختيارك“ .

وكان الملك المظفر شديد البأس ، مقداما فى الأمور ليس فى عينه من أحد شئ ، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه ، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل ، وطلب أن يقيم فى جوار الملك المظفر خشية على نفسه ، فأذن له ، فأقام فى جواره إلى حين ذهابه .

ذكر خروج الفرنج للقاء المسلمين وعودهم خائبين

ولما كان يوم الاثنين حادى عشر شوال من هذه السنة خرج الفرنج على عزم اللقاء بعد أن رتّبوا على عكا من يلازم القتال مع ملك الألمان ، خرج معهم المركيس ، والكندهرى ، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام [وزادها][1] ، وكان مخيم اليزك على تل العياضية ، فركبوا وصاروا فى مقاتلة العدو ، ونزل الفرنج تلك الليلة على آبار كان المسلمون قد حفروها[2] عند نزولهم هناك ، و باتوا واليزك يرموهم بالنشاب ، وأصبحوا يوم الثلاثاء ثانى عشر شوال سائرين إلى اللقاء ، وقد جعلوا راجلهم سورا لهم يذبّ عنهم بالزنبورك حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد .

---

(١) ما بين الحاصرتين فى الهامش بالأصل .

(٢) الأصل : ”حووها“ ، والتصحيح عن : س (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٨) .

وخيالتهم تسير فى وسطهم ، بحيث لايظهر منهم أحد ، وعَلَمُهم[1] مرتفع على عجلة ، وهو يسحب بالبغال ، وهو عال جدا كالمنارة ، خرقته بيضاء ملمعة بحمرة على شكل الصلبان .

ورفع السلطان ثقله إلى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمنته إلى الجبل وإلى البحر ، وعنده فى القلب أولاده : [٣٧١] الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأخوه الملك العادل فى أول الميمنة ، ويليه حسام الدين لاچين ابن أخت السلطان ، وصارم الدين قايماز النجمى ، ثم حسام الدين بشارة و بدر الدين دلدرم الياروقى .

وكان فى الميمنة ابن صاحب الموصل ، وعز الدين جرديك النورى .

وفى الميسرة صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، والملك المظفر تقى الدين ، وسيف الدين بن المشطوب ، وخُشْتَرِين ، والهكّارية ، والحميدية ، والزرزارية ، والمهرانية ، وأمراء قبائل الأكراد[2] .

وضرب السلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف ، وكان مخبط الجسم وهو الذى منعه من مباشرة الحرب بنفسه ، وكان عماد الدين — صاحب سنجار — غائبا مع الثقل لمرض كان به ، وبقى عسكره ، فعاد وقد أقلعت الحمى عنه ، وكان الوخم قد عظم جدا بحيث أن الموت كثر فى الطائفتين ، فكان السلطان يتمثل :

أقتلونى وما لكا   واقتلوا ما لكاً معى

وفى مرج عكا عين غزيرة الماء ، يجرى منه نهر كبير إلى البحر ، وسار الفرنج ذلك اليوم شرقى النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء ، وشاهدوا عساكر المسلمين ، فانحرفوا

(١) هذا وصف دقيق وطريف للعلم الصليبى .

(٢) بهذا اللفظ تنتهى ص (١٠٧ ب) من نسخة س ، وبذلك تنقطع الصلة بين هذه النسخة والأصل لتتصل بعد ذلك فى ص ٣٨٩ من الأصل ويقابلها ص (١٢٤ أ) من نسخة س .

إلى غربى النهر ، فأنهض السلطان إليهم الجاليشية ، فأثخنوا فيهم الضرب باللتوت والدبابيس والنشاب والرماح ، وجرى بين الجاليشين من الجانبين قتال كثير ، وباتوا ليلة الأربعاء ، وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث عشر شوال فركبوا ، ووقفوا على صهوات خيولهم إلى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار ، وقد قربت العساكر الإسلامية حتى كادت تخالطهم ، والرمى بالنشاب متصل ، وهم ثابتون لا يتزلزلون ، ولما أحسوا بالعجز والضعف نكصوا على أعقابهم عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمنيهم ، والبحر من يسارهم ، والمسلمون حولهم يرمونهم بالنشاب و يقاتلونهم ، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وسيروه ، ونزلوا ليلة الخميس على جرد عوف ، وقطعوا الجسر ليلا لئلا يتعدوا المسلمون إليهم .

وقاتل أياز الطويل وسيف الدين باركوج[1] فى هذا اليوم قتالا عظيما ، وأبليا بلاء حسنا ، ثم رجع العدو إلى مخيمه ، ورجع المسلمون إلى مخيمهم ظافرين منصورين ، وأعيد الثقل [٣٧٢] إلى مكانه .

ذكر وقعة الكمين ودخول البدل إلى عكا

و[لما] كان يوم الجمعة الثانى والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدة وأمرهم أن يكمنوا فى سفح تل هو شمالى عكا بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة ، وساروا نحو الفرنج ، وصالوا عليهم ، وأغاروا ، فاستقبلوهم الفرنج ، فخرج إليهم زهاء أربعمائة فارس ، وقيل مائتا فارس ، وطمعوا فى المسلمين ، وتأخروا قليلا قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، وخرجوا عليهم فقتلوهم وأسروهم ، وأستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع فى الأسر مقدمون أكابر ، منهم خازن الملك و جماعة من الأفرنسيسية .

(1) كذا فى الأصل ، وهو فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "يازكوج" .

وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ، ووقف على تل كيسان ، وقد توافت إليه الأسلاب والأسرى والحيوان ، فلم يعرض للأموال ، وأطلقها لآخذيها ، وكانت عظيمة ، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم ، وأذن لهم أن يسيروا غلمانهم لإحضار مايريدون إحضاره ، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال ، وحفظهم بالقيود .

ودخل الشتاء، وعصفت الأهواء، وهاج البحر، وتكسرت بعض سفن الفرنج، فأنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وربطوا بعضها بصور، فخلا البحر من مراكبهم، وكان أهل البلد قد ملوا وضجروا ، وكانوا زهاء عشرين ألفا ، فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج رفقا بهم، ولم يكن ذلك مصلحة ورأيا، بل كان الرأى إراحة غيرهم ، فإنهم قد ذبوا وصبروا ، وهم كنفس واحدة .

وأشير على السلطان بترتيب البدل، وتكفل الملك العادل بذلك، وانتقل بخيمه إلى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل ، واجتمع المنتقلون بالساحل ، فمن نجز أمره انتقل ، وانتقل إلى البـــلد[1] من لم يجرب الحصار ولم[2] يخبر أمور البلد ، وممن كان بالبلد أبو الهيجاء السمين فخرج ، ولم يبق بالبلد ممن كان به إلا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، ودخل عشرون أميرا عوض ستين ، واستخدمت الرجال ، [٣٧٣] وأنفقت الأموال ، وكان مقدم الداخلين الأمير سيف الدين المشطوب ، وتقدم السلطان إلى كل من دخل أن يستصحب ميرة سنة كاملة .

ودخل إلى ميناء عكا سبع بطش للمسلمين مملوءة ميرة وذخائر ونفقات ، وكانت وصلت من مصر ، وكان دخولها إليه يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، وانكسر

---

(١) يقصد عكا .

(٢) الأصل : "لا" والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

منها مركب على الصخر الذى هو قريب من الميناء ، وانقلب كل من فى البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلق البطش وأخذ ما فيها .

ولما علم الفرنج انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر زحفوا إلى البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وضرب البطش بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع من كان فيها ، وكان فيها ميرة عظيمة ، لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وتألم السلطان لذلك تألما عظيما ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد .

ذكر عَوْد الملوك إلى بلادهم

ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمنت غائلة العدو بسبب تواتر الأمطار واشتداد البرد أذن السلطان للعساكر فى العود إلى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة ، فسار عماد الدين زنكى — صاحب سنجار — خامس عشر[1] شوال ، وبعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازى — صاحب الجزيرة — بعد أن أنعم عليهما بما لم ينعم به على غيرهما .

ثم سار علاء الدين ابن[2] صاحب الموصل فى أول ذى القعدة مشرفا مكرما .

ثم سار الملك الظاهر — صاحب حلب — فى المحرم سنة سبع وثمانين .

ثم سار الملك المظفر فى صفر منها .

ولم يبقَ عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاص .

---

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٠) : "خامس عشرى"

(٢) الأصل : "علاء الدين وعز الدين صاحب الموصل" وقد صححت بعد مراجعة المرجع السابق .

ذكر بقية الحوادث سنة ست وثمانين

وفى ليلة السابع من ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا ، فانثلم الثغر فبادر الفرنج إليها ، فجاء أهل البلد وسدّوها[1] بصدورهم ، وقاتلوا [٣٧٤] عليها إلى أن بنوها وعادت أقوى مما كانت .

وفى ثانى عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان ، وكُنْد عظيم[2] من كنودهم ومرض الكندهرى ، وكثر الموت فى الفرنج ، فصار يموت كل يوم منهم المائة والمائتان[3] ، وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا شديدا ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم يبق لهم خيمة إلا اشتعل فيها النارا ن والثلاثة .

وأستأمن من الفرنج فى هذه المدة خلق عظيم ، أخرجهم الجوع وقالوا للسلطان : "نحن نخوض البحر فى براكيس[4] ، ونكسب من العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين" .

فأذن لهم السلطان فى ذلك ، وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغيرة ، فركبوا فيه ، فظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، وأسروهم وكبسوهم[5] ، وأحضروهم بين يدى السلطان ، فأعطاهم جميع ماغنموه ، فلما أكرموا بهذه المكرمة أسلم شطرهم ، وأحضروا مائدة فضة وعليها

---

(١) الأصل : "وصدوها" ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨١

(٢) ذكر العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) أن هذا كان يقال له : "كند بنياط" .

(٣) الأصل : "المائتين" .

(٤) الأصل : "براكيس" ، انظر فات هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢ ، وفى السطر التالى بالمتن تعريف واضح للبركوس .

(٥) الأصل : "وكسبوهم" ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ١٨٢) .

مكببة عالية فضة ، ومعها طبق يماثلها فى الوزن ، وذلك تقارب فى الوزن قنطارا ، فما أعارها السلطان طرفه .

واستشهد من الأمراء فى هذه السنة على عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار .

والتق فى هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج ، فاحترقت للفرنج شوانى برجالها ، وأحاطت مراكب العدو بشينى مقـــدمه الأمير جمال الدين محمد بن أرلكان[1] ، فتواقع ملاحو الشينى إلى الميناء ، فقاتل جمال الدين وصابر ، فعرضوا عليه الأمان فقـال :

" ما أضع يدى إلا فى يد مقدمكم الكبير " .

فجاء إليه المقدم ، فعانقه ولازمه ، ووقعا معا فى البحر فغرقا .

واستشهد أيضا الأمير نصر الحميدى .

وورد فى هـذه السنة كتاب سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتِكين بن أيوب — صاحب اليمن — يذكر استيلاءه على صنعاء ، وأنه استناب بها ولده شمس الدولة .

ووصل فى ذى الحجة القاضى الفاضل إلى المعسكر المنصور ، وكانت قد طالت غيبته عن السلطان مدة سنتين .

ودخلت سنة سبع [٥٧٣] وثمانين وخمسمائة والسلطان على شَفَرْعَم ، وأخوه الملك العـادل قاطع نهر حيفا[2] ، والبدل متصل بالدخول إلى عكا .

وفى أول ربيع الأول من هذه السنة خرج المسلمون من عكا بغتة ، وهجموا على الفرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا من خيمهم جمعا عظيما ، منهم اثنتا عشرة إمرأة .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى المرجع السابق : " ارككز " .

(٢) الأصل : " حتفا " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

ذكر وصول العساكر إلى المعسكر السلطانى

ولما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها ، فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر — صاحب عزاز وبغراس — ، والملك الأمجد بهرام شاه ابن فرخشاه — صاحب بعلبك — ، وبدر الدين مودود — والى دمشق — ؛ وتواترت الأمراء ففى كل يوم يقدم أمير .

ووصل إلى الفرنج أمداد من البحر ، فوصل ملك افرنسيس فايب[1] فى عدة كثيرة ، وهو من أعظم ملوكهم ، وكانوا يتواعدون به حتى قدم ، وكان الذين قدموا معه فى ست بطش ، وكان العدو يتوهم وصوله فى أضعاف ذلك ، فلما قدموا وعدهم بالمدد بعده ؛ ثم قدم بعده كند فرير[2] ،وكان مقدما عظيما عندهم وكان حاصر حماة وحارم عام الرملة .

ذكر استيلاء فخر الدين أسامة على سفن الانكلتير

ولما كان السادس والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة وصل ملك الانكلتير ، وهو ملك عظيم من الفرنج إلى قبرص ، واشتغل بسبب أخذها عن الوصول إلى عكا ، وأقام حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت ،فاجتازت على بيروت وبها الأمير عز الدين أسامه،فاستولى على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا،وكان فى الزيب — وهو شمالى عكا — طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا،و يقطعون الطريق على الفرنج .

---

(١) الأصل : "فلبث" ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٣

(٢) الأصل : "فريد" . والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مضايقة الفرنج بعكا وجدهم فى حصارها

ولما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى من هذه السنة زحف الفرنج إلى عكا، ونصبوا عليها سبعة مناجيق ، ووصلت كتب أهل عكا إلى السلطان بالاستنفار العظيم وشغل العدو عنهم ، فركب السلطان فى العساكر ، وكان هذا دأب السلطان كلما زحف العدو إلى البلد ، وكانت العلامة بينهم [٣٧٦] و بين السلطان أنه متى زحف العدو عليهم دقوا الكوسات[١] ، فتدق كوسات السلطان إجابة لهم .

ذكر تحويل السلطان إلى تل العياضية

ووصول ملك الانكلتير

ولما اشتدت مضايقة البلد ، واستبعد السلطان المنزلة التى هو بها ، فحول إلى تل العياضية فى تاسع جمادى الأول .

ولما كان الثالث عشر من هذا الشهر وصل ملك الانكلتير من جزيرة قبرص ومعه خمس وعشرون قطعة ، هو وأصحابه كلهم شاكون السلاح ، فبلى الثغر منه بغير البلاء الأول ، ومجانيق العدو مع ذلك توالى الرمى إلى البلد ، وتمكن الفرنج من الخندق ، وشرعوا فى طمه ، ورموا فيه جثث الموتى والخنازير والدواب النافقة ، وافترق المسلمون فرقتين : فرقة تلقى من الخندق مارمى فيه ، وفرقة تقاتل العدو .

(١) لشرح هذا المصطلح راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١ ، هامش ٢) .

ذكر هلاك بطشة المسلمين الواصلة من بيروت

وكان السلطان قد أمر بتعبئة بطشة عظيمة هائلة ببيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة ، والمير والرجال والمقاتلة ، لتدخل إلى عكا ، وكانت عدة المقاتلة بها ستمائة وخمسين رجلا ، فوصلت إلى عكا فى سادس عشر جمادى الأول ، فاعترضها ملك الانكلتير فى أربعين شانيا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتد القتال ، فقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا من العدو شانيا كبيرا هلك أصحابه عن آخرهم ، وتكاثر الفزع على أهل البطشة ، وكان مقدم المقاتلة بها رجلا شجاعا يقال له " يعقوب " من أهل حلب ، فلما رأى أمارة الغلبة قال :

" والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطشة شيئا " .

فوقع المسلمون فى بطشتهم من جوانبها بالمعاول يهدمونها من كل جانب أبوابا ، فامتلأت ماء ، وغرق كل من بها من المسلمين ، وهلك مافيها من المير والآلات ، ولم يظفر العدو منها بشىء أصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها ، وأخذوه إلى الشوانى من البحر ، وخلصوه من الغرق ومثلوا به ، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، فحزن الناس لذلك حزنا شديدا .

ذكر الدبّابة التى صنعها العدو وإحراقها

وصنع العدو دبّابة عظيمة هائلة ذات [٣٧٧] أربع طبقات : الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وتركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد خوفا عظيما ، وحدثتهم

نفوسهم بطلب الأمان من العدو، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما نشاهد، وواتر أهل البلد رميها بالنفط ليلا ونهارا ، فقدر الله تعالى أنها اشتعلت بالنار ، وارتفعت لها ذؤابة نحو السماء ، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهليل ، وكان ذلك يوم غرق البطشة .

ذكر هجوم المسلمين على خيم العدو

واتفق أن المسلمين يوما هجموا خيم العدو ونهبوها . ووصل رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة والحرب قائمة ، فحمل حملة استشهد فيها فى تلك الساعة ، ثم اتفق مرض ملك الانكلتير مرضا أشفى منه على الهلكة ، وجُرح الافرنسيس ، وهرب المركيس إلى صور خوفا من الفرنج ، لأنه اشتهر منهم أنهم يأخذون صور منه .

ذكر المكاتبة إلى الديوان العزيز

وكتب السلطان إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بانشاء فاضلى منه :

" ماقطع الخادم الخدم ، إلا أنه أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذى قد استفحل أمره ، واستشرى شره ، فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدوا حاصرا محصورا غامرا مغمورا[1] قد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز[2] ، وتعوق الفُرَص[3] عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ولفظهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ،

(١) الأصل : " حاصر محصورا ، عامر معمورا " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥) .

(٢) الأصل : " الجوايز " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : " القرص " . والتصحيح عن المرجع السابق .

وأعان أهلَ النار أهلُ النار، فاجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لايحصر معدوده، ولا يتصور فى الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول أبى الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث[1] إلا التراجم

حتى أنه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن، أحتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم، ينقل واحد عن آخر، ويقول ثان مايقول أول، وثالث مايقول ثان ؛ والأصحاب كلّوا [٣٧٨] وملّوا، وصبروا إلى أن ضجروا، وتجلدوا إلى أن تبلدوا، والعساكر التى تصل من المكان البعيد لاتصل إلا وقد كلّ ظهرها، وقلّ وفرها، وضاق بالبيكار صدرها، لاتستفتح إلا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول .

ولهم — خذلهم الله — تنوع فى المكايدة، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، وثالثة بالدبابات، ورابعة بالكباش، وأخرى باللوالب، ويوما بالنقب، وليلا بالسرابات[2]، وطورا بطم الخنادق، وأناة بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف[3] فى الليل والنهار، وحالة فى البحر فى المراكب .

---

(١) الأصل : " الحداب " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : " بالسرايات " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥) وعند (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) أن السِّرْبة أو السُّرْبة فرقة من الخيالة " troupe de cavaliers " ، وفى (اللسان) : " السُّرْبة جماعة ينسلون من العسكر فيغيرون ويرجعون ، والسُّرْبة الجماعة من الخيل ما بين العشرين الى الثلاثين ، وقيل ما بين العشرة إلى العشرين " .

(٣) الأصل : " بالزحف " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٥)

ثم شرعوا [فأقاموا][1] فى وسط خيامهم حائطا مستطيلا[2] يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدوّرة ، ورفعوها بالأخشاب ، وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدّامها ، وهم يتقدمون أول فأول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم ، وقد كان الجمر والنار يؤثران فى أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ، ومنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ، ولا تعمل فيها النار الحامية ” .

ذكر من وصل من العساكر الإسلامية

وفى آخر جمادى الأولى من هذه السنة وصل مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنجار .

وفى ثانى جمادى الآخرة وصل ابن عز الدين مسعود — صاحب الموصل — فى عسكره ، ووصل علم الدين كرجى ، وسيف الدين سنقر الدووى ، وغيرهما من الأمراء الأسدية فى عساكر مصر .

وكان الملك المظفر تقى الدين لما فارق خدمة عمه السلطان ، وتوجه إلى الشرق لتسلم البلاد التى عينت له ، تعرض لبلاد مجاورة ، فكره السلطان ذلك .

وتأخر عسكر ديار بكر من المجىء إلى الغزاة ، واعتذروا بالخوف من جوار الملك المظفر فقال السلطان :

“ هذا من عمل الشيطان ، وفى مثل هذا الوقت يتعرض لما يغضب الله تعالى ، وإنى أخاف عليه فى هذه السنة ” .

فكان ما سنذكره .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : ” مستطيا “ ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر مراسلة الفرنج للسلطان شغلا للوقت

وكان ملك الانكلتير قد مرض كما ذكرنا ، واشتدت علته ، فاشتغل [٣٧٩] العدو بذلك مدة عن الزحف ، وكان ذلك خير من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف إلى الغاية ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة ، ثم تماثل ملك الانكلتير من مرضه ، وراسل السلطان وطلب الاجتماع به ، ثم فتر بعده أياما .

ثم جاء رسوله[1] يطلب الاستئذان فى إهداء جوارح جاءت من البحر، وذكر أنها ضعفت وتغيرت ، وطلب أن يحمل لها دجاجا لتتقوى، ثم تهدى، ففهم أنه محتاج إلى ذلك لنفسه ، لأنه حديث عهد بمرض .

ثم نفذ السلطان يطلب أسيرا مغربيا عنده ، فأطلقه للسلطان .

ثم أرسل فى طلب فاكهة وثلج فأرسل ذلك إليه .

وغرضه فى هذا كله تفتير العزمات وتضييع الوقت على المسلمين، وهم مع ذلك مشتغلون بمحاصرة البلد ، ومواترة رميه بالمناجيق ، فاشتد ضعف أهل البلد ، وأهلكهم التعب والسهر ، لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، والعدو مجتهد فى قتالهم ومضايقتهم، وقد افترقوا فرقا تقاتلهم كل فرقة نوبة، فبلغ ذلك السلطان فصعب عليه .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

ولما كان يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ركب السلطان فى العساكر الإسلامية ، وقصد الفرنج ، وزحف على خنادقهم حتى دخل فيها

---

(١) الأصل : "رسولا" ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٦) .

العسكر ، وهو — رحمه الله — كالوالهة الثكلى ، يسير من طُلب إلى طُلب ، ويحثّ الناس على الجهاد ، وينادى "ياللإسلام" ، وعيناه تذرفان الدموع ، ولم يطعم هو ولا الناس فى ذلك اليوم طعاما ، وإنما شرب شيئا أشار به الطبيب ، ثم عاد إلى مخيمه لما هجم الليل ، ثم ركب سحراً فى العساكر ، فأصبحو على ما أمسوا عليه .

ووصلت مطالعة من البلد يخبرون بعجزهم عن مقاومة العدو وأنهم ضعفوا غاية ليس بعدها إلا التسليم ، ويقولون :

" نحن فى الغد نسلم البلد ونطلب الأمان إن لم تعملوا معنا شيئا ، ونشترى مجرد رقابنا " .

وكان هذا أنكى خبر ورد على المسلمين ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، فرأى السلطان — رحمه الله — مهاجمة العدو ، فلم يساعده العسكر ، فإن الرجالة من [٣٨٠] الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك (١) والنشاب (٢) من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذبّ ، فحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرمى بها على المسلمين ، فوقع فيه زهاء عن خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ، ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب ، حتى ضربه زرّاق بنفط فأحرقه .

ولم تزل الحرب قائمة إلى الليل ، وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ، ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنة من الباشورة ، فدخل العدو إليها وقتل منهم فيها زهاء عن مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : " لا تقتلونى حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية " ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية .

---

(١) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٦٢ ، هامش ١

وفى الغد ناداهم الفرنج :

" احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم " .

فقالوا :

" قد قتلناهم ".

فحزنوا الفرنج ، وبطلوا الزحف ثلاثة أيام .

وخرج الأمير سيف الدين المشطوب بأمان إلى ملك الافرنسيس وقال له :

" إنا قد أخذنا منكم بلادا عدة، وكنا نهدم البلد وندخل فيه ، ومع هـذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم ، وحملناهم إلى مأمنهم ، وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا " .

فقال :

« أرى فيكم رأيى » .

فأغلظ له سيف الدين القول وانصرف عنه .

ولما دخل سيف الدين بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان فى البلد، فأخذوا لهم بركوسا[١]، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الإسلامى، منهم: عزالدين أرسل، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولى، وسنقر الوشاق الأسدى، [فأما أرسل وسنقر][٢] فتغيبا خوفا من السلطان، وأما ابن الجاولى فظفر به[٣]، فرمى فى الزرد خاناه[٤] فقطع السلطان إقطاعه و بغر[٥] عليهم .

---

(١) الأصل ، " تركوسا " ، انظر ما فات هنا ص ٣٣٧ ، هامش ٢

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) .

(٣) الأصل ، " نظفر بابن الجاولى فرمى " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) معنى هـذا اللفظ أصلا خزانة الزرد أو خزانة السلاح بوجه عام ، ولكنها هنا تعنى نوعا من السجون يسجن فيه كبار الأمراء أو علية القوم ، راجع أيضا (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) .

(٥) كذا بالأصل ولا يتسق بها المعنى ، والنص فى الروضتين : "فأقطع السلطان إقطاعاته وقطعها ، وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها ومنها " .

وهرب أيضا عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية [الناصرية][1] فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه بالعود ، فعاد فى ليلته ، وأسر [بعد ذلك][1] واستفكه السلطان بثمانمائة دينار .

وركب السلطان يوم الخميس [٣٨١] تاسع جمادى الآخرة مشمرًا أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحى وآلات طم الخندق ، فماساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا : " نخاطر بالإسلام كله " .

وخرج رسل من ملك الانكلتير ثلاثة ، وطلبوا فاكهة وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتارية يخرج من الغد يتحدث ويتحدثون معه فى الصلح ، فأكرمهم السلطان ، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه ، وعادوا إلى معسكرهم .

وتقدم السلطان إلى الأمير صارم الدين قايماز النجمى أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم ، فترجل جماعة من الأكراد من أمرائهم ولفيفهم ، كالجناح أخى سيف الدين المشطوب ، [وزحفوا][1] حتى بلغوا أسوار الافرنج ، ونصب قايماز النجمى علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار .

ووصل فى هذا اليوم عز الدين جرديك النورى والزحف قائم ، فترجل هو وجماعته ، وقاتل قتالا شديدا ، وبات ليلة الجمعة على ظهور الخيل .

وعلم السلطان أنه لاسلامة لعكا ، فانفذ إليهم جماعة سرا ، وقال لهم :

" خذوا حذركم من العدو ، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة ، وسيروا على جانب البحر ، واتركوا البلد بما فيه » .

فشرعوا فى ذلك ، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ، وظهر سرهم ، فلم يتم لهم هذا الأمر ، وحرس الفرنج سائر الجوانب .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧) .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة جاءت رســل الفرنج إلى السلطان ، ومنهم صاحب صيدا يطلب نجيب الدين العدل، وكان مؤهلا للرسالة بين السلطان و بينهم ، وعزل السلطان فى سماع الرسالة على ولده الملك الأفضل وأخيه الملك العادل، وتردد العدل مرارا بينهم و بين السلطان فلم ينفصل بينهم أمر، و بذل لهم السلطان عكا على مافيها دون من فيها، على أن يطلق لهم أسرى بعدتهم.

وذكر عماد الدين الكاتب :

أن ذلك كان يوم السبت ، واشترط الفرنج إعادة جميع البلاد ، و إطلاق جميع أسراهم .

ولما كان يوم الأحد ثانى عشر جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها :

" إنا قد تبايعنا على الموت ، فإياكم أن تخضعوا للعدو وتنيبوا لهم ، فإنا نحن قد فات أمرنا ".

[٣٨٢] ووصل الأمير سابق الدين بن الداية — صاحب شيزر — ، و بدر الدين دلدرم — صاحب تل باشر — ، ومعه خلق كثير من التركمان ، وكان السلطان أنفذ إليه ذهبا لينفقه فيهم .

ووصل الملك المجاهد — صاحب حمص — ، واشتد ضعف البلد ، وكثرت ثغور سوره ، فبنوا عوض الثلمة(١) سورا من داخلها .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوّام ومعه كتب فيها :

"أن أهل البلد ضاق بهم الأمر، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأنهم قد صالحوا الفرنج على أنهم يسلمون إليهم البلد بما فيه من الآلات

(١) الأصل : " الثملة " ، والتصحيح عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ص ١٨٨) .

والعدد والمراكب ؛ ومائتى ألف دينار ، وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ؛ وضمنوا للمركيس – وكان قد استرضاه الفرنج – وأوعدوه بعشرة آلاف دينار ، لأنه المتوسط بينهم وبين أهل البلد ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار" واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج .

ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم فى إنكار ذلك عليهم، فهو فى مثل هذا الحال وقد جمع أمراءه وأصحابه للشورة، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانهم وشعارهم على أسوار البلد ، وذلك ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، وانحصر كلام أهل الإيمان فى تلاوة : " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، وارتفع البكاء والعويل فى عسكر الإسلام .

ودخل المركيس — لعنه الله — البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك ، فنصب علما على القلعة ، وعلما على مئذنة الجامع ، وعلما على برج الداوية ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الإسلام ، وحيز [المسلمون][1] إلى بعض أطراف البلد .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — :

ومثلت بخدمة السلطان عشية ذلك اليوم ، وهو أشد حالة من الوالهة الثكلى الحيرى، فسليته بما تيسر من التسلية، وأذكرته الفكر فيما استقبله [٣٨٣] من الأجر فى معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف ، وكيفية الحال فى ذلك ، وإعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد، وانفصل الأمر على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق غرض فى المضايقة ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التى كان عليها أولا بشفرعم ، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا

(١) ما بين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، وانتقل الناس فى تلك الليلة إلى الصباح . فاشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل إلى الثقل[١] ، ووصل إلى السلطان ثلاثة نفر ومعهم أقوش — حاجب[٢] بهاء الدين قراقوش — مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى ، وأقاموا تلك الليلة ، وساروا إلى دمشق ينتظرون الأسرى .

ذكر مراسلة السلطان لملك المغرب

وكان السلطان قد راسل المنصور أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الخليفة بالمغرب مستنجدا به على عدو الدين[٣] ، وكان الرسول إليه شمس الدولة بن منقذ ، فلما ملك العدو عكا وجرى ما ذكرناه كتب السلطان إلى شمس الدولة بالانشاء الفاضلى يستحثه على العود بالنجدة ، ويعرفه الواقعة ، ومنه :

" لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا — يعنى من الفرنج — الخمسين ألفا[٤] ، قولا لايطرقه التسمح، بل يحرزه[٥] التصفح، فانبرى فى هذه السنة ملكا افرنسيس

(١) الأصل : " الحقل " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٨) .

(٢) الأصل : " صاحب " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) توجد نصوص كثير من الرسائل المرسلة من صلاح الدين إلى السلطان أبي يوسف ، وإلى رسوله إليه شمس الدولة بن منقذ فى : (صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ — ٥٣٠) و (الروضتين ، ج٢ ص ١٧٠ — ١٧٨) فراجعها هناك ، وفى قسم الملاحق بآخر هذا الجزء .

(٤) الأصل : " ألف " ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨) .

(٥) الأصل : " لا يطأه التسمح بل تحويره التصمح " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

وانكلتير وملوك آخرون فى مراكب بحرية، وحمّالة[1] حملوا فيها الخيول والخيّالة، والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل مدينة ، وأحدقت بالثغر ، ومنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه .

فصل : وأخذوا البلد على سلم كالحرب، ودخله العدو، ولو لم يدخل من الباب لدخل من النقب ، وما وَهَنّا لما أصابنا فى سبيل الله ، وما ضعفنا ولا رجعنا ورانا، ولا انصرفنا، بل نحن فى مكاننا ننتظر أن يبارزوا فنبارزهم[2]، أو يخرجوا فنناجزهم ، أو ينتشروا فنطويهم، أو ينبثوا فنزويهم ، وأقمنا على طرقهم، رخيمنا على مخنقهم ، وأخذنا بأطراف[3] خندقهم، [٣٨٤] وأحوج ما كنا الآن إلى النجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا بها ترد ، وعاديتنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خَطْب الإسلام وخطوبه ؛ ويقوم فى البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه، ويعجّل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الإصابة، ويشعر بأن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربى يقلبها[4] ، وخطرات من اللطف الخفى يقربها ، ويكفى من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربيا ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا " .

---

(١) راجع ما فات هنا ص ١٣ ، هامش ٢

(٢) الأصل : " فنبرز إليهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، ص ١٨٩

(٣) الأصل : " طراز خندقهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : " تقبلها " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر ما جرى عليه الحال فى أمر أسارى المسلمين

وما تجدد من حوادث

لما تسلم الفرنج عكا لم يقفوا على الشرائط التى اشترطوها المسلمون ، فاحتاطوا عليهم ومنعوهم من الخروج، ثم أخذوا أموالهم وحبسوهم ، وعزم ملك افرنسيس على المسير إلى بلاده لأمر اختل عليه ، فأخذ قسما من الأسارى ، وسلمهم إلى المركيس، ووكله فى قبض نصيبه .

وخرج الفرنج يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة من جانب البحر، وانتشروا بالمرج، ووصلوا إلى الآبار التى حفرها اليزك، وتواقعوا مع اليزك ، وأمدهم السلطان ، فكسرهم المسلمون ، وألجئوهم بخنادقهم ، ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان وبينهم إلى يوم الجمعة تاسع رجب ، فخرج حسام الدين حسين بن تاز يك المهرانى، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتير ، فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور ، وذكروا شيئا من أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت ، وأنه هل هو فى العسكر أو حُمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصلبوت ، فشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم الى الأرض ، ومرغوا خدودهم على التراب ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون ما أوقع عليه القرار أن يُدفع فى نجوم ثلاث، كل نجم فى شهر .

ولم تزل الرسل تتواتر فى تحرير القاعدة حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك النجم [٣٨٥] وهو: الصليب ومائة ألف دينار، وستمائة أسير، وأنفذوا ثقاتهم(١)، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى النجم الأول فى ثامن عشر رجب .

---

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد — الأصل المنقول عنه هنا — : " ثقاتهم " .

ثم أنفذوا فى ذلك اليوم يطالبون ذلك ، فقال لهم السلطان :

"إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتتسلموا الذى عُيِّن لكم فى ذلك النجم ، ونعطيكم رهائن على الباق تصل إليكم فى نجومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على مانسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا".

فقالوا :

"لانفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون مايقتضيه هذا النجم ، وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم" .

فأبى السلطان ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلموا الصليب والأسرى وأصحابنا عندهم يؤمن غدرهم ، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم مبرزين فى الحادى والعشرين من رجب .

وخرج الانكلتير وجماعة من الخيالة والتُّرْكُبُلِي[1] ، وركبوا فى وقت العصر السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التى تحت تل العياضية ، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من أراد الله تعالى شهادته[2] ، ووقفوهم وحملوا عليهم فقتلوهم صبرا ، واليزك الإسلامى يشاهدهم ولا يعلمون ما يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ، فأنفذ إلى اليزك من قوّاه ، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها جروح كثيرة وقُتل من الجانبين .

وأصبح المسلمون فوجدوا المسلمين الشهداء فى مواضعهم صرعى ، وعرفوا مَنْ عرفوا منهم ، ولم يُبْقِ العدو من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدّما، أوقو يا له يد للعمل فى عمائرهم ، وتصرف السلطان فى المال، وأعاد الاسارى إلى أربابها.

(١) الأصل : «التوكيل» ، وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩) ، ولشرح اللفظ راجع ما فات هنا ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) بعد هذا اللفظ فى الروضتين : «وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال» .

ذكر رحيل المسلمين والفرنج نحو عسقلان

والحرب التى جرت بينهم

ولما استهل شعبان من هذه السنة [٣٨٦] أصبح الفرنج سائرين نحو عسقلان ، وسار السلطان فى الجيوش الإسلامية فى عراضهم يقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ، وكلما أُتى السلطان منهم بأسير أمر بقتله ، ووصل الفرنج إلى حيفا فأقاموا بها ، ونزل السلطان بالقيمون ، وقدّم السلطان ثقله إلى مجدليابة ، وأضحى نازلا على النهر الجارى إلى قيسارية ، وودّعه القاضى الفاضل ، وسار إلى دمشق ليقوم بها مقام السلطان فى تنفيذ الأمور .

وفى تاسع شعبان وصل الخبر إلى السلطان بأن الفرنج قد ركبوا وساروا بفارسهم وراجلهم فى الساحل ، ومراكبهم تحاذيهم ، ورجالتهم مستديرون حولهم كالسور، عليهم الكبور[١] الثخينة ، والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزَّنْبُورَك[٢] فيجرحون خيول المسلمين.

قال القاضى بهاء الدين بن شداد :

" لقد شاهدتهم وفى ظَهْر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج، وثمّ قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ، لا قتال عليهم، فإذا تعب هؤلاء وأثخنهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمّال ، هذا والخيّالة فى وسط الرجّالة لايخرجون عنهم إلا وقت

(١) الكَبَر — والجمع كبور — نوع من القباء الذى يتخذ للحرب ، جاء فى (اللسان) : "القُرْدُمانى" قباء محشو يتخذ للحرب ، فارسى معرب ، يقال له "كَبَر" بالرومية أو النبطية" . انظر أيضا : (الجواليق : المعرب ، ص ٢٥٢) .

(٢) راجع ما فات هنا ص ٢٤٤ ، هامش ١

الحملة لا غير ، وقد اقتسموا ثلاثة أقسام : الملك العتيق جفرى ، وجماعة الساحلية معه[١] فى المقدمة ، والانكليز والافرنسيسة فى الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة ؛ وبرج القوم فى وسطهم كالمنارة[٢] العظيمة على عجلة .

وسار السلطان فى جيوشه[٣] ، وسوق الحرب قائمة بين الفريقين ، والمسلمون يرمون من جوانبهم بالنشاب ، وهم يسيرون سيرا رفيقا ، إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم ، وطاف الجاليش[٤] حولهم ولزوهم بالنشاب ، وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون [٣٨٧] يرمونهم من ثلاثة جوانب .

قال القاضى :

ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه إلا صبيين بجنيبين لا غير ، وهو يسير من طُلْب إلى طُلْب[٥] يحثهم على التقدمة ، ويأمرهم بمضايقة القوم ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيالتهم بالزَّنْبُورَك[٦] والنشاب ، إلى أن أتوا نهر القصب فنزلوا عليه وقت الظهر ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، وكان قتل فى ذلك

---

(١) الأصل : "معهم" ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٠)

(٢) النص فى الروضتين : "وفى وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا فى وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة" .

(٣) بعد هذا اللفظ فى الأصل كلمتا : "ساروالهم" ، ولا ضرورة لها فحذفناها .

(٤) راجع ما فات هنا ، ص ٤١ ، هامش ١

(٥) راجع ما فات هنا ، ص ٥٩ ، هامش ٣

(٦) راجع ما فات هنا ، ص ٢٤٤ ، هامش ١

اليوم أياز الطويل من مماليك السلطان ، وكان من المشهورين بالبأس والشجاعة ، وسبب قتله أن فرسه تقنطر به فاستشهد ، ودفن على تل هناك ، وقتل عليه مملوك له .

ونزل السلطان بالثقل على البركة ، ثم رحل بعد العصر ، فنزل على نهر القصب أيضا ، فكان المسلمون يشربون من أعلاه ، والفرنج يشربون من أسفله ، وبينهم مسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك .

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف ، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب ، فطلب ملك الانكلتير الاجتماع بالملك العادل خلوة ، فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : "أنه قد طال بيننا القتال ، ونحن جئنا في نصرة أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه .

فقال الملك العادل :

"على ماذا يكون الصلح ؟" .

فقال :

" على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذتم من البلاد " .

فأبى الملك العادل ذلك ، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل ؛ فرجع مغضبا .

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان تأهب المسلمون للقاء الفرنج ، وأزعجوهم وضايقوهم ، فلما رأى الفرنج ما نزل بهم من الضائقة اجتمعوا وحملوا حملة واحدة .

قال القاضي بهاء الدين :

لقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجّالة ، وأخذوا رماحهم ، وصاحوا صيحة واحدة ، وفرج لهم رجالتهم ، فحملوا من جميع الجوانب ، فانكشف المسلمون من بين أيديهم ، ولم يبق فى طُلْب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلا[1]، والأعلام باقية ، والكوسات[2] تدق لا تفتر ، فلما رأى السلطان[٣٨٨] ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طُلْبه ، فوقف فيه والناس يفرون من القتال ، وكلما رأى فاراً[3] من الحرب يحضره عنده ، فاجتمع فى الطُلْب خلق عظيم ، ووقف العدو فى مقابلتهم على رؤوس التلول والروابى ، وخاف العدو أن يكون فى الشعرا كمين ، وكان يومئذ مع السلطان صارم الدين قايماز النجمى وعسكر الموصل ، فندبهم السلطان لقتال العدو ، وركب العساكر على العدو ، وجرت بهم مقتلة عظيمة ، وقتل من العدو كند عظيم ، وقاتل دون جماعة من مقدميهم فما قتل حتى قتلوا ، والتجأ العدو إلى جدران أرسوف ، ولولا ذلك لاستأصلوا .

وجلس السلطان ينتظر عود الناس ، وأحضرت إليه الجرحى ، فتقدم بمداواتهم ، وجرح من الطائفتين جمع كثير ، وصدم يومئذ الملك الأفضل نور الدين ولد السلطان ، وانفتح دمل كان فى وجهه ، وسال منه دم كثير ، وأحضر بين يدى السلطان ، وأخذ من أسرى الفرنج أسيرا فضرب عنقه .

---

(١) الأصل : «سبعون رجلا مقاتلا» ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ١٧٦) .

(٢) راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ ، هامش ٢) .

(٣) الأصل : «نار» والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول السلطان إلى عسقلان وتخريبه لها

ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، ورحل منه ليلا وأصبح على تُبْنَى ، ثم رحل منها إلى عسقلان بعد العصر ، وكان لما نزل أحضر أخاه الملك العادل وأكابر الأمراء ، وشاورهم فى تخريب عسقلان ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بتخريبها للعجز عن حفظها، ووافقت الجماعة على ذلك ، وقالوا :

" هذه يافا قد نزل العدو بها ، وهى مدينة متوسطة بين عسقلان والقدس ، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا ، فاعمد إلى أشرفهما فحصنه " .

فاقتضت الآراء إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحول العدو كانوا منه على علم .

ولما نزل السلطان بعسقلان وعزم على خرابها اهتم لذلك وكثر حزنه .

قال القاضى بهاء الدين :

" ما نام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعانى إلى خدمته سحراً ، وكنت قد فارقته بعد مضى نصف الليل ، فحضرت ، وبدأنا الحديث فى معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل ، وشاوره فى ذلك ، وطال الحديث ، ولقد قال — رحمه الله — : والله لئن أفقد أولادى بأسرهم أحبُّ إلىّ من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله تعالى [٣٨٩] بذلك [1] وعرفته بحفظ مصلحة المسلمين طريقا ، فكيف امتنع [1] ؟ " .

ثم شرع فى خرابها ، ووضع أبراجها على الأمراء ، ووقع الناس فى الضجيج والبكاء ، وكان بلدا خفيفا ، محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا فى سكناه ،

---

(1) النص عند ابن شداد فى : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) : « وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف أصنع » .

وكان هو وولده الملك الأفضل يحثان الناس على الخراب خشية [١] أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خراب البلد ، ولم يزل الخراب والحريق يعمل فى البلد وأسواره إلى سلخ شعبان .

ووصل كتاب من عز الدين جرديك يذكر أن القوم تفسحوا ، وصاروا يخرجون من يافا ، ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا فى غرتهم ، فعزم على الرحيل على أن يترك فى عسقلان حجّارين ، ومعهم خيل تحميهم [٢] ويستنهضونهم [٣] فى الخراب ، ثم رأى أن يتأخر حتى تخرب ويحرق البرج [المعروف] [٤] بالاسبتار ، وكان برجا عظيما، فخرّبه بعد حشوه وإحراقه .

وعمّر الفرنج يافا ، وحصّنوا أسوارها .

ذكر رحيل السلطان عن عسقلان إلى جهة الفرنج

وما جرى بينه وبينهم من الحرب والمراسلة

ثم رحل السلطان عن عسقلان بعد خرابها يوم الثلاثاء ثانى رمضان ، ونزل على تُبْنَى [٥] ، ثم نزل على الرملة يوم الأربعاء ثالث رمضان ، وأمر بتخريب

---

(١) بهذا اللفظ تبدأ ص (١٢٤ أ) من نسخة س ، وبذلك تلتق مع النسخة الأصلية مرة أخرى .

(٢) الأصل : « تحتهم » ، والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٣) الأصل : « ليستقصوا » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨١) .

(٥) الأصل : "بيتا" وس : "معما" بدون نقط ، وفى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) « تبنا » وقد صححت وضبطت بعد مراجعة : (ياقوت : معجم البلدان) حيث قال إنها بلدة بحوران من أعمال دمشق .

حصنها ، وتخريب كنيسة لد[١] ، وركب جريدة إلى البيت المقدس ، فأتاه يوم الخميس وخرج منه يوم الإثنين ثامن رمضان ، وبات فى بيت نوبة ، وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء تاسع رمضان .

ووصل معز[٢] الدين قيصر شاه بن قِلِج أرسلان — سلطان الروم — مستنصرا بالسلطان على أبيه وإخوته ، فإنهم قصدوا أخذ بلده منه ، وكان بيده ملطية ، فأقام فى الخدمة السلطانية مدة ، وتزوج ابنة الملك العادل على صداق مائة ألف دينار ، ثم سار مستهل ذى القعدة من هذه السنة[٣] .

فى ثامن[٤] رمضان خرج جمع من المسلمين على ملك الانكلتير ، وكان خرج فى فوارسه مخفّرا للحطابة والحشاشة ، وكاد يؤخذ الملك ، لكن فداه أحد خواصه بأن أظهر حسن لباسه ، فظُن أنه الملك فأُسر[٥] .

وفى ثانى[٦] عشر رمضان وقعت وقعة بين المسلمين والفرنج كان النصر فيها للمسلمين ، وقُتل مقدِّم كبير من الفرنج ، ووقعت وقعات كثيرة بينهم وبين اليزك [٣٩٠] ، ثم رحل السلطان إلى النطرون ، فخيّم على تل هناك ، فأمر بهدم حصن النطرون ، فهُدم .

---

(١) الأصل : " له " وس : " ذ " ، وما هنا عن العماد (المرجع السابق) و (ابن شداد ، ص ١٨٢) .

(٢) الأصل : « نصر » ، والتصحيح عن : (ابن شداد ، ص ١٨٣) و (الروضتين ، ج ٨ ص ١٩٢) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س : " وقد أمن من أخوته وغيرهم لأنه راح معه كتب بتهديد ووعيد وعسكر كثير " .

(٤) س : " عاشر " وما هنا يتفق ونص العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢) .

(٥) بعد هذا اللفظ فى س : " ونجا الملك ، فأفداه الملك الانكلتير بثمان ألف دينار وعشرة من أسارى المسلمين أطلقهم " .

(٦) س : " وفى ثامن عشر " ، وما هنا يتفق ونص العماد (المرجع السابق) .

ثم راسل ملك الانكلتير الملك العدل راغبا فى المسالمة والمصالحة ، وزعم أن له أختا عزيزة عليه كبيرة القدر . وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم . —وهو صاحب صقلية — توفى عنها ، ورغب فى أن يزوجها الملك العادل ، يجعل له الحكم فى جميع البلاد الساحلية ، ينفذ فيها أمره ، وهو يقطع الداوية الاسبتارية ما أراد من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها قسيسون و رهبان فى صحبتها .

فرأى الملك العادل ذلك مصلحة ، وشاور السلطان فى ذلك فأجابه إليه ، ونفذ رسوله إلى الانكلتير بالإجابة ، فدخل الفرنج إلى المرأة وخوفوها ، وأعلموها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة ، وفيه عصيان للمسيح و إغضاب له ، فما أجابت ، واعتذر الانكلتير بعد ذلك بعدم موافقتها ، إلا أن يدخل الملك العادل فى دينها[١] .

ووصل رسول المركيس — صاحب صور — يذكر أنه يصالح بشرط أن يُعطى صيدا وبيروت ، وشرط على نفسه مجاهرة الفرنج بالعداوة ، وأنه يقصد عكا ويحاصرها و يستخلصها للمسلمين . فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها ومن بصور ، ولما سمع الانكلتير بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس إليه .

ثم ورد الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية[٢] .

ثم راسل الانكلتير السلطان :

"أن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ؛

---

(١) بعد هذا اللفظ فى س : "فصفح الملك العادل عن ذلك الأمر" ، و بعده فى العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) : "نعرف أنها خديعة كانت من الإنكلتير" .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س (١٢٤ ب) : "فوهن الانكلتير لذلك" .

والقدس متعبدنا ماننزل عنه ولو لم[١] يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدارله ، وهو عندنا عظيم ، فيمنُّ السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم" .

فأرسل السلطان فى جوابه :

" القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم كان [٣٩١] طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى منها " .

وهرب فى تلك المدة شيركوه بن باخل الكردى ، وهو من جملة الأسارى الذين كانوا بعكا إلى السلطان[٢] .

ثم ورد الخبر على عزم النهوض من الفرنج، فسار السلطان من المخيم بالنطرون إلى الرملة فى سابع شوال من هذه السنة ، فأقام بها عشرين يوما ، وجرت وقعات بينه وبين العدو ، منها وقعة فى ناحية يازور ، وكان النصر فيها للمسلمين ، ولم يقتل من المسلمين غير ثلاثة ، وكانت ثامن شوال .

وفى سادس عشر شوال وقعت وقعة عظيمة قتل فيها جماعة من الأمراء ، وأسر فيها فارسان من الفرنج معروفان ، وقتل منهم بها [زهاء عن][٣] ستين نفرا ،

---

(١) الأصل و س : " والقدس مستعبدنا ما ينزل عليه ولم يبق منا واحد " وهى جملة مضطربة والتصحيح عن الأصل المنقول عنه هنا وهو : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ١٨٧) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣) .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س : " وكان من الأمراء الكبار " .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

وكان وصل الخبر فى خامس شوال بأن الأسطول المصرى استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مُسَطَّح[١] ذكر أن كان فيه خمسمائة نفر ، وما يزيد عليه ، وقُتل منهم خلق كثير ، واستبقى منهم أربعة مذكورون .

ولما كان الثامن عشر من شوال اجتمع الملك العادل والانكتير على طعام ومحادثة ، فطلب الانكتير منه أن يجتمع بخدمة السلطان ، فامتنع الملك العادل وقال : "الملوك إذا اجتمعوا تقبح[٢] بينهم المخاصمة بعد ذلك ، وإذا انتظم أمر حَسُنَ الاجتماع"[٣] .

ذكر رحيل السلطان — رحمه الله — إلى القدس ومقامه به

ولما كان ثالث ذى القعدة رحل الفرنج إلى الرملة ، وأظهروا قصد بيت المقدس ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ثم رحل السلطان إلى القدس بنية المقام [فيه][٤] وذلك لسبع بقين من ذى القعدة ، وكان الشتاء قد دخل واتصلت الأمطار ، فوصل إلى القدس ، ونزل بدار الأقساء[٥] مجاور كنيسة قمامة .

---

(١) المسطح — والجمع مسطحات — نوع من السفن الحربية الكبيرة ، ويتضح من النص هنا أنها كانت تسع ٥٠٠ راكب أو تزيد ، وقد ذكرها (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠) بعد "الشلندى" ، وقال : "وهو فى معناه" أى أنه شبيه به ، وقد عرفه دوزى (Dozy : *Supp*, *Dict, Arab,*) بأنه نوع من السفن ولم يزد ، غير أنه حاول أن يفسر معنى اللفظ فقال إنه يعنى نوعا من السفينة ذات السطح : (sorte de navire, peut-être un navire qui a un pont, un tillac). راجع مخطوطتنا (معجم السفن العربية) .

(٢) الأصل وس : "اقتح" ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س (١٢٥ ب) : "وكان الملك العادل رجلا عظيم القدر ، وله أولاد جماعة ، منهم : الكامل والمعظم والأشرف وغيرهم" .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

(٥) الأصل : "دار الاقتاء" ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤) وس (١٢٥ ب) .

وفى ثالث ذى الحجة وصل عسكر من مصر ورحال مع أبى الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون . فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية للفرنج فغنموها ، ووصل إلى القدس الشريف نيف وخمسون أسيرا .

ولما كان يوم عيد الأضحى واقع الأمير سابق الدين بن الداية — صاحب شيزر — الفرنج فاحتوى على عشرة من مقدميهم قتلا وأسرا ، وتسلق الفرنج فى الجبال ، وتركوا خيامهم ، فغنمها المسلمون ، وبقى الفرنج فى النطرون كالمحصورين [٣٩٢] وقطع المسلمون الطريق على تجارهم حتى أخذوا قافلة كبيرة بما فيها ، وما قدروا على تخليصها ، فرحلوا عائدين إلى الرملة لليلتين بقيتا من ذى الحجة .

وفى ذلك اليوم وصل خمسون رجلا من الموصل برسم قطع الصخور من الخندق[١] ، وشرع السلطان فى تحصين[٢] القدس وعمارة أسواره ، وحفر خنادقه ، وأرسل إلى البلاد فى جمع رجال يقومون بهذه الأعمال ، وعمل السلطان فيه بنفسه ، بنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء .

ذكر وفاة الملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب

قد ذكرنا توجه الملك المظفر تقى الدين — رحمه الله — إلى البلاد التى زاده السلطان [إياها][٣] وراء الفرات ، فلما توجه إلى تلك البلاد امتدت يده إلى بلاد غيره ، فاستولى على السويدا وحانى ، وقصد بلاد خلاط ، وكسر عسكر صاحبها سيف الدين

---

(١) النص فى س أكثر وضوحا وهو : "وفى ذلك اليوم وصل من الموصل جماعة كبيرة من الحجارين برسم قطع الصخور من خندق القدس" .

(٢) الأصل : "تحسين" ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

بكتمر، وتملك معظم البلاد، فاستصرخ سيف الدين بكتمر بالخليفة الناصر لدين الله. فورد كتاب الخليفة إلى السلطان ينكر فيه قصد تقي الدين أخلاط، ويظهر العناية التامة ببكتمر، ويشفع فى حسن بن قفجاق، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين — صاحب إربل —، ويتقدم بمسير القاضى الفاضل إلى الديوان لبت حال وفصل أمر، فأجابه السلطان :

بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من هذا، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم الخادم إلى مظفر الدين حتى يحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد؛ وأما القاضى الفاضل فاعتذر عنه بكثرة الأمراض، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

ثم إن الملك المظفر نازل مدينة ملازكرد — وهى لبكتمر — وحاصرها وضايقها، ومعه عساكر كثيرة، وكان فى صحبته ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر، فاعترى الملك المظفر مرض شديد، وتزايد به إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى، وذلك يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من هذه السنة — أعنى سنة سبع وثمانين وخمسمائة — فأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن ملازكرد، وعاد به إلى البلاد التى هى فى يده، وعجب الناس من حزمه وثباته.

ووصل الملك المنصور بعد ذلك إلى حماة بأمواله وخزائنه [٣٩٣] وأصحابه، ودفنه بظاهر حماة من شماليها، بالتربة المعروفة به، وبنى السلطان الملك المنصور إلى جانب التربة مدرسة للشافعية، ورتب لها وقفا جليلا .

سيرة الملك المظفر تقي الدين — رحمه الله —

كان الملك المظفر — رحمه الله — ملكا شجاعا جوادا، شديد البأس، عظيم الهمة، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبى، وكان عنده فضل وأدب، وشعر حسن قد

ذكرنا بعضه ، فأصيب السلطان بموته ، لأنه كان من أعظم أعوانه على ما يكابده من الشدائد ، غير أنه كان قد تغير قلبه عليه فى آخر وقت بسبب اشتغاله بمحاربة جيرانه ، وخذلانه له فى وقت الحاجة إلى مساعدته على ما هو بصدده من الجهاد .

واتفق أنه فى ليلة الجمعة المذكورة أصيب السلطان أيضا بالأمير حسام[1] الدين محمد ابن عمر بن لاچين ، وهو ابن أخته ، فأصيب فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته ، وحمل حسام الدين إلى دمشق ، ودفن فى التربة الحسامية[1] المنسوبة إليه ، من بناء والدته ست الشام بنت أيوب ، وهى المدرسة الشامية[2] ظاهر دمشق .

وفى الجمعة التى[3] توفى فيها الملك المظفر توفى قاضى بلده أمين الدين أبو القاسم ابن حبيش ، وذلك حادى عشر شهر رمضان ، وكان أمين الدين هذا رئيسا جوادا عظيم القدر بحماة ، وكان مشهورا عند الملوك .

ذكر استيلاء الملك المنصور ناصر الدين محمد
ابن الملك المظفر تقى الدين على حماة وبلادها
وتملك الملك العادل البلاد الشرقية

لما توفى الملك المظفر تقى الدين — رحمه الله — راسل الملكُ المنصورُ عَمَّه السلطان يخبره بأنه قام مقام أبيه فيما كان له من البلاد ، وطلب منه شروطا نسبه السلطان بسببها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب ، وطلب الملك الأفضل

---

(١) الأصل : « ناصر » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٥)

(٢) راجع ترجمة ست الشام أخت صلاح الدين ، وأخبار التربة والمدرسة فى : (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٣٠٠)

(٣) الأصل : "الذى" والتصحيح عن س .

من أبيه ما كان بيد الملك المظفر قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، فأجابه السلطان إلى ذلك . ورحل من القدس ثالث صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار، سوى ما أصحبه من الخلع والتشريفات ووصل إلى حلب فاحتفل به أخوه الملك الظاهر صاحبها، وقام بواجب خدمته، وأحضر له مفاتيح البلد ، وقدم له تقدمة كثيرة .

ولما سمع الملك [٣٩٤] المنصور بذلك اشتد انزعاجه ، وراسل عمه الملك العادل — وهو إذ ذاك بالقدس — ملتجئا إليه ومحتميا به ، فخاطب الملك العادل السلطان فى حقه، واستعطفه له، وقال : "أنا أمضى إليه وأحضره"

وكان مقترح الملك المنصور أحد قسمين : إما حرّان والرُّها وسُمَيْساط وميّافارقين ؛ وإما حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، وأنه يكفل أخوته .

فامتنع السلطان من الإجابة إلى شىء منه ، فراجعه الملك العادل مرارا فلم يفعل ، وكثرت الشفاعة إليه فى معناه فخاف له أولا على الرُّها وحرّان وسُمَيساط ، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع التى اقترحها ، ويكفل أخوته ، ويتخلى عن تلك المواضع التى فى يده، فالتمس الملك العادل خط السلطان ، فأبى ، وألحّ عليه ، فخرّق (١) نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يُخاطب بمثل ذلك فى جانب بعض أولاد أولاد أخيه ، ثم أعطاه خطه بما استقرت به القاعدة عليه .

ثم إن الملك العادل التمس من السلطان البلاد التى كانت بيد الملك المظفر تقى الدين أولا قبل أن يعطى البلاد الجزرية، ثم أعطى البلاد الجزرية عوضا عنها وآخر ما استقر الأمر عليه أن الملك العادل يتسلم البلاد الشرقية ، وينزل عن كل ماله فى الشام ماخلا الكَرَك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصّه بمصر، وعليه فى كل

(١) الأصل : « مخرق » ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧)

سنة ستة آلاف غرارة [غلة][١] تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس ، واستزاد الملك العادل قلعة جعبر على البلاد الشرقية ، فأجيب إلى ذلك ، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها إليه ، ثم أجاب بعد ذلك[٢] .

وسار الملك العادل من القدس فى العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وكتب السلطان إلى الملك الأفضل يأمره بالعود إليه ، فعاد منكسر القلب متعتبا ، ووصل إلى دمشق ، ولم يصل إلى خدمة السلطان ؛ فلما[٣] أشتد خبر الفرنج سيّر إليه يطلبه ، فما وسعه التأخير ، فسار إليه بِطُلْبِه وصحبته العساكر الواصلة من الشرق ، فلقيه السلطان ، وترجّل له جبراً لقلبه وتعظيما له[٣] .

وأما الملك العادل فإنه وصل [٣٩٥] إلى حرّان والرّها ، وقرر أمرهما ، واستقر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم .

وعاد الملك العادل فى آخر جمادى الآخرة إلى خدمة السلطان ، وفى صحبته الملك المنصور [محمد بن تقى الدين][٤] ، فلقيه الملك الظاهر ولد السلطان إلى بيت نوبة ، ودخل به على السلطان ، فنهض إليه واعتنقه ، وضمه إلى صدره ، وغشيه البكاء ، فصبّر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى ، وبكى الناس لبكائه ساعة ، ثم باسطه ، وسأله عن الطريق ، وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان به ، وأنزله فى مقدمة عسكره .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) بعد هذا اللفظ فى س (١٢٧ ب) : " وللملك المنصور البلاد الشامية التى كانت بيد والده" .

(٣) هذه الفقرة غير موجودة فى س فى هذا الموضع ، وإنما وردت فقرة أخرى تؤدى معناها بعد كلمة " قلعة نجم " فى السطر التالى ، ونصها : " ثم إن السلطان استدعى بولده الملك الأفضل إلى عنده فاسترضاه ، وقام له قائما عند لقياه ، ووعده من البلاد بما هو خير مما أخذ منه من البلاد الشرقية ، ثم خلع عليه خلعة سنية ، وأمرهه إلى منزله ، وقد طاب قلبه بما وعده " .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

وفى آخر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة توفى علم الدين سليمان بن جَنْدَر وهو شيخ الدولة وكبيرها .

وفى هـذه السنة فى ربيع الأول نازل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل — الجزيرة وبها ابن أخيه معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، وحاصرها ، وكان السبب فى ذلك سوء سيرة معز الدين وخروجه عن طاعة عمه عز الدين ، ومساعدة أعدائه عليه ، فإنه انتقل عنه [١] إلى الملوك المجاورين له مايوحشهم منه ، وبقى محاصرا لها إلى رجب من هـذه السنة ، ثم صالحه على قاعدة استقرت [٢] بينهما ، وتحالفا وخرج معز الدين إلى خدمة عمه عز الدين ، واعتذر إليه بأعذار قبلها منه ، ثم رحل عائدا إلى الموصل [٣] .

ودخلت سنة ثمان [٤] وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس ، مجتهد فى عمارته .

وفى ثالث المحرم منها رحل الفرنج إلى عسقلان ، ونزلوا بظاهرها ، وأظهروا الاجتهاد فى عمارتها ، ورأى ملك الأنكتير دخانا على بعد نقصده ، وكان ثَمَّ جماعة من الأسدية ، وسيف الدين — كوج [٥] ، وعلم الدين قيصر ، فوصل إليهم ، وهم غارون [عمّا دَهَمَهُم ، فوصل اللاعين إليهم] [٦] وقت المغرب ، وكانوا قد نزلوا مفترقين فى موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الأول وواقعه حتى ركب الفريق الآخر ، فدافعوهم ، وساقوا ، وقد ربحوا الفرنج أثقالهم ، وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم منهم ، ولم يفقد من المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة ، وقى الله شرها .

---

(١) س : " عن عمه " .

(٢) الأصل : " استمرت " ، والتصحيح عن س .

(٣) س : " إلى الجزيرة " .

(٤) الأصل : " ثمانية " .

(٥) الأصل : " باركوج " والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

(٦) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها إتمام المعنى ، أضفناها عن المرجع المنقول عنه هنا ، وهو العماد الأصفهانى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) .

وفى حادى عشر المحرم من هذه السنة كبس الأمير عز الدين جرديك تُبْنَى[1] على من نزل بها من الفرنج، فأوقع بهم البلاء، وساق منهم إثنى[2] عشر أسيرا، ومتاعا كثيرا، وفى ثانى صفر أغار أيضا على ظاهر عسقلان ، وجاء بثلاثين [٣٩٦] أسيرا[3] .

وفى الرابع عشر من صفر كمنت سرية — مقدمها الأمير فارس الدين ميمون القصرى — عند تُبْنَى إلى أن عبرت قوافل الفرنج، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها .

وفى مستهل ربيع الآخر من هذه السنة وصل الأمير سيف الدين المشطوب، وقد خاص من الأسر، وقطع الفرنج عليه خمسين ألف دينار، عجّل منها عشرين ألف دينار، وأعطاهم بالباقى رهائن ، فأحسن السلطان ملقاه ، وأقطعه نابلس وأعمالها ، وكانت قبله خبز الأمير حسام الدين لاجين ابن أخت السلطان .

ذكر مقتل المركيس صاحب صور — لعنه الله —

كان الأسقف بصور أضافه ، فأكل عنده وشرب ، وكان رجلان من الباطنية قد دخلوا صور ، وتنصروا وأظهروا الترهب والتعبد ، وشكرهما الأقساء والرهبان ، وأحبهما المركيس ، ولم يكن يصبر عنهما ، فلما خرج من دعوة

---

(١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلدة بحوران من أعمال دمشق ، أنظر أيضا : (Dussaud : Op, Cit, P. 334—335) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦)

(٢) س (١٢٨ ب) : "أربعة عشر" ، وما هنا يتفق ونص العماد (المرجع السابق) .

(٣) بعد هذا اللفظ فى س : "من الفرنج ، وكان السلطان كلما أتوه بأسير بعد أخذ عكا ضرب عنقه" .

الأسقف وثبا عليه بسكاكينهما فقتلاه ، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، فقال المركيس — وهو مجروح — : «احملونى إلى الكنيسة »، فحملوه ، فلما حمل إليها بصر به ذلك الجارح الهارب ، فجرحه ثانيا ، وعجّل الله بروحه إلى النار ، وقبض على الجارحين ، وبحث عنهما فوجدا من الفداوية الإسماعيلية ، فسألوهما : "من أمركما بهذا الفعل ؟" ، فقالا : "ملك الأنكلتير" ، فقُتلا شر قتلة ، ولم يعجب السلطان قتل المركيس ، لأنه كان قد أبدى عداوة الأنكلتير ومنازعته فى الملك .

ولما قتل المركيس جلس مكانه الكندهرى بأمر الأنكلتير ، وتزوج زوجة المركيس فى ليلته ، ودخل بها وهى حامل ، وليس هذا عندهم مانعا من صحة النكاح . ويكون الولد منسوبا إلى الملكة ، وهذا الكندهرى ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك الأنكلتير من أمه[١]، وجرى حكمه على افرنج الساحل، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفى التاسع من جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ، ثم خربوها ورحلوا عنها ، وأسروا من فيها .

وفى رابع عشره خرج يزك المسلمين على الفرنج بمجدليابه [٢] ، وقتلوا [٢٩٧] منهم كندا كبيرا ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم النطرون، ثم بيت نوبة، وألهبهم[٣] المسلمون بالنهب والسلب ، وسلطوا [٤] عليهم ، وكمنوا لهم تحت كل رابية .

---

(١) الأصل : " من أمره " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦) وس (١٢٩ أ) .

(٢) الأصل : " بمجدل بابا " وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها قرية قرب الرملة ، فيها حصن محكم .

(٣) الأصل : " والتهم " ، والتصحيح عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧) وس .

(٤) الأصل : " وبسطوا " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

وفى أواخر الشهر التقى الجمعان على فرسخين من القدس بمكان يعرف بتملونية[1]، ثم رجع العدو ناكصا على عقبيه، والمسلمون فى أثرهم، يكمنون[2] لهم، وينالون منهم[2]، وكان فى اليزك بدر الدين [دلدرم][3] الياروقى، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرت به فوارس، فاستولى عليهم الكمين، وما سلم منهم أحد.

ذكر كبس الفرنج للعسكر المصرى

كان العسكر المصرى قد تجهز للمضى إلى خدمة السلطان، فكتب السلطان إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالفرنج، ثم سار العسكر طالبا البلاد الشامية، والفرنج تترقب أخبارهم وتتوصل إليهم بالعرب المفسدين، ولما تحقق العدو خبر العسكر الواصل والقفل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل، وركب فى ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية، فبات بها ثم سار.

وبلغ السلطان مسير العدو إلى طريق العسكر المصرى، فندب الأمير فخر الدين الطنبا العادلى، وشمس الدين أسلم[4] الناصرى، حتى يعلما العسكر، فالتقيا بهم بالحسى، وأخبراهم الخبر، ونزلوا وعرضوا وهم يظنون

---

(١) الأصل: «علمونية»، والتصحيح عن: (ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٢) و (الروضتين، ج ٢، ص ١٩٧)، وقد ذكر (ياقوت: معجم البلدان) مدينة بهذا الرسم، ولكنه قال، إنها بلد بالروم بينه و بين قسطنطينية ستون بريدا، وهذه غير تلك دون شك.

(٢) مكان هذه الفقرة فى س: "يقتلون منهم و يأسرون".

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن س (١٢٩ ب).

(٤) الأصل: "إسلام"، والتصحيح عن ابن شداد و س.

أن لاحسَّ للعدو بأرض الحسى ، بجاءهم العدو بغتة ، وكان فى جملة العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لأمه ، وطاف الأنكلتير حول القَفْل فى صورة عربى ، فرآهم ساكنين قد غلبهم النعاس ، فاستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبُغِتَ(١) الناس ، ووقع عليهم(٢) بخيله ورَجْله ، فكان الشجاع الأيد القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه .

وانقسم القَفْل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب ، وقسم [٣٩٨] استولى عليهم العدو ، فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ماكان معهم .

وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام مثلها من مدة مديدة ، وتبدد الناس فى البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكن جمعه من الخيل والجمال والأقمشة ، وسائر صنوف الأموال ، وكلف [الانكلتير](٣) الجمالين خدمة الجمال ، والخَرْبَنْدِيَّة خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، ونجا غانما إلى عسكره .

ونجا فلك الدين أخو الملك العادل فى معظم العسكر بأنفسهم وماقدروا على حمايته ، وكان عدة من وقع فى أسر العدو من المسلمين خمسمائة ، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ، وكان وصول العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان يوما عظيما عندهم .

---

(١) الأصل : " فتعب " والتصحيح عن : (ابن شداد ، السيرة ، ص ٢٠٩) .

(٢) الأصل " منهم " ، وس : " بهم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن س .

ذكر قصد الفرنج

حصار البيت المقدس وكفاية الله المسلمين شرهم

ولما جرى ما ذكرناه وقوى الفرنج بما حصل لهم من الغنيمة صحّ عزمهم على قصد القدس ، فرتبوا (١ جماعة على لدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ١) ، وأنفذوا الكندهرى إلى صور وأطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ، ليصعدوا إلى القدس (٢) ، ولما علم السلطان بقصدهم قسّم أسوار القدس على الأمراء ، وتقدم إليهم فى تهيئة أسباب الحصار ، وأخذ فى إفساد المياه ظاهر القدس ، فأخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ما يُشرب أصلا .

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، وحضر الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وسيف الدين المشطوب ، والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء .

قال القاضى بهاء الدين بن شداد :

" أمرنى السلطان أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك ، وكان مما قلته : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة — رضى الله عنهم — على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به — صلى الله عليه وسلم — ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف

(١) مكان هذه الفقرة فى س : " فرتبوا جماعة الذى يقطعون الطريق على من ينقل الميرة " وما بالمتن هو الصحيح ، فهو يتفق والأصل المنقول عنه وهو ابن شداد ، أنظر (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٨) .

(٢) الأصل : " إلى السلطان " ، والتصحيح عن المرجع السابق و س (١٣٠ ا) .

على الموت ، فلعل ببركة هذه النيـة يندفع العـدو ، فاستحسن [الجماعة][١] ذلك ، ووافقوا [٣٩٩] عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا فى صورة مفكر[٢] ، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، وقال :

" الحمد لله ، والصلاة على رسـول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومَنَعَتُه[٣] ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم متعلقة فى ذممكم[٤] ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه ألا أنتم ، فلو لَوَيْتُم أعنتكم — والعياذ بالله — طوى البلاد طىّ السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم [مال][١] بيت مال المسلمين ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام " .

فانتدب[٥] لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال :

«يامولاى : نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذى أنعمت علينا ، وكبّرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله ما يرجع أحدٌ منا عن نصرتك إلى أن يموت " .

فقال الجماعة مثل ما قال ، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ، ثم انصرفوا .

---

(١) مابين الحاصرتين عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٢١٢)

(٢) الأصل : " فكر " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : " وشيعته " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٤) الأصل : " ذمتكم " ، والتصحيح عن المرجع السابق ، وهو الأصل المنقول عنه هنا .

(٥) الأصل : " فابتدر " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

ثم انقضى يوم الخميس[١] على أشد حال من التأهب والاهتمام حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعنا فى خدمته على العادة ، وسهرنا حتى مضى هزيع[٢] من الليل وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلوة هى الدستور العام ، فصلينا وأخذنا فى الانصراف .

قال القاضي بهاء الدين :

فاستدعانى — رحمه الله — وقال لى : " أعلمتَ ما الذى تجدّد " ؟

قلت : " لا "

قال :

فإن أبا الهيجا نفّذ إلىَّ اليوم ، وقال : إنه اجتمع عندى المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا لا مصلحة فى ذلك [فإننا نخاف أن نحصر][٣] ويجرى علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، والرأى أنا نلقى مصاف ، فإن قدّر الله أنا نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها مدة بغير[٤] القدس .

وكان — رحمه الله — عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة .

---

(١) الأصل : " الجمعة " والتصحيح عن : (ابن شداد : السيرة ، ص ٢١٢) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٨) و س (١٣٠ ب) .

(٢) الأصل : " ربع " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) الأصل : " إنا نحصر " ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٢١٣) ، والنص فى س : " بمضى القدس " .

قال :

وأقمت تلك الليلة فى خدمته إلى الصباح، وهى من الليالى التى أحياها فى سبيل الله. وكان [٤٠٠] مما قالوه له فى الرسالة :

"إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد[1] لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد".

وانفصل الحال على أن يقيم من أهله الملك الأمجد مجد الدين — صاحب بعلبك — وكان — رحمه الله — يحدث نفسه بالمقام، ثم امتنع من ذلك لما فيه من خطر على الإسلام، فلما قارب الصبح أشفقت عليه، وخاطبته فى أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم، وانصرفت عنه إلى دارى، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن، فأخذت فى أسباب الوضوء، فما فرغت إلا والصبح قد طلع، وكنت أصلى الصبح فى غالب الأوقات عنده، فصرت إلى خدمته وهو يجدد الوضوء، فصلينا، ثم قلت له :

" قد وقع لى واقع أعرضه ".

فأذن فيه، فقلت :

المولى فى اهتمامه وما قد حمّل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجزت أسبابه الأرضية، فينبغى أن يرجع إلى الله تعالى، وهذا يوم جمعة، وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوة مستجابة فى صحيح الأحاديث، ونحن فى أبرك موضع نقدر أن نكون فيه[2] فى يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشىء خفية بحيث لا يشعر أنه منك، وتصلى بين الأذان والإقامة ركعتين تناجى فيهما ربك وتفوض مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصديت له، فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاك".

---

(١) الأصل : "فالأكراد"، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٢) الأصل : "أن يكون فى يومنا"، والتصحيح عن : (الروضتين، ج ٢، ص١٩٩)٧

وكان — رحمه الله — حسن العقيدة تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه فى الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على مصلاه — رحمه الله — ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كان عشيتها ونحن فى خدمته على العادة ، فوصلت رقعة من عز الدين جرديك — وكان فى اليزك — يقول فيها :

" إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا على ظهر فى البر ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم " .

ولما كان صبيحة السبت — وهو الحادى والعشرون من جمادى الآخرة — وصلت رقعة أخرى تخبر أن الجواسيس رجعوا فأخبروا أن القوم اختلفوا فى الصعود إلى القدس أو الرحيل [٤٠١] إلى بلادهم ، فذهب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس وقالوا :

" إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ، ولا نرجع دونه " .

وقال الانكلتير :

" إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا ، فمن أين نشرب ؟ "

فقالوا له :

" نشرب من ماء نقوع "(١) — وبينه وبين القدس مقدار فرسخ —

فقال :

" كيف نذهب إلى السقى ؟ "

---

(١) الأصل : " يقوع " ، وما هنا عن : (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ٢١٤) ، و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) ولم أجد لهذا النهر ذكرا عند ياقوت ، وإنما أشار إلى قرية اسمها " نقوع " وقال إنها من قرى بيت المقدس ، يضرب بجودة عسلها المثل .

فقالوا :

"ننقسم قسمين : قسم يذهب إلى السق مع الدواب[1] ، وقسم يبق على البلد فى المنزل[2] ، ويكون الشرب فى اليوم مرة واحدة"

فقال الانكلتير :

إذا يؤخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ، ويخرج[3] عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية" .

فانفصل الحال على أنهم حكَّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكَّم الثلاثمائة اثنى عشر منهم ، وحكَّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما يأمرونهم به يفعلونه" .

فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم المخالفة ، فأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راجعين إلى نحو الرملة ، ناكصين على أعقابهم ، ثم نزلوا الرملة ، وتواتر الخبر بذلك إلى السلطان ، فركب ، وركب الناس معه ، وكان يوم فرح وسرور .

ذكر ما جرى

بين المسلمين والفرنج من المراسلة فى معنى الصلح

ثم ورد رسول ملك الانكلتير إلى السلطان يقول :

"قد أهلكنا نحن وأنتم ، والأصلح نحقن الدماء ، ولا ينبغى أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى ، بل أريد المصلحة ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش

(١) عند هذا اللفظ تنتهى (ص ١٣١ ب) من نسخة س ثم تنقطع الصلة بين النسختين بعد ذلك .

(٢) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٩) : "اليزك" .

(٣) الأصل : "ويذهب" ، والتصحيح من المرجع السابق .

يتأخر لينطح ، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا ، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك فى المراسلة لما كانت المراسلة تجرى مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى قرية أو مزرعة(١) قبلتها وقبّلتُها".

فاستشار السلطان الأمراء فى جوابه ، فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب ، وعلاهم [٤٠٢] من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب :

"إنك إذا دخلت معنا فى هذا الأمر ، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وابن أختك يكون عندى كبعض أولادى ، وسيبلغك ما أفعل فى حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة ، وبقية البلاد نقسمها ، فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ، والتى بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذى كنت أكرهه حديث عسقلان".

فانفصل الرسول طيب القلب .

ثم ورد رسوله :

"أن يكون فى القدس عشرون نفرا ، وأن من سكن من النصارى والفرنج فى البلد لا يتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية تكون لكم"

---

(١) كذا فى الأصل ، وعند ابن شداد (المرجع السابق) : "مقرعة أو قرية" .

وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة: أنهم قد نزلوا عن القدس ماعدا الزيارة، وإنما يقولون ذلك تصنعا، وأنهم راغبون فى الصلح، وأن الانكلتير لا بد له من الرواح إلى بلده .

فأجابه السلطان :

" بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة " .

فقال الرسول :

" وليس على الزوار فى القدس شئ يؤخذ منهم ؟ " .

فأجابه السطان إلى ذلك ، وقال له :

" أما البلاد فعسقلان وما والاها وما وراءها فلا بد من خرابه " .

فقال الرسول :

" إن الملك قد خسر فى أسوارها مالا جزيلا " .

فسأل سيف الدين المشطوب أن تجعل مزارعها وقراها له فى مقابلة خسارته، فأجاب السلطان إلى ذلك ، وشرط أن الداروم تخرب ، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا فى قرية كانت مناصفة .

ثم جاء رسوله يقول :

" الملك [يسألك و][1] يخضع لك فى أن تترك [له][1] هذه الأماكن الثلاثة عامرة، وأى قدر لها عند ملكك وعظمتك؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج [لم][1] يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية ، لايطلب أن يكون فيها رهبان ولا قسوس، إلا [فى] القيامة وحدها، فتترك أنت له هذه [٤٠٣] البلاد، ويكون

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد، ص ٢١٨) و (والروضتين، ج ٢، ص ٢٠٠).

الصلح عاما ، فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ولكم ما فى أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، و إن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح وما يمكنه مخالفتهم ".

فأجابه السلطان :

" بأن أنطاكية لنا معهم حديث [فيها][1] ، و رسلنا عندهم ، و إن عادوا بما نريد أدخلناهم فى الصلح ، وإلا فلا ، وأما البلاد التى سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، و إلا فلا قدر لها ".

ثم جاء رسوله وقال :

إن الملك قال : " لا يمكنا أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولا يسمع عنا فى البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ، ولا مناكرة فيها ".

ذكر رحيل السلطان

من القدس وأخذه رَبَض يافا

ثم بلغ السلطان فى العاشر من رجب من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة — أن الفرنج قد رحلوا طالبين بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ،[2] واتفق وصول الملك العادل من الشرق — كما ذكرنا —

---

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن (ابن شداد ، ص ٢١٨) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٢) الأصل : " الجنب " وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث عرفها بقوله : حصنان يقال لهما : الجيب الفوقانى ، والجيب التحتانى ، بين بيت المقدس ونابلس من أعمال فلسطين ، وهما متقاربان .

والملك الظاهر من حلب ، ثم رحل السلطان من الحيب إلى بيت نوبا[١] ، ثم رحل إلى الرملة ، فنزل بها على تلال بين الرملة ولد ، وركب جريدة حتى أتى[٢] يازور وبيت جبرين[٣] وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد[٤] ، فرتب فى الميمنة ولده الملك الظاهر ، وفى الميسرة أخاه الملك العادل ، وركّب المنجنيقات ، وزحف إلى البلد ، فأرسل العدو رسولين : نصرانيا وافرنجيا ، يطلبان الصلح ، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة ، و إلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، وأمر بالنقب ، فحشى وأحرق ، فوقع بعض البدنة ، فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب ، فالتهبت ، فمنعت من الدخول فى الثلمة ، وقاتلوا إلى الليل ، وأصبحوا فوقعت البدنة ، فعلا غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب[٥] الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم . [٤٠٤] .

فلما رأى العدو ما قد نزل به طلب الأمان .

---

(١) الأصل : " بيت توبة " ، وقد صححت عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بليدة من نواحى فلسطين .

(٢) الأصل : " إلى بيت يازور " والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٠) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) . وذكر (ياقوت) أن " يازور " بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين .

(٣) الأصل : " بيت جن " والتصحيح عن ابن شداد ، وفى ياقوت : بيت جبرين لغة فى جبريل بليد بين بيت المقدس وغزة ، وبينه وبين القدس مرحلتان ، وبين غزة أقل من ذلك ، وكانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين .

(٤) الأصل : " العدو " ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

(٥) الأصل : " بانت بباب " ، والتصحيح عن (ابن شداد ، ص ٢٢٣) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٠) .

فقال السلطان :

الفارس بفارس والتركبلى[١] بمثله ، والراجل براجل .

فطلب الرسول من السلطان أن يبطل [القتال][٢] إلى أن يعود .

فقال : "ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر، ولكن أدخل إلى أصحابك فقل لهم يتحازون[٣] إلى القلعة ، و يتركون الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقى دونه مانع" .

ففعلوا ، وانحازوا[٤] إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة .

ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية .

واستقرت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان .

ووصل كتاب من صارم الدين قايماز النجمى — وكان فى طريق الغور لحمايته من عسكر العدو الذى كان بعكا — يخبر فيه أن الانكلتير لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى يافا ، فاشتد عزم السلطان والأمراء على إخراج من فى القلعة ليتسلمها .

---

(١) هذا نص له أهمية كبرى ، فهو يدل على أن جيش صلاح الدين عرف نظام فرق "التركبلى" بدليل النص على استبدال "التركبلى بمثله" ، ولشرح هذا المصطلح راجع ما فات هنا ، ص ١٤٩ ، هامش ١

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين ليتضح به المعنى عن الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠١

(٣) الأصل : "يتجارون" ، والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠١) .

(٤) الأصل : "وتجاروا" والتصحيح عن المرجع السابق .

ذكر وصول ملك الانكلتير

إلى يافا واسترجاعه ربضها

ووصل ملك الانكلتير بغتة ، فما شعر المسلمون سحرا إلا و بوقاته [تنعق ، فعلمنا بوصول النجدة ، قد وصلت فى البحر] (١) .

قال القاضى بهاء الدين :

فسيَّر معى السلطانُ عزَّ الدين جرديك ، وعلم الدين قيصر ، ودر باس المهرانى ، وشمس الدين عدل الخزانة ، وقال : امض إلى الملك الظاهر ، وقل له يقف ظاهر الباب القبلى ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة ، ويخرجون القوم ويستولون على ما فيها من الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر ، وهو ظاهر البلد يسيرها إلينا .

قال :

ففعلنا ودخلنا القلعة ، وأمرنا الفرنج بالخروج ، فأجابوا وتهيأوا ، فقال جرديك : لا ينبغى أن يخرج منهم أحد حتى تخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ، فإنهم قد داخلهم الطمع فى البلد ، وأخذ يشتد فى ضرب الناس و إخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين فى مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ؛ فطال الأمر إلى أن علا النهار ، وأنا ألومه وهو لا يرجع ، والزمان يمضى ، فلما رأيت الوقت يفوت ، قلت له : إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة فى إخراجهم ، [٤٠٥] فأجاب ، وأخرجنا خمسة وأربعين نفرا بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثتهم أنفسهم

---

(١) الأصل : " فما شعر المسلمون سحرا إلا و بوقاته تنعر فى البحر " ولا معنى لها ، وما هنا عن (ابن شداد ، ص ٢٢٤) .

بالعصيان ، وكانوا استقلوا المراكب التى جاءتهم ، وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكتاير مع القوم ، ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى أن تعالى النهار ، نخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا و يقتلوا ، نخرج من خرج .

ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين فى الحصن، وظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله ، فقلت لأصحابنا : خذوا حذركم، فقد تغيرت عزائم القوم، فما كان إلا ساعة بحيث صرنا خارج البلد، وإذا القوم قد حملوا من القلعة، وأخرجوا من كان فى البلد من الأجناد، وازدحم الناس فى الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقى فى بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم ، وقتلوا وأسروا ، وأمر السلطان الناس بالزحف ، فزحفوا، وعاد الحصار كما كان ، واضطرب العدو فى القلعة واستبطئوا نزول النجدة إليهم، وخافوا خوفا عظيما، فأرسلوا بطر يقهم والقسطلان[1] يعتذران مما جرى ، و يسألان السلطان القاعدة الأولى .

وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق[2] المسلمين ورجالهم ، نخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت ، وانضاف إلى ذلك كثرة الضجيج والتكبير والتهليل ، فلما رأى من فى القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول إليهم مع كثرتها ، فإنها كانت قد بلغت نيفا وخمسين مركبا فيها خمسة عشر شانيا[3] ، [علموا أن][4] النجدة ظنوا أن القلعة قد أخذت ، فوهب رجل من أهل

---

(١) معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ، و يقابله فى الفرنسية (Châtelain) . أنظر تعليقات الدكتور محمد مصطفى زيادة (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، هامش ٣) .

(٢) البيرق معرب اللفظ الفارسى "بيراق" ، ومعناها الراية والعلم واللواء راجع : (القس طوبيا العنيسى الحلبى : تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥) .

(٣) راجع ما فات هنا ، ص ١٣ ، هامش ١ .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ابن شداد ، ص ٢٢٦) .

القلعة نفسه للسيح ، وقفز من [1] القلعة إلى الميناء ، وكان رملا فلم يصبه شيء [2] ، وعدّى إلى البحر ، وحدّث الانكتير بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى إلى الميناء ، وحملوا على المسلمين فأخرجوهم من الميناء ، فقبض السلطان على الرسل ، وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور [3] فرحل الناس ، [٤٠٦] وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا أخذوا من يافا .

وخرج الانكتير إلى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد ، وأمر من فى القلعة أن يخرجوا إليه فيعظم سواده ، واستدعى جماعة من خواص مماليك السلطان والحاجب أبا بكر العادلى وغيره ، فلما حضروا عنده باسطهم وقال :

"هذا السلطان عظيم ، وما فى الأرض للإسلام ملك أكبر منه ولا أعظم ، فكيف رحل عن المكان لمجرد وصولى؟ والله ما لبستُ لأْمَةَ [4] حربى ولا تأهبتُ لأمر ، ولا فى رجلى إلا زُرْبول [البحر] [5] فكيف تأخر ؟ "

(١) الأصل : " مع " ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٢) الأصل : « شيئا » والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : « باروز » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٤) اللأمة الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقاتها ، وقيل هى السلاح كله ، ولأمة الحرب أداته ، وجمعها لأْم ولُؤَم ، واستلأم الرجل لبس اللأمة ، أى إذا لبس ما عنده من عدة رمح و بيضة ومغفر وسيف ونبل . أنظر : (اللسان)

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ، وزَرْبول أو زُرْبول — والجمع زرابيل — ، ويقال : زربون — والجمع زرابين — ، كلمة من أصل يونانى (σΕρβοὐλα) ومعناها نوع من الحذاء ، وكانت تطلق فى القسطنطينية على الحذاء الذى يلبسه العبيد ، ويرى (Dozy) أن الكلمة مشتقة من (servus) ، كما أن اللفظ الأسبانى (servilla) ويعنى نوعا من الحذاء مشتق من (serva) ، لأن الخدم اعتادوا أن يلبسوا هذا النوع ؛ ويبدو أن اللفظ انتقل من الدولة البيزنطية إلى بلاد الشام ، واستعمله العرب فى العصور الوسطى للدلالة على هذا النوع من الحذاء الذى يلبسه العبيد ، فقد استعمل بهذا المعنى (وإنما برسم زربون) فى كتاب "ألف ليلة وليلة" . وقد وصفه (Dozy) وصفا ينطبق على ذلك النوع من الحذاء المعروف فى مصر إلى عهد قريب باسم (المركوب) ، فهو حذاء أحمر اللون ذو طرف أمامى مدبب مرتفع إلى أعلى . وهو ذلك النوع الذى كان يلبسه المشايخ إلى عهد قريب . أنظر : (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) ولعل هذا هذا الشرح يفسر لنا أيضا كلمة « زربون » التى كنا نطلقها أحيانا على العبد ، فنقول له تحقيرا لشأنه : « عبد زربون » ، ولاحظ أيضا أن التعبير فى المتن هنا يدل على أن رتشارد كان يلبس نوعا من الحذاء أو الزربول خاصا بالبحر .

ثم قال :

"والله إنه لعظيم، والله ما ظننته يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين؟!"

ثم قال لأبي بكر الحاجب :

تسلم على السلطان ، وتقول له : بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمر لابد منه ، ولابد لهذا الأمر من آخر ، وقد هلكت بلادي وراء[1] البحر ، وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم " .

فأرسل السلطان إليه في الجواب :

" إنك [كنت][2] طلبت [الصلح][2] أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن فقد خربت هذه يافا ، فيكون لكم من قيسارية إلى صور " .

فأجابه الانكلتير :

" إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وإذا احتجتَ إليَّ وصلتُ إليك في أسرع وقت ، وخدمتُك كما تعلم خدمتي " .

فأجابه السلطان :

حيث دخلتَ هذا المدخل فنتفق على أن نجعل البلدين قسمين : أحدهما لك ، وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي ، هو عسقلان وما وراءها " .

---

(١) الأصل : « ورزان » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ليستقيم المعنى

ثم رتّب السلطان اليزك بيازور ، وأمر بخرابها وخراب بيت جبْرين [١] ، ورتّب النقابين لذلك ، ثم سار إلى الرمـلة .

وعاد رسول الانكلتير يشكر على إعطائه يافا ، ويجـدد السؤال فى عسقلان ، ويقول :

" إن وقع الصلح فى [هذه][٢] الأيام الستة سرت إلى بلادى ، وإلا احتجت أن اشتى هنا " .

فأجابه السلطان [فى الحال] [٣] :

" أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما هاهنا تَشْتِيَتُهُ فلابد منها ، لأنه قد استولى [٤٠٧] على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتى ههنا ، ويبعد عن أهـله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، مايسهل علىّ أن أشتى وأصيف وأنا فى وسط بلادى ، وعندى أهلى وأولادى ، ويأتى إلى ما أريده ومن أريده ، وأنا شيخ قد كرهت لذات الدنيا ورفضتها عنى ، والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ؟ ! وأنا اعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله تعالى النصر لمن يشـاء " .

ثم جاء رسوله يقول له :

" كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادى ، والآن فقد هجم الشتاء ، وتغيرت الأنواء ، [وعزمت على الإقامة][٤] وما بقى بيننا حديث .

---

(١) الأصل والروضتين : « بيت حسن » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٣

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ليستقيم المعنى .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عزم السلطان

على كبس الانكلتير ، وانصرافه عنه

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد رحلوا من عكا قاصدين يافا ، فسار إلى العوجا ، فنزل بها ، ثم بلغه أن العدو دخل قيسارية ، ولم يبق فيه مطمع ، وبلغه أن الانكلتير خارج يافا فى نفر يسير ، فوقع له أن يكبسه ، فأتاه ، فوجد خيمةُ عشر خيم ، فحمل عليهم ، فثبتوا ولم يتحركوا عن أماكنهم ، وكشّروا عن ناب الحرب ، فارتاع العسكر منهم ، ووجموا من ثباتهم وداروا حولهم حلقة ، وكانت عدة الخيل سبعة[1] عشر ، وقيل تسعة ، والرجالة ثلاثمائة ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة ، ودار على الأطلاب يحثهم على الحملة ، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب :

"قل لغلمانك الذى ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون"

وكان فى قلب العسكر غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة ، فلما رأى السلطان ذلك غضب ، وأعرض عن القتال وسار إلى يازور[2] .

وذكر أن الانكلتير أخذ رمحه ذلك اليوم ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، ولم يعرض له أحد .

ثم سار السلطان إلى النطرون ثم إلى القدس ، فنظر إلى العماير ورتّبها ، ثم عاد إلى النطرون ، وتوافت إليه العسكر ، ووصل [٤٠٨] علاء الدين بن عز الدين — صاحب الموصل — ، ثم قدم عسكر مصر ، وفيهم سيف الدين يازكوج[3] وجماعة الأسدية فى خدمة ابنه الملك المؤيد مسعود .

---

(١) الأصل : « سبع » .

(٢) الأصل : « بارور » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٩٤ ، هامش ٢

(٣) الأصل : « بالوج » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) .

ذكر عقد الهدنة بين المسلمين والفرنج

ثم جمع السلطان عنده أرباب الرأى ، وقال :

" إن الانكلتير قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، والرأى أنا نسير إلى يافا ، فإن وجدنا فيها مطمعا وإلا سرنا إلى عسقلان ، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضا " .

فوافقوه على ذلك .

فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا من يافا ، ورسل الأنكلتير مترددة إلى السلطان فى طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع الله فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل .

ومما انكشف له أن الكندهرى يتردد بينه وبين الأفرنسيسية فى مقامهم ، وهم عازمون على [عبور](١) البحر قولا واحدا ، فسار السلطان إلى الرملة .

وجاء رسول الانكلتير مع الحاجب أبى بكر العادلى يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج ، وقال له :

" قل لأخى الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان فى معنى الصلح ، ويستوهب لى منه عسقلان ، وأمضى ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ، ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضى إلا إقامة جاهى بين الإفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لى منه عوضا من خسارتى على عمارة سورها " .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

فأرسل السلطان إلى الملك العادل :

" إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار[١] ، والنفقات قد نفدت " .

ثم إن الانكلتير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها، واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وذكر يافا وعملها — فأخرج الرملة منها واللد ومجدليابة[٢] — ثم ذكر قيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا [٤٠٩] وعملها — وأخرج منها الناصرة وصفورية — وأثبت الجميع فى ورقة ، وقال للرسول :

" هذه حدود البلاد التى تبقى فى أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فمبارك ، وقد أعطيتكم يدى ، فَيُنفِذ الملك من يحلف فى بكرة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة " .

وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا، ويتفق المسلمون وهم على خرابها، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس فى الصلح، وشرطوا أن تكون الرمله ولد مناصفة بينهم و بين المسلمين، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء لثمان بقين من شعبان من هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة — وحلفوا ، ولم يحلف الانكلتير ، بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأن الملوك لايحلفون، وقنع السلطان بذلك[٣] وحلف الكندهرى، وهو ابن أخته، وهو المستخلف عنه فى الساحل، و باليان بن بارزان — ابن[٤] صاحب طبرية — .

(١) البيكار — وقد تجمع على بياكير — لفظ فارسى معناه الحرب . أنظر : (Dozy : *Supp. Dict. Ar.*) .

(٢) الأصل : « ومجدل بابا » ، أنظر ما فات هنا ص ٣٨٢ ، هامش ٢

(٣) النص عن ابن شداد : « وقنع من السلطان بمثل ذلك » .

(٤) الأصل : « وابن » وقد حذفت الواو ليستقيم المعنى .

ووصل ابن الهنفرى و باليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين، وأخذوا يده على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأمجد — صاحب بعلبك — ، والأمير بدر الدين الياروقى ، وصاحب تل باشر ، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيزر — ، والأمير سيف الدين المشطوب ، وغيرهم من المقدمين الكبار ؛ وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها [مبتدأ][1] أيلول الموافق الحادى والعشرين من شعبان .

ولما وقعت الهدنة قال أبو الحسن على بن الساعاتى يمدح السلطان الملك الناصر — رحمه الله — من قصيدة :

مُنِعَتْ ظِباءُ المنحنى بأُسُودِهِ ، وأَشَدُّ ما أشكوهُ فَتْكُ[2] ظبائِهِ
فعلتْ بنا وهى الصديق لحاظُها كَظُبَى صلاحِ الدينِ فى أعدائِهِ[3]
سَلْ عنه قَلْبَ الانكتيرِ، فإنَّ فى خَفَقَانِهِ ماشئْتَ من أَنْبائِهِ
لولاكَ أَمَّ البيتَ غَيْرَ مدافعٍ وأسالَ سَيْلَ نداهُ[4] فى بَطْحائِهِ
وبكتْ جفونُ[5] القُدْسِ ثانيةً دماً ، لترنُّمِ الناقوسِ فى أَفْنائِهِ

---

(١) مابين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٢) الأصل : « قتل » ، وما هنا عن (ابن الساعاتى : الديوان ، ج ١ ، ص ٧٧) و (الروضتين ، ج ٢ ص ٢٠٤) .

(٣) ورد هذان البيتان فقط فى ختام المقدمة الغزلية للقصيدة بالديوان ، أما بقية الأبيات فقد وردت فى الروضتين ، ونقلها عنها ناشر الديوان فى نهاية الجزء الثانى منه (ص ٤١١) .

(٤) الأصل : « ولسان سيل نداك » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٥) الأصل : « وجرت عيون القدس » وما هنا عن الروضتين .

[٤١٠] ثم أمر السلطان أن ينادى فى الوطاقات [(١)] والأسواق :

" ألا وإن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل " .

وكان يوم الصلح يوما مشهودا عَمَّ فيه للطائفتين الفرح والسرور ، ولم يكن ذلك من إيثار السلطان .

فحكى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

" قال لى السلطان فى بعض محاوراته فى الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شئ يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة مافى أيدى المسلمين المأخوذة منهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة — يعنى أخاه وأولاده وأولاد أخيه — قد قعد فى رأس قله [(٢)] — يعنى قلعته — ، وقال : " لا أنزل " [(٣)] ويهلك المسلمون " .

قال بهاء الدين :

فكان كما قال ، توفى — رحمه الله — عن قريب ، واشتغل كل من أهل بيته وأولاده بناحية ، ووقع الخلف بينهم ، وأعرضوا عن النظر فى المصلحة العامة للمسلمين ، فلو قدر الله حياته لكان الغالب على الظن أن العدو لايبقى له فى البلاد الشامية ثغر ولا بلد ، لكن الله تعالى إذا أراد أمرا قدَّر أسبابه ، وبالجملة فكان

---

(١) الوطاق لفظ معرب ، وأصله بالتركية : أوتاق أو أوطاق أو أوتاغ ، ومعناه الخيمة أو مجموعة الخيام أو المعسكر .

(٢) الأصل : « تله » ، والتصحيح عن ابن شداد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤) ، وفى اللسان : (قلة كل شئ رأسه أو أعلاه ، والقلة أعلا الجبل) .

(٣) الأصل : « أو يهلك » ، والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

الصلح مصلحة ، إذ لو قدر موته فى أثناء تلك الحروب لكان الإسلام على خطر .

ثم رحل السلطان إلى النطرون، واختلط[1] عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا فى طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، ونَفَّذَ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرهم .

ولما علم الانكلتير كثرة من يزور منهم صعب عليه، وسيّر إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح أن لا يإذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة ، وعلم الفرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا بالحج ، فكان يرد كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان فى إكرام من يرد ، ومد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم ، وعرّفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان فى الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك [٤١١] من ذلك، واعتذر إلى الملك بأن قوما قد وصلوا من ذلك البعد ، وتيسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منعهم .

ثم اشتد المرض بالانكلتير ، فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان، هو والكندهرى وسائر المقدمين إلى ناحية عكا، ولم يبق فى يافا إلا مريض أو عاجز، ونفر يسير .

---

(١) الأصل : « واحتاط » والتصحيح عن ابن شداد (المرجع السابق) .

ذكر رحيل السلطان إلى القدس ونظره فى مصالحه

ثم رحل السلطان إلى القدس فى رابع شهر رمضان ، وتفقد أحواله ، وعرض رجاله ، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها ، وتعمير خنادقه ، وزاد فى وقف المدرسة المعروفة ، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تُعرف بصندحنه [١] يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم — عليها السلام — ، ثم صارت فى الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج القدس ، وكان يدرس بها العلم الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسى قبيل أخذ الفرنج للقدس ، ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام ، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة ، ووقف عليها وقوفا جليلة ، وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد ، وتولاها جماعة من الفقهاء ، منهم : فخر الدين بن عساكر ، وتولاها والدى — رحمه الله — من جهة الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل ، وأقمنا بها من سنة اثنين وعشرين وستمائة [٢] .

---

(١) هذا تحريف عن التسمية الفرنسية (Sainte Anne) أى القديسة حنه ، وقد ذكر (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٢ — ١٢٣) أن هذه المدرسة كانت تعرف بالمدرسة الصلاحية ، فقد وقفها صلاح الدين على الفقهاء الشافعية ، وأرخ لها بقوله إن صلاح الدين كان نازلا فى كنيسة صهيون فقاوض جلساءه من العلماء الأكابر فى أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصلحاء الصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة « بصندحنة » عند باب أسباط ، ... ... وقيل كان موضع هذه المدرسة ديرا للراهبات أقيم فى مكان بيت القديسين : يواكيم وحنة ، فهدمه الملك وأقام المدرسة مكانه ، وتاريخ وقفها سنة ٥٨٨ ، وكان الأتراك نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البيض فى القرن الماضى ، فجعلوها مدرسة أكليركية ، وفى الحرب العامة أخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية ، فلما سقط القدس فى أيدى الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة .

(٢) هذه إشارة لها قيمتها عند التاريخ للمؤلف جمال الدين بن واصل ووالده سالم ، فقد عين المعظم الوالد سالما مدرسا بالمدرسة الصلاحية بالقدس سنة ٦٢٢ ، وظل ابنه جمال الدين مقيما معه بالقدس إلى سنة ٦٢٤ ، وفى تلك السنة سافر الوالد لأداء فريضة الحج ، فناب ابنه عنه فى التدريس بنفس المدرسة إلى قبيل رمضان سنة ٦٢٥ هـ . وسيشير المؤلف إلى هذا كله فيما يلى من صفحات هذا الكتاب انظر أيضا بحثنا الذى لم يطبع بعد عن (جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب)

ورتب السلطان أيضا موضعا ملاصقا للأقصى خانقاه للصوفية ، وقف عليها وقوفا جليلة ، وجعل الكنيسة التى فى شارع قمامة بيمارستان [1] للمرضى ، ونقل إليه جميع مايحتاج إليه، وفوض ولاية القدس إلى عزالدين جرديك النورى، وفوّض القضاء والأوقاف إلى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمهم الله — .

ذكر عزم السلطان على الحج ثم انتقاض عزمه

ولما وقعت الهدنة صمم السلطان على الحج، وأمر أن يسير مائة نقّاب لتخريب عسقلان وإخراج من بها من الفرنج ليتفرغ سره من جانبها ، ويحج فى عامه [٤١٢] وكتب إلى مصر وإلى أخيه سيف الإسلام — صاحب اليمن — ماعزم عليه ، وأمر أن يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والخلع والكسوة ، ثم فند السلطان فى عزمه ، وقال له أصحابه :

لا يمكن الحج إلا بعد أمر يكتب إلى الخليفة ، وتعرفه ذلك ، حتى لايظن بك أمرا أنت عنه برىء ، والوقت قد ضاق ، وهذه البلاد والمعاقل ربما يخاف عليها عند غيبتك من غائلة العدو ، ولا تغتر بالهدنة ، فإن القوم دأبهم الغدر وإذا وجدوا مكنة فعلوا .

فانحل عزمه عن ذلك وافترعنه .

ذكر مسير السلطان إلى دمشق ووصوله إليها

ثم رحل السلطان من القدس لخمس مضين من شوال، وهو يوم الخميس ، ووصل يوم الجمعة إلى نابلس ، فنزل بظاهرها ، وبها صاحبها الأمير سيف الدين على

(١) قال ابن شداد (السيرة اليوسفية ، ص ٢٤٢) : «... وأمرنى بالمقام فى القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التى أنشأها فيه إلى حين عوده » ، أنظر أيضا : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

ابن أحمد الشطوب، فشكاء أداها إلى السلطان، فأزال شكواهم، وأمره بالإحسان إليهم والعدل فيهم ، ثم رحل عنها ظهر يوم السبت سابع شوال ، ووصل إلى بيسان يوم الاثنين تاسع شوال ، وصعد قاعتها ، وقال : "الصواب أن نبنى هذه ونخرب كوكب .

ثم وصل إلى كوكب وبات بقلعتها ، ورحل منها يوم الثلاثاء عاشر شوال ، ونزل بطبرية ، ولقى بهاء الدين قراقوش ، وقد خلص من الأسر ، وخاص السلطان بقية أصحابه ، ومضى مع السلطان إلى دمشق ، وسافر قراقوش من دمشق إلى الديار المصرية ، وأقام السلطان يومين لتوالى الأمطار ، ثم رحل يوم الخميس ثانى عشر شوال إلى صفد ، فرتب أمورها ، ثم سار إلى تبنين ، ثم وصل الى بيروت يوم الخميس تاسع عشر شوال ، وبها الأمير عز الدين أسامة .

ووصل إلى خدمته بيمند — صاحب أنطاكية — يوم السبت الحادى والعشرين من شوال ، فأكرمه السلطان وآنسه ، ورفع مجلسه ، وأجرى له ولأصحابه العطاء ، وأقطعه من مناصفات أنطاكية ما مبلغه عشرون ألف دينار ، وفارقه غد ذلك اليوم .

ثم سار السلطان إلى دمشق فوصلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال ، وفرح الناس به ، لأن غيبته كانت قد [٤١٣] طالت عنهم مدة أربع سنين ، وأفاض العدل والإحسان بدمشق ، وواظب الجلوس فى دار العدل فى الأوقات التى جرت العادة بالجلوس فيها .

وفى يوم الأحد مستهل ذى القعدة اتخذ الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر دعوة ، وبالغ فيها فى التجمل ، وحضرها السلطان جبرا لقلبه ، وحضرها جميع الأمراء والأكابر .

وأذن السلطان للعساكر فى التفرق إلى بلادهم ، فتفرقوا ، وكان الملك الظاهر — صاحب حلب — قد فارق أباه بالقدس ، ووصل إلى دمشق لما بلغته حركة أبيه

إلى دمشق، وأقام بها حتى فاز بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه حدثته بدنو أجل والده — رحمه الله — ، ثم لما حضر دعوة أخيه ودع أباه وداعا لم يكن بعده لقاء ، ورحل إلى حلب ، وبقى عند السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل نور الدين وجماعة من أولاده، والقاضي الفاضل .

وكان القاضي بهاء الدين بن شداد قد أمره السلطان بمقامه فى القدس إلى حين عوده، لأن السلطان كان عزمه أن يعود إلى القدس، ثم يتوجه منه إلى الديار المصرية ، لأن عهده كان قد بعد عنها .

وكان الملك العادل قد استأذن السلطان فى القدس فى آخر رمضان بأن يمضى إلى الكرك — وهى حصنه ومستقره — ليتفقدها، فأذن له فى ذلك ، فمضى إليها وأصلح ما قصد إصلاحه ، ثم رحل منها طالبا للبلاد الشرقية التى أعطاه السلطان إياها ، فوصل إلى دمشق سابع عشر ذى القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه ، وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه ، وسارا جميعا يتصيدان ، ثم دخلا دمشق فى الحادى والعشرين من ذى القعدة .

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفى الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب (١) — رحمه الله — بنابلس ، وكانت إقطاعه بعد حسام (٢) الدين لاجين ابن أخت السلطان ، فوقف السلطان بعده

---

(١) سمى هكذا لشطبة كانت فى وجهه من أثر طعنة فى غزاة حضرها ، هكذا ذكر العماد الأصفهانى وقال : وله مواقف فى الجهاد كثيرة معهودة ، ومقامات مشهورة مشهودة ؛ وقد كان ابن المشطوب ركنا من الأركان التى قامت عليها دولة بنى أيوب منذ نشأتها ، فهو كردى ، وهو هكارى ، أى أنه ينتمى إلى نفس القبيلة التى ينتمى إليها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، وقد صحب أسد الدين فى الحملات الثلاث على مصر ، ثم لازم صلاح الدين إلى وقت وفاته ، وكانت له معه مواقف مشهودة أثناء نضاله ضد الصليبيين . أنظر : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٩) ، وسيكون لابنه أحمد بن على مواقف أخرى مع خلفاء صلاح الدين من ملوك البيت الأيوبى ، سترد الإشارة إليها فيما يلى .

(٢) الأصل : « لحسام » ، وقد صححت ليستقيم المعنى .

ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقى للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين المشطوب وأميرين معه .

وفى شعبان من هذه السنة توفى السلطان [٤١٤] عز الدين قِلِج أرسلان ابن مسعود بن قِلِج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق — سلطان الروم — ، وكان له عشرة بنين ، قد ولى كل واحد منهم قطرا ، وأكبرهم قطب الدين ملك شاه ، وكانت له سيواس ، فاتّبع هواه ، وسوّلت له نفسه القبض على والده وبقية إخوته ، وأن ينفرد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان ، فبعث صاحب أرزنكان إلى السلطان عز الدين يطلب منه وزيره اختيار الدين حسين بن عفراس ليتفق معه على مصلحة فيما بين عز الدين وأولاده ، وذلك باتفاق فى الباطن بين قطب الدين ملكشاه وبين صاحب أرزنكان ، فظن عز الدين أن الأمر على ما أظهره صاحب أرزنكان ، فبعث وزيره اختيار الدين ، فلما وصل إلى صاحب أرزنكان أوقع عليه صاحب أرزنكان التركمان ، فقتلوه شر قتلة ، ومثّلوا به وبولده أقبح مثلة .

ثم سار قطب الدين ملكشاه إلى والده عز الدين فكسره وهجم عليه فى مدينة قونية ، وقبض على والده واستقل بالسلطنة ، وقال لوالده : " أنا بين يديك ، أشفق عليك ، وأنفذ أمرك " .

ثم إنه قتل جماعة من أمراء أبيه ، وأنشأ له أمراء اختارهم ، وبقى أبوه معه كالمعتقل ليس له أمر ولا نهى ولا تصرف ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولى عهده ، وأبقى الخطبة والسكة باسم أبيه ، والملك فى الظاهر لابنه ، وفى الحقيقة ليس لأبيه إلا مجرد الاسم .

ثم ملك أقصرا ، ثم مضى إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه — صاحب قيسارية — ووالده فى القبضة معه ، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده لحضر نور الدين بقيسارية ، فخرج عسكر قيسارية لحرب قطب الدين .

واغتنم السلطان عز الدين فرصة ، نخرج من صف ابنه قطب الدين هاربا ، ودخل إلى قيسارية ، واجتمع بولده نور الدين سلطان شاه ، فأكرم أباه وعظّمه ، ورجع قطب الدين إلى قونية ، وهى دار الملك ، فأقام بها يخطب بالسلطنة لنفسه .

وبقى السلطان قلج أرسلان يتردد فى بلاده بين أولاده من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد ، وكلما ضجر منه واحدمنهم [٤١٥] ينتقل إلى آخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو — صاحب برغلوا — فقوّى أباه ، وأعطاه ، وجمع له وحشد ، وجاء معه إلى قونية ، ودخلها وملكها ومضى به إلى أقصرا محاصرا لها ، فامتنعت عليه ، بجمع الأوجيسة (كذا ؟) الأجناد ، فاتفق أن السلطان عزالدين مرض ومات فى التاريخ المذكور ، فتركه ولده غياث الدين كيخسرو فى محفة ، وكتم أمره ، وأظهر أنه منتقل لأجل المرض ، ومضى يمشى قدام المحفة ليوهم الناس حياته ، حتى أتى به قونية ، فدخلها واستقل بقامتها ، واستحلف الأمراء والأعيان ، ثم أظهر وفاة أبيه ، وأنه ولى عهده ، وقوى على أخيه قطب الدين ملكشاه ، ثم أنه تغلب على غياث الدين كيخسرو ، وأخيه ركن الدين سليمان ، وأخذ منه قونيسة ، وهرب غياث الدين إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر — صاحب حلب — .

ثم مات ركن الدين سنة ستمائة ، وملك ولده قلج أرسلان ، فرجع غياث الدين إلى البلاد كلها ، واستقرت السلطنة ببلاد الروم للسلطان غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود .

ثم توفى غياث الدين كيخسرو ، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو ، وسنذكر قصده لبلاد بنى أيوب وكسر السلطان الملك الأشرف ابن الملك العادل له .

ثم توفى كيكاوس، فولى أخوه السلطان علاء الدين كَيْقُبَاد بن كيخسروا ، وهو الذى أدركنا زمانه ، وسنذكر بعض أخباره مع بنى أيوب ، وتوفى علاء الدين سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وولى بعده غياث الدين كيخسروا بن كَيْقُبَاد وكسره التتر كسرة عظيمة سنة إحدى وأربعين وستمائة(١) ، وتضعضع من حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم .

ثم مات غياث الدين، وخلَّف صبيين: أحدهما ركن الدين، و[الآخر] عز الدين، فملكاهما مدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين كيكاوس إلى قسطنطينية ، واستجار بملكها ، وتغلب على ركن الدين معينُ الدين البرواناه والبلاد فى الحقيقة للتتر ، وخراج البلاد يحمل إليهم ، ثم قتل معينُ الدين ركنَ الدين ، وأبقى إبنا(٢) لركن الدين يخطب له بالسلطنة ، والحكم [٤١٦] للبرواناه وهو نائب التتر بالبلاد ، والأمر على ذلك إلى اليوم .

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله — قد بعث رسوله للقاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى — المعروف بابن الفراش — رسولا إلى السلطان عز الدين بن قلج أرسلان وأولاده الإصلاح بينهم ، فتردد إليهم مرارا أكثر من سنة ، ولما عاد إلى ملطية توفى بها فى شهر ربيع الأول من هذه السنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والملك الناصر مقيم بدمشق على أكمل ما يكون من المسرة ، ورسل الأمصار واردون إلى بابه ، وهو يجلس كل يوم لإسداء المكارم وكشف المظالم ، ثم برز إلى الصيد من شرقى دمشق بزاد خمسة

---

(١) لهذا النص أهميته : فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا القسم من كتابه بعد سنة ٦٤١ هـ .

(٢) هذا الابن هو غياث الدين كيخسرو الثالث، ولى الحكم سنة ٦٦٣ هـ ، وعمره سنتان ونصف ، فهذا النص يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٣هـ، راجع : (زامباور : معجم الأنساب . . . الخ . الترجمة العربية ، ص ٢١٨) .

عشر يوما، وصحبته أخوه الملك العادل ، وأبعد فى البرية، ثم عاد إلى دمشق وودّعه الملك العادل وداعا لالقاء بعــده ؛ فمضى إلى الكرك وأقام به إلى أن بلغته وفاة السلطان — رحمه الله — .

قال القاضى بهاء الدين ابن شداد :

وخرجت من القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ؛ وكان وصولى إلى دمشق ثانى عشر صفر ؛ وكان الملك الأفضل حاضرا فى الإيوان الشمالى ، وفى خدمتــه خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان ؛ فلما شعر السلطان بحضورى استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ؛ فدخلت عليه — رحمه الله — فقــام ولقينى ملقى ما رأيت أشدّ من بشره فيه ؛ ولقد ضمنى إليه ودمعت عيناه .

وفى ثالث عشر صفر طلبنى فحضرت ، فسألنى عن من هو فى الإيوان، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس فى الخدمة ، والأمراء والناس فى خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبــال .

ثم استحضرنى يوم الخميس رابع عشر صفر ، وهو فى صُفّة[1] البستان وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل : رسول الفرنج وجماعة من الأمراء الأكابر ، فاستحضر الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير يسمى أبا بكر ، وكان كثير الميل إليه ، وكان حاضرا وهو — رحمه الله — يداعبه ، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم [٤١٧] خاف منهم وبكى ، فاعتذر السلطان إلى الفرنج وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال لى : "أكلتَ اليوم شيئا ؟" ، وكانت عادته — رحمه الله — هذه المباسطة ، ثم قال : "أحضروا لنا ماتيسّر" ، فأحضروا أرزا بلبن ، وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة،

(١) لشرح هذا اللفظ راجع : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، هامش ٤) .

فأكل — رحمه الله — وكنت أظن بأنه ليس عنده شهوة ؛ وكان فى هذه الأيام يعتذر للناس بثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل ، فلما فرغنا من الطعام قال :

ما الذى عندك من خبر الحاج ؟

فقلت :

"اجتمعت بجماعة منهم فى الطريق ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم" .

فقال :

"نخرج إن شاء الله إلى لقائهم" .

وأمر بتنظيف طريقهم من المياه، فإنها كانت سنةً كثيرة الأنداء ؛ وقد سالت المياه فى الطـرق كالأنهار .

وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه منه .

ثم بكّر فى يوم الجمعة خامس عشر صـفر فركب ؛ ثم لحقته وقد لقى الحاج، ولم أجد عليه كزاغندا[1] وما كان له عادة أن يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من فى البلد، فأذكرته ذلك فكأنه استيقظ، فطلب الكزاغند فلم توجد ، فأوقع الله فى قلبى تطيرا بذلك ، ولما لقى السلطان الحاج استعبرت عيناه كيف فاته الحاج ، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها، وحال الخصب بها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين له ورواتبهم وإدراراتهم ، وسُرَّ بسلامة الحاج .

---

(١) أنظر ما فات هنا ص ٤٤ ، هامش ٥ .

ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتِكين بن أيوب ، فتلقاه بالإكرام ؛ قلت : أظنه هو الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ، فإن أباه أخرجه من عنده مرتين خوفا على نفسه منه ، وسنذكر أخباره فى موضعه اللائق به إن شاء الله تعالى .

ثم سار السلطان بين البساتين يطاب جهة المنيبع حتى أتى القلعة ، فعبر على الجسر إليها ، وكانت هذه آخر ركباته — رحمه الله — .

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر

صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب — رحمه الله تعالى —

ولما دخل الساطان إلى القلعة بعد لقاء الحاج وجد ليلة السبت سادس عشر صفر كسلا عظيما ، فما [٤١٨] انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية وكان مافى باطنه منها أكثر مما فى ظاهره ، وأصبح يوم السبت وعليه أثر الحمى ، ولم يظهر للناس ذلك .

قال القاضى بهاء الدين :

فحضرت عنده أنا والقاضى الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضى الفاضل عادة بذلك ، فانصرف[1] ، ودخلت الإيوان القبلى وقد مُدَّ الطعام ، والملك الأفضل قدجلس فى موضعه ، فانصرفت، وما كان لى قوة على الجلوس

(١) الأصل : « فانصرفت » والتصحيح عن ابن شداد .

استيحاشا، وبكى فى ذلك اليوم جميع من حضر، وتفاولنا بجلوس ولده فى موضعه ؛ ثم أخذ المرض يتزايد من حينه، ونحن نلازم التردد فى طرفى النهار، وأدخل أنا والقاضى الفاضل فى النهار مرارا، ونُعطى [1] الطريق فى بعض الأيام التى يجد فيها خفة.

وكان مرضه فى رأسه، ورأى الأطباء فصده فتصدوه فى الرابع، فاشتد مرضه، وقَلّت رطوبات بدنه، وتزايد به المرض إلى أن انتهى إلى غاية الضعف، ولقد أجلسناه فى السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدة، وأحضرنا ماء فاترا ليشربه عقيب شراب يلين الطبع، فوجده شديد الحرارة، فشكا [2] من شدة حرِّه، فغُيِّر وعُرض عليه ثانيا، فشكا [2] من برده، ولم يغضب، ولم يقل سوى هذه الكلمات :

”سبحان الله، لايمكن أحد تعديل الماء ؟“

فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء، والقاضى الفاضل يقول :

”أبصر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها ؛ والله لو أن هذا بعض آحاد الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره“.

واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن، ولم يزل متزايدا [3] ويغيب ذهنه،

ولما كان التاسع حدثت به رعشة، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف فى البلد، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشى الناس من البكاء والحزن مالا يمكن حكايته.

---

(١) الأصل، « ونعطا ».

(٢) الأصل : فشكى ».

(٣) الأصل : « متزايد ».

ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثلث أو قريب [٤١٩] منه ، ثم نحضر فى باب الدار ، فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه، وإلا انصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان اليوم العاشر من مرضه حُقن دفعتين، وحصل له من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة ، وتناول من ماء الشعير مقدارا جيدا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة إقبالا، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه — ولد السلطان — يقول : "إن العرق قد أخذ فى ساقيه"، فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق قد أفرط حتى نفذ من الفراش ، وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما ، وخارت القوة ، واستشعر الأطباء .

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده[١] وتحقق اليأس منه شرع فى تحليف الناس ، وجلس فى دار رضوان المعروفة بسكناه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين[٢] مختصرة محصلة للمقاصد[٣] ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، وما يعلم ما يكون .

وكان ممن حلف من أعيان الأمراء : سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة،[٤] وناصر الدين منكورس بن ناصر الدين خمارتكين — صاحب صهيون —

---

(١) الأصل : « بولده » .

(٢) الأصل : « نسختين مختصرة ... الخ » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٢)

(٣) الأصل : « للقاصد » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن ابن شداد .

(٤) الأصل : « سعد الدين مسعود وأخوه بدر الدين مودود والشحنة ناصر الدين الخ ... » وهى عبارة مضطربة ، وقد صححت بعد مراجعة (ابن شداد : السيرة اليوسفية ، ص ٢٤٨) و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣) .

وسابق الدين عثمان بن الداية — صاحب شيرز — ، وخوشترين [1] الهكّارى ، ونوشروان الزرزارى ، وعلكان ، ومنكلان ؛ ثم مُدَّ الخوانُ وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأُحضر فارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وعز الدين أسامة [2] ، وسنقر المشطوب [3] ، والفارس البكى [4] ، وأيبك الأفطس [5] ، وأخو [الأمير] سياروخ [6] ، وحسام الدين بشارة ، ولم يحضره أحد من الأمراء المصريين ، ولا تعرض لهم .

ولما كانت ليلة الأربعاء [٤٢٠] السابع والعشرين من صفر من هذه السنة — أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة — وهى ليلة الثانى عشر من مرضه ، اشتد بالسلطان المرض ، وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل ؛ واستدعيت أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة ، والقاضى محيي الدين بن زكى الدين ، وهو يومئذ قاضى القضاة بدمشق ، ولم تكن عادته الحضور فى ذلك الوقت ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا ؛ فإن الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، وخاف أن لا ننزل فيقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة فى نزولنا ، واستحضار الشيخ أبى جعفر — إمام الكلاسة — ليبيت فى القلعة ، حتى إن احتضر بالليل حضر عنده وحال بينه و بين النساء ، وذكّره بالشهادة ؛ ففعل ذلك ، ونزلنا .

---

(١) الأصل : « جوسر بن الهكارى » ، والتصحيح عن ابن شداد والروضتين .

(٢) الأصل : « شامة » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٣) الأصل : « المطلوب » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) الأصل : « البك » ، والتصحيح عن : (الروضتين » ج ٢ ، ص ٢١٣) .

(٥) الأصل : « فطيس » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٦) الأصل : « وأخو ساروج » وقد أضيف ما بين الحاصرتين وصحح الاسم عن المرجع السابق

وذُكر عن الشيخ أبي جعفر أنه قرأ عنده القرآن ، وكان ذهنه غائبا ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : "هُوَ اللهُ الذى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ[1]" سمعه وهو يقول : "صحيح" ؛ وهذه لفظة فى وقت الحاجة وعناية من الله به .

وقيل إنه لما بلغ أبو جعفر فى قراءته قوله تعالى : "لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ"[2] تبسم وتهلل وجهه وسلمها .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور ، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح لحضر وفاته . قال القاضى بهاء الدين :

" ووصلت أنا وقد مات ، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته" .

ذكر جلوس الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن على ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين للعزاء وتجهيز السلطان ودفنه

ثم جلس الملك الأفضل للعزاء فى الإيوان الشمالى ، وحفظ باب القاعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيما .

وكان أولاد السلطان يخرجون مستغيثين بين الناس ، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، واشتد بكاء[٤٢١]الناس وحزنهم ، ودام الحال كذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه .

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية (٢٢) م .

(٢) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٢٩ (ك) .

قال القاضي :

فما مكنا أن ندخل فى تجهيزه حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى يُلَتُّ به الطين ، وغسّله الفقيه الدولعى – خطيب دمشق – ، وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط ، وجميع ما احتاج إليه فى تكفينه أحضره القاضى الفاضل من وجه حِلّ عرفه ، وصلى عليه الناس أرسالا ، وأول من أمّ(١) بالناس قاضى القضاة محيي الدين بن زكى الدين ، ثم أعيد – رحمه الله – إلى الدار التى فى البستان التى كان متمرضا بها ، ودفن بالصُفّة القريبة منها ، وكان نزوله إلى حفرته قريب صلاة العصر ، ونزل فى أثناء النهار ولده الملك الظافر خضر(٢) – المعروف بالمشمر – وهو شقيق الملك الأفضل ، يعزى الناس ، ويسكن قلوب الرعية .

واشتغل الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته : الملك العزيز بمصر ، وكذلك إلى الملك الظاهر – صاحب حلب – ، وعمه الملك العادل – وكان بالكرك – يخبرهم بهذا الحادث .

---

(١) الأصل : « أقام » ، والتصحيح عن : ابن شداد ، والروضتين .

(٢) هو الملك الظافر خضر ، لقبه مظفر الدين ، وكنيته أبو الدوام ، وأبو العباس ، قيل له « المشمر » لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال « وأنا مشمر » فغلب عليه هذا اللقب ، ولد بالقاهرة فى خامس شعبان سنة ٥٦٨ هـ ، وهو شقيق الملك الأفضل ، حج على تيماء سنة ٦١٠ ، فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه خوفا منه على اليمن ، وأمروه بالرجوع ، فقال : « قد بقى بينى و بين مكة مسافة يسيرة ، ووالله ما قصدى إلا الحج ، فقيدونى حتى أقضى مناسكى وأعود » ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفى فى جمادى الأولى – أو الآخرة – سنة ٦٢٧ هـ بحران عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وقتذاك ملكها ، وإنما كان مجتازا لها عند دخوله بلاد الروم . انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٧٣ أ) .

وفى اليوم الثانى جلس للعزاء جلوسا عاما، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون، ولم يؤذن لأحد من الشعراء أن ينشد شيئا [١]، واستمر حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له .

وما زال الملك الأفضل مفكرا فى موضع ينقله إليه، واستشار فى ذلك، فأشير عليه فى سنة تسعين وخمسمائة بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبنى عندها مدرسة للشافعية وقالوا : "إذا وصل الملك العزيز استغنى [٢] بزيارتها عن الدخول إلى دمشق"، وقالوا : "إن السلطان — رحمه الله — لما مرض سنة إحدى [٣] وثمانين وخمسمائة بحران أوصى أن يدفن بدمشق قبلى ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السايل [وطريق القوافل] [٤] ليدعو له البادى والحاضر، والوارد والصادر" .

فأمر الملك الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى [٤٢٢] عمارتها بدر الدين مودود — والى دمشق —، فاتفق وصول الملك العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا فى عمارتها، فخرب ما كان قد ارتفع من البناية، ثم استقرأ [٥] الملك الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق [٦] لدار كانت لبعض الصالحين، وهى فى حد البنيان الذى زاده القاضى الفاضل فى المسجد، فاشتراها منه وأمر بعمارتها [قبة] [٤] وعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بكرة الخميس .

---

(١) الأصل : « شيء » .

(٢) الأصل : « استغنا » .

(٣) الأصل : « أحد » .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٤) .

(٥) الأصل : « اشترى » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٦) الأصل : « فاتفق » ، والتصحيح عن المرجع المنقول عنه هنا وهو العماد (الروضتين، ج ٢، ص ٢١٤) .

ومشى الملك الأفضل بين يدى تابوته، وحمله مماليكه وخدمه وأمراؤه وأولياؤه، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم فمنعهم الملك الأفضل من ذلك، وقال لهم : "يكفيه أدعيتكم الصالحة التى هى فى المعاد جنته"، وأخرج من باب القلعة فى البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام [باب][1] النسر، وصلى عليه القاضى محيي الدين بن زكى الدين، ثم حمل إلى ملحده، ودخل إلى لحده الملك الأفضل، ثم سد باب اللحد على أبيه، وجلس فى الجامع ثلاثة أيام للعزاء، وأنفقت ست الشام — أخت[2] السلطان — فى هذه النوبة أموالا جزيلة.

ذكر مبلغ عمره وأولاده وتركته

كان مولده — رحمه الله — فى شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه الديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريب من تسعة عشرة سنة، وخلّف سبعة عشر ولدا ذكرا، وبنتا واحدة، فأما أولاده الذكور فهم :

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على — وهو أكبرهم —، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان عمره يوم ولى الملك بعد أبيه نحوا من أربع وعشرين سنة.

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد : (الروضتين ؛ ج ٢ ؛ ص ٢١٤).

(٢) الأصل : «بنت أخت» وهو خطأ، والصحيح ما أثبتناه.

والملك العزيز [أبو الفتح][1] عماد الدين عثمان — صاحب مصر — ، ومولده بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة .

والملك الظاهر [أبو منصور][1] غياث الدين غازى — صاحب حلب — ومولده بمصر . [٤٢٣] [منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة][2] .

والملك المفضل قطب الدين موسى . [ثم نعت بالمظفر ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين][3] .

والملك الظافر مظفر الدين [أبو العباس][4] خضر ؛ — وهما شقيقا الملك الأفضل .

والملك الأغر [أبو سيف][1] شرف الدين يعقوب ، [ولد بمصر فى ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين][1] — وهو شقيق الملك العزيز — .

والملك الزاهر [أبو سليمان][1] مجير الدين داود — وهو شقيق الملك الظاهر — [ولد بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين][1] .

والملك المؤيد [أبو الفتح][1] نجم الدين مسعود [ولد بدمشق فى ربيع الأول سنة إحدى وسبعين][1] .

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) الأصل : «ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة» وهو خطأ ، ومابين الحاصرتين هو الصحيح نقلناه عن العماد (المرجع السابق)

(٣) زيد مابين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) . راجع أيضا : (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٥٤أ) .

(٤) زيد مابين الحاصرتين عن العماد . انظر أيضا مافات هنا ص ٤٢١ ، هامش ٢

والملك المعز [أبو يعقوب][١] فتح الدين إسحق [ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبعين][١] .

وشقيقه الملك الجواد [أبو سعيد ركن الدين][١] أيوب [ولد فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين][١] .

والملك الأشرف [أبو عبد الله][١] نصير الدين[٢] محمد [ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة][١] .

وشقيقه الملك المحسن يمين الدين[٣] أحمد [ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين][١] .

والملك المعظم فخر الدين [أبو منصور][١] توران شاه [ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين][١] .

وشقيقه الملك الغالب [أبو الفتح ملكشاه ، مولده بالشام فى رجب سنة ثمان وسبعين][٤] .

والملك المنصور سيف الدين أبو بكر [وهو أيضا أخو المعظم لأبويه ، ولد بحرّان بعد وفاة السلطان][٥] .

---

(١) زيد ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦)

(٢) عند العماد : « عز الدين » انظر أيضا : (الشفاء) .

(٣) كذا فى الأصل ، وعند العماد : « ظهير الدين » ، وفى (الشفاء) : « زين الدين ، وقيل ظهير الدين » .

(٤) الأصل : « الغالب فروخ شاه » وقد صحح وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٥٤ أ) .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٧) .

[ونصرة الدين مروان لأم ولد](١) .

وعماد الدين شاذى [لأم ولد](٢) .

وأما البنت [فهى مؤنسة خاتون، تزوجها](٣) ابن عمها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب (٤) .

ولم يخلف — رحمه الله — على ماذكره القاضى بهاء الدين فى خزانته إلا سبعة وأربعين درهما وجرما (٥) واحدا صوريا ، وهذا من مثل رجل له الديار المصرية والشامية وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط جوده ، ولم ينقل عن أحد غيره له مثل هذه المملكة لم يوجد فى خزانته إلا هذا القدر اليسير التافه ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ، ولم يكن له رغبة فى زخرفة بنيان ولا حسن مسكن .

---

(١) الأصل : « وشقيقه نصرة الدين إبراهيم » ، وما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق .

(٣) الأصل : « أما البنت فتزوجها » وقد عدلت الصيغة وذكر اسم البنت عن المرجع السابق ، وانظر : أيضا (شفاء القلوب ، ص ١٧٤ أ) .

(٤) وقد أضاف سبط ابن الجوزى فى (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٤) أن صلاح الدين كان له ولد اسمه إسماعيل مات فى حياة أبيه ، وحدد : (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٥٤ أ) العلاقة بين هؤلاء الأولاد بعضهم بالبعض الآخر، قال : « الأشقاء منهم ثلاثة : على ، خضر ، موسى ؛ ثلاثة أيضا : تورانشاه ، ملكشاه ، أبو بكر ؛ اثنان : عثمان ، يعقوب ؛ اثنان أخر : غازى ، داود ؛ اثنان أخر : محمد ، أحمد » .

(٥) كذا فى الأصل وفى (سبط ابن الجوزى ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٣٢ — نقلا عن ابن شداد —) وعند ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) : « دينارا » ، ويبدو أن لفظ جرم كانت تعنى دينارا ، فقد ورد فى (مرآة الزمان ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٣) : « وقال العماد الكاتب : لم يخلف فى خزانته سوى ستة وثلاثين درهما ، ودينارا واحدا ذهبا » ، هذا ولم أعثر فى المعاجم التى بين يدى على أن لفظ « جرم » يعنى الدينار ؛ وعن الدينار الصورى انظر ما فات هنا ، ص ٧٦ ، هامش .

ذكر جُمَل من سيره — رحمه الله —

ما نقل من أوصافه فى الكرم المفرط والشجاعة والعدل وحسن السيرة والحكم أكثر من أن يحصى ، فنذكر من ذلك ما تيَسّر لنا ذكره .

قال عماد الدين الكاتب :

حسبت ما أطلقه السلطان بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش (١) للحاضرين معه فى الجهاد فكان إثنى عشر ألف رأس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة فى القتال ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم فى طلبه .

وذكر أنه تأخر عنه فى بعض أسفاره الأمير أيوب بن كنان ، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه ، فذكر دَيْناً ، فأحضر غرماءه وتقبل الدين ، وكان إثنى عشر ألف دينار مصرية وكسرا .

---

(١) إكديش وكديش — والجمع أكاديش أوكُدْش أوكُدْشان — ، عن الفارسية « أُكْدش » أو التركية (إِكْدِش ، إغْدِش ، اِكْدِج ، إِغْدِج) ، وهو لفظ كان يطلق على الحصان الخليط ، أو غير الأصيل ، أو الصغير غير الجيد (Cheval de race mélangés, qui n'est point de race, mazette, mouvais petit cheval) ، وقد يعنى اللفظ أحيانا الخيل الصغيرة الجياد (الأكاديش الجياد) ، وهذه ما كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمراء . انظر (Dozy : Supp. Dict. Acab) ، هذا والنص عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٧) — وهو المرجع المنقول عنه هنا — أكثر إيضاحا وتفصيلا ، قال : « وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه فى صف الجهاد ، مدة ثلاثة سنين وشهر منذ نزل الفرنج على عكا فى رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجرة وإكديش ... الخ » .

وقال :

لما كنا بالقدس سنة ثمان وثمانين [٤٢٤] وخمسمائة كتب إليه سيف الدين[١] بن منقذ — نائبه بمصر — أن واحداً ضمن معاملة بمبلغ ، فاستنضَّ منها ألفى دينار ، وتَسَحَّب ، وربما وصل إلى البــاب ، فتحيَّل وتمحَّل وكذب ، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب ، فقال : "قل له : ابن منقذ يطلبك ، فاجتهد ألا تقع فى عينه" ، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا : قدم الرجل إلى حتفه بقدمه .

وذكر أنه حوسب صاحب ديوانه[٢] فكانت سياقة[٣] الحساب عليه سبعين ألف دينار [باقية عليه][٤] ، فما طلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ما عرفها ، على أن صاحب الديوان ما أنكرها ، ثم لم يرض بالعطلة له فولّاه ديوان جيشه .

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو عند العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) : «سيف الدولة» .

(٢) حدد العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) — وهو المرجع المنقول عنه هنا — السنة التى حدثت فيها هذه الحادثة ، قال : « ومما أذكره له فى أول سفرتى معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين أنه حوسب صاحب ديوانه ... الخ » .

(٣) يفهم من النصوص فى مراجع العصرين الأيوبى والمملوكى أن « السياقة » تعنى كشوف الحساب الختامى أو الميزانية العامة ، فقد ورد فى : (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) عنــد كلامه عن مباشرة الخزانة : « فالعمدة فيها على العدالة والأمانة ، لأن خزائن الملوك فى هذا العصر لسعتها وكثرة حواصلها وعظم ذخائرها لا تنضبط بسياقة ، فإنه لو طولب كاتب الخزانة بعمل سياقة لحواصلها عن سنة احتاج إلى أن ينتصب لكتابتها سنة كاملة لا يشتغل فيها بغيرها ... الخ » ، ثم ذكر بعد ذلك الأمور التى يحتاج إليها مباشر الخزانة عند عمل السياقة ، وجاء فى (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٢) : « علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج » ، وفى (ص ١١١) ، أنه فى عهد عبد الملك بن مروان « نقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، واخترعت سياقة المستعربين » .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن العماد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

وذكر من ورعه أنه قال :

"رأى لى يوما دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال : هذا حرام ، فقلت له على سبيل المدافعة والممانعة والمناظرة : أو ليس يحل حلية السلاح واستصحابه فى الكفاح؟ ودواتى أنجع ، ومداد دواتى أنفع ، ويراع يراعتى القصير أطول ، وسلاح قلمى أحد وأفتك وأقتل، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمى، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها بجوامع كلمى، فقال: ليس هذا دليلا صالحا، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد والد إمام الحرمين قد ذكر وجها فى جوازه" .

ثم لم أعد بعدها أكتب بتلك الدواة عنده .

وقال :

وما رأيته صلى إلا فى جماعة ، ولا أخّر صلاة عن وقتها ، وكان له إمام راتب ملازم ، فإن غاب صلى به من حضر من أهل العلم ، وكان إذا عزم على أمر من الأمور توكل على الله تعالى ، ولا يفضل يوما على يوم ، ولا زمانا على زمان .

وحكى القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — قال :

"كان للسلطان — رحمه الله — ركعات يركعها قبل الصبح إن استيقظ بوقت من الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، قال : لقد رأيته يصلى فى المرضة التى مات فيها قائما، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه .

وذكر من عدله :

أنه استغاث إليه رجل من أهل دمشق يقال له "ابن زهر" على تقى الدين ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر فى مجلس الحكم فما خلّصه إلا أن أشهد عليه [٤٢٥] شاهدين أنه قد وكل للقاضى أمين الدين أبى القاسم — قاضى حماة — فى المخاصمة

فأقاما[1] الشهادة عندى فى مجلسه ، فأمرت أمين الدين بمساواة الخصم فساواه ، وكان القاضى أمين الدين أبو القاسم الحموى — قاضى حماة — من أكابر جلساء السلطان ، ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت [اليمين][2] على الملك المظفر تقى الدين ، وكان من أعز الناس على السلطان وأعظمهم عنده .

قال القاضى بهاء الدين :

” وكنت يوما فى مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على رجل تاجر معروف يسمى[3] ”عمر الخلاطى“ ، ومعه كتاب حكمى ، وسأل فتحه ، وقال : خصمى السلطان ، وهذا بساط الشرع ، وقد سمعت أنك لاتحابى“

فقلت :

”وفى أى قضية هو خصمك؟“

فقال :

إن سنقر الخلاطى هو مملوكى ، ولم يزل على ملكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ، ومات عنها واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه“

فقلت :

” ياشيخ ، وما الذى أقعدك إلى هذه الغاية ؟ “

فقال :

” الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات “

---

(١) الأصل : « فأما » والتصحيح عن (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن شداد (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢)

(٣) الأصل : « ومعه » والتصحيح عن المرجع السابق .

فأخذت الكتاب وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن : حلية سنقر الاخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش [1] فى اليوم الفلانى فى الشهر الفلانى من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى يده إلى أن شذّ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن يده بوجه ما، وتم [2] الشرط إلى آخره.

فتعجبت من هذه القصة ، وأعلمت السلطان بذلك ، فأحضره واستدناه ، حتى جلس بين يدى ، وكنت إلى جانبه ، ثم انفرك عن طراحته حتى ساواه — رحمه الله — ، ثم ادعى الرجل ، وفتح كتابه ، وقرأ تاريخه ؛ فقال السلطان

" [إن لى] [3] من يشهد أن هـذا سنقر فى هذا التاريخ كان ملكى وفى يدى فى بمصر ، وأنى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته "

ثم أحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، وحكوا القصة [٤٢٦] على ما ذكره ، وذكروا التاريخ كما ادعاه السلطان ، [فأبلس الرجل ، فقلت له : " يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان] [4] وقد حضر بين يدى المولى ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد ، فقال : " هذا باب آخر " ؛ وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة " .

---

(١) الأصل : « بارجلس » والتصحيح عن المرجع السابق ، وفى (ياقوت . معجم البلدان) أرجيش من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .

(٢) الأصل : « ثم » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن المرجع السابق ليستقيم المعنى .

(٤) هذه الفقرة ساقطة من الأصل ، وقد أضفناها عن المرجع المنقول عنه هنا ، وهو ابن شداد .

وحكى من بسالته وشجاعته :

أنه كان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، وعلى يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالوقوف فى مواضع يراها .

ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قلت له : قد سُمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ، وما نقل أنه سُمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا ، فأذن فيه ، فأحضر جزءا هناك مما له به سماع ، فقرئ عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى .

ولقد انهزم المسلمون يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس والعلم ، وهو ثابت القدم فى نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى كثر المسلمون على العدو ، وفى ذلك اليوم قتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين فارس وراجل ، ولم يزل مصابرا لهم إلى أن صالحهم حين رأى ظهور ضعف المسلمين ، ورأى المصلحة لهم فى ذلك .

وحكى من قوة عزمه على الجهاد وشغفه به قال :

”لما أخذ السلطان كوكب فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ عسكر مصر فى العود إلى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل ، فسار ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس ، ففعل ، ووقع له أن يمضى معهم إلى عسقلان ويودعهم ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه ألا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت ، وودّع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا على الساحل طالبين عكا ،

وكان الزمان عظيما ، والبحر هائجا هيجانا عظيما ، وموجه كالجبال [٤٢٧] كما قال الله تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى ، حتى خُيِّل إلىّ أنه لو قال لى قائل لو جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل، واستخففت برأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر ، هذا كله خطر ببالى لعظم الهول الذى شاهدته من عظم البحر وتموجه، فبينا أنا فى ذلك إذ التفت إلى وقال :

"فى نفسى أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وأتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت"

فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى ، وقلت له :

"ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية فى نصرة دين الله — عز وجل —"

وحكيت له ما خطر لى ، ثم قلت له :

"هذه نية جميلة ، ولكن المولى يسير فى البحر العساكر ، ويبقى سور الإسلام ، ولا ينبغى أن يخاطر بنفسه" .

قال :

"فأنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ "

قلت :

"الموت فى سبيل الله"

فقال :

"غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات" .

قال :

ولقــد مرض السلطان ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الجل بسبب مرضه ، فبلغ العدو ذلك ، فخرجوا طمعا أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه ، وهى نوبة النهر، فخرجوا مرحلة إلى الآبار إلى تحت التل، ثم رحل العــدو فى اليوم الثانى يطلبنا ، فركب — رحمه الله — على مضض ، ورتب العسكر للحرب ، وجعل أولاده فى القلب، ونزل هو وراء القلب فى طُلْبه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار وهو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يركب — رحمه الله — ساعة ، وينزل يستريح، ويظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الحر، ولا ينصب له خيمة حتى لايرى العدو به ضعفا.

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم ، إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر أن يعودوا إلى محل المصابرة، وأن يبيتوا تحت السلاح ، [٤٢٨] وتأخر هو إلى وراء الجبل ، وضربت له خيمة لطيفة .

قال :

فبت تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق ، وركب — رحمه الله — ، وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائدا إلى خِيَمه من الجانب الغربى من النهر ، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة .

وفى ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا : الأفضل، والظاهر ، والظافر ، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب ، وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائى لهـا

من البعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد [يُعَدُّ](١) بخلق عظيم ، و بقى فى موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار و إلى آخر الليل، ثم أمرهم أن يبيتوا على [مثل](١) ما باتوا عليه بارحتهم ، و بتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح ، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو .

قال :

ولقد رأيته وقد جاءه خبر [وفاة](١) ولد له بالغ أو مراهق يسمى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ، ولم يعرف أحدا حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شىء من ذلك ، سوى أنه لما قرأه دمعت عيناه — رحمه الله — .

قال :

ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة ، الملك المظفر تقى الدين — رحمه الله — ونحن فى مقابلة الفرنج جريدة على الرملة ، وفى كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام ، و يقف الناس على ظهر إلى الصباح، والعدو يبارز(٢) وبيننا و بينهم شوط فرس لا غير ، فأحضر الملك العادل ، وسليمان بن جندر ، وعز الدين ابن المقدم ، وسابق الدين بن الداية ، وأمر الناس فبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولنا أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه، و بكى بكاء شديدا حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال — رحمه الله — والعَبْرة تخنقه : "توفى تقى الدين"، فاشتد بكاؤه ، و بكى الجماعة، ثم عدت إلى نفسى، فقلت :

" استغفروا الله من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم وفيم أنتم ، واعرضوا عما سواه" .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢٢) .

(٢) الأصل : « يبارزوا » .

فقال — رحمه الله — :

[٤٢٩] "نعم، أستغفروا الله" ، وأخذ يكررها .

ثم قال : "لا يعلم هذا أحد" .

ثم ذكر بهاء الدين — رحمه الله — من حسن خلقه ، قال :

كنت فى خدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا — يسّر الله فتحها — ، وكان من عادته أنه إذا نزل من الركوب يمد الطعام ، ويأكل مع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ، [ويصلى][1] ويجلس خلوة ، وأنا فى خدمته ، يقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ، ولقد قرأ علىّ كتابا مختصرا لسليم الرازى ، يشتمل على الأرباع الأربعة فى الفقه .

ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقيل له : "إن وقت الصلاة قد قرب" ، فعاد إلى الجلوس ، وقال :

"نصلى وننام" .

ثم جلس يتحدث حديث متضجر ، وقد أخلى المكان إلا عمن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له :

"أنا الآن ضجر أخرها ساعة" .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين عن : ابن شداد و (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٣) .

فلم يفعل ، وقدّم القصة بيده إلى قريب من وجهه بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب على رأسها ، فعرفه ، وقال : "رجل يستحق" ، فقال :

"يوقع له المولى" ، فقال :

"ليست الدواة حاضرة" ، وكان جالسا على باب الخركاة[١] ، فالتفت فرأى الدواة فقال :

"والله لقد صدق" .

ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى فأحضرها ، ووقع فيها .

فقلت له :

قال الله تعالى :

" وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " وما أرى المولى إلا وقد شاركه فى هذا الخلق .

فقال : "ماضرنا شيء ، قضينا حاجته وحصل الثواب" .

قال :

ولقد كانت طراحته تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو لا يتأثر بذلك .

قال :

ولقد نفرت بغلتى من الجمال ، وأنا راكب فى خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته ، وهو يبتسم .

---

(١) راجع ما فات هنا ، ص ٤٥ ، هامش ٢

قال :

لقد دخلت بين يديه فى يوم ريح مطير إلى القدس، وكان إذ ذاك كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه ، وهو يبتسم ، وأردت التأخر عنه لذلك ، فما تركنى .

ولقد واجهه الجناح بما واجهه به لما امتنع العسكر [٤٣٠] عن الأنكلتير ، وقد تقدم ذكر ذلك فى موضعه، وظن الناس أنه ربما يصلب أو يقتل، وفى ذلك اليوم نزل بازور وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة ، فطلب الأمراء ليأكلوا ، فحضروا ، فرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الأمن والطمأنينة والسرور.

قال :

ولقد قابت فى خزائنه كيسان من الذهب المصرى وكيسان[1] من الفلوس ، فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم عن العمل .

قال :

لقد كان حافظا لأنساب العرب، [و]خيلهم ، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره .

قال :

وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه ، وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحدا إلا بالخير ، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان ، فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط .

---

(١) الأصل : « وكيسين » .

وكان حسن العقد والوفاء ، وما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكف حاجته ، وسلمه إلى من يكفله ، ويعتنى بتربيته .

قال عماد الدين الكاتب :

مات لموت السلطان الملك الناصر الرجال، وفات بفواته الأفضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق، وخاب الراجون ، وغاب اللاحون ، وطردت الضيوف ، وأنكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه ؛ كان — رحمه الله — حسن الأخلاق، طيب الأعراق، ضحوكا بمهابة، محوما بجلالة، يرشد إلى الهدى، ويهدى إلى الرشاد ، معصب الكبائر ، ولا يسامح بالصغائر ، العاملون فى عدله ، والعالمون فى فضله ، والبلاد فى أمنه ، والعباد فى منّه ، والإسلام فى حماية حميته ، والدين فى إدالة دولته .

ثم ذكر من هذا كثيرا ، ولقد صدق فى كل ما ذكر ووصفه به — رحمه الله ومدّ روحه — [٤٣١]

المــلاحق

(١)

سجل بقلم القاضى الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة بعد قتل شاور

عن (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٨٠ — ٩٠)

و (الحنبلى : مخطوطة شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب : ص ١٨ — ١١٠)

وكتب القاضى الفاضل عن أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمى ، والوزارة يومئذ قائمة مقام السلطنة ، وهذه نسخته :

" من عبدِ الله ووليِّه ، عبدِ الله أبى محمدٍ الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين : إلى السيد ، الأجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولىِّ الأمة ، فخر الدولة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحرث شيركوه العاضدى ، عضَّد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أميرَ المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته .

[٨١] سلامٌ عليك : فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ؛ صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فالحمدُ لله القاهرِ فوق عباده ، الظاهرِ على مَنْ جاهر بعناده ، القادرِ الذى يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوبِ من مراده ، القوى على تقريب ما عزبت[١] الهممُ باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد فى الله حق جهاده ، مؤتى المُلْكَ من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعِه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى فى نصرته العزائم ، واستقبله الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة ما لا تصنع الهمم ، وخامت آثاره على

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها « ما اعترفت » .

الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم ؛ وعدمت نظراؤه بما وُجد من محاسنه التى فاق بها ملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه و إن ظنّ الناسُ أنه ظُلم ، وذاد عن موارد أمير المؤمنين مَنْ هو [منه] أولى بها و يأبى الله سبحانه وتعالى إلا إمضاء ما حتم، ورام إخفاء فضائله وهل يشتهر طيب المسك إلا إذا اكُتتم، مؤيدِ أميرِ المؤمنين بإمامٍ أقرَّ اللهُ به عينهم ، وقضى على يده من نُصْرة الدين دينهم :

”لو أنفقتَ مافى الأَرضِ جميعًا ما أَلَّفتَ بَينَ قُلُوبِهم ولَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم“(١)

والحمدُ لله الذى خصّ جدَّنا محمدا بشرف الاصطفاء والاجتباء، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخَرَ له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء ، وأقام به القسطاس، وطهّر به من الأدناس، وأيّده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، [٨٢] وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ، وجعل النورَ ساريًا منه فى عَقِبهِ لا ينقصه كثرة الاقتباس : ” ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وعَلَى النَّاسِ “(٢).

والحمــد لله الذى اختار أمير المؤمنين لأن يقوم فى أمته مقامه ، وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامه ، وأوضح به منـار الحق وأعلامه ؛ وجعله شهيدَ عصره ، وحجةَ أمره ، و باب رِزقه ، وسـبيلَ حقه ، وشفيعَ أوليائه ، والمستجارَ من الخطوب بِلِوائه ، والمضمونةَ لذويه العقُبى ، والمسئولَ له الأجرُ فى القربى ، والمفترضَ الطـاعةِ على كل مُكَلَّف ، والغايةَ التى لا يقصر عنهـا بولائه إلا من تأخّر فى مضمار النجاة وتخلّف ، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادى إلى الحق و إلى طريق مستقيم ، لا يُقبَلُ عمـلٌ إلا بخفارة ولائه ، ولا يضلُّ من استضاء بأنجم هدايته اللامعه ، ولا دينَ إلا به ولا دنيا إلا معه ،

(١) سورة ٨ (الأنفال) ، الآية ٦٣ (م) .

(٢) سورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٣٨ (ك)

ليتضح النهجُ القاصد ، ولتقوم الحجة على الجاحد ، وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد ، وليأتِىَ اللهُ به بنيانَ الأعداء من القواعد ، وليبيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إله واحد .

يحمده أميرُ المؤمنين على ما حباه من التأييد الذى ظهر فَبَهَر ، وانتشر فعمَّ نفعُه البشر ، والإظهار الذى اشترك فيه جنود السماء والأرض ، والإظفار الذى عَقَدَ اللهُ منه عقداً لاتدخل عليه أحكامُ النقض ، والانتصارِ الذى أبان الله به معنى قوله :

" وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ "(١) .

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين ، المبعوث رسولا فى الأميين ، الهادى إلى دار الخلود ، المستقل بيانه استقلال عواثرِ الجدود ، والمعدودِ أفضلَ نعمة على أهل الوجود ، والصافيةِ بشريعته مشارعُ النعمة ، والواضحةِ به الحنيفيةُ البيضاء [٨٣] لئلا يكون أمرُ الخلق عليهم غُمَّة ؛ وعلى أبينا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ناصرِ شريعته وقسيمه فى النسب والسبب ، ويدِ الحق التى حُكم لها فى كل طالب بالغَلَب ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحِكَم ، ومصابيح الظُلَم ، ومفاتيح النِعَم ؛ والمخفقين دعوى من باهاهم وفاخر ، والباذلين جهدهم فى جهاد من اتخذ مع الله إلها آخر ، وسلَّم وردَّد ، ووالى وجدَّد .

وإن أمير المؤمنين لما فوّضه الله تعالى إليه من إيالة الخليقة ، ومنحه من كرم السجيّة وكرم الخليقة ، وبسطه من يده على أهل الخلاف ؛ وأنجزه من موعوده الذى ليس له إخلالٌ ولا إخلاف ، وأوضحه من براهين إمامته للبصائر ، وحفِظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقةِ المصاير ، وأورثه من المقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره ، واستخدم فيه السيوفَ والصروفَ من تأدية فرائض

(١) السوره ، (البقره) ، الآية ٢٥١ (م) .

نصره ، وأظهر له من المعجزات التى لا يخلو منها زمن ، وظاهر له من الكرامات ، التى زادت على أمنية كل متمن ، وأتمنه عليه من أسرار النبوة التى رآه الله تعالى لها أشرف مودَع وعليها أكرم مؤتمن ؛ وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب ، وتفليل أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده — صلى الله عليهم وسلم — أهلُ الأحزاب ، يواصل شكر هذه النعم التوام ، ويعرف بعوارفها الفرادى والتؤام ، ويقدم بين يدى كل عمل رغبةً إليه فى إيضاح المراشد ، ونية لا تضل عنها الهداية ولا سيما وهو الناشد ، ويستخيره عالما أنه يقدِّم إليه أسبابَ الخير ، ويناجيه فيطالعه الإلهامُ على ما يحلى السِيَر ويجلى الغيَر ، ويأخذ بيد الله حقَّه إذا اُغتصبت حقوقُه ، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافُه واستجيز عقوقه ، ويفزع إلى الله تعالى إذا قرَع الضائر ، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكتِ الشُّبَهُ البصائر ؛ فما اعترض ليلُ كُرْبَةٍ إلا انصدع [٨٤] له عن بفجرٍ وضَّاح ، ولا انتقض عقدُ غادرٍ إلا عاجله الله سبحانه بأمر فضَّاح ؛ ولا انقطعت سُبُلُ نصرةٍ إلا وصلها الله تعالى بمن يرسله ولا انصدعت عصا أُلْفَة إلا تدارك الله تعالى بمن يجرِّده تجريد الصِّفاح .

وإذا عدّد أميرُ المؤمنين هذه النعم الجسيمة ، والمنح الكريمة ؛ واللطائف العظيمة ، والعوارفَ العميمة ، والآياتِ المعلومة ، والكفايات المحتومة ، والعادات المنظومة ، كنتَ أيها السيد الأجل — أدام الله قدرتَك ، وأعلى كلمتك — أعظمَ نِعم الله تعالى أثرا ، وأعلاها خطرا ، وأقضاها للأمة وطرا ؛ وأحقها بأن تسمى نِعمة ، وأجدرها بأن تُعَدّ رحمة ، وأسماها أن تَكْشِفَ غُمَّة ، وأنضاها فى سبيل الله سبحانه عزمه ؛ وأمضاها على الأعداء حَدّا ، وأبداها فى الجهاد جِدّا ، وأعداها على الأعداء يدا ، وأحسنها فعلا لليوم وأرجاها غدا ؛ وأفرجها للأزمة وقد كادت الأمةُ تصير سدى ، وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيدا ، وأبقاهم فعلةً لا ينصرم فعلها الذى بدا أبدا .

فليهنئك أنك حزبُ الله الغالب، وشهابُ الدين الثاقب، وسيفُ الله القاضب، وظلُّ أمير المؤمنين الممدود، وموردُ نعمته المورود، والمقدَّم فى نفسه وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود؛ نصرتَه حين تناصر أهلُ الضلال، وهاجرتَ إليه هاجرا بَرَدَ الزُّلال وبَرْدَ الظِّلال؛ وخُضتَ بِحارَ الأهوال، وفى يدك أمواجُ النِصال؛ وها فى جيدك اليوم عِقدُ جواهرٍ منه ونَظمُ لآل، بل قد باهتَ السماء وَزُينتْ منك بنجومِ نهارٍ لا نجوم ليالٍ؛ وكَشَفْتَ الغمَّاء وهى مُطبِقة، ورفعتَ نواظرَ أهلِ الإيمان وهى مطرِقة؛ وعقصتَ أعِنَّة الطغيان وهى مُطْلَقه، وأعدتَ بحنكتِك على الدولة العلويّة بهجةَ شبابها المونقه، وأنقذتَ الإسلامَ وهو على شفى جُرُفٍ هار، ونفذتَ حين لا تنفذ [٨٥] السهامُ عن الأوتار؛ وسمعتَ دعوتَه على بُعد الدار، وأبصرتَ حقَّ الله ببصيرتك وكم من أُناسٍ لا يرونه بأبصار؛ وأجليتَ طاغيةَ الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا بصيرة له وكذَّبه، وأقدمتَ على الصليب وجمراتُه متوقدة، وقاتلتَ أولياء الشيطان وغَمَراتُه متمردة.

وما يومُك فى نُصْرَةِ الدولة بواحد، ولا أمسُك بمجحودٍ وإن رَغِمَ أنفُ الجاحد، بل أوجبتَ الحقَّ بهجرةٍ بعد هجرة، وأجبتَ دعوةَ الدين قائما بها فى غمرة بعد غمرة، وافترعتَ صهوةَ هذا المحل الذى رقاك إليه أميرُ المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما فى صدورهم من حسراتِ لِحاقك، وكنتَ البعيدَ القريبَ نُصْحُه، المحجوبَ النافذَ بحجته المذعورة أعداءُ أمير المؤمنين [به] إن فُوِّقَ سهمُه أو أُشرِع رمحُه، وما ضرَّك أن سخطك أعداءُ أمير المؤمنين وأميرُ المؤمنين قد ارتضاك، ولا أن منعك المعاندُ حقَّك وقد قضى لك واقتضاك، وما كان فى محاجزتك عن حظك من خدمة أمير المؤمنين الذى أنت به منه أولى، ومدافعتك عن حقك فى قرب مقامه الذى لايستطيع طَولا، إلا مغالبةُ الله فيك واللهُ غالب على أمره، ومباعدتك وقد قربك الله من سر أمير المؤمنين وإن بعدت من جهرِه.

استشرفتك الصدور، وتطلعت إليك عيون الجمهور ، واستوجبت عقيلةُ النعم بما قدمتَ من المهور ، ونصرتَ الإيمان بأهله ، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كُلِّه ، وناهضتَ الكفرة بالباع الأشد، والرأى الأسد، ونادتهم سيوفُك — ولا قَرارَ على زأرِ من الأسدِ — وأدال الله بك ممن قَدِمَ على ما قَدَّمَ ، وندِم فما أغنى عنه الندم ، حين لَجَّ فى جهالته ، وتمادى فى ضلالته ، واستمر على استطالته ، وتوالت منه عثراتٌ ما أتبعها باستقالته ، فكم اجتاح للدولة رجالا ، وضيَّق من أرزاقهم مجالا ، وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحةً وأموالا ، ونقلها من أيدى أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى ، واتسعت هفواتُه من التعديد [٨٦] وما العهد منها ببعيد .

وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تُنْسَخَ أحاديثُها ، وأتى الأئمةَ منك بمن هو وليُّها ، والأمةَ بمن هو مغيثها ، ودعاك إمامُ عصرك بقلبه ولسانه وخطه — على بعد الدار — ، وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرَّف وتدور معه حيث دار ، واختارك على ثقةٍ من أنَّ اللهَ تعالى يَحْمَده فيك عواقبَ الاختيار ، ورأى لك إقدامك و رقابُ الشركِ صاغرة ، وقدومَك وأفواهُ المخاوف فاغرة ، وكَرَّتَك فى طاعته وأبى اللهُ تعالى أن تكون خاسره ، وسطا بك حين تمالى بك المشركون، وتمثَّل لرسلِهم بقوله سبحانه : "اخْسَئُوا فِيها ولاتُكَلِّمُونِ"(١) وأنِفتْ عزته مُجْنةَ الهدنةِ ، وقال لأوليائه : "وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاتَكُونَ فِتْنَةٌ"(٢) وازدرى بخنازيرهم انتظارا لوصولك بأسود الإسلام ، وصبر على علم أنَّك تلبي نداءه بألسنة الأعلام قبل ألسنة الأقلام ، فكنتَ حيث رجا وأفضل، ووُجِدت بحيث رعى وأعجل ، وقدِمتَ فكتب اللهُ لك العُلُوّ، وكَبَتَ بك العدوّ ، وجمع على التوفيق لك طرفي الرواحِ والغدوّ ، ولم يلبسِ الكافرُ لسهامك جُنَّةً إلا الفرار وكان " كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ "(٣)

(١) السورة ٢٣ (المؤمنون) ، الآية ١٠٨ (ك) .
(٢) السورة ٨ الأنفال (، الآية ٣٩ (ك) .
(٣) السورة ١٤ (ابراهيم) الآية ٢٦ (ك) .

فلله دَرُّكَ حين قاتلتَ بخبرك قبل عسكرك ، ونصرت بأثيرك قبل عشيرك ، وأَكْرِم بك من قادمٍ خطواتُه مبروره ، وسطواتُه للأعداء مبيرة ، وكلّ يوم من أيامه يعد سِيره ، وإنك لمبعوثٌ إلى بلاد أمير المؤمنين بعثَ السحابِ المسخّر ، ومقدَّم فى النيَّة وإن كنت فى الزمان المؤخر ، وطالع بفئة الإسلام غيرَ بعيد أن يفُيءَ اللهُ عليها بلادَ الكفار، ورجالِ جهادٍ عددناهم عندنا من المصطفين الأخيار، وأبناءِ جلادٍ يشترون الجنةَ بعزائمَ كالنار ، وغُرَرِ نصرٍ سكونُ العدو بعدها غرورٌ ونومُه غِرار .

ولما جرى مَنْ جرى ذكرهُ على عادته فى إيحاشك والإيحاش منك بكواذب الظنون، ورام رجعتك عن الحضرة وقد قَرَّتْ بك الدار وقرت بك العيون، وكان[٨٧] كما قال الله تعالى فى كتابه المكنون: "لقَدْ ابْتَغُوا الفِتْنَةَ منْ قَبلُ وقَلَبُوا لَكَ الأُمورَ حتَّى جَاءَ الحَقُ وظَهر أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَارِهُونَ"(١)، هنالك غضبت نفوسُ الإسلام فتكت به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التى كانت منه مباديها ، وأَخَذَهُ مَنْ أَخْذُهُ أَليمٌ شديد ، وعدل فيه من قال "وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبِيد"(٢) ، "إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ"(٣) .

ولما نشرتَ لواءَ الإسلام وطواه ، وعضدتَ الحقَّ وأضعف قواه ، وجنيتَ عُقْبى ما نويتَ وجنى عقبى ما نواه، وأبيتَ إلا إمضاءَ العزم فى الشرك وما أمضاه ، "أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ"(٤) ، ودفعتَ الخطب الأشق ، وطلعت أنوارُ النصر مشرقةً بك وهل تطلع الأنوارُ إلا من الشرق ؟ وقال لسان

---

(١) السورة ٩ (التوبة) الآية ٤٨ (م) .

(٢) السورة ٤١ (فصلت) ، الآية ٤٦ (ك) .

(٣) السورة ٥٠ (ق) ، الآية ٣٧ (ك) .

(٤) السورة ٤٥ (الجاثية) ، الآية ٢٣ (ك) .

الحق "فَأَىُّ الفَرِيقَينِ أَحَقُّ "(١) ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عُدَّةً قدَّمها ثم قضاها ، وولَّاه كما ولَّى جدَّه — صلى الله عليه وسلم — قِبلةً يرضاها ، وانتصر له بك انتصارهَ لأهل البيت بِلِسَانه وعَمَّارِه ، وأنطقَ أميرَ المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمس كنت عَقْدَ إضمـاره .

وقلَّدك أميرُ المؤمنين أمرَ وَزارته ، وتدبير مملكته وحياطةَ ما وراء سرير خلافته ، وصيانةَ ما اشتملتْ عليه دعوةُ إمامته ، وكفالةَ قضاةِ المسلمين ، وهدايةَ دعاةِ المؤمنين ، وتدبيرَ ما عَدَقَهُ الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنودِه وعساكره المؤيَّدين، المقيمين منهم والقادمين، وكافةِ رعايا الحضرة بعيدها ودانيها ، وسائرِ أعمـالِ الدولِ باديها وخافيها ، وما يفتحُهُ اللهُ تعـالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التى اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليدَ بهذا التقليد ، وقرَّب عليك كلَّ غرضٍ بعيد ، وناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع [٨٨] والبذل ، والرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ، والتنبيه والغض ، والإنعام والانتقام ، وما توجب السياسةُ امضاءه من الأحكام، تقليدا لايزال به عِقدُ فخرك نظيما ، وفضلُ الله عليك وفيك عظيما، "ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً "(٢) .

فتقلد ماقلدك أميرُ المؤمنين من هذه الرتبة التى تتأخر دونها الأقدام ، والغاية التى لاغايةَ بعدها إلا ما يمليك الله به من الدوام ، فلقد تناولتها بيدٍ فى الطاعة غيرِ قصيرة ، ومساعٍ فى خدمة أمير المؤمنين أيامُها على الكافرين غير يسيره ، وبذلتَ لهـا مامهَّد سبلها ، ووصلتها بمـا وصل بك حبلها ، وجمعتَ من أدواتها ماجمع لك شملها ، وقال لك لسانُ الحق "وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَـا وَأَهْلَهَا "(٣) .

---

(١) السورة ٦ الأنعام) ، الآية ٨١ (ك) .

(٢) السورة ٤ (النساء ، الآية ٧٠ (م) .

(٣) السورة ٤٨ (الفتح)، الآية ٢٦ (٠) .

وتقوى الله سبحانه : فهى وإن كانت لك عاده، وسبيلَ لاحِب إلى السعادة، فإنها أولى الوصايا بأن تيمن باستفتاحها ، وأحقُّ القضايا بأن تبتدئ الأمورَ بصلاحها ، فاجعل تقوى الله أمامك ، وعامِل بها ربَّك وإمامَك ، واستنجح بها عواقبك ومباديك ، وقاتل بها أضدادَك وأعاديك ، قال الله سبحانه فى كتابه المكنون : "يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقدَّمَتْ لِغَـدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون "(١) .

والعساكر المنصورة: فهم الذين غُذوا بولاء أميرِ المؤمنين ونِعَمِه ، ورُبُّوا فى حجور فضله وكرمه ، واجتاحهم مَنْ لم يُحسن لهم النظر ، واستباحهم بأيدى من أضمَّر لما أضمر ، وطالما شهدوا المواقفَ ففرَّجوها ، واصطلوا المخاوفَ وتولجوها ، وقارعوا [٨٩] الكفَّارَ مسارعين للأعنَّة ، مقدمين مع الأسنَّة ، مجرين إلى غايتين : إما إلى النصر وإما إلى الجنـــة ، ودبَّروا الولايات فسددوا ، وتقلدوا الأعمال فيما تقلدوا .

واعتَمِدْ أحمرَهم وأسودَهم، وأقربَهم وأبعدَهم ، وفارسَهم وراجلهم، وراعِهم ونايِلْهم بتوفيرِ الإقطاعِ وإدرارِ النفقات ، وتصفيةِ موارد العيش الموثقات .

وأَحسِنْ لهم السياسةَ التى تجعل أيديهم على الطاعة متفقة، وعزائمَهم فى مناضلة أعداء الدين مستبِقه ، وأَجْرِهِمْ على العادات فى تقايد الولايات ، واستكفِهم لما هم أهلُه من مهمات التصرفات ، ومَيِّزْ أكابرهم تمييزَ الناظر بالحقائق، واستنهِضهم فى الجهاد فهذا المضمارُ وأنت السابق، وقم فى الله تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانعُ والعوائق، ليقذِف اللهُ بالحقِ الذى نصرتَه على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

والشرعُ الشريف : فأنت كافلُ قضاته ، وهادى دعاته ، وهو منارُ الله تعالى الأرفع ، ويده التى تمنع الظلم وتدفع ، فقُمْ فى حفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، وتشييد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز

(١) السورة ٥٩ (الحشر) ، الآية ١٨ (م) .

آخذى عهودها وأبنائها ، قيامَ من يعول فى الأمانة على أهل الديانة ، ويستمسك بحقوق الله تعالى الحقيقةِ بالرعاية والصيانة .

والأموال : فهى سلاحُ العظائم ، ومواد العزائم ، وعتاد المكارم ، وعماد المحارِب والمسالم ، وأمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة ، وأن يكون عدلُك فى البلاد وكِيلَ العِمارة .

والرعايا : فقد علِمتَ ما نالهم من إجحاف الجبايات ، وإسراف الجنايات ، وتوالى عليهم من ضروب النكايات ، فاعمر أوطانَهم التى أخربها الجورُ والأذى ، وانْفِ عن مواردهم الكدرَ والقذى ، وأَحْسِنْ حفظَ وديعة الله تعالى منهم ، وخفِّفْ [٩٠] الوطأةَ ما استطعتَ عنهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وكُفَّ من يعترضهم فى عرض هذا الأدنى .

والجهاد : فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد ، وسطوةُ الله تعالى التى يمضيها فى شر العباد على يد خير العباد ، ولك من الغَناء فيه مِصْرا وشاما ، وثباتِ الجأش كرًّا وإقداما ، والمصافِ التى ضُرِبتْ فكنتَ ضاربُ كُماتها ، والمواقِفِ التى اشتدتْ فكنتَ فارجَ هبواتها ، والتدريبِ الذى أطلقَ جِدَّك ، والتجريبِ الذى أورى زَنْدك ، ما يغنى عن تجديد الوصايا البسيطة ، وتأكيد القضايا المحيطة ، وما زلت تأخذُ من الكفّار باليمين ، وتعظمُ فتوحُك فى بلاد الشمال فكيف تكون فى بلاد اليمين ، فاطلب أعداءَ الله برا وبحرا واجلب عليهم سهلا ووعراء وقسم بينهم الفتكاتِ قتلا وأسرا ، وغارة وحصرا ، قال الله تعالى فى كتابه المكنون : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ » (١)

(١) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ١٢٣ (م) .

وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير ، وخبرتك تدلك على مراشد الأمر ، "وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ"(١) ، فأنت تبتدع من المحاسن مالا تحيط به الوصايا ، وتخترع من الميا من ما يتعرف بركانه الأولياءُ والرعايا .

والله سبحانه وتعالى يحقق لأمير المؤمنين فيك أفضلَ المخايل ، ويفتحُ على يديك مستغلق البلاد والمعاقل ، ويصيبُ بسهامك من الأعداء النحورَ والمقاتل ، ويأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل ، ولا يضيع لك عملكَ فى خدمة أمير المؤمنين إنه لا يضيع عملَ عامل ، ويجرى الأرزاقَ والآجال بين سَيْبك الفاضل وحكمك الفاصل .

فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ، إن شاء الله تعالى ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

---

(١) (السورة ٣٥ فاطر) ، الآية ١٤ (ك) .

(٢)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى على طُرَّة التقليد السابق
بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧)

هذا عهدٌ لا عهدَ لوزيرٍ بمثله ، وتقليدُ أمانةٍ رآك الله تعالى وأميرُ المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجّةُ عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتابَ أمير المؤمنين [٤٠٧] بقوة ، واسحب ذيلَ الفخار بأن اعتزت خِدمتُك إلى نبوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا .

" ولاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً "[1] .

---

(١) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٣)

سجل بقلم القاضى الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩١ — ٩٨)

و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١)

من عبد الله ووليّه ، عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين .

إلى السيد الأجل (على نحو ما تقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد ، فالحمد لله مصرِّف الأقدار ، ومشرِّف الأقدار ، ومحصى الأعمال والأعمار ، ومبتلى الأخيار والأبرار ، وعالِم سر الليل وجهرِ النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا تتعاقب فيه أحوال الأقمار : بين انقضاء سرار واستقبال أبدار ، وروضا إذا هوتْ فيه الدوحاتُ أينعت الفروع سابقةَ النور ، باسقةَ الثمار ، ومُنْجِد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرَجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث الله الأرضَ وَمَنْ عليها قائمةً على أصولها .

والحمدُ لله الذى اختار لأمير المؤمنين ودلَّه على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الإلهام عن رَوِيَّة الاختيار، وعضَّد به الدين الذى ارتضاه وعضَّده بمن ارتضاه ، وأنجز له من وعد السعد ماقضاه قبل أن اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلهم من مضاف إليه غير مضاه؛ وجعل مملكته عرينا لاعتزازها بالأسد وشبله، ونعمته ميراثا أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله ، وأظهر فى هذه القضية ما أظهره فى كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله ؛ فأولياؤه كالآيات التى تتسق دراري أفقها المنير ، وتتسق دررعقدها النظيم النضير : " مَانَنْسَخْ مِنْ آيَة

أو نَنْسأها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ[(١)] ” [٩٢]

والحمدُ لله الذى أتم بأمير المؤمنين نعمة الإرشاد، وجعله أولى مَنْ للخلق ساد، وللحق شاد ؛ وآثره بالمقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره ، وأظهر له من معجزات نصره ما لا يستقل العدد بحصره ؛ وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره، وجعل الإمامةَ محفوظةً فى عَقِبِهِ والمعقبات تحفظه بأمره ؛ وأودعه الحِكَم التى رآه لها أحوطَ مَنْ أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجرَ الذى جهل من ظن غير نوره مطلعَه ، وآتاه ما لم يؤتِ أحدا ، وأمات به غيا وأحيا رَشَدا ، وأقامه للدين عاضدا فأصبح به معتضدا ؛ وحفظ به مقام جده وإن رغم المستكبرون ، وأنعم به على أمته أمانا لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون ، و” مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ “[(٢)] .

يحمده أميرُ المؤمنين على ما آتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح ، ويُدْنى منه البعيدَ النازح ؛ ويخلف على الدين من صلاحه الخلفَ الصالح ، ويلزم آراءه جدد السعود ، ويريه آياتِ الإرشاد فإنه نازح (؟) قدح القادح .

ويسأله أن يصلى على جدِّه محمد الذى أنجى أهلَ الإيمان ببعثه ، وطهَّر بهَدْيه من رِجْس الكفر وخبثه ؛ وأجار باتباعه من عَنَت الشيطان وعبثه ، وأوضح جادّة التوحيد لكل مشركِ الاعتقاد مثلثه .

وعلى أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار، وقسَّم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنة والنار ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الذين أذلَّ اللهُ بعزتهم أهلَ الإلحاد وأصفى بما سفكوه من دمائهم مواردَ الرشاد ، وجرتْ أيديهم وألسنتُهم بأقوات القلوب وأرزاق العباد؛ وسلَّم ومجّد، ووالى وجدّد.

(٩٣) وإن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التى هى مهبط الهدى .

---

(١) السورة ٢ (البقرة) ، الآية ١٠٦ (ك) .

(٢) السورة ٨ (الأنفال) ، الآية ٣٣ (ك)

ومحط الندى ، ومورد الحياة للولى والردى للعدا ، من لطف يتلافى الحادثة ويشعبها ويرأبها ، ونعمة تبلغ بها النفوسُ أَرَبَها ؛ وموهبة تشد موضع الكلم ، وتسد موضع الثلم ؛ وتجلى غمائم الغمم ، وتحلى مغانم النعم ؛ وتستوفى شرائط المناجح ، وتستدنى فوارط المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل الملك المنصور — رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه — ، التى كادت لها أواخى الملك تتزعزع ، ومبانى التدبير تتضعضع ؛ إلا مانظر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله قدرتك — لأن تقوم بخدمته بعده ، وتسد فى تقدمة جيوشه مسدَّه ، وتقفو فى ولائه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، فوازت الفادحةُ فيه النعمةَ فيك ، حتى تستوفى حظَّه من أمير المؤمنين بأجرٍ لا يضيع الله فيه عمله ، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله ؛ واستحق أن يُنَضِّرَ اللهُ وجهَه بما أخاقه الله من جسمه فى مواقف الجهاد وبَذَّله ؛ ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين ، وهو الذمام الذى لايقطع اللهُ منه ما أمره أن يصله ؛ واتبع من دعائه بتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان ، وذخرت له من شفاعته ما عليه مُعَوَّلُ أهل الإيمان فى الأمان ؛ ورعى الله له قَطْعَه البيداء إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار ، ووطأه المواطئ التى تغيظ الكفار ؛ وطلوعه على أبواب أمير المؤمنين طلوعَ أنوار النهار ، وهجرته التى جمعت له أجرَيْن : أجر المهاجرين وأجر الأنصار ؛ وشكر له ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك الثار ، وبلغ [٩٤] الإسلام الإيثار ، وما لقى ربه حتى تعرَّض للشهادة بين مختلف الصفاح ، ومشتجر الرماح ، ومفترق الأجسام من الأرواح ، وكانت مشاهدتُه لأمير المؤمنين أجرا فوق الشهادة ، ومنةً لله تعالى عليه له بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ؛ وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر — أدام الله قدرتك — قد أقررت ناظره ، وأرغمت مُناظِرَه ؛ وشددت سلطانه ، وسددت مكانه ؛ ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب ، وجمعت مافيه من أبهة المشيب إلى مافيك من مضاء الشباب ، ولقنت

ما أفادته التجارب جملة ، وأعانتك المحاسن التى هى فيك جُنّة . وقلّب عليك إسناد الفتكات فتقابت ، وأوضح لك منهاج البركات فتثبت ، وسددك سهما ، وجرّدك شهما، وانتضاك فارتضاك غربا، وآثرك على آثر ولده إمامة فى التدبير وحربا . وكنت فى السلم لسانه الآخذ بمجامع القلوب ، وفى الحرب سنانه النافذ فى مضايق الخطوب ، وساقته إذا طُلب ، وطليعته إذا طَلَب ، وقلب جيشه إذا ثبت ، وجناحه إذا وثب ، ولا عذر لشبل نشأ فى حجر أسد ، ولا لهلال استملى النور من شمس واستمد .

هذا ، ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتك غريزة عزيزة ، وسجية سجية ، وشيمة وسيمة ، وخلائق فيها ما تحب الخلائق ، ونحائز لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ماؤها غير آسن ، ومآثر جد غير عاثر ، ومفاخر تقلل عنها الأول ، ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان ، تضطرم نارها ، وخلالٌ جلالٌ عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعى مساعد لديك كمائم نورها تتفتح ؛ فكيف وقد جمعت لك فى المجد بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سألك من اصطفاء أمير المؤمنين ماذا حصل ثم على الخلق عمّ . فيومك واسطةٌ فى المجد بين غدك وأمسك ، وكلُّ ناد من أندية الفخار [٩٥] لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يُمسك ، فبشراك أنّ أنْعُمَ أميرِ المؤمنين موصولةٌ منكم بوالدٍ وولد ، وأنّ شمسَ مُلْكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت الأسد .

ولما رأى اللهُ تقلُّبَ وجهِ أمير المؤمنين فى سمائه ولّاه من اختيارك قِبْلَه ، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزرا للملة ، فناجته مراشد الإلهام ، وأضاءت له مقاصدُ لا تعقِلها كلُّ الأفهام ؛ وعَزَمَ له على أن قلّدك تدبيرَ مملكته الذى أعرقتْ فى إرثه وأغرقت فى كسبه ، ومهّد لك أبعدَ غايةٍ فى الفخر بما يسّر لك من قُرْبه .

ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قولِ لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قَوْل ربِّه : "وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ"(١) ، وقلَّدك لأنك سيفٌ من سيوف الله تعالى يحِقّ به التقلُّد وله التقليد ، واصطفاك على عِلْمٍ بأنك واحدٌ منتظم فى معنى العديد ؛ وأحيا فى سلطان جيوشه سنَّةَ جَدِّه الإمام المستنصر بالله فى أمير جيوشه الأوّل ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون أفضلَ من الأفضل ؛ وخرج أمرُه إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التى أحلَّك ربوتها ، وأحلَّ لك صهوتها ؛ وحلّاك نِعمتها ، و لك نعمتها ؛ فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الإنافة ، إلا أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة ؛ وتبوّأ منها صدراً لا تتطاع إليه عيونُ الصدور ، واعتقل منها فى درجةٍ على مثالها تدور البدور :

" وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ"(٢) :

وقل " الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ " .

وباشِر مستبشرا ، واستوطن متديرا ؛ وأبسط يدك فقد فوَّض إليك الأمرَ أميرُ المؤمنين بسطا وقبضا ، وأرفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ؛ وأثبت على درجات [٩٦] السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودَحْضا ، واعقِد حُبى العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا ؛ وأنفذ فيما أهَّلك له فقد أدى بك نافلةً من السياسة وفرضا ، وصرِّف أمورَ المملكة فإليك الصرْف والتصريف .

وثقّف أَوَدَ الأيام فعليك أمانةُ التهذيب والتثقيف ؛ واسحبْ ذيولَ الفخار حيث لا تصل التيجان ، واملأ لحظا من نور الله تعالى حيث تتقى الأبصارُ بُحُجَن

---

(١) السورة ٧ (الأعراف) ، الآية ٥٨ (ك) .

(٢) السورة ٣١ (لقمان) ، الآية ١٧ (ك) .

(٣) السورة ٣٥ (فاطر) ، الآية ٣٤ (ك) .

الأجفان ؛ إن هـذا لهو الفضل المبين . وارتبطه بالتقوى التى هى عروة النجاة ، وذخيرة الحياة والممات ، وصفوة ما تلقّى آدمُ من ربّه من الكلمات ؛ وخير ما قدمته النفوس لغدها فى أمسها ، وجادلت [به] يوم تُجادِل كلُّ نفسٍ عن نفسِها ، قال الله سبحانه ومَنْ أصـدقُ من الله قيلا : " والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا "(١) .

واستتم بالعدل نِعَمَ الله تعـالى عليك ، وأَحْسِنْ كما أحسن الله إليك ، وأْمُرْ بالمعروف فإنك من أهله ، وانْهَ عن المنكر كما كنت تنزهت عن فعله ، وأولياء أمير المؤمنين ، وأنصاره الميامين ، ومن يحفُّ بمقام ملكه من الأمراء المطوّقين ، والأعيانِ المعصَّبين ، والأماثل والأجناد أجمعين ، فهم أوليـاؤه حقا ، ومماليكه رِقا ، والذين تبوءوا الدار والإيمانَ سَبْقا ، وأنصاره غربا كما أن عسكرك أنصاره شرقا ؛ فهم وهم يدٌ فى الطاعة على من ناواهم ، يسعى بذِمتهم أدناهم ، وتحاكم فيهم وأنت عند أمير المؤمنين أعلاهم .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور — رضى الله عنه — استمطر لهم [من] إنعام أمير المؤمنين المسامحة بعلقهم ، وواس فى هذه المنقبة التى استحق بها حسن الذكر بين طوائفهم وفِرقهم ، فصنهم من جائحات الاعتراض ، وابذل لهم صالحاتِ الأغراض ؛ وارفع دونهم الحجاب ، ويسِّر لهم الأسباب ، واستوف منهم عند [٩٧] الحضور إليك غاياتِ الخطاب ؛ وصرِّفهم فى بلاد أمير المؤمنين ولاةً وحمـاة ، كما تصرفهم فى أوقات الحرب لُماة وكُماة ؛ وعرِّفهم بركةَ سلطانك ، واقتد قلوبهم بزمام إحسانك .

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهدْيك ، والتصريف على أمرك ونهيك ؛ فاستعمل منهم مَنْ أحسن عملا ، فأما بالعنايات فلا .

---

(١) السورة ٤ (النساء) ، الآية ٧٧ (م) .

والجهاد: فأنت راضع درِّه ، وناشئة حِجْره ، وظهورُ الخيل مواطنُك، وظلالُ الجبل مساكنك ؛ وفى ظلمات مشاكله تجلى محاسنك ، وفى أعقاب نوازله تتلى ميامنك ؛ فشمر له عن ساقٍ من القنا ، وخُضْ فيه بحرا من الظبا ؛ واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى ؛ وأسِلِ الوِهادَ بدماء العِدا ، وارفع برءوسهم الرُّبا ، حتى يأتى اللهُ بالفتح الذى يرجو أميرُ المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك ، ومشهودا به يومَ مقامك بين يديه من لسانِ إمامك .

والأموالُ: فهى زبدةُ حَلَبِ اللُّطْفِ لا العنف، وجُمَّةٌ يُمْرِيها الرِّفْقُ لا العسف، ومابرحتْ أَجَدَّ ذخائرِ الدول للصفوف، وأَحدَّ أسلحتها التى تَمضى وقد تنبو السيوف؛ فقدِّمِ البلاد الاستعمار، تُقدم لك الاستثمار، وقطرةٌ من عدل تزخر بها من مالٍ بحار.

والرعايا: فهم ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعه لديك ، فاقبِض عنهم الأيدِى وابسط بالعدل فيهم يديك ، وكن بهم رءوفا ، وعليهم عطوفا ؛ واجعل الضعيف منهم فى الحق قويا ، والقوى فى الباطل ضعيفا ، ووكِّل برعايتهم ناظرَ اجتهادك ، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك ، ولو جاز أن يستغنِي عن [٩٨] الوصية قائمٌ بِأمرٍ ، أو جالسٌ فى صدرٍ ، لا ستغنيتَ عنها بفطنتك الزكية ، وفِطرتك الذكية ؛ ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك وأنت من المؤمنين ، وعرابةُ بركةٍ فتلقَّ رايتها باليمين .

والله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل — أدام الله قدرتك — بالنصر العزيزِ ، ويقضِى لدولة أمير المؤمنين على يديك بالفتح الوجيز ؛ ولأدلها فى نظرك بالأمر الحريز ، ويمتع دَسْتَ الملك بِحُلَى مجدك الإبريز ؛ ويقرعيون الأعيان بما يظهر لك فى ميدان السعادة من السبق والتبريز ، ويُمَلِّيك من نِحلة أَنْعُمِ أمير المؤمنين بما ملَّكك إياه مِلْكَ التحويز ، ويلحق بك فى المجد أولك ، ويُحمِد فيك العواقب ولك .

فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى .

(٤)

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى على طُرَّةِ التقليد السابق
بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة
عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧)

”هذا عهدٌ أمير المؤمنين إليك ، وحجتُه عند الله تعالى عليك ، فأوفِ بعهدك ويمينك ، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيمينك ؛ ولمن مضى بجدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن أسوة ، ولمن بقى بقربنا سلوة « تِلْكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِى الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[١]“ .

(١) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ (ك) .

(٥)

وصف تفصيلى للفتح الأيوبى لليمن كما سجله بقلمه مؤرخ يمنى
عن : (بدر الدين محمد بن حاتم : «السِّمْط الغالى الثمن ،
فى أخبار الملوك من الغُزّ باليمن» مخطوطة بدار الكتب
المصرية، رقم ٢٤١١ ، ص ٢ ب — ٦ ب)

اعلم أن جُمْلَةَ مَنْ مَلَكَ اليمن من الغُزّ إلى وقتنا هذا عشرة :

الملك المعظم توران بن أيوب ،

والملك العزيز — أخوه — سيف الإسلام طُغْتِكين بن أيوب ،

والملك المعز — ولده — إسماعيل ،

وسيف الدين الأتابك سنقر ، بحكم الأتابكية لولد سيده الملك الناصر أيوب ابن طُغتِكين ،

ثم الملك الناصر أيوب — بعده — ،

ثم الملك المعظم سليمان بن تقى الدين ،

ثم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل .

فهؤلاء سبعة : ستة منهم من بنى أيوب ، والسابع مملوكهم .

ثم جاءت الدولة السعيدة الرسولية — خلّد الله مُلكها [و] أيامها خلودَ النيِّرات —

[ص ٢ ب] فَمَلَكَ — بعد الملك المسعود — مولانا المَلكُ المنصورُ نورُ الدين أبو الفتح عمرُ بن على بن رسول — قدّس الله روحه — ،

ثم ولدُه مولانا ومالكنا المقامُ الأعظم السلطانُ الملكُ المظفرُ شمسُ الدنيا والدين أبو المنصور يوسف ،

ثم ولىَّ الأمرَ ولدَه مولانا المقامَ الأعظمَ السلطانَ الملكَ الأشرفَ أبا الفتح عمر ممهِّدَ الدنيا والدين ، إيثارا له بذلك إذ رآه له أهلا ، ولم يضنَّ به عليه أصلا ، فهما ملكا هذا الأوان[1] ، وبهما استقامة الزمان .

فلا بَرِحا فى نعمةٍ وسـعادةٍ　　تُبيدُ العدى طُرًّا ، وتقهرُ مَنْ عدا

والآن حين نبتدئ فى شرح السير لهؤلاء الملوك جميعا :

اعلم أن أولَ مَنْ مَلَكَ اليمنَ من الغُزِّ بنو أيوب ، ملوكُ الديار المصرية بالشام كلها ، [و] بديار البكر كافة والعواصم والسواحل ؛ وكان الجميع تحت حكمه غير منازَع فيها ولا مدَافع عليها ، وكانوا جماعةً ، وملكُهم يومئـذ القائمُ فيهم أولا الملكُ الناصر صلاح الدين [ص ١٣] يوسف بن أيوب بن شاذى ، أصغر أولاد أيوب سِنًّا ، وأكبرهم معنى .

وكان له من الإخوة جماعة ؛ منهم : الملك العادل سيف الدين أبو بكر — وهو الكبير فيهم جميعا — ، والملك المعظم شمس الدولة توران ، والملك العزيز سيف الإسلام ، وتقى الدين[2] ، وغيرهم ممن لم يشتهر شهرة هؤلاء ، ففرَّق لكل منهم بلدا ، خلا توران فإنه ندبه لليمن ، وجهَّزه بالعسكر الجم والمال الكثير ، وذلك على حين فترة فى اليمن من ملك مستقل فيها — وعرها وسهلها ، وعلوها وسفلها — ومالكٍ لدانيها وقاصيها ، وقائد لطائعها وعاصيها ؛ بل كانت مقسومة بين العرب .

---

(١) يفهم من هذا النص أن المؤلف كان يكتب كتابه هذا قبل سنة ٦٩٤ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها الملك المظفر يوسف ، واستقل بالحكم ابنه الملك الأشرف عمر . انظر : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ١٨٤) .

(٢) لاحظ أن تقى الدين عمر ليس أخا لصلاح الدين ، وإنما هو ابن أخيه شاهنشاه .

فكل موضع فيها [به][1] ملك مستقيم بذاته ، والأمر فيها كما قال الشاعر :

وتفرّقوا فِرَقاً ، فكلُّ قبيلةٍ فيها أميرُ المؤمنين ومِنْبرُ

فلما بلغه ذلك بادر بتجهيز أخيه الملك المعظم — على ماذكرنا — ، فوصل اليمن فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، فأولُ من لقيه من أهل اليمن الأمير قاسم بن غانم بن يحيي السليمانى ، من المخلاف [ص ٣ ب] السليمانى ، جاءه إلى حَرَض[2] ، من موضعه وكان يسمى محل أبى تراب ، وشكا عليه من عبد النبي بن مهدى ، وهو يومئذ صاحب التهائم والجبال ، من تَعِز إلى ذحر ، إلى سوى ذلك ، ما خلا عَدَن والدُّمْلُوَة وصنعاء ، فإنها كانت بأيدى أهلها الذين نورد ذكرهم — إن شاء الله تعالى — .

وكان عبد النبي قد غار إلى حَرَض ونهبها ، ونهب بلادها ، ونهب هذا المحل الذى للشريف ، وقتل أخاه ، وكان يقال له : «وهَّاس بن غانم» ، فسأل الأمير قاسم من الملك المعظم أن يكون أول دخوله اليمن إنجادا له على بنى مهدى ، فأجابه إلى ذلك ، ونهضا بالعساكر من حَرَض فى سلخ رمضان فى هذه السنة المذكورة ، فوصلا زبيد يوم السبت السابع من شوال عند طلوع الشمس ، فنهبوا جميع [ما] فيها — الأموال والخيل — ، وسبوا الحريم ، وقبضوا على عبد النبي وإخوته ؛ وعاد الأمير قاسم بن غانم إلى بلاده يوم الجمعة الثالث من الشهر .

وأقام الملك المعظم بزبيد إلى أن دخل شهر ذى القعدة ، ونهض لتَعِز فأخذه ولم ينازعه أحد ، وقاتل أهل [٤ أ] صَبِر[3] وذحر فلم ينل منهم ، ثم نهض للجَنَد فدخلها وملكها ؛ وكل هذه كانت من ممالك عبد النبي .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .

(٢) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بلد فى أوائل اليمن من جهة مكة .

(٣) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنه اسم الجبل الشامخ المطل على قلعة تعز ، فيه عدة حصون وقرى باليمن .

وسار إلى عدن فأخذها يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة ، ونهب مَنْ بها ؛ وفيها يومئذ من الأمراء أولادُ الداعى المكرَّم عمران بن محمد بن سبأ ، والشيخ ياسر بن بلال — مولاهم — ، فقبض عليهم جميعا، وعاد منها إلى مخلاف جعفر، فبايع فى التَّعْكُر[1]، وأخذه يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذى الحجة آخر سنة تسع وستين وخمسمائة .

ثم نهض إلى جَبَلة ، وقد صارت البلاد جميعها له ما خلا الدُّمْلُوه والبلاد العليا ، فطلع نقيل صيد يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذى الحجة ؛ وحطّ على ذَرْوان[2] يوم الثلاثاء، وفيه يومئذ السلطان عبد الله بن يحيى الجنبي، فصالحهم وبذل الطاعة ؛ ونهض إلى المصنعة ، وفيها يومئذ الشيخ محمد بن زيد البعدى الجنبي ، فأخذها منه ، ثم نهض إلى ذمار فاعترضه جنب من موضع يسمى رَخَمة فى شرقى ذمار يوم الخميس [٤ ب] التاسع من المحرم ، أول سنة سبعين وخمسمائة ، فقُتل من الغُزّ خمسة وستون رجلا ، فأُخذ خيلهم وسلاحهم ، ثم أقام فى ذمار ، ونهض منها فاعترضه جنب وغيرهم ، وجرى بينهم وبينهم قتال كانت الدائرة [فيه] على العرب ، فقُتِل منهم سبعمائة رجل ، ولحقتهم الغُزّ حتى أولجوهم حصن هرّان ، وأخذوا منهم قلائع كثيرة من خيل

ويقال إن الملك المعظم دمّر الغزّ فى ذلك اليوم وبكّتهم وحماهم على التورط فى الهلاك ، وقال لهم : "أين منكم ديار مصر ؟" .

وفى ذلك يقول الشركى شاعر ذمار :

وقالَ لقَوْمه: موتوا كِرَاماً، فأين وأين مصرٌ من ذمار؟

---

(١) ضبطت عن المرجع السابق ، حيث قال إنها قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جبلة .

(٢) ضبطت عن المرجع السابق ، وهو حصن باليمن قريب من صنعاء .

ثم سار من ذمار بعد استيلائه عليها طالبا صنعاء ، وسلطانها يومئـــذ السلطان علي بن حاتم[1] جدُّ الأمير بدر الدين محمد بن حاتم ، فوصل إليها يوم الجمعة منتصف النهار ، وهو اليوم السابع من المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وضرب محطته [١٥] بالجنوب فى صنعاء ، وقد تحيَّز السلطان على بن حاتم وأخوه بِشْر بن معهما إلى حصن براش ، وقد كانوا حين جاءت المحطة صادفوا ثمانية فرسان من هَمَدَان ، فشدُّوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة ونجا خمسة ، فطلعوا الحصن ، ثم إن المحطة أقامت فى الجنوب إلى يوم الاثنين ولم يصلهم أحد .

واختلفت الرواية من هنا ، فقيل : " دخلوا صنعاء ولم يلبثوا بها ثم ساروا " وقيل : " بل ساروا من المحطة ولم يدخلوا صنعاء " ، والله أعلم أى ذلك كان . إلا أن الإجماع على أن الملك المعظم لم يكن له إقامة فى الجهات الصنعانيـــة ، ولم يصله أحد من أهلها ، فنزل طريقا بها ، وأخلا على نقيل السود (كذا) ، وهو بين بلاد بنى شهاب وبلاد سنحان ، مطل على حقل سنحان وسهام ، فلحقهم قوم من بنى شهاب ، وقوم سنحان رموهم ، وأخذوا من أخذ عسكرهم .

ولما علم السلطان على بن حاتم بارتحال الغُزّ نزل من براش وعاد إلى صنعاء ، فأول ما بدأ به حين عاد أنه [٥ ب] خرَّب الدرب الذى للمدينة ، وقد كان بدأ فيـــه قبل وصول الغُزّ ، ثم حال بينه وبين تمامه وصولُهم ، فلما ساروا حاذر عودتهم فتمم الخراب .

وأما ما كان [من] الملك المعظم بعد ارتحاله عن صنعاء ، فإنه اعترض العسكر فى النزول أهل برَع ، فأخذوا من آخرهم جمالا كثيرة محملة أموالا جمة من الذهب والفضة والسلاح والآلة ، وكثيرا مما استصحبوه من البـــلاد المصرية وعدن وزبيد يوم الاستيلاء عليها .

---

(١) لاحظ أن هذا جد مؤلف الكتاب

ثم حاء زبيد، فأقام بها إلى شهر جمادى الأولى فى هذه السنة، ثم نهض منهـا طالباً للجنـد ، ووصل إليه والى حصن صبر الذى كان دائناً لعبد النبي واستذم وسلَّم الحصن .

ثم أخذ حصن مادية وشرباق ، وحط على عزان ذخر⁽¹⁾ . وفيـه يومئذ على بن حجاج من أهل تهامة متوليه، وكان صهرا لعبدالنبي، فخاطب الغُز وطلب الصلح ، فوعدوه أنهم يأخذون منه ما كان فى الحصن من المـال لعبـد النبي ويتركون سبيله ، فاستحلفوه على ما عنده من المـال لعبـد النبي ، فأقرَّ بعشرة [١٦] آلاف دينار ذهب ، فقبضوها منه ، وسلَّم لهم الحصن وتسلموه .

ثم تقدموا إلى المعافر فخاربوا حصن يمين ، وفيه الأمير منصور بن محمد بن سبأ ، فأخذ الحصن قهرا، وذلك بتخاذل الدانون والرتبة (كذا) هربوا من الحصن ثم تسلموا منيف ، وكان لأبى الغيث بن سامر ، ثم تسلموا حصن السمدان من النائب الذى كان به ، ولم يعترضوا الحصن السواء، وصاحبه يومئذ ابن السبأى، بل أبقوه على حاله ، ثم حطُّوا على الدُّمْلُوة ، وفيها ولد الداعى المكرم عمـران بن محمد بن سبأ ، ووالبهما بها جوهر المعرانى، ورموا بالمنجنيقات فلم تبلغ إلا الحر ، فلم يكن لهم بها طمع ، فصالحوا جوهرا على قطعة هيـنة من المعشار الذى تحت الدُّمْلُوَة ، وعادوا وتقدموا إلى ذى جبلة ، فأقاموا بهـا إلى رابع شعبان من هذه السنة .

وبلغ الملك المعظم فى خلال هذه الأمور وقوع خلاف فى تهامة ، فأمر بقتل عبد النبي وأخويه : أحمد ويحيى، فقتلوا فى زبيد يوم الثلاثاء السابع من رجب من هذه السنة .

ثم إن الملك المعظم أقام فى البلاد حتى دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وطلب العـودة إلى الديار المصرية ، فنهض من اليمن فى شهر [٦ ب] رجب

(1) كذا بالأصل بدون نقط أو ضبط .

من السنة بعد أن قتل ياسر بن بلال — مولى الدعاة بنى زُرَيْع — الذى قدمنا ذكره ، وقبضه فى عدن مع مواليه .

واستناب فى البلاد نوابا ، فجعل فى عدن وأعمالها عثمان السنجارى ، أو الزنجارى ، وفى تَعِز والجَنَد وأعمالها ياقوت التَعِزى ، وفى حصن التَعْكُر وذى جبلة وغلاف جعفر مظفر الدين قايماز ، وفى مدينة زبيد وأعمالها ، وجميع تهامة سيف الدولة المبارك بن منقذ ، وكان من حمدان ، وكان رجلا فصيحا شاعرا ، فمن جملة شعره :-

و إذا أراد اللهُ شَرًّا بامرىءٍ ، وأراد أن يحييه غَيْرَ سَعيد
أغراه بالترحالِ عن مصرَ بلا سببٍ ، وسكّنه بأرضِ زَبيدِ

(٦)

قطعة من خطاب بقلم القاضي الفاضل ، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد ، يعدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية ، وآخرُها قَطْعُ الخطبة للخليفة العاضد ، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسي ، ويطلب إرسال التشريفات

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٥)

" كتب الخادمُ هذه الخدمة من مستقره ودينُ الولاء مشروع ، وعلمُ الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع ، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما ، وصارت البلادُ بل الدنيا، والشهرُ بل الدهر، حَرَما حراما ، فأضحى الدينُ واحدا بعد ما كان أديانا؛ والخلافةَ إذا ذكر بها أهلُ الخلاف لم يخروا عليها إلا صما وعميانا، والبدعةُ خاشعة، والجمعة جامعة ، والمذلة في شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم ، ووعظ آيبُهم غابرَهم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم ، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سيرإليهم بنائم .

ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يشكر مانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ مااقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه

ومن نزح . وتأتيه التشريفات تشريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتزكى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده ، وتبدو فوائده ، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها ، وجرّد سيفه لرفع منارها ، والقيام بأمرها ، وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطاب النجعة من سحابها ، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ماطفاته ، وتجهيز تشريفاته ، خطيبَ الخطباء بمصر ، وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من برّ ، واستفتح بلباس السواد الأعظم الذى جمع الله عليه السواد الأعظم ، آملا أنه يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف فى عقبه" .

---

(٧)

نسخة بشارة بانتهاء الدولة الفاطمية فى مصر ، والخطبة للخليفة العباسى ، حملها عن نور الدين ، شهابُ الدين أبو المعالى المطهَّر بن أبى عصرون لُتقرأ فى كل مدينة يمر بها فى طريقه إلى بغداد

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٧ — ١٩٨) .

” أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح اللهُ على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية ، والإسكندرية ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف الدانية والقاصية ، والبادية والحاضرة ، وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التى مضت من قبله ، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا فى إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار فى الأزل بقضاء آرائنا وبتنجيز مواعدنا قاضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها ، وطالما مرت عليها الحقب [١٩٨] الخوالى وآبت دونها الأيام والليالى ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوة بدعوة المبطلين ، مملوة بحزب الشياطين ، سابغة ظلالها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحال ، مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها فى أشكائها ، متظلمة إليه ليكفل بأعدائها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج ، ولعلتها بالعلاج ، وسبب قصد الفرنج لها وتوجههم إليها ، طمعا فى الاستيلاء عليها ، واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكَّن لنا فى الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض ، وتقدمنا إلى من استنباه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح باب مالنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعيا ودعاة الإلحاد بها المهالك “ .

(٨)

نسخة سجل أصدره صلاح الدين بعيد وفاة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية بإسقاط المكوس فى مصر

قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة ثالث صفر سنة ٥٦٧هـ

عن : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٥)

"أما بعد ، فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكّن لنا فى الأرض ، وحسّنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده ، واختارنا له من الجهاد فى الله حقّ جهاده ، وزهدنا فيه من قناع الدنيا القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل ، وأولانا من سجاحة السماحة ، فيوماً نَهَبُ ما اشتملت عليه الدواوين ، ويوما نُقْطِع ما سقاه النيل ، فالبشائر فى أيامنا تترى ، شفعا ووترا ، والمَسَارُّ كنظام الجوهر تتبع الواحدةَ منها الأخرى ، والمسامحاتُ قد ملأت المسامعَ والمطامع ، وأسخطت الخيمة والصنايع ، وأرضت المنبر والجامع .

ولما تقلدنا أمورَ الرعية ، رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا فى الدنيا إلى أن تكون لنا فى الآخرة ، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة ، ونطهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها مطالبنا ، ونكفى الرعيــة ضرهم الذى يتوجه إليهم ، ونضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها من بعد يدُ حاسب ، ولاقلمُ كاتب ، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى ، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولايغضى ، وخرج أمرنا بكتب هـذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب

عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برا وبحر ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ، لا يحل ماشدّه ، ولايحاول ماعنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه .

والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين : مائة ألف دينار مسامحة ، لا يشوبها تأويل ، ولا يتخونها تحويل ، ولا يعتريهازوال ، ولا يعتورها انتقال ، دائمة بدوام الكلمة ، قائمة ما قام دين القيّمة ، من عارضها رُدّت أحكامه ، ومن ناقضها نُقض زمامه ، ومن أزالها زلت قدمُه ، ومن أحالها حَلّ دمُه ، ومن تعقبها خُلّدت اللعنةُ فيه وفى عقبه ، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيمُ الذى هو من حطبه .

فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاة الأمر ، من صاحب سيف وقلم ، ومشارف أو ناظر ، فليمتثل ما مثل من الأمر ، وليمضه على ممر الدهر ، مرضيا لربه ، ممضيا لما أمر به " .

(٩)

قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل ، أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، يشرح له فيها القصد من خروجه لمهاجمة حصني الكرك والشوبك في أوائل سنة ٥٦٨ هـ

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦)

« سبب هـذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعزّ اللهُ سلطانه ، ومدّ أبدا إحسانه ، ومكّن بالنصر إمكانه ، وشيّد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان أعوانه ، عِلْمُ المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ، ويفلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرّب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة على مايرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العربان ، وأن ينتقلوا من ذلّ الكفر إلى عِزّ الإيمان ، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعدّه من أعظم أسباب الجهاد ، ترحيلُ كثير من أنفارهم ، والحرصُ في تبديل دارهم ، إلى أن صار العدوُ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ، ولا يستطيع حيلةً ، ولا يهتدي سبيلا .

(١٠)

رسالة بقلم القاضى الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها المؤامرة التى كان يدبرها رجال الدولة الفاطمية والصليبيون ، والتى اشترك فيها الشاعر عمارة اليمنى ، لقلب نظام الحكم وإعادة الدولة الفاطمية

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٢)

" قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كلـه ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة ، إلا أنها أسفرت عن النُجْح ، وأوائل كالليلة البهيمة ، إلا أنها انفرجت عن الصبح ، فالإسلام ببركاته البادية ، وفتكاته الماضية ، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان الكفر يتم عليه تخيلا عجيبا ، إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوله ، وأظهر على سرها من مستقبله ، والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر :

لم يزل يتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال الله من بدعتهم ، ونقض من عُرى دولتهم ، وخفّض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن تعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لا يحتقر منهم حقيرا ، ولا يستبعد منهم شرا كبيرا ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراته فى التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكر ، من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ، ومكيدة يتممونها ، وكان أكثر ما يتعللون به ، ويستريحون إليه ، المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة ، إلى الفرنج خذلهم الله ، التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها

على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله (٢٢١) قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم ، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار فى مراسلتهم، والتحيل فى مفاوضتهم ، سيَّر "جُرج" — كاتبه — رسولا إلينا ظاهرا ، وإليهم باطنا ، عارضا علينا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقدا معهم القبيح الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا ، ولأهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسلٌ تتردد ، وكتبٌ إلى الفرنج تتجدد .

ثم قال :

والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقابا مؤلما ، ولا يعذبوا عذابا محكما ، وإذا طال لهم الاعتقال ، ولم ينجع السؤال ، أطلق سراحهم ، وخلى سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ، ولا الرقة عليهم إلا قساوة، وعند وصول "جرج" فى هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة ، لا رسول مجاملة ، وحامل بليَّة لا حامل هديَّة ، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه ، فتوصل مرة بالخروج ليلا ، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه ، وبأمراء المصريين وأسبابهم ، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم ، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم ، فصار ينقل إلينا أخبارهم ، ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال ، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى ، وقبضنا على جماعة مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المنافقة ، فكلا أخذ الله بذنبه ، فمنهم من أقرَّ طائعا عند إحضاره ، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه ، فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة ، ونُوَبٌ غير التى كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة فى المراد ، متفقة فى الفساد " .

ثم ذكر تفصيلا حاصله : أنهم عيّنوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك ، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد و إن كان صغيرا ، واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له ، وأما بنو رُزّيك وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم ، من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة .

ثم قال :

" و كانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم ، وقالوا لهم إنه بعيد ، والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى صَدْر أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر ، وكافة الجند ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية ، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة " .

ثم قال :

" ولما وصل "جُرْج" كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحى إقطاعاتهم ، وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق فى القاهرة إلا بعضهم ، وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده ، و بقى فى البلد وحده ، ففعلنا ماتقدم ذكره من الثورة " .

ثم قال :

" وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سِنانا — صاحب الحشيشية — بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأن مابين أهلها خلاف إلا فيما لايفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيلة ، أو يُبَيِّت له مكيدة وحيلة ، والله من ورائهم محيط ، وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج .

ولما صَحّ الخبرُ ، وكان حكم الله أولى ما أخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل الشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغوات والغلاة ، الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من التجّار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لأتباعهم ، وشُردت طائفة الإسماعيلية ونفوا ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد ، وحاشية القصر ، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد .

فأما مَنْ فى القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى بينهم ، ولا رأى فوق رأى المولى ، والله سبحانه المستخار ، وهو المستشار ، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديده ، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها ، فإنه حبالة للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوبة .

ومما يطرف المولى به أن ثغر الاسكندرية — على عموم مذهب السنة فيه — أطلع البحثُ أنَّ فيه داعيةً خبيثا أمرُه ، محتقرا شخصُه ، عظيما كفرُه ، يسمى قديد القفّاص ، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية ، قد فشت فى الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءا من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهن ، ووجدت فى منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتبا مجردة ، فيها خَلْعُ العذار ، وصريحُ الكفر الذى ماعنه اعتذار ، ورقاع يُخاطَب بها ، فيها ما تقشعر منه الجلود . وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحاق به مكره ، (٢٢٢) وصرعه كفره » .

(١١)

قطعة من رسالة بقلم العماد الأصفهانى ، مرسلة من الملك الصالح إسماعيل إلى صلاح الدين، ينبئه بوفاة والده نور الدين و يعزيه فيه
عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠)

” ورد خبر من جانب العدو اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوبَ والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت وأعوز الصبر، فإن كان — فالحوادث والعياذ بالله — قد تم ، وخصه الحكم الذى عم، فالحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال ، وما رتَّب الملوكُ ممالكها إلا لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدى حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدى، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التى تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها ، فكونوا يدا واحدة ، وأعضادا متساعدة، وقلوبا يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد ، ولاتختلفوا فتنكلوا ، ولاتنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لانخذله ، وقائم لانسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولَدَه القائمُ بالأمر، وسعدُ الدين كمشتكين الأتابكُ بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ، والطاعة فى الغيبة والحضور أُديت وفعلت، و إلا فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسيف على من عاداه ، و إن أسفر الخبر عنه عن معافاه ، فهو الغرض المطلوب والنذر الذى يحل على الأيدى والقلوب “ .

(١٢)

قطعة من رسالة بقلم القاضى الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل للتعزية فى وفاة والده نور الدين

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٠).

"وأما العدو — خذله الله — فوراءه من الخادم مَنْ يطلبه طَلَبَ ليل لنهاره ، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجاثمه ، و يستوقفه عن مواقف مغانمه ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم [٢٣١] وأيسر لوازمه .

أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم ، والجمع الذى لا لغوٌ فيه ولا تأثيم ، وأشبه يومُ الخادم أمسَه فى الخدمة ، ووفى مالزمه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الإسلام عالما أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد مُلْكَ المولى الملك الصالح و يصلح به وعلى يديه ، و يؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه ، و يوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، و ييسر منال كل أمر صالح ، وتقريب بعيده إن شاء الله " .

(١٣)

قطعة من رسالة بقلم القاضى الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل للسؤال عن صحة والده نور الدين، بعد أن أشاع الفرنج خبر موته ، ولم يكن صلاح الدين قد تأكد عنده هذا الخبر بعد .

عن : (الروضتين، ج ١ ، ص ٢٣٠)

"أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظَّم أجرَنا وأجرَه فى والدنا الملك العادل، ندب الشامُ بل الإسلام حافظَ ثغوره ، وملاحَظ أموره ، ومقدام الجهاد ، مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحيى سنته ، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره ، على أنه يعز أن يرى الزمانُ نظيرَه ، وما هاهنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج خذلهم الله ، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه ، وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النوائب ، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب ، وأملّه ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكّنه قوة لعضده ، فما — فُقد رحمه الله — إلا صورة والمعنى باق ، والله تعالى حافظ لبيته واق ، وهل غيره دام سموه من مؤازر ، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر ، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح ، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنى فى إحياء ذكر الوالد ، بتجديد ذكرنا ، راغبا فى اغتنام ثنائنا وشكرنا" .

(١٤)

رسالة مرسلة من صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام ينبئه بخبر وصول الأسطول من صقلية لمهاجمة مدينة الاسكندرية فى يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ ، وكيف انتهى الأمر بفشله فى أول المحرم سنة ٥٧٠

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥)

" إنَّ أولَ الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربية ، وهدد به فى الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد فى الثغر من وفور عدته وكثرة عدته ، وعظيم الهمة به ، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر واشتد به الأمر ، فحمى أهل الثغر عليهم البر ، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب ، فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شينى ، فى كل شينى مائة وخمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة ، وصناع المراكب ، وأبراج الزحف ، ودباباته ، والمنجنيقية ، ما تمم خمسين ألف رجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور ، وفُقد من أهل (٢٣٥) الثغر فى وقت الحملة ما يناهز

سبعة أنفس ، واستشهد محمود بن البصار وبسهم جرح، وجذفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة، ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها ، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر ، وكان عدتهم ثلثمائة خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا، وحاصروا ، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها ، وعِظَم حجرها، وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها، واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور ، ولجُّوا فى القتال عامة النهار المذكور .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر ، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين : اسكندرية ودمياط، احترازا عليها واحتياطا فى أمرها، وخوفا من مخالفة العدو إليها، واستمر القتال، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات ، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أمَاجَ البحر، وأهاج الدور، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبوابا قبالتها من السور، ويتركوها معلقة بالقشور ، ثم فتحوا الأبواب ، وتكاثر صاح أهل الثغر من كل الجهات ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وصدقوا عندها من القتال ، وأنزل الله على المسلمين النصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر .

واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء ، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم ، وأُحرقت آلات قتالهم ، واستحر القتل والجراح فى رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ ما به قيام الحياة ، وهم على نية المباكرة ، والعدو على نية الهرب والمبادرة .

ثم كرّ المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام ، فهاجموهم فى الخيام ، فتسلموها بما فيها ، وفتكوا فى الرجالة أعظم فتك وتسلموا الخيالة ، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه ، ورمى فى البحر نفسه ، وتقحم أصحابنا فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها ، فولّت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة ، وبقى العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق ، واحتمى ثلثمائة فارس منهم فى رأس تل ، فأُخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا ، وأُخذ من المتاع والآلات والأسلحة مالا يُملك مثله ، وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس ".

---

(١٥)

رسالة بقلم القاضى الفاضل أرسلها صلاح الدين وهو بالقرب من حماة فى طريقه إلى حلب لمحاربة قواد نور الدين، إلى الديوان العزيز ببغداد، يعدد فيها فتوحه وانتصاراته فى مصر واليمن والمغرب، ويسأل الخليفة أن يرسل إليه التقاليد بتوليته على هذه البلاد، وعلى ما قد يفتحه فى المستقبل من بلاد أخرى .

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣)

" فإذا قضى التسليمُ حق اللقاء ، واستدعى الإخلاصُ جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثا يفترى ، وجوارى أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر منه ما قد جرى ، وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا ، وليوضح الأحوال المستسرة ، فإن الله لا يُعبد سرا :

ومن الغرائب أن تسير غرائب في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى ، والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ، ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولا بد أن تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى تُردُّ به الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب ، وما كان العائق إلا أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهى ابتداءنا بالخدمة ، وإنجابا للحق يشاكل إنجابنا للسبق ، كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا فى أى مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف

للإسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنا نصطلى الجمرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبية ، إلى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير ، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامة كل من قام وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة ، فإنها مقموعة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة ، فإنها متحاماة ، وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم ، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غرّه تقلب الذين كفروا فى البلاد ، فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ، ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها .

فسرنا إليها فى عساكر ضخمة ، وجموع جمة ، وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا ، فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب ، وكان فى تقدير الله أنا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة فى هدنة عظم خطبها وخبطها ، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطها ، فكاتبنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام فى هذا الأوان ، بأنا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد ، فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء والأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا فى القلوب ودان : الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم وإقالة عثارهم ،

نفعل الله ما هو أهله ، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله ، وضاقت به سبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها و بلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلا ، وأن يستنقذ ما صار فى ملكهم داخلا .

ووصلنا البلاد و بها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدرُ منهم على حرب الكفر ، و الحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر، وبها راجل من السودان يزيدعلى مائة ألف كلهم أغتام أعجام ، إن هم إلا كالأنعام ، لا يعرفون ربًّا إلا ساكنَ قصره ، ولا قبلةً إلا [٢٤٢] ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحمة وحمية ، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف فى الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير .

هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سُمى بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه .

فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير ، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير .

وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط ، وفى كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصا فى نوبة دمياط ، فإنهم نازلوها بحرا فى ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا فى مائتى

ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها ويصابحونها القتال الذى يصلبه الصليب ، والقراع الذى ينادى به الموت من مكان قريب ، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا فى تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم ، وتارة بالأمور الفاضحة منهم ، وطورا بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقى القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته ، وخفيت ضلالته .

فهنالك تمّ لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته .

ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا ، نظرنا فى الغزوات إلى بلاد الكفار فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، إلى أن أوسعناهم قتلا وأسرا ، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة ، كان العدو قد بناها فى بحر الهند ، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم فسباء منه خلقا ، وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة ، وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد" .

ثم قال :

"وكان باليمن ما عُلم من أمر ابن مهدى الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار فى الإسلام وثار ، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس ، ودان ببدعه ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها ، وأحلّ الفروج المحرمة وأباحها ، فأنهضنا اليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ولله الحمد ، وأنجز الله فيه القصد ، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، وإلى ما يفتضّ الإسلام عذرته متمادية .

ولنا فى الغرب أثر أغرب ، وفى أعماله أعمال دون مطلبها مهالك ، كما يكون المهلك دون المطلب ، وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أُمّر ، وملكهم قد عُمّر ، وجيوشهم لاتطاق ، وأمرهم لايشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكرا بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : برقة ، قفصة ، قسطيلية ، توزر ، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولا عهد للإسلام بإقامتها وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها .

وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار ، مقداره سبعون راكبا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا ، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت الينا مقاليدها ، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضية .

فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكفر ، وصاحب [٢٤٣] المملكة التى أكلت على الدهر وشربت ، وقائم

النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرة وسرية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين، كل واحد منهما يظهر فيه خَفْضَ الجناح، والقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى أنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها، وعساكره التى لم يخف أمرها.

ومن هؤلاء الكفار: هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة، فعمَّر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدته، وتنتخب عدته، إلى أن وصل منها فى السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله، وجيش ما احتفل ملكٌ قطُّ بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش: البنادقه والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا فى تلك السنة على نية الغزاة، والعساكر قد تجهزت، والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مُدَّ وأُيد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت الينا الأخبار بما المملكة النورية

عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعا يتخوفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد الذين خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للعقود ، فى المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم لظهره سندا .

وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجرد العزم فى قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود دائمة ، وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء فى خدمته وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسى كل ماتطبقه العهاد ، وهو : تقليدٌ جامعٌ بمصر ، واليمن ، والمغرب ، والشام ، وكلما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليدا للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا ، مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك .

وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا ، وإذا شَدَّ رأيَنا حُسْنُ الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيرا من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده " .

(١٦)

قِطَع من رسائل بقلم القاضى الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد فى تعداد ماله من الأيادى على الخلافة العباسية ، وخاصة إعادة الخطبة لها فى مصر واليمن والمغرب.

عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤)

"والذى أجراه الله على يد المملوك من الممالك التى دوّخها ، وسنن الضلال التى نسخها ، وعقود الإلحاد التى فسخها ، ومنابر الباطل التى رحضها ، وحجج الزندقة التى دحضها ، فلله عليه المنة فيه إذ أهلّه لشرف مشهده ، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالى والأيام على تلك الأمور وماتحركت للفلك فى قلعها نابضة ، وغيرت الأحوال على تلك البدعة، وما ثارت لأفراسها رابضة، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده [٢٤٤] منها أن يجتهد فى أخرى مثلها فى الكفار وقد عاد الإسلام إلى وطنه ، وصوحت من الكفر خضراء دمنه".

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه :

"حتى أتى الدنيا ابنُ بجدتها، فقضى من الأمر ماقضى، وأسخط من الله فى سخطه رضى ، وجعل وجه لابسى السواد مبيضا ، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ، ودوخت عليه الأمم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور ، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور".

ومن كتاب آخر :

” قد بورك للخادم فى الطاعة التى لبس الأولياء شعارها ، وأمضى فى الأعداء شفارها ، وجمع عليها الدين وكان أديانا ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا “ .

ومن كتاب آخر :

” لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين — رحمه الله — فى أن يتجاذبا طرف الغزاة من مصر والشام ، المملوك بعسكرى بره وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره ، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات ، وضاعت ثغور ، وتحكمت الآراء الفاسدة ، وفورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محولة إليها جزى المسلمين ، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد ، يشكون ضيق حلقات الأسار ، وتطرق الكفار بالبناء فى الحدود الإسلامية ، ولاخفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية فى الأقطار وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل وصور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين ، وقالوا إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لايستدرك فارطه ، وأن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك وماوراء البحر ، وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم ، قد تأهبوا بالعمائر البحرية ، والأساطيل القوية ، وللإسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر ، لاسيما وهم ينصرون باطلا ، وهو ينصر حقا ، وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا “ .

(١٧)

خطاب بقلم القاضى الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة الموحدى بالمغرب ، فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، يستجيشه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ — ٥٣٠)

فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ، أبواب الميامن ، وأسباب المحاسن ، وأحله من كفايته فى الحرم الآمن ، وأنجزه من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كلّ رأى عليه الهوى رائن ، ومكّن له فى هذه البسيطة بسطة ، وزاده بالعلم غبطة ، حتى يكون للأنبياء بالعلم وللأرض بالعزم وارثا ، وحتى يشيد بحادث قديما من مجده الذى لا يزال بغض الحديث حادثا .

كان من أوائل عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ، وأن نتيمن بمكاتبتها ، ونتزين بمخاطبتها ، ونتهض إليها أماثل الأصحاب ونستسق معرفتها استسقاء السحاب ، ونتنجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسلها ، وأيدى الرسل سبلها ، ونمسك طرفا من حبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح غرة سبق وارثها ووارث نورها سلفه ، ونتجاذب أعداء الله من الجانبين ، لا سيما بعد أن نبنا عنه نيابتين فى نوبتين : فالأولى تطهير الأرضين المصرية واليمنية من ضلالة أغضت عيون الأيام على قذاها ، وأنامت عيون الأنام بائعة يقظتها بكراها ، ونيابة ثانية فى تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برِجْسِه تقديسَه ، ويزعم ببناء ضلاله تأسيسه ، وما كان إلا جنة إسلام نخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة ، وأعقبهم فيها إبليس الكفر

وما أجارته مما أعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنة .

ولما حُطَّت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ؛ وأخرس الناقوسَ الآذانُ ، ونسخ الإنجيلَ القرءانُ ؛ وفُكَّتْ الصخرةُ من أسرها ، وخفَّ ما كان على قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ؛ وبذلك أن يدَ الكفرِ غطتها وغمرتها .

فلله الحمد أن أحرمت الصخرةُ بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ماطر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ، فهنالك غُلب الشركُ وانقلب صاغرا ، واستجاش كافرٌ من أهله كافرا ؛ واستغضب أنفاره النافرة ، واستصرخ نصرانيته المتناصرة ، وتظاهروا علينا وإن الله مولانا ، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا ، فلم يبق طاغية من طواغيهم ، ولا أثفية من أثافيهم ؛ إلا ألجم وأسرج ، وأجلب وأرهج ، وخُرِّجَ وأخرج ، وجاد بنفسه أو بولده ، وبعدده وبعدده ، وبذات صدره وبذات يده ، وبكتائبه برا ، وبمراكبه بحرا ؛ وبالأقوات للخيل والرجال ، والأسلحة والجنن لليمين والشمال ؛ وبالنقدين على اختلاف صنفيهما فى الجمع ، وائتلاف وصفيهما فى النفع ؛ وأنهض أبطال الباطل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل ، وحاف وناعل ؛ ومواقف ومقاتل ؛ كلٌّ خرج متطوعا ، وأهطع مسرعا ، وأتى متبرعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستدعى وسعى إلى حتفها قبل أن يستسعى ؛ حتى ظننا [أن] فى البحر طريقا يبسا ؛ وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ؛ وقلنا : كيف نترك ، وقد علم أنه يدرك ؟ وزادت هذه الحشود المتوافية ، وتجافت عنها الهمم المتجافية ، وكثرت إلى أن خرجت من سجن حصرها ، ومستقر كفرها ، وبقية ثغرها — وهو صور — ، فنازلت ثغر عكا فى أسطول ملك بحره ، وجمع سلك بره ، فنهضنا ، إليه ونزلنا عليهم وعليه ؛ فضرب معنا مصاف قتلت فيه فرسانه ، وجدلت

شجعانه ، وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم ، وبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، فهنالك لاذوا بالخنادق يحفرونها ، وإلى الستائر ينصبونها ، وأخلدوا إلى الأرض متثاقلين ، وحملوا أنفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراحوا بين المجانق ، وكلما يجن القتل من عددهم مائة أوصلها البحر ممن يصل وراءه بألف، وكلما قلُّوا فى أعيننا فى زحف ، قد كثروا فيما يليه من الزحف ؛ ولو أن دربة عسا كرنا فى البحر كدربتها فى البر ، لعجَّل الله منهم الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف ؛ وقد اشتهر خروج ملوك الكفار فى الجمع الجم ، والعدد الدهم ، كأنهم إلى نصب يوفضون، وعلى نار يعرضون، ووصولهم على جهة القسطنطينية — يسَّر الله فتحها — على عزم الائتمام إلى الشام فى منسلخ الشتاء ومستهل الصيف ، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل ، وإلى حربهم تنتقل ، فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها ، ويفرغ لها ويتسلط عليها ، والله من ورائهم محيط ، وإذا قسمت القوة على تلقى القادم وتوقى المقيم ، فربما أضرَّ بالإسلام انقسامها ، وثلمه والعياذ بالله انثلامها .

ولما مخض النظر زبده ، وأعطى الرأى حقيقة ما عنده ، لم نر لمكاثرة البحر إلا بحرا من أساطيله المنصورة فإن عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه — أدام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بمد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغية صقلية ليحُصَّ جناحَ قلوعه أن تطير ، ويعقِل عُباب بحره أن يُغير ، ويعتقله فى جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريرته ؛ فيذهبَ سيدُنا وعقبُه بشرف ذكرٍ لا تُردَّ به المحامدُ على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامةً يُطلعُ بها شمسَ النصر من مغربها ؛ فإذا نفذ طريقُه وعلِم الناسُ بموفِدِه، أوردوا وأصدروا فى مورده، وشخص المسلمُ والكافرُ : هذا ينتظر بشرى البِدار ، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار ، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار

ولو برقت عليهم بارقةٌ غربية لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جاريةٌ بحرية لنعقت فيهم بالشتات غربانها .

وما رأينا أهلا لهذه العزمة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه ، إذ كان منحه عادة فى الرضى به وقدرة علي الإجابه ، ورغبة فى الإنابه ، ولاية لأمر المسلمين ، ورياسة للدنيا والدين ، وقياما لسلطان التوحيد القائم بالموحّدين ، وغضبا لله ولدينه ، وبذلا لمذخوره فى الذبّ عنه دون ما عوده .

والآن فقد خلا الإسلام بملائكته ، لما خلا الكفر بشياطينه ، وما أجلت السوابق إلا لإطلاقها ، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها ، وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار ، وليالى من المراكب تركب من البحر النهار ، وإذا خفقت قلوعها خفقت للقلاع قلوب ، وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب ؛ فهى بين ثغر كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر إسلام تفرج عنه وتنصره ، يكون بها مصائب عند المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد ، ويمضى سيف الله الذى لا يعدم فى كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد .

أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ، فيما مد عليها من ظلها ، وبما يسكنه من حرزها ، فيما يبسط على الأعداء بها من بأسها ، وينزل بهم من رجزها ، وبما يجرده من سيوفها ، التى تقطع فى الكفر قبل سلها وهزها .

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعى المسمع ، والمبلغ المقنع ، والمجمع المستجمع ؛ علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصدر فكان وجها ، وأودعناه السرّ فكان صدرا .

(١٨)

خطاب بقلم القاضى الفاضل ، من صلاح الدين إلى سيف الدولة ابن منقذ — رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن — يستنجد به ، ويطلب منه المعاونة بإرسال قطع من أسطوله ، أثناء حصار الفرنج لعكا ؛ وتاريخ الخطاب ٢٨ شعبان سنة ٥٨٦ هـ .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٠ — ١٧١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الأجل ، الاسفهسلار ، الأصيل ، العالم ، المحترم ، شمس الدين ، عُدّة الإسلام ، جمال الأنام ، تاج الدولة ، أمين الملة ، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص ، أدام الله توفيقه ، ويسّر طريقه ، وأنجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، وأسعد يومه وغده .

يستخير الله سبحانه ، ويتوجه — كيفما يسّر الله — إلى الجهة الاسلامية المغربية ، — حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها — ويستقرى فى الطريق وفى البلاد من أخبار القوم فى أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ، وما يحبونه من القول : نزره أو جمّه ، ومن اللقاء : منبسطه أو منقبضه ، ومن القعود بمجالسهم : مخففه أو مطوله ، ومن التحيات المتهاداة بينهم : ما صيغته وما موقعه ، وهل هى السنن الدينية أو العوائد الملوكية ، ولا يلقه إلا بما يحبه ، ولا يخاطبه إلا بما يسره .

والكتاب قد نفذ إليه ولم يُختم ليعلم ما خوطب به ، والمقصود : أن تقصّ القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما أزلنا من البدع بها ، وعطلنا من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا التى تواصلت إلى بلاد الكفار من مصر ، فكانت مقدّمة لمُلْك الشام الإسلامى

باجتماع الكلمة علينا، ومقدّمة لمُلْكِ الشام الفرنجى بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا؛ وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التى جُسنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق فى علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى، وفتح البيت المقدس، وتلك على الإسلام منة الله العظمى، إلى غير ذلك من أخذ الثغور، وافتتاح البلاد و إثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب، وخروج نجداتهم وكثرتها، وقوتها ومنعتها، وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضى يوم إلا عن قوة تتجدد، وميرة تصل، وأموال واسعة تخرج، ومعونات كثيرة تحمل، وأن ثغرنا حصره العدو، وحصرنا نحن العدو، فما تمكّن من قتال الثغر، ولا تمكّن من قتالنا، وخندق على نفسه عدة خنادق، فما تمكنا من قتاله، وقدّم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرتين إلى عسكرنا فكسر العدو أقله، فإنه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأُهَبُ فيها مأخوذة، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله العدو القتل الذريع، وأوقع به الفتك الشنيع، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها فى مضاجعها، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور، ولو أبرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور المكسور.

وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات، وإحراقها لمراكبهم وهى الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأظهر، وأن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخَطْبه قد تمادى ونجدته تتواصل، ومنها مَلِكُ الألمان فى جموع جماهيرها مجهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة، وأن عساكرنا لو أدركته لما استدرك، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك.

وتذكر أنَّ الله قَصَم طاغيةَ الألمان وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق ، فى نهر الدنيا الذى هو طريقه إلى الإحراق فى نار الآخرة، وأن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع والحصر ، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التى بها النصر .

فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربى ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال فى اللقاء فارهة ، وللسير غير كارهة ، فالبدار البدار ، وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار .

وإن كانت دون الأسطول موانع : إما من قلة عدة ، أو من شغل هنالك بمهمة ، أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ، أو قد لاحت منه الفرصة ؛ فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمـال .

وما رأينا أهلا لخطا بنا ، ولا كفؤا لإنجادنا ، ولا محقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا ، إلا ذلك الجناب ، فلم نَدْعُهُ إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد فى الغرب نارها ، ويستطير فى الشرق سناها ، وتغرس فى العدوة القصوى شجرتها ، فينال مَنْ فى العدوة الدنيا جناها ، فلا ترضى همته أن يعين الكُفْرُ الكُفرَ ، ولا يعينُ الإسلامُ الإسلامَ ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جارُه ، والجارُ أقدرُ على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحريّة ، ولا غرو أن يجيش البحار البحار .

وإن سئل عن المملوكين : يوزبا وقراقوش ، وذكر ما فعلا فى أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال ، الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء ، ولا من المعدودين فى الطواشية والأولياء ، وإنما كسدت سوقُهما ، وتبعتهما ألفاف أمثالها ، والعادة جارية أن

العساكر إذا طالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف إليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هـذا المملوك من إذا غاب أُحضر ، ولا ممن إذا فقد أُفتقد ، ولا يُقَدَّرُ فى مثلهما أنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتى بما يوجب شكوى من جناية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يُفسد فى الأرض ، إنْ أريدُ إلا الإصلاح ما استطعت .

وإن سئل عن النوبة المصرية ، وما فعل بجندها ، فيُعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار ، وأطمعوهم فى تسليم الديار ، فأشفى الإسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقوبلوا بما يجب ، وكانوا دعاة كفر وضلال ، ومحاربين لله بما سعوا فى الأرض من فساد .

فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين فى الرضا ، فإنهم اقتصر بهم على ألا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه ، وشملته آمنة تسكنه .

وأما الهدية المسيَّرة على يد الأمير فتفصيلها يرد فى كتاب الأمير الأجل ، الاسفهسلار ، العالم الكبير ، مجد الدين ، سيف الدولة — أدام الله علوه — مقرونا بالهدية المذكورة .

ومع قرب الشتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحرَ انفتاحُ الأشتية .

والله سبحانه يوفق الأمير ويسهل سبيله ، ويهدى دليله ، ويكلاه بعينه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، وييسر له أمره ، إن شاء الله تعالى .

وكتب [فى] ثامن عشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

(١٩)

خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على الفرنج أثناء حصارهم لعكا ، وفى ختامه إشارة إلى الهدية المرسلة من صلاح الدين بهذه المناسبة .

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ — ١٧٣)

بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ، ومستقر حزب الله الظاهر ، من المغرب ، أعلى الله به كلمة الإيمان ، ورفع به منار البر والإحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب :

أما بعد : فالحمد لله الماضى المشية ، الممضى القضية ، البرِّ بالبريَّة ، الحفى بالحنفية ، الذى استعمل عليها مَنْ استعمر به الأرض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجزل أجْرَ من أجرى على يده النافلةَ والفرْض ، وزان سماء الملَّة بدرارى الذرارى التى بعضُها من بَعْض ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الإسلام بأمته التى شبهها صاحبُها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهَّرهم فنصروه ، وظاهروا رسولَه — صلى الله عليه وسلم — فنصرهم وأظهرهم ، ويسَّر بهم السبيل ثم السبيل يسّرهم ، وأن الله بهم لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم . . . .

”رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيم“ .

وهذه التحيةُ الطيبةُ الكريمةُ الصيبة الواجبة الرد ، الموجبة للقصد ، العذبة الورد ، المتنفسة عن العنبر والورد ، وقادة على دار الملك ، ومدار النسك ، وجل

الجلالة، وأصل الإصالة، ورأس الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم، وعلم العلم، وقائم الدين وقيّمه، ومقدم الإسلام ومقدمه، ومقتضى دين الدين ،ومثبت المتقين على اليقين، ومعلى الموحدين على الملحدين أدام الله له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة ، ومهّد له درجات الغرفة ، وعرّفه فى كل ما يعترمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفا حفياً جليلا ، ويسّر عليه فى سبيله كلّ ما هو أشدُّ وطأ وأقوم قيلا .

تحية أستنير منها الكتّاب ، وأستنيب عنها الجواب ، وقد حفز لها حافزان : أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنًا إلى أن تتيسر الأسباب،والآخر مرام عظيم ماكُرِهَ إذا استفتحت به الأبواب ؛ وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناؤه بفتح المقدس ، وسكون الإسلام منه إلى المقيل والمعرّس ، وما فتح الله للإسلام من الثغور ، وما شرح لأهله من الصـدور ، وما أنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنوار ذلك البدر ، ومطالعات تلك الجهة ، التى هى وإن كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ، وكنز دينار الشمس ومصب أنهار النهار ، ومن جانبه يأتى سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتم الله مابدأ من فضله ،وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله .

والمفتتح بيد الله من الشام : مدن وأمصار ، وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل ، وللإسلام معاقر ، ولبنى الكفر مصانع ، ولبنى الإسلام مصارع ؛ والباقى بيد الكفر منها : ثغرا طرابلس وصور ، ومدينة أنطاكية — يسّر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها — وإذا أمّن المؤمنُ على هذه الدعوة رجا إيجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاءُ أحدُ السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كُسر العدو

الكسرة التى لم يجبر بعدها ، وأُلجىء إلى حصونه التى للحصر أعدها ، وكان يومُها كريما ، ولطفُ الله فيها عظيما ، قضت كلّ حاجة فى النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها فكأن لم يغن بالأمس ، وكانت على إثر غزوات قبلها فما الظن بالمجهزة بعد النكس .

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعوناوذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كلٌّ يلبى دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدةُ ملوك أقفلت العجمة على أسمائها ، وأتت العزيمة — بحمد الله — على أشخاصها عند لقائها .

ومنهم : ملك الألمان ، خرج فى جموع بريّة ، من الله تعالى برية ، ملأت الفجاج ، وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الأجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجبر ، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة ، وإلى قاع كفر (كذا) .

وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملأوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة ، وشلة وجنه ، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدى ذهب وفضة ، إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قُتل ، وتخلف من الزاد ما أُكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر ، وبطروا لما كثروا ونظروا ، فإنهم لايستطيعون

أن يلقوا و يصحروا ، و يستطيعون أن يحصروا على أن يحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده ، و يصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزواده ، و بمن يكثر به من مقاتلته وأجناده ، فانقطعت مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر ، فحدثوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون ، فأتممنا بمهارة بحرية لقينا عمارتهم بها ، فنفذت عمارتنا إلى الثغر وأوصلت إليه الأقوات التى حمل منها البحر مالا يحمله الظهر ، والأسلحة التى أمضاها الله عز وجل بيد الإسلام فى صدور الكفر ، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة فعدد مراكبهم كبير ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة ، والقليل مع العزم الصادق كثير ، واستمر مقام العدو محاصرا للثغر ، محصورا منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لأنا من خلفه ، ولا يستطيع الخروج إلينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول إليه ، لأنه قد سور وخندق ، وحاجز من وراء الحجرات وأغلق .

ولما خرج ملكُ الألمان بحشده وسمته التى هى منه أحشد، وعاد جيشهُ الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العَوْدُ لأمة أحمد — صلى الله عليه وسلم — أحمد ، قويت به نفوسهم، وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا أنه يزعجنا من مخيمنا ، ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية فسلك ذات الشمال متوعرا فيها ، محتجزا عن لقائها ، مظهرا أنه صريع داء وما به غير دائها .

وكان أبوه الطاغية ملكُ الألمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين : قد هلك فى طريقه غرقا ، وخاض الماء فخاضه الماء شرقا، وبقى له ولد هو الآن المقدم المؤخر، وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا فى البحر ، تهيبا أن يسلك البر، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذا سريعا، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه — لا فى النهر —

صريعا، ولكن لله المشيئة فى البرية، والطاغية إنما يمشى إلى البلية، فإنه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شأن، وكان ليومنا فى النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان .

ولما كانت حضرة سلطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السلام، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعى سلفه فى الجهاد الغر المحجلة، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة، الكاسفة لكل مشكلة؛ والأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، والصحف عنه باسمة، والسير به معلمة وعالمة، وكلٌّ بجهاده قد سكن إلا السيوف فى أغمادها، وقد أمن إلا كلمة الكفر فى بلادها، لا يزال فى سبيل الله غاديا ورائحا، ومواجها ومكافحا، وماسيا ومصابحا، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة، وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يخمد نور الأسرة، يذود الفرق الكافرة ولو ترك سبيلها لملأ قراره كلَّ واد، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، ولولاه لأخمد شرارة كل زناد .

كان المتوقع من تلك الدولة العالية، والعزمة الغادية، مع القدرة الوافية، والهمة المهدية الهادية، أن يمد غربُ الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غربُ الكفار الكافرين فيملا ها علينا جوارى كالأعلام، ومدنا فى اللجج سوائر كأنها الليالى مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا، وتطلع على الكفار آجالا، وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة، تقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه، وإنما هى منه عزمة كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح فى الكلمة، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فصرخنا به فى هذه التحية، فقد تخفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدى الرياح، وقد تترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصفاح .

وسُيِّر لحصن بجلسه الأطهر ، ومحله الأنور ، الأميرُ ، الأجلُّ ، المجاهد ، الأمين ، الأصيل ، شمس الدين ، نفير الإسلام والمسلمين . سفيرُ الملوك والسلاطين ، أبي الحزم عبد الرحمن بن منقذ — كتب الله سلامته وأحسن صحابته — ، وما اختير للوفادة إلا مَنْ هو أداها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو محاها ، ولا بُعث لنهج الصلة إلا من هو مفتاحُها ، ولأداء الأمانة إلا من هو قفاها ، ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفى العروبة ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك الجلالة ربما ذعَّرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ، ونظرا يأذن له فى القول على إختصاره وتوسطه و إفراطه ، فكلٌّ هو به واف ، وكلٌّ هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منافى استنهاض العزمة منه بالغة مبلغا يُسرُّ أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه .

والسلام الصادر عن القلب السليم ، والود الصميم ، والعهد الكريم ، على حضرة الكرم العلية ، وسدة السيادة الجلية ، سلامُ مودة ما وفد الغربَ قبلها مثلُها ، ورسالة ما خطرت إلى أن أنفذت وراءها المحبة رسلها ، وليصل السلام رحمة الله و بركاته ، ورضوانه وتحياته ، إن شاء الله تعالى .

وكتب فى شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

الهدية :

ختمة كريمة فى رَبْعَة مُحَيَّشة بمسك .

ثلاثمائة مثقال عنبر .

عشر قلائد : عددها ستمائة حبة .

عود فى سفط : عشرة أمنان .

دهان بلسان : مائة درهم وواحد .

قسى بأوتارها : مائة وقوسان .

سروج : عشرون .

نصول سيوف هندية : عشرون .

نشاب ناعم خاص مُرَيَّش ، كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلدة : سبعمائة سهم .

---

(٢٠)

كتاب من القاضى الفاضل إلى صلاح الدين بشأن الرسالة إلى ملك المغرب، والكتاب يشعر أن الرسالة لم تكن برأى الفاضل أو موافقته

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٤ — ١٧٦)

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالى المولوى الملكى الناصرى ، جعل له الله فى الدنيا والآخرة المقام العالى ، وأبقى دولته التى هى الأيام بالحقيقة والأيام قبلها هى الليالى .

وينهى أن الظاهر أن المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام ، وأن له — ولله الحمد — آثارا فى دولته تشهد بها الأيام ، وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الأقلام ، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها ، ولا كارها لسفر رسولها ، ولا مستبعدا مصلحة قريبة الأمر منها لكن على وجهها . وقد نُجزت الهديةُ المغربية على ما أمر به ، وكُتب الكتابُ على ما مثل ، ونُخم الخطابُ والوصفُ فوق العادة ، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه ؛ وعند وصول الأمير نجم الدين من المخيَّم المنصور فاوضه المملوك فى أنه لا يمكن إلا التعريض لا التصريح بما وقع له أنه لا تنجح الحاجة إلا به من لفظه أمير المؤمنين ، وأن الذين أفاضوا فى هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلا ولا أحاطوا به قياسا ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما .

وآخر ما كُتب فى أيام الصالح بن رُزّيك نخوطب فيه أكبرُ أولاد عبد المؤمن وولىُّ عهده بالأمير الأصيل النجار الجسيم الفخار ، وعادت الأجوبة إلى ابن رُزّيك — وهو وزير سلطان مصر الذى أتباع مولانا اليوم مائة مثله — مترجمة : بمعظم أمره ، وملتزم شكره ؛ هذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه ،

وما هو إلا أن يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده ، ويصل المشار إليه بالأمر من مراكش إلى القيروان فى ستة أشهر ، فيلقاهم فيُكسر مرة ويتماسك أخرى .

وأُعلم الأمير نجم الدين بذلك ، فأمسك مقدار عشرة أيام ، ثم أنفذ الأمير المذكور إليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لا يستصحبها ، وإن استصحبها تكون هدية برسم من حواليه ؛ وأن الكتاب لا يأخذه إلا بتصريح أمير المؤمنين ، وأن السلطان — عز نصره — رسم له ذلك ، والملك العادل — دامت قدرته — بأن لا يشير إلا به ، وأنه إذا لقى القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان — أبقاه الله — من لسانه .

فأجابه المملوك : بأن الخطاب يكفى ، وطريق جحدنا له ممكن ، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار ، ومتى قُرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين فى مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعه ، مرخصين الغالى ، منحطين عن العالى ، شاقين عصا المسلمين ، مفرِّقين كلمة المؤمنين ، مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته ، فيفسد عقود الإسلام ، وينفتح باب يعجز وارده عن إصدار ، بل تمضى وتستشف الأمور ، وتكشف الأحوال ، فإن رأيتَ لقوم شوكة ولنا زبدة فَعِدْهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل ما تأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال : أنا اقضى أشغالى ، وأتوجه إلى الإسكندرية ، وأنتظر جواب السلطان — عز نصره — وما يفوت وقت ، وإلى أن أنجز أمر المركب ، وأرتاد الركاب .

فسيَّر المملوكُ النسخةَ ، وإن وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ما كتبه ، ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب ؛ على أن ابن الجليس حدثه عنه أنه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها .

فأما الذى يترجم به المولى — عز نصره — فيكون مثل الذى يدعى به على المنبر لمولانا ، وهو : الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب ، أدام الله غنى مولانا بالفقر إلى ربه .

وإذا كتب الصالحُ بن رُزِّيك إليهم : من السيد الأجل الملك الصالح ، قبح أن يكتب إليه مولانا أبقاه الله : الخادم، وهذا مبلغ رأى المملوك، والمؤمن لا يذل نفسه ، وقاسم الأرزاق يوصلها وإن رغم من جرت على يده .

وإن كان مولانا — أعز الله نصره — يقول: أنت غافل وغائب، وما تعرف ما الإسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث؛ فجواب ما نكتب بعد سنتين ، فما يتخلى الله عنا، ولا تستمر هذه الشدة ، ولا نسيء الظن بالله ، وإذا كانت لنا — إن شاء الله — أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته ؛ وإذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح ، وللضرورة حكمها ، والأحوال المملوك غائب عنها، فالمفهوم من الأمر للمملوك أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد، وتحرير الألفاظ، وتنضيد الخبر عما أجراه الله تعالى على يد مولانا — عز نصره — والتأنى المطلوب ، فقد فعل هذا كله فى النسخة ، وبقيت اللفظة التى ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها ، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان — عز نصره — من تعريضهم لكدر الحياة، وتوقع الخوف ، ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة .

ويكفى أن المولى أنعم بخطه فى كتابه إلى المملوك ، وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الأجل عماد الدين الكاتب الأصفهانى — حرسه الله — لما وصى بأن لا يناظر فى الخطاب ما صُرِّح باللفظة ، فهى إما تقية فالمملوك أولى بها ، وإما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك؛ فإن كان ولا بد فالنسخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هـذه اللفظة ما يحتاج إلى تعليم ، والكُتّاب الذين

يستقلون بكتابة النسخة معدومون ، وقد ناب المملوك عنهم ، والكُتّاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون ، فينوبون عن المملوك فى التبييض ؛ وإلا فكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، و بغير حضرته كتب ، ولا بهدية سار، و بحضر من البغاددة والمغاربة ، يعلمون أن الكتّاب كتب بمصر، و يشهدون بما لم يروه، وما لم يقرءوه من الخطاب .

ولو وصل من المولى — أدام الله أيامه — كتابٌ مختوم ، وسُيِّر ولم نعلم ما فيه ، لا نقطع فضول كثير، ونخمدت أراجيف شنيعة ، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظم القصص ، فما للألسنة والأعين شغل إلا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا فى أوامرهم وأحوالهم .

ولو علم المملوك أن هذا الذى استعفى منه يضرّه بحيث ينفع المولى — أبقاه الله — لهان عليه ، ولكنه مضرّة بغير منفعة ، وتعرّض لما تُذم عاقبتُه أو يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته ، فمقصود المولى — أبقاه الله — تحصيل تبييضها بين يديه ، وربما حصل استنارة وأمنت المكاره فيه ، وغمضت العيون عنه ، وشحت الأيام عليه طالع المملوك بذلك " .

(٢١)

قطعة من رسالة بقلم القاضى الفاضل مرسلة من صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقذ — وهو بالمغرب — ينهى إليه أخبار القتال حول عكا

عن : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨ — ١٨٩)

وفى كتاب كتبه الفاضل عن السلطان إلى شمس الدولة بن منقذ — وهو بالمغرب فى الرسالة — :

" لقد تجاوزتْ عدةُ من قُتل على عكا — يعنى من الفرنج — الخمسين ألفا ، فولا لا يطرقه التسمح ، بل يحرزه التصفح ، فانبروا فى هذه السنة ملكا أفرنسيس وإنكلتيره وملوك آخرون فى مراكب بحرية وحمّالة حملوا فيها الخيول والخيالة ، والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ، وأحدقت بالثغر ، فمنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه " .

ثم قال :

" وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب ، وما وهنّا لما أصابنا فى سبيل الله وما ضعفنا ، ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجزهم ، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم ، وأقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم ، وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا به ترد ، وعاديتنا بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم فى البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الإصابة ، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربى يقلبها، وخطرات من اللطف الخفى يقربها ، ويكفى من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربيا ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسفائن لأُخذت كلُّ سفينة غصبا ".

فهرس الموضوعات

للجزء الثانى

من

كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

لابن واصل

فهرس الموضوعات

للجزء الثانى

من مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الملاحق

الصفحات

تصويبات الجزء الأول

لم يخل الجزء الأول — رغم ما بذلنا من عناية فى تصحيحه — من وجود بعض الأخطاء المطبعية ، نثبتها فيما يلى مع تصو يباتها ، ونرجو القارئ الكريم أن يتفضل مشكورا بتصحيحها :

الصفحة	الخطأ	الصواب
صفحة الغلاف ، سطر ٧	سنة ٦٥٩ هـ	سنة ٥٦٩ هـ
ص ٥ (من المقدمة) سطر ٥ ...	ومحتو ياتها	ومحتو ياته
ص ٦ (من المقدّمة) سطر ٣ ...	اتصفيل	التفصيل
ص ٦ (من المقدّمة) سطر ١٤	إبراهيم ابن نصر الله	إبراهيم بن نصرالله
ص ١٣ (من المقدّمة) سطر ١٦	ينقصه	ينقصها
ص ١٦ (من المقدّمة) السطر الأخير	مياقارقين	ميافارقين
ص ٢٤ (من المقدّمة) سطر ٢ ...	ثغرعون	ثغر عدن
ص ١١٩ ، س ٧	قر أرسلان	قرا أرسلان
ص ١٣٨ ، س ٦	فان لم	فإنه لم
ص ١٥٦ ، هامش ١	Ranciman	Runciman
ص ١٥٨ ، س ٥	مستفزا	مستنفرا
ص ١٧٠ ، س ٩	نوازلة	نوازله
ص ١٨١ ، س ١٩	باحدى	إحدى
ص ١٩١ ، س ١	سيف الدين بن غازى	سيف الدين غازى
ص ٢٢٠ ، س ١٢	مراكب ، إلى الشام	مراكب إلى الشام
ص ٢٢٥ ، س ٢	بالإنشاء الفاضل	بالإنشاء الفاضلى
ص ٢٢٩ ، س ٤	بلاد اليمن	بلاد النوبة
ص ٢٥١ ، س ١٢	قليتة	فليتة

نقد للجزء الأول

بقـــلم

الأستاذ الدكتور مصطفى جواد

"تفضل الأخ الكريم والعلامة المحقق الأستاذ الدكتور مصطفى جواد فأرسل إلى هذا النقد التفصيلي الذى يدل على سعة فى الاطلاع ومعرفة أكيدة بالعصر الذى يؤرخ له ابن واصل ، و بالمكتبة العربية الإسلامية بوجه عام ، وقد رأيت أن أشرك القراء معى فى الإفادة من هذه الملاحظات القيمة ، ولهذا بادرت بنشره هنا ملحقا بالجزء الثانى ، وللأخ الكريم أجل الشكر وأطيب التحية" .

بغداد فى ١٣/١٢/١٩٥٣

عزيزى الدكتور الفاضل الصديق الكامل جمال الدين الشيال المحترم

تحية عطرة بشذا الشوق، و بعد فقد بلغنى كتابكم الكريم داخل الكتاب العظيم "مفرج الكروب"،وقد فرجا كربا من كروبى،وأظفرانى بمطلوبى،فشكرى لكم مستدام على هذا الفضل والبحث والتحقيق والتدقيق والتعليق ، فقد بحثتم وما قصرتم ، وجمعتم فما أغفلتم، و بحثتم فما أهملتم ، وظهر الفرق العظيم بينكم و بين من يكتبون فى التاريخ أو من ينشرون بمصر مع استثناء أفراد من الفضلاء، وأريد بالجماعة الأولى ناشر الدولة الجلالية بل السيرة المنكوبرتية ، وتخليطه العجيب فى التأليف والنشر بما يضحك الثكلى .

ذكرتم — أعزكم الله — أنكم تريدون نقدى للكتاب منشورا فى مجلة أو مبعوثا به إليكم ، وأنا أسترجح الرأى الثانى لضمان الفائدة وجزالة العائدة ، مع أن نشره فى مجلة من المجلات قد يؤخر ظهوره و يقلل الاستفادة منه . وأما سؤالكم عن الجزء الثانى من مختصر ذيل تاريخ ابن الدبيثى، فالجواب أننا لم نشرع فى نشره

وطبعه لأن أعضاء المجمع العراقى لايقدرون مثل هذا الكتاب فنتركه للأقدار ، وفى النية أن أطبع "الجزء الرابع" من تلخيص مجمع الألقاب لابن الفوطى ، المحفوظة نسخته الأصلية بالمكتبة الظاهرية ، وصورتها فى مكتبة المتحف العراقى ، وقد نسخته مرتين لأنه مختلط التجليد مختله ، كنسخة مفرج الكروب الباريسية ، وقد جاء هو وتحقيقاته فى "ألف وخمسمائة صفحة" متوسطة ، وفيه فوائد جمة لرجال القرن السادس والسابع ومن أدرك الثامن ، كالفتح بن على البندارى مترجم الشاهنامة ، وفريد الدين العطار الصوفى ، وجماعة من المصريين الذين لم تحسن ذكرهم التواريخ ، فضلا عن العراقيين والإيرانيين .

وهذى يا عزيزى ملاحظاتى على الجزء الأول من مفرج الكروب :

١ — جاء فى غلافه "وينتهى بموت نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٦٥٩" وفيه غلط طبع لأن المراد «٥٦٩» .

٢ — حين تكلمتم على المؤرخين الذين أرخوا لحوادث بنى أيوب — ص ٥ من المقدمة — لم تذكروا تاريخ ابن أبى طى مع أنكم نقلتم منه غير مرة فى الحواشى وإن كان النقل بواسطة أبى شامة ، ولم تذكروا تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ففيه فوائد فى تاريخ بنى أيوب .

٣ — ظهر لى أن الكتاب الذى طبعتُه باسم الحوادث الجامعة ليس لابن الفوطى فيحسن عند الاستشهاد به القول "المظنون أنه لابن الفوطى" .

٤ — جاء فى « ج ١ » من الكتاب ، السطر ٩ "وشيدوا بها أركان الملة الحنفيـــة" وهو تصحيف على فرض وروده فى جميع النسخ ، لأن الصحيح "الحنيفية" ، وهو وصف مشهور ، قال ابن الأثير المبارك فى النهاية : "والحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم — ع — وأصل الحنف الميل ومنه الحديث : " بعثت بالحنيفية السمحة السهلة" . وقد تكرر ذكرها فى الحديث .

٥ — وفى الصفحة الأولى أيضا « س ١٨ » قولكم فى "العصر المملوكى" ، وإخواننا المصريون يخطئون فى النسبة إلى المماليك ، لأن قاعدة الجمع إلى المفرد فى النسبة لم يطبقها العرب إلا فى اسم الجنس ، أما الأعلام وما جرى مجراها

وما خيف فيه اللبس فيبقى على حاله ، و بقاء الاسم المنسوب إليه على حاله هو الحال الطبيعية للنسبة الضامنة للفائدة منها ، فلذلك قالوا : "رجل شعوبى وعالم أصولى وأداة ملوكية وخادم رسائلى ورجل أنصارى"، هذا ز يادة على أن الكوفيين أجازوا النسبة إلى الجمع بلا شرط ولا قيد ما حصلت الفائدة، والبصريين أجازوا النسبة إلى كل جمع له شبيه من المفردات ، فالملوك كالدخول والخروج من حيث اللفظ ، فالصواب "العصر المماليكى" و "عصر المماليك" بالنسبة والإضافة ، وهذا الغلط الذى ارتكب فى "المملوكى" ارتكب فى "الدولى" مع أن الصواب الذى لابد منه "الدُّوَلى" .

٦ — وجاء فى « ص ١٣ س ١٥ » "وحمل للسلطان خيلا رائقة" . قلتم فى الحاشية "فى الأصل — رابعة — والتصحيح عن ابن الأثير" . ومعلوم أن ابن الأثير لم ينص على أحرف الكلمة، والموجود فى الأصل يدل على أن الصحيح "رائعة" بالعين ، من راعه الشىء أى أعجبه ، ففى الكامل نفسه « ج ١ ص٥٥ س١٣ » ما هذا نصه "و بين يدى البغال ثلاث وثلاثون فرسا من الخيل الرائعة" . ووصف الفرس بالرائع مشهور .

٧ — وورد فى — ص ١٩ — س ٦ اسم "مجاهد الدولة بزان" من أمراء ملكشاه الكبار ، أى من رجال القرن الخامس للهجرة ، فعلقتم فى الحاشية أنه "أبو الفوارس مجاهد الدير بوزان بن مامين الكردى ، توفى سنة ٥٥٥" . ولا صلة لهذا بذاك ، فهذا كردى من أهل القرن السادس وذاك تركى من أهل القرن الخامس ، و بزان التركى قتل سنة « ٤٨٧ »، قتله الأمير تاج الدولة تتش السلجوقى صبرا كما فى الكتاب نفسه « ص ٢٧ س ٢ » ومن المعلوم أن مثل بزان لا يبقى أصلا إلى سنة « ٥٥٥ » لأن ذلك يوجب أن يكون له عمران ، والأكراد الجلالية الذين ذكروا فى حاشية « ص ١٣٠ » ليسوا منسوبين إلى جلال الدولة ملكشاه، حتى يظن أن لبزان المذكور صلة بهم .

٨ — وجاء فى « ص ٢٢ » اسم مدينة "هيت" بفتح الهاء ، والصواب كسرها ، كما هو مشهور قديما وحديثا إلى اليوم . وضبط "بَعَث" فى ص٢٧ س ٣ "بُعث" والظاهر أن تاج الدولة بعثه ، فالباعث تابع لسياق ما قبله : " قتل ... أنفذ ... تسلم ... بعث " ، وانقطع السياق لأن الحابس غير الباعث .

٩ — وورد فى « ص ٢٩ س ١ » « ثم ولى الموصل الأمير مودود من نسل السلطان غياث الدين محمد ملكشاه » وأرى أن الأصل « من قِبَل » ، فلم يكن مودود من نسل السلطان المذكور ولا من نسل السلاجقة قط بل كان مملوكا من مماليكه .

١٠ — وجاء فى « ص ٣٥ » وفى ثبت المراجع : « قاسم الدجيلى » ، والصواب : « كاظم الدجيلى » ، ولا يزال هذا الرجل الفاضل الأديب المحقق حيا ببغداد على أحسن صحة .

١١ — وفى ص ٣: س ٢٣ « دبيس الثانى أبو العز بن سيف الدولة » وكنية دبيس : « أبو الأغر » فهى كنية مبالغة للدبيسى اللون ، وقد يلتبس الأغر بالأعز ، ولكن لا يمكن أن يكون الأغر « العز » .

١٢ — وفى ص ١٥ س ١١ « فسمع سديد الملك » ، والصحيح : سديد الدولة ، كما فى كل التواريخ التى ذكرته ، وكما هو فى الحاشية وفى المتن قبل سطرين

١٣ — وفى « ص ٤٧ » قوله : « وسار من همذان إلى رمكان » ، قلتم فى الحاشية : « ضبطت هكذا بعد مراجعة ياقوت ولم يعرفها بأكثر » ، ونقلتم أن ابن الأثير قال : « إلى زنجان » فالاسم المصحف هو فى الحقيقة «زنكان» بالكاف ، قال ياقوت فى « زنجان » من معجم البلدان : «والعجم تقول : زنكان بالكاف » وابن واصل ذكره على الأصل .

١٤ — وجاء فى ص ٤٩ س ١٤ « بقرب الدينوْر » بسكون الواو والصواب فتحها كالتى قبلها .

١٥ — وجاء فى ص ٥٠ س ٨ ذكر «عقرقوف» ، فدلقتم بها ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان من كونها من قرى دجيل . وقد غلّطه ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع وذكر أنها من قرى « نهر عيسى » ، وهو الصواب الذى أيدته كتب التاريخ ، والآثار المكتوبة الباقية ببغداد على الآجر «الطوب» فى وقفية المدرسة المرجانية ، وقد سمى حمزة الأصفهانى فى تاريخ العالم فرع نهر عيسى المار بأرض عقرقوف « نهر الورادة » فليست عقرقوف من دجيل .

١٦ — وورد فى ص ٥٦ س ١٠ « وكواشى » بكسر الشين ، وفى ياقوت بضبط القلم « كواشى » بالألف المقصورة ، ويؤيد فتح الشين أن الصفدى سماها « كواشة » بالشين والهاء ، كما فى نكت الهميان « ص ١١٦ » .

١٧ — وورد فى « ص ٥٩ س ١ » « وكمال الدين صاحب المخزن » وفى الحاشية مايفيد أن ابن القلانسى سماه « جمال الدين بن طلحة » ، وأن وظيفة صدر المخزن لم تمثروا لها على تعيين ، أما ابن طلحة نقد عين لقبه ابن الفوطى فى تلخيص مجمع الألقاب بأنه « كمال الدين » لا جمال الدين كما جاء فى تاريخ القلانسى . قال ابن الفوطى « ج ٥ الترجمة ٣٤٠ من الكاف » من كتابه المذكور: « كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن على بن طلحة يعرف بالبقشلام ، حاجب الباب أستاذ الدار ، ذكره محب الدين محمد بن النجار فى تاريخه وقال : كان عالما بالفقه والأدب والجدل ، ولى حجابة الباب [باب النوبى] للمسترشد بالله سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ووكله وكالة [عامة] ، فلما استخلف المقتفى ولاه صدرية المخزن ، وأكثر الحج وجاور بمكة ، ولما عاد استعفى من الخدمة فأعفى ، وجلس فى بيته مكبا على العبادة ، وبنى مدرسة لأصحاب الشافعى بباب العامة ، وتوفى فى صفر سنة ست وخمسين وخمسمائة » . على أن التاريخ يذكر أنه صاحب المخزن قبل ذلك ؛ ومدرسته المنسوبة إلى لقبه « الكمالية » مذكورة فى كتابنا الكبير « خطط بغداد » ، ذكرها ابن الأثير فى حوادث سنة « ٥٣٥ » من الكامل « ج ١١ ص ٣٠ » ، قال : « وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد ، بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن . . . » وذكر حجه سنة ٥٣٦ هـ « ج ١١ ص ٣٤ » ، ووفاته فى سنة ٥٣٦ هـ « ج ٧ ص ١٠٥ » ؛ وذكره ياقوت الحموى فى ترجمة ابنه « على بن حمزة » فى معجم الأدباء « ج ٥ ص ٢٠٥ » من طبعة مرغليوث وقال : « وكان أبوه حمزه بن على هو الملقب كمال الدين ويكنى أبا الفتوح » ؛ « وابن الجوزى فى المنتظم « ج ١٠ ص ٢٠٢ » ، وقد ولى صدرية المخزن بعد الحادثة التى ذكرت له فى مفرج الكروب .

أما صدرية المخزن فلم نجد من عرفها فى الحقيقة ، إلا أن الحوادث التاريخية تدل على أن المخزن كان كوزارة التموين فى نظام الدول بعد الحرب الأخيرة ، ومثل مديرية التجهيزات العامة ، فالمخزن ينفق على مصالح الدولة ، ويعد لها العدد

ويختزن لها الذخائر لوقت الحاجة إليها، ومن مصالح الدولة الحفلات الرسمية التى تقيمها. ولسبط ابن التعاويذى أبيات يهجو بها «قصاب المخزن»، مما يدل على أن المخزن كان يوزع الطعام والخبز بين الموظفين.

١٨ — وجاء فى ص ٦٠ س ٤: «وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان»، وفى ص ٦١: «وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سرجهان»، فمن نقيب العلويين هذا؟ نعم إنه كان معروفا عند سديد الدولة ابن الأنبارى حاكى القصة ولكنه مجهول عندنا، وبعد البحث والتحقيق علمنا أنه أبو الحسن على بن المعمر بن محمد العلوى، ذكر ابن الدبيثى فى نسخة كمبريج من تاريخه، وابن النجار كما فى نسخة باريس من تاريخه أنه ولد سنة «٤٧٠»، وولى النقابة سنة «٥٢٠»، وعزل سنة «٥١٧»، ثم خرج مع الخليفة المسترشد بالله فى حرب السلطان مسعود، فأسر وحبس بقلعة سرجهان، فأطلق منها فى محرم سنة «٥٣٠»، وكان مريضا فتوفى فى عصر يوم إطلاقه خارج القلعة.

١٩ — وجاء فى ص ٦٠ س ٨: «وقتلوا معه أبا عبد الله بن سكينة» ولم يعلم القارئ أهو ابن السكينة «من الآلات القاطعة»، أم ابن سكينة تصغير سكنة؟ فقد كان فى بغداد بيتان من بيوتاتها يعرفان بابن سكينة، أحدهما بتشديد الكاف وكسر السين من الآلة القاطعة، والآخر معروف الضبط. فأبو عبد الله هذا من البيت الأول.

قال الذهبى فى المشتبه ص ٢٦٨: وبالتشديد [سكينة] على بن الحسين ابن سكّينة الأنماطى القطيعى ...، والمبارك بن أحمد بن حسين بن سكّينة سمع أبا عبد الله النعالى .. » وهذا المبارك هو أبو عبد الله بن سكينة الذى قتل مع المسترشد بالله. قال ابن الدبيثى فى ترجمة ابنه «عبد الله بن المبارك»: «عبد الله بن المبارك بن أحمد بن سكينة أبو محمد وابن أبى عبد الله، من ساكنى دار الخلافة، ومن أهل القرآن المجيد، ومن بيت معروف بالقراءة، كان والده يؤم بالمسترشد بالله فى الصلوات، وقتل معه لما قتله الملاحدة بمراغة سنة تسع وعشرين وخمسمائة.[1]»

(١) ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثى «نسخة المكتبة الوطنية بباريس ٥٩٢١ ورقة ١٠٧».

٢٠ — وجاء فى ص ٦٣ س ٢ « لا تولى إلا من يضمنه الوزير »، وسياق الخبر يقتضى أن يكون « لا يولّى إلا . . . »، ولو كان نهيا لوجب حذف الياء، فبقاؤها فى النص مؤذن بكونها أصلية .

٢١ — وفيها س ٥ : « وهو الزاهد الدِّين » والصواب « الدَّيِّن » أى ذو الديانة كالصين والميت والقيم .

٢٢ — وجاء فى عنوان ص ٦٥ « ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود ابن محمد إلى بغداد »، وجملة « محمود بن » زائدة يجب حذفها، لأن القادم هو مسعود ابن محمد، وليس فى بنى سلجوق من اسمه « محمود بن مسعود » أصلا .

٢٣ — وفيها س ٣ : « ثم عبر الأمير عماد الدين زنكى إلى خراسان »، وهذا محال، كيف يعبر من بغداد الغربية إلى خراسان ؟ والصحيح : « إلى طريق خراسان »، وهو القسم الشرقى من العراق بين بغداد وخانقين، ويعرف اليوم بلواء ديالى .

٢٤ — وفى ص ٦٩ س ٩ : « ولكن لابد لنا فى هذه الدعوة من نصيب »، والصواب : « الدعوى »، لأنها تسوجب القضية، وليست هى دعوة إلى طعام، ولا دعوة إلى رأى ومذهب .

٢٥ — وجاء فى ص ٧٠ س ١ « ودرب هرون وحزمى ما لكا »، والصواب : « ودرب هارون وحربى ملكا » كما فى الفخرى ص ٥٠ من الطبعة المصرية الأولى، وفى ذلك نقد عنيف على القاضى الشهرزورى بطل القصة . وحربى من قرى دجيل العظيمة، وقد خربت بخراب نهر دجيل، ولا تزال آثارها معروفة، وعندها قنطرة من الآجر هائلة تسمى إلى اليوم « قنطرة حربى » .

٢٦ — وورد فى ص ٨١ س ١٣ « فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافقته » فقلتم : « فى اللسان أصفق أعلى الأمر »، فاستشهدتم بالإفعال على المفاعلة، وهو بعيد، ثم إن الأصل ليس بالمصافقة، بل « المصافة » بتشديد الفاء، وهو الدخول فى القتال، كما جرى كثيرا فى الاستعمال، يقال : « صافّه يصافه مصافة » .

٢٧ — ووردت فى ص ٨٢ س ٥ أبيات الشاعر المسلم بن خضر الحموى ، وفى الحاشية ما يشير إلى ندور أخباره على ما وصـــل إليه تحقيقكم ، وقد ذكره أبو شامة فى الروضتين "ج ١ص ٢٤ ،ص ٣٢"،وفى الصفحة الثانية أعنى ص٣٢ ذكر الأبيات التى أوردها ابن واصل وزاد عليها وقال ، « له قصيدة قد ذكرتها فى ترجمته فى التاريخ » ، وفى هذه الأبيات التى أوردها فوائد كانت جديرة أن يستفاد منها فى التصحيح والمقابلة .

٢٨ — وجاء فى ص ٨٩ س ٣ : «فثار لها معين الدين ومعه الفرنج »، وفى الحاشية أن فى نسخة : « فنادى معين الدين » ، وليس فى سياق الخبر ما يدل على الثأر ولا على النداء ، والصواب : فنازلها معين الدين ، ومنه النزال .

٢٩ — وفى ص ٩٠ س ٢ نقلا من ابن الأثير آل مهراش »،والصواب : « آل مهارش »وهو مفاعل من هارش يهارش،وبه سمى الأمير العقيلى المذكور المشهور ،وهو الذى التجأ إليه القائم بأمر الله لما أخرج من بغداد سنة استيلاء الفاطميين على المدينة المذكورة ، قال ابن الفوطى فى تلخيص معجم الألقاب ج ٤ ص ٢٧٧ من نسختنا الأولى الخطية :

فخر الملك أبو الحارث مهارش به على بن المجلى العقيلى أمير العرب ،كان أميرا جليلا،وهو الذى كان عنده الإمام القائم بأمر الله حال انزعاجه أمام أبى الحارث أرسلان البساسيرى فى ذى الحجة سنة خمسين وأربعمائة . « وكرر ابن الأثير ذكر « مهارش » فى حوادث سنة « ٤٥٠ » من تاريخه ، فالمنقول منه مصحف .

٣٠ — وفى ص ١٢٠ س ١١ : « واعتذر باحتياج قطب إليـه واستغنى نور الدين عنه . . » ، والصواب : « واستغناء »،فهو معطوف على احتياج .

٣١ — وفى ص ١٢١ س ٩ خُطِبَتْ » وس ١٥ « تُخْطَب » ، والسياق يقتضى بناءهما للمعلوم لا للمجهول .

٣٢ — وفى ص ١٢٢ س ٨ « أَصْلاته وصِلاته وصَلاته » ، والصواب : « إصْلاته » ، أى إصلاته السيف .

٣٣ — وفى ص ١٢٨ س ١٦ « عماد الدين بن زنكى » ، ولفظة « ابن » زائدة كما هو معلوم .

٣٤ — وفى ص ١٣٣ س ٣ : « منجم به نويرة » ، والصواب : متمم ابن نويرة وهو أخو مالك بن نويرة قتيل حرب الردة .

٣٥ — وفى س ١٣٤ س١ : « أبو المظفر »،والصواب: « أبى المظفر ».

٣٦ — وفى ص ١٤٠ س ١١ « إذ أتاهم بكثرة الفرنج على حارم » ، والصواب: «بكسرة» من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أى أتاهم بخبر انكسارهم إن صح التعبير، لأن الانكسار لا يصح استعماله فى هذا المقام .

٣٧ — وفى ص ١٤٧ س ١٠ : « ذكر القاضى شهاب الدين فى تاريخه » وقلتم فى الحاشية« القاضى شهاب الدين هو أبو محمد عبد الرحمن . . أبو شامة » ، والصحيح أنه أراد « شهاب الدين إبراهيم ابن أبى الدم الحموى » فهو المعروف بالقاضى ، وهو المؤرخ القاضى ،وهو الذى كان أقرب إلى ابن واصل من غيره، وفى حاشية ص ١٩٤ ما يؤيد ذلك .

٣٨ — وورد فى ص ١٤٨ س ١٣ " خوفا من معرّة الافرنج "،وقد وضعتم عليه " كذا "، ومعناه واضح،فهو يخشى أن يعرّه الافرنج، كأنهم يلطخونه بشر ويؤذونه ، والمعرّة الأذى، فنور الدين سار معه محافظا عليه ، وحارسا له منهم.

٣٩ — وفى ص ١٤٩ س ٦ " يملّكها " ، وبهذا الضبط يكسر البيت ، فالصواب " تُملكها " وهو يدعو الله ، فالتاء للمخاطب .

٤٠ — وجاء فى ص١٥٠ س٨ "شرف الدين برغش "،والصواب "بزغش" بالزاى، قال الذهبى فى المشتبه ص ٥٥٣ " وبمعجمات : بزغش فى الموالى، ومنهم بزغش عتيق أحمد بن شافع عن أبى الوقت، و بزغش الرومى" وكذلك فى ص١٦٠

٤١ — وفى ص ١٥٥ : " شهاب الدين مالك العقيلى " ، والصواب : " مالكا " لأنه بدل من منصوب قبله .

٤٢ — وفى ص ١٦٤ س ٦ "عضّد الله به الدين"، والصواب : "عَضَد" بالتخفيف، ولم يرد التضعيف .

٤٣ — وفى ص ١٧١ س ١٧ "وبحيلو والعلم منــك بأحنف" والصواب : "والحلم"، لأن الأحنف عرف بالحلم لا بالعلم .

٤٤ — وفى ص ١٧٧ س ١٣ "حكّتْ البيض فى المقاتل"، والصواب: "حُكّت" مبنيا للمجهول .

٤٥ — وفى هذه الصفحة س ١٤ : "عليهم كفه بحائل"، وقلتم فى الأصل "كفة لحابل" . فلماذا تركتم الأصل وهو الصحيح المليح ؟ فالحابل له كفة وهى شبكة الصيد ؟ ؟

٤٦ — وفى ص ١٨٣ س٢ "خمس وخمسين وخمسمائة"، والصواب : "خمس وستين وخمسمائة" .

٤٧ — وفى ص ١٩٤ س ٩ "وكان ابتاع دارا من صدقة بباب العامة"، وذكرتم أن فى نسخة س "دار بن صدقة"، وهو أقرب إلى الصواب الذى هو "دار ابن صدقة"، وهى دار سيف الدولة صدقة، مذكورة فى خطط بغداد، وكانت عند جامع القصر بباب العامة، وحدث نزاع عليها بين الخليفة المسترشد بالله وابن صدقه دبيس كما ذكر ابن الأثير وغيره، ومن بقايا جامع القصر اليوم ببغداد "جامع سوق الغزل"، وباب العامة محلة دخلت فى محلة سوق الغزل ونسى اسمها .

٤٨ — وفى ص١٩٥ س ٧ "ومناوأة إليها سوء ضغن"، والصواب هنا "ومناواة" بتخفيف الهمزة، ولئلا يكسر البيت .

٤٩ — وفى ص ١٩٦ س ٣ "وأقطع تنامش وأخاه أردن نسيبى قايماز"، والصواب "تتامش" بتاءين، و "أزدن" أو "يزدن" بالزاى، وهما مذكوران فى مرآة الزمان، وكامل ابن الأثير، وتلخيص معجم الألقاب وغيرها .

٥٠ — وفيها س ٣ "واسطا وقوشان"، والصواب: "قوسان" بالسين، كما فى معجم البلدان وغيره .

٥١ — وجاء فى ص ٢٠٠ س ١١ : ذكر أول من خطب للعباسيين بمصر بعد العاضد وهو "الأمير العالم"، وهذا لقب من ألقابه .

واسمه فى الحقيقة "محمد بن الموفق الخبوشانى"، ذكره ابن خلكان غير مرة وترجمه، وذكر الذهبي ترجمته فى تاريخ الإسلام . وترجمه السبكى فى طبقات الشافعية، ونقل ترجمته صاحب الشذرات، وذكره استطرادا ابن جبير فى رحلته، وكانت وفاته سنة "٥٨٧ هـ" . وقولكم فى الحاشية : "وذكر ابن الأثير أنه رآه بنفسه بعد ذلك فى الموصل" فيه زيادة "بعد ذلك"، لأن رؤية ابن الأثير له يجبُ أن تكون بعد قدومه مصر، فهو لما أقام بمصر استمر على الإقامة فيها حتى موته .

٥٢ — رأيكم المذكور فى حاشية "ص ٢٢٣ و ص ٢٣٧" فى غمز ابن الأثير لصلاح الدين كلما وجد فرصة هو عين الحق بل الحق نفسه، والرجل يجب أن يحاسب حسابا عسيرا على ما أرخ من عصره دون غيره، وتعليلكم ذلك بميله إلى البيت الأتابكى صحيح، زد على ذلك أن القفطى المؤرخ الوزير الثقة الدين الصين اتهمه بسرقة كتب ياقوت الحموى بعد وقفها، كما فى ترجمة "ياقوت" من إنباه الرواة على أخبار النحاة، وهو إلى ذلك مؤلف كبير ومؤرخ شهير وله فضل لا ينكر أبدا .

٥٣ — وفى ص ٢٢٨ س ٢ "وكأن بين النقع لمعُ حديدها"، والصواب: "لمعَ" بالنصب لأن اسم كأن مؤخرا .

٥٤ — وفيها س ٥ "لتنوب عنه أنجم الخَرَصان" والصواب : «الخُرصان» أو "الخِرصان" جمع الخرص وهو جريدة النخل وأراد به الرمح .

٥٥ — وجاء فى ص ٢٥١ س ١٢ "هاشم بن نليتة" وصححتموه بـ "فليتة" فى الحاشية نقلا عن كتاب "Rulers of Mecca" لجيرالدى كورى، وهذا الرجل ليس بمحقق حتى يعتمد عليه، ولا أظنه يعرف العربية إلا ترجمة، وفى كتابه

هذا ما يضحك الثكلى من الأوهام ، وقد أخذ علما من علم الناس الأحياء فادعاه لنفسه، وفليتة مذكور فى عمدة الطالب وغيره من كتب العلويين، قال ابن عنبة فى عمدة الطالب "ص ١١٧" من طبعة الهند : "ومنهم الأمير الشجاع الفارس فليتة والأمير عيسى ابنا قاسم، فولد الأمير فليتة عدة رجال منهم تاج الدين وعمدة الدين هاشم ، أخذ مكة سيفا من إخوته وعمومته"، وجاء فى حاشيته: "وكانت وفاة تاج الدين هاشم بن فليتة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة" .

٥٦ — وجاء فى ص ٢٥٤ س١٠ : " الشيخ الجليل أبا المعالى بن الحباب " وفى الحاشية: " هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب"، والذى حفظناه "الجباب" بالجيم وتشديد الباء ، قال الذهبى: " وبموحدة [الجباب] أبو البركات عبد القوى بن الجباب المصرى وأقاربه، كان جدهم عبد الله يعرف بالجباب لجلوسه فى سوق الجباب " (المشتبه ص ١٣٨) .

هذا وقد أهملنا غلطات لغوية ونحوية أخرى لعلها من خطأ الطبع .

ونختم هذه الملاحظات الضئيلة بالنسبة إلى هذا الكتاب الكبير الصعب ، بتجديد الشكر والإعجاب بالتحقيق والتدقيق ، والاستقصاء والاستيعاب ، واجتياز العقاب الهائلة فى نشره ، ونحن أعلم بما يستلزمه كتاب تاريخى غير مطبوع من الجهد والتعب ، وما يستحقه من الاطلاع والمعرفة التاريخية ، وما يستوجبه من عناء بحث ومقابلة ، وتقبلوا فائق الاحترام ؟

المخلص

مصطفى جواد

تم طبع هذا الكتاب فى يوم الأربعاء ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧
(الموافق ٤ من ديسمبر سنة ١٩٥٧)

مدير المطبعة الأميرية

عبد المنعم ابراهيم

MUFARRIJ AL-KURUB

FI 'AKHBAR BANI 'AYYUB

(THE HISTORY OF TRE AYYUBIDS)

BY

GAMAL EL DIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WAṢIL

(Ob. 697 A.H. = 1298 A.D.)

Volume II.

THE AGE OF SALADIN

(569—589 A.H. = 1174—1193 A.D.)

Edited for the Firste Time
From The Manuscripts of Cambridge; Paris, Istanbul
and Annotated

BY

GAMAL EL DIN EL-SHAYYAL

M. A., D. LITT.

Professor of Islamic History, Alexandria University